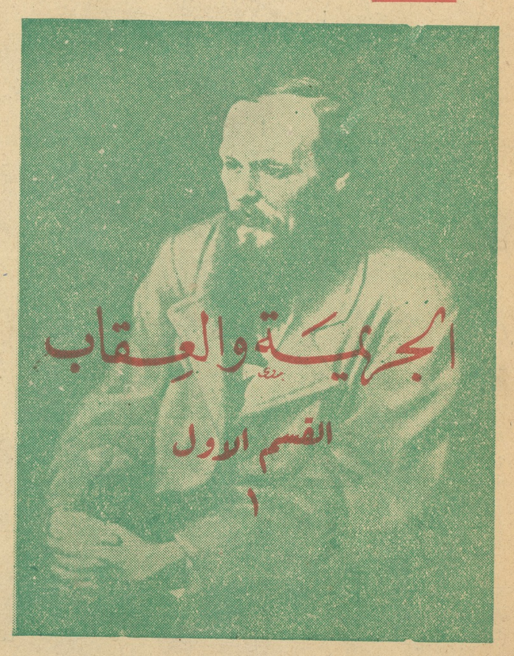
دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

دوستويفسكي



الجريمة والعقاب

القسم الاول

١

سلسلة عيون الأدب العالمي

١٤

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

دوستويفسكي

الجريمة والعقاب

القسم الأول

نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية نخبة من اسرة

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

استناداً الى التراجم الفرنسية والانكليزية ثم روجع النص الاخير على الاصل الروسي

سلسلة عيون الأدب العالمي

١٤

« الجريمة والعقاب » أشهر مؤلفات الكاتب الروائي الكبير « فيودور دوستويفسكي » وقد لمع اسمها كقطعة رائعة من الانتاج العالمي الراقي ونالت من الشهرة ما جعلها تنقل إلى اللغات العالمية الحية ، وكان لدار اليقظة العربية بسورية شرف نقلها إلى اللغة العربية فسدت بذلك فراغاً كبيراً في المكتبة العربية .

بين يدي الكتاب

ان من أشق ما عاناه الفكر ، منذ أن جنح الى نقل آثار الأمم الآخرى الى لغة أمته ، أن يستعير القلم الأصيل من صاحبه ثم يلبس عمامته وجبته — ان كان له عمامة وجبة — ثم يقبع في مكانه يتلو الأوردة والرقي ويتمتم التعاويذ حتى ينضح جبينه عرقا وتتقلص شفتاه شيئا فشيئا اذا هو واقع في غيبوبة عميقة مايلبث بعدها أن يستفيق عنها انساناً آخر لعله صاحب الأثر الاصيل .

ومن هنا كان على الناقل أن يتقمص شخصية المنقول عنه وينصهر في بوتقتها انصهاراً كلياً ويفكر بغير عقله وينقل بغير قلمه ليأتي الأثر صورة حية أو «نسخة ثانية» عن النص الاصيل ولكن بلغة أخرى .

ولو اقتصر الامر على هذا لكان هيناً على صعوبته يسيراً على مشقته، اذ أن على الناقل أن يعيش فكر المنقول عنه ، حتى اذا اطمأن الى أنه استطاع المضي في الطريق واستطاع بالتالي أن يعيش في أجواء ذاك الأثر كان عليه أن يتعرى من الثياب التي استعارها وينطلق من الاجواء التي أوجد نفسه فيها ليتمثل شيئاً فشيئاً ما عاشه ويعود سيرته الأولى رويداً رويداً ويعمل بكل أمانة وإخلاص على كتابة أفكار غيره بأسلوبه هو ، ويقرّب ما وسعه الأمر ، بين واقعين أو بيئتين

هما واقع أصيل وواقع دخيل ... فاذا فرغ من ذلك سلخ على اللفظ حياة وأدرج فيه روحاً ونفخ فيه من وحيه لتأتي التعبيرات حية متحركة لا جمود فيها ولا انقطاع ولا تبعثر فيها ولا تفكك .

ولا مندوحة من الاعتراف بأن الذين يقوون على أن يعيشوا حياة المؤلفين أنفسهم قلة ، وهم — مع كونهم قلة موجودون فعلا ألا أن الجمع بين أن يعيش الناقل حياة المؤلف ثم العمد الى الابداع في التعبير في اللغة المنقول اليها ونفخ الروح في ثني كل سطر وخلال كل فكرة أمر لم يقو عليه إلا قلة القلة وبضعة أنفار حباهم الله قدرة على أن يكونوا بقلبين اثنين واحد شرقي والآخر غربي .

على أن نقل الأثر من لغة الى لغة ومن جو الى جو يخضع لكثير من الشرائط المعقدة المقيدة كما يخضع لأساليب مختلفة كل الاختلاف بحسب الغاية والوسيلة .

ولا يمكن لنا بوجه من الوجوه الأدعاء بان أثراً من الآثار المنقولة قد سلم من بعض الزيغ ومن بعض الزيف ، ذلك أن الناقد الحصيف هو من ينظر الى الأثر كأثر أدنى ما يكون اقتراباً من الاصل وأصدق ما يكون تعبيراً عن الجوهر دون أن يعنى بتتبع السقطات التافهة وتحرى الهفوات التي تند عن كل قلم وتصدر عن كل من تصدى للكتابة ، وقصارانا — ونحن على ما نحن عليه من ضعف في الأداة والوسيلة — أن نقنع بالأمانة والصدق في النقل ، وأن يقوى الناقل على نقلنا من جونا الخاص الى جو المؤلف الذي أراده من وضع أثره .

وما نظرت في أثر من الآثار المنقولة — منذ مطلع النهضة إلى الآن — إلا وجدت القدح فيه أكثر من المدح ، وكل من تحرى العيوب وجدها ،فعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا — كما يقول الشاعر — .

وإلى هنا أستطيع أن أقول بكل تجرد ووضوح لقد استطاعت هـذه الفئة المباركة من الناقلين والمترجمين السوريين أن تحافظ على الأمانة في النقل وأن تنقل الينا الأثر كما وعته وعاشته . وليس لنا أن نعتب على الناقل كونه عاش على هـذه الشاكلة ولم يعش على شاكلة سواها إذ أن العصمة لله وحده ولكن علينا أن نحاول ، جاهدين مخلصين ، أن نعيش حياة الأثر بصورة أكثر صدقاً اذا استطعنا الى ذلك سبيلا . فما زال المترجمون مغرزمين — كما يقولون في الشعر — ومازال أمامنا من الفسحة ما يسمح لنا أن نصل يوما الى مرتبة تقول فيهـا بحق وصدق لقد ملكنا أعنة النقل واستطعنا أن نعيش فكر المؤلف وأن نريق في كل لفظة حياة وفي كل خاطرة روحاً .

وإنه لمن باب الاعتزاز الاعتراف بأن دار اليقظة العربيـة كانت وما تزال السباقة في مضمار تشجيع النقل ، فهي بذلك رائدة من رواد الترجمة ، فلم تدخر وسعاً ولا مالاً لتكوّن نواة مكتبة ناضجة فكرها غربي ولفظها عربي ،وهي بذلك ولا فخر تقدم للقارئ العربي خير زاد يلقح به فكره ويغني به جوه .

وقد استعانت الدار لهذا الهدف الأسمى بلفيف من الشباب المثقف النـاضج جعلت منه أسرة دار اليقظة العربية ، تمتنح ثقافته وتستغلها أشرف استغلال فتوعز اليه أن ينقل أمهات الكتب العالمية المعروفة الى اللغة العربية ليتمكن القـارئ العربي من السير في ركاب الحضارة الفكرية التي ازدهرت في العالم .

وإنه لمن المخزي حقاً أن يظل القارئ العربي متخلفاً من جهة ومحدوداً من جهة ثانية ، وقد أدركت الدار هذا العثار الذي يصاب به القارئ العربي فاقامت من نفسها وسيطاً بين الشرق والغرب ، تنقل الآثـار الاجنبية الراقية الى اللغة العربية ، وليس ببعيد ذاك الوقت الذي ستنتقل فيه مرحلة النهضة من منفعلة الى فاعلة ، إذ تعمد الدار الى تكليف خيرة الشباب المثقف الناضج من أسرة الدار

الى نقل آثار اللغة العربية إلى اللغة الاجنبية فتحقق بذلك هدفا من أسمى الاهداف ويكون لها شرف فضل تعريف القارىء العالمي على الكاتب السوري خاصة والعربي عامة .

فاذا كانت مقتضيات النهضة توجب علينا في هذه الفترة أن نعمد الى ترجمة الآثار الأجنبية إلى العربية فتلك مرحلة لا يمكن إلا أن يمر بها كل من يحاول الوصول إلى الشاطىء الآخر من العالم .

عام ١٩٥٣



ن . د . ت

المقدمة

فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي

كانت أسرة دوستويفسكي لتوانية الأصل كاثوليكية المذهب وإن يكن جدها الأول كاهناً أورثوذكسياً يونانياً . درجت الاسرة في احضان الفقر ، فهم أبداً جياع إلى كلة الله كاهم جياع إلى مايقيم الأود ويسد الرمق ، واستبدت بهم الحال حتى هاجروا عن لتوانيا الى آوكرانيا ليستبدلوا حياة غير حياتهم ومذهباً غير مذهبهم ، فعادوا الى الأورثوذكسية يعتنقونها كما عادوا إلى الارض ينقبون فيها عن اللقمة الخالدة . وكانوا أشبه بقبيلة من الرحالة المثقفين الذين تؤهلهم امكانياتهم لأن يرتادوا المكان الذي تطيب اليه نفوسهم ، لافرق في ذلك بين النعيم والجحيم ، شريطة ألا يكون ذلك المرتاد ظلمات بعضها

* * *

في الثلاثين من تشرين الأول سنة ١٨٢١ م ، وفي هذا الوسط الذي ذكرته لك ولد فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي يوم كان أبوه رئيساً للاطباء في مستشفى من مستشفيات موسكو للفقراء ، وكان البيت يقع إلى جانب المستشفى

الذي يغص بالمرض في كل فصل من فصول السنة ، والذي ألحقت به حديقة غناء كانت ملعباً للأطفال ومرتاداً للشيوخ ومنتجعاً لكل فان يمشي إلى قبره بخطى واسعة .. تلك هي حديقة المرض التي تشكل إحدى ذكريات فيودور المبكرة الاولى . وأن وجدانه ليعي تناقض الحياة الغريب في هذا المكان الذي استوعب البؤس والفقر والمرض جميعاً . كما كان من دواعي استغرابه أن يتألم الانسان في جو مفعم برائحة الطبيعة ومتشرع بجمالها وحيويتها ، وكلما أغرق في التفكير كلما ازداد إيماناً بتناقض الحياة في كل مظهر من مظاهرها مما هز مشاعره هزاً ولمس أعماقه منذ الوهلة الأولى فرجها رجًّا وخلّف هناك دوياً مستديماً ستبقى أصداؤه تتجاوب في حنايا صدره طوال حياته الطويلة الشاقة .

* * *

يفصل بين الدار وحديقة المرضى جدار ضعيف ، وما كاد فيودور ينفض عن قدميه غبار الحبو على أربع ويستقيم ماشياً على قدميه في ضجيج وصخب وسقطات تلو سقطات حتى اجتاز ذلك الجدار الواهي المنخفض ليصل الى الحديقة الغناء .. غير أن أباه اكتشف هذا التطفل منه فعنفه بشدة وزجره بقسوة ومنع عليه دخول الحديقة أبداً مهدداً بقصاصه إن فعل ذلك . ولكن الصبي الغريب لم يحفل بما صدر عن أبيه من تهديد ووعيد وإنما جعل سبيله الى الحديقة ثلاث مرات يومياً يريد من ذلك أن يكون إلى جانب المرض رغبة منه في أن يقاسي مثلما يقاسون ويتعذب شبيه مايتعذبون ، لأنه كان على مثل اليقين أن أباه سيجلده اذا ماعرف باجتيازه الجدار الى الحديقة ، وهو في هذا الجلد سيتعذب ، ولا بدّ لمن يسير في الحديقة أن يتعذب وبذلك يحقق ماجاش في نفسه الطفلة من أنه سيكون معذباً بين المعذبين في أحضان الطبيعة الجميلة ...

تلك كانت أولى الذكريات العميقة التي استوطنت أعماقه ووضعت أولى

لبنات انسانيته التي لاتجاريها السانية .

وما كاد يلقي قدمه إلى السادسة عشرة من عمره حتى انتسب إلى مدرسة المهندسين في « بطرسبورج » نافضاً عن كاهليه حياة سجن رهيبة قضاها في دار أبيه ، إلا أن المدرسة لم تكن أرحم من تلك الدار التي ضمته ، ذلك أن الأساتذة والطلاب جميعاً طفقوا يعتبرونه أبلهاً فانقطع عنهم جميعاً وشعر بلون من ألوان الوحدة التي غرزت بنفسه الشعور بأنه لا رفيق له في الحياة إلا أحلامه « إني لأحلم بما هو عظيم وجميل ، وإني لأعيش في عالم من الأحلام وأكتب مأساة وجدانية عميقة » فكان عليه بالتالي أن يعيش في « المحسوس » ، ومن أين له أن يعرف شيئاً عن المأساة الوجدانية العميقة بعد أن أمر الوالد ذريته بألا تأتي على ذكر النساء أصلاً إلا إذا ورد ذلك في رثاء أو بكاء .

غير أن شياطين مدرسة المهندسين كانوا يعرفون في السادسة عشرة كل شيء عن النساء فيتخذون من ذلك الشويعر الصغير الأبيض البشرة أضحوكة لهم وأهزوءة يهزأون فيها حيناً بعد حين فلا يكون من ذلك بالنسبة اليه إلا مجال جديد للانطواء على الذات والتنفيس عما به بالمطالعة ، فتراه يلتهم كتب الكتّاب الروس والاجانب على حد سواء ، فهو يطالع لـ « جوجول » و « بلزاك » و « هوفمان » و « شيلر » وأضرابهم دون أن يفضل كاتباً على كاتب ...

وما يكاد ينقضي وقت قصير حتى يتعرّف الى نفر ممن حباهم الله صفات تنسجم مع صفاته ، فهم فتية حالمون ، يقرأون مادبجته يراع « بوشكين » ويقرضون بين الفينة والفينة أبياتاً من الشعر تعبر عن أحلامهم المحدودة وأهوائهم الممدودة ، لاهمّ لهم إلا الجري في أعقاب النساء يسرقون من هذه نظرة ويلصون منها بسمة ترضي أفئدتهم الساذجة البريئة .

وتعلق الفتى بأذيال هذا اللفيف من الفتية وأغرم بهم إغراماً شديداً فلبس

لبوسهم وجرى في حلبة مجونهم إذا هو بعد حين مطبوع بطابعهم ومرسوم بوسمهم ، غير أن أباه ماينفك بين الحين والحين يكتب اليه زاجراً ومؤنباً وناصحاً « أقم جداراً حول نفسك ونزّهها عن أن تندسّ فيما عليه زملاؤك .. »

ويبعث الفتى بالرسائل تلو الرسائل لأبيه طالباً منه عوناً مالياً علّه يشتري ثوباً جديداً أو يرّفه عن نفسه ترفيهاً جميلاً أو « يخطىء » في مجالات الحياة قليلاً ...

غير أن الأب لم يعد في ذاك المستشفى الذي عهدناه فيه وإنما يكون قد تركه ليبتاع أرضاً صغيرة في مقاطعة «تولا» تمتص منه جملة ثروته وجملة تفكيره أيضاً ، لذا نراه لايقوي على تزويد فتاه بما يبغيه من مال لمتعة أو ثوب ، ويغدق عليه بديل ذلك ألواناً من التعنيف والتوبيخ برسائل صادرة عن نفس قلقة وفكر حائر ويد مرتجفة .. وكان ذلك صنيع « الفودكا » في الأب دوستويفسكي ...

الا ّ أن الرسالة الأخيرة التي وردته لم تكن مضطربة الخط ولا قلقة الخاطر والفكرة وانما كان فيها وضوح واختصار ، والتي يطالعها ليقرأ فيها أن أباه انطلق في رحلة الى ملكية مجاورة ولم يعد منها ... اذ وجدوه ميتا ، مدهوسا بعجلات العربة التي سافر فيها والتي اختفت مع سائقها اختفاء مريبا .. وأكبر الظن — فيما يتداوله الناس همسا — أن فلاّحي دوستويفسكي الأرقاء قد أراقوا دمه ثأراً ، لأن أحداً منهم لم يعد يقوى على تحمّل ما يلقاه من عنته وتعسّفه وقسوته، فأجمعوا أمرهم مع عدد من أهل القرية ونفّذوا فيه قضاء الله وأوسعوه قتلاً انتقاماً وتشفّيا ...

ومنذ ذاك الحين لم يرد اسم أبيه على شفتيه ، وبقي مصرعه جرحا عميقا في أعماقه يغرقه بين الحين والحين في ظلمات ليل بهيم مرهق ...

* * *

كان الليل يعجّ بالرؤى التى تكيد له وتبعث الهلع في قلبه فلا يقوى الا على تسجيل تلك الرؤى والخلجات على القرطاس حيث تستحيل حديثا عن مغامرات نفسية عميقة مترعة بالأسى والعذاب ، أو بالأصح الأدق تستحيل حديثاً عن مآس تجري أحداثها ليس « خارج » أبطالها وشخوصها وانما في « داخلهم » في صميمهم لتتجمّع أخيراً على شكل مجرّد في صورة شيطان لايحيد بأنظاره عنه انه الشعب الروسي ، هذا الشعب الكبير ... وسيحاول الفتى أن يفصح عن خلجات هـــذا الشعب وأهوائه وسيعمل جاهداً لعلائه ورفعته وسيصبح له عبداً ورقاً .. ولسوف يعبّر عن خفايا هذا الجبل الوطيد من قمته الى سفحه .

ولقد سبق له أن شاهد القمة في بطرسبورج يوم اتصل برجال الفكر فيها ، أما السفح ، ومن يعيش على السفح ، فانه لما يتعرّف عليه بعد ، فليتوجه اليه ولينطلق منقبا عن ملايين المخلوقات التي تعمره ، معذبة ، متفسخة ، موزعة في حانات قذرة لاهمّ لها الا احتساء « الفودكا » — شرابها الأصيل — وليستمع هناك وهنا الى أحاديث « أبناء أمنا الأرض » وليشرب معهم ما شربوا وليطرب ما طربوا وليلعب القمار كما لعبوا وليحن رأسه فوق أوراق لعبه حتى لايلحّص أحـــد بريق عينيه الوقادتين وهما تتلالآن في وجه كئيب تعس بينما يرهف أذنيه ليحيط بكل شيء علمـــا ويلتقط كلّ لفظة تصاعدت كلمـــا ...

أما وقد ارتضى أن ينخرط في المجتمع وفي جماهير السفح ، وارتضى بالتـــالى أن يلعب الورق فقد توجّب علية أن يتوقع حظا سيئاً ، وقد أصابه هـــذا الحظ السيء فخسر ماله ولكنه أفاد حكمة وعقلا ، وقد كان سعيداً غاية السعادة فيما وصل اليه فـــلا تثريب عليه أن يفقد المـــال ليصيب الحكمة ولا أن ينفق القرش ليستفيد المعرفـة ...

وتدرج الأيام ويدرج الطفل في ضميرها مغرزما وكوينبا .. حتي يقع مخطوط

له بين يدي الناقد الادبي الكبير « بيلنسكي » الذي عقّب على ذلك بكتاب أرسله اليه يقول فيه أيها الفتى . أو مدرك أنت ما كتبت في هذا المخطوط ؟ كلا ... انك أبعد ما تكون عن معرفة ذلك بل انك لا تستطيع أن تفهم بعد ...

ولم يكن ذلك المخطوط الذي سوّد صفحات دوستويفسكي الا قصة أولئك البشر الذين ولدوا قبل أن يتم خلقهم ويصبح سويا اذا هم أكوام بائسة تعسة من الطين جبلتها أصابع ملائكة كلهم أخرق أحمق ، فجاءت المخلوقات هزيلة في نفوسها مشلولة في أعضائها ، عرجاء شوهاء في حركاتها وسكناتها ، يهيمن عليها لون من الوان الجنون ويؤطرها ضرب من الخرق ... لها العيون جميلة « فاتنة » ولها الأطراف ملتوية عاجزة ... تلك هي صور أبطال مخطوطة « المساكين » وقد نظر دوستويفسكي الى حياة هؤلاء المساكين نظراً طويلاً ممعنا ولكنه لم يستطع أن يجد منطقا أو يعثر على تناسق واتفاق .

وتلقى رسالة الناقد الكبير بكثير من الصبر والجلد وتلفت من جديد ينقّب عن المفكرين ، حتى اذا وجدهم استدار اليهم يسألهم ، فهم القادرين على مدّ يد المساعدة اليه ليجد نظاماً يسلك الخليقة في سلكه وليعثر على معنى يسلك الحياة في اطاره .

. هؤلاء المفكرون هم القادة الذين سيبدلون وجه المجتمع ويجعلون عالي القيصرية سافلها ويبدعون جمهورية « الانسان الحر » وعلى هذا فالمنقذ ، أي منقذ الانسان ، لن يكون الآله وانما سيكون الانسان نفسه والعقل وحده ، أي عقل الانسان ، هو الذي سيعمل جاهداً ليضرم قلب الانسان ويورث فيه لهيب الاشراق ليحل محلّ ظلمات العذاب والألم المتراكم بعضها فوق بعض ...

ومن خلال هذه النظرة ، وخلال هذه الفكرة ، كتب دوستويفسكي قصته الثانية « الثاني » التي ما كادت ترى النور حتى طمستها الظلمة ففشلت فشلا ذريعا بعد أن نفض يده منها ذاك الناقد الأدبي الكبير « بيلنسكي » وكانت حماسته لها دون حماسته للقصة الأولى .

والناظر في موضوع قصة « الثاني » يجدها على نقيض قصة الأولى« المساكين» فهي لا تميل الى « المذبين والمهانين » وانما تتمركز على وصف مشاعر غير واعية ولكنها ثائرة متمردة .

ويخرج دوستويفسكي من هذه الهزيمة ليشرع بكتابة قصته الجديدة «نيتوتشكا » بعد أن انضم الى صفوف أولئك المثقفين المفكرين الذين يريدون أن يقلبوا الأوضاع الأجتماعية رأساً على عقب ويحلّوا الانسان محلّه اللائق تحت الشمس . وجمع صوته الى صوتهم ضد ظلم الظالين من السلطات والحكام وانطلق يجتمع الى الاشتراكيين تحت راية الاشتراكي الفرنسي « فوريه » ويقضى عليه أن يعتقل في أحد الاجتماعات ويساق الى قلعة « بطرس وبولس »بعد محاكمة وهمية ، ويقبع في معتقله ينتظر حكم القضاء فيه .

وفي ذاك المعتقل كتب قصة قصيرة بعنوان « بطل صغير » يصف فيها يقظة عاطفة الحب عند صبي صغير .

لقد حبسوا جسده وما قدروا على حبس فكره إلا إذا قدروا على حبس « اللانهاية » بين جدران الزنزانة الأربعة ...

وجاء حكم القضاء عاجلا خاطفاً ، ولم يكن سوى نقله في مثل لمح البصر من معتقله في « بطرس وبولس » الى ساحة الاعدام ، حيث تتوافد عربات المجرمين السياسيين من كل حدب وصوب .

وكان الجو بارداً رطباً والميدان ، ميدان الاعدام ، يعج بكتائب الجنود الموكول اليهم أمر تنفيذ حكم الاعدام ، ويرافق هذه الكتائب كاهن صامت يحمل بين يديه صليباً صغيراً ، وكانت مهمته هي سوق المحكومين بثيابهم البيضاء الناصعة الى منصة الاعدام المجللة بالسواد الفاحم . .

وتلامح وجه فيودور دوستويفسكي وهو ينتظر الموت في القافلة الثانية تبرق

عيناه ويتوثب فكره مشرقا نيراً ، فما هي إلا دقائق معدودات ثم يساق كما يساق رفاقه ليقضوا نحبهم على تلك الشاكلة البشعة .

وما تكاد تلك اللحظة الحاسمة تدنو حتى يتراءى على البعد فارس شاكي السلاح يعدو بأقصى سرعته متجهاً إلى منصة الاعدام وحاملا بيـده رسالة ... إنهـا من القيصر ، ذاك « الأب » الصغير الذي أخذته الشفقة على أولئك المحكومين والرأفة بهم فبدل حكم الموت بالنفي الى سيبريا . .

وما أن تلي كتاب القيصر حتى جنّ أحــــد المحكومين وطفق آخر يبكي بكاء مراً ذلك أن أحداً لم يكن ليرتضي هذه الرحمة وتلك الرأفة ، وإنه لمن الخير لكل محكوم أن تزهق روحه وتخمد أنفاسه هنا على منصة الاعدام من أن يعيش في سيبريا وله في كل يوم ميتة وفي كل ساعة احتضار .

وفي عشية الميلاد شرع دوستويفسكي يسير على الدرب المؤدية الى سيبريا ... وتتالت عليه المحطات بطيئة ثقيلة ، وما كاد يصل المحطـة الأولى حتى اقتربت منـه امرأة ودفعت اليه كتاباً ، إنه الكتـــاب المقدس ، الدليل العملي الوحيد لـكل مسافر إلى تلك الأصقاع النائية ... وأخذ فيودور يقلب صفحات الانجيل فوجد في ثني أوراقه ورقة من فئة الخمسة والعشرين روبلا ... وأيقن بالتالي أنه قدأصبح لديه ما يكفيه لشراء التبغ والثياب والصابون والخبز الأبيض أيضاً ، إلا أن ذلك لن يكفيه لشراء بعض راحة فكره واطمئنان قلبه إذ كانت تعتـــاده خاطرات رهيبة تأخذ بخناقه وتسد عليه منافذ الأمل ... كيف سيقوى على الحياة ويداه وقدماه مشدودة جميعاً إلى السلاسل الثقيلة ؟

كيف يقوى على الحياة ويداه اللتان لم تحملا سوى الريشة إلى الآن مشغولتان بالأشغال الشاقة ؟

ومن هم رفاقه اليوم ؟ إنهم أبرز لصوص روسيا ومجرميها وقتلتها وسفاحيها فهم قساة برابرة ، لن تعرف التوبة سبيلا إلى قلوبهم الغليظة .

إذن فالجريمة ليست في سوقه إلى أصقاع سيبريا النائية ولكنها في التآمر على فكرة الحي المتوقد يرقد بين هؤلاء اللصوص والقتلة وسفاكي الدماء ...

ولكن فكره يأبى أن يذبح ، فهو في عمل دائب مجد ، تشغله مشكلة المصير الانساني مرة أخرى ، فتراه يكمل في سيبريا وفي معسكر الاعتقال مابدأه في خانات بطرسبورج منذ سنوات قريبة .

« إن التأمل الأبدي المديد والهرب إلى نفسي من الواقع المرير قد أعطيا ثمرتها المرجوة ، وإن لي اليوم من الحاجات والآمال ما لم أحلم به قط في الأيام الخالية ... »

وما انفك فيودور يعمل فكره دون هوادة أو لين حتى أشرق عليه نور جديد وانطلقت أمام باصرتيه اشعاعات جديدة تومئ الى أن « افتداء مالا يفتدى لن يتم بوساطة الانسان وحده بل بوساطة قوة خارجة عن الانسان » ، وانه ليلتفت متطلعاً نهما الى الكتاب المقدس ليرى من خلال الخمسة والعشرين روبلا التي وجدها في ثني أوراقه شيئاً آخر غير هذه الروبلات المحدودة التي قدر أنها تدفع عنه غائلة الجوع وتمكنه من تناول الخبز الابيض ... لقد أدرك الآن أن في رسالته الى العالم نوعاً جديداً من الخبز ، يراه أكثر ضرورة من ذاك الذي حسب أنه سيجوع اليه ... لقد اكتشف خبز النفس الأبيض ... وعلى هذا فلا مندوحة عن أن ينقذ الانسان ، وسيكون انقاذه على يدي الله الذي سيخلص هذا المخلوق الخاطئ والقديس معاً .

على أنه اذا كان الله هو الذي سينقذ الانسان الخاطئ و « يخلصه » فأي خطر يكمن وراء الخطيئة اذن ؟

والناظر في الخطيئة يجدها تجربة موضوعية يستدينها الانسان على حساب رحمة الله ، وهي بالتالي اختبار ضمني لصلاحه وفضيلته واستكناه لقلبه الطيب الكبير .

ترى ، هل يعلم أولئك المثقفون القابعون في « بطرسبورج » منقبين عن عالم أفضل خلقاً وأكمل خلقاً أن صلب يسوع كان يفقد كل معنى من معانيه السامية لو لم يسمر قاتل الى جانبه على الصليب ؟.. « ذلك أن الله قد خلق الخاطئ وأن الخاطئ قد خلق الله »؟..

إن عالم الكمال المنطقي الذي ينشده مثقفو بطرسبورح سوف يقضي على غاية الله المبدعة الخلاقة بل « سوف يقضي على الله نفسه » كما يرى دوستويفسكي وان من واجبنا الحتمي أن نفتش تحت سطح الأشياء لنجد منطق الاشياء الحقيقي .

وينتفض دوستويفسكي هذه الانتفاضات التي تخرجه الى حد بعيد من ذاك الجو المنكود المحدود الذي أراد له القيصر أن ينفق فيه شبابه وينحر فيه أيامه . .

على أن كل شدة الى رخاء وكل عسر الى يسر فما تكاد تنصرم أربع سنوات على انطلاقه الى سيبريا ليعمل في الاشغال الشاقة هناك حتى يأتيه الفرج على شاكلة إعفائه من الاشغال الشاقة شريطة أن يكون جنديا في سيبريا وحدها ويظل يتنقل في المرتبات العسكرية حتى يصل الى رتبة ضابط وعندها وحدها يحق له أن يسترد حريته السليب كاملة غير منقوصة ...

ومن هنا أطل عليه أمل الخلاص مما كان يعانيه من بؤس وعذاب ليس لوصفها حد ... فمها امتد أجل الجندية فهو صائر في الخاتمة الى ضابط ... أما لو أنه استمر معتقلا ، منفياً ، يعمل في سيبريا ، محكوما بالاشغال الشاقة ، فهذا

وحده معناه أنه لا خلاص مما هو فيه إلا بما لا بد منه من انتحار ارادي أو موت غير ارادي .

وتنصرم خمس سنوات وفيودور في كتيبة عسكرية متمركزة في قرية « سيميبالايتسنك » الصغيرة ، وهناك رعش فؤاده الرعشة الاولى ليخفق بحب ماريا ديمتر يفنا زوجة رئيس كتيبته ...

كانت « شقراء تسمو الى مرتبة الجمال ، ربعة في الطول ، أمضها الهزال فهي نضر ، ملتهبة العواطف حتى لتحسبها عاطفة متأججة » في حين كان زوجها يعاني سكرات الموت ، فشتان ما هما من شباب وعاطفة ومن مخلوق يتلقفه شدق الموت فيلوكه دون أن يتمكن من ابتلاعه أو بصقه ...

وكانت تعتاد فيودور أفكار يرى خلالها أن عليه ألا يتزوج أبداً ، ذلك أن مرض الصرع الخطير كان قد تظاهر عنده أثناء سجنه ، وكان يعاوده في فواصل منتظمة . وقد حدثه الاطباء أن المصابين بمثل هذا المرض الخطير يقضون غالباً بصورة غير طبيعية ، وها هو ذا الآن ، وما يزال في الثلاثين ربيعا من عمره ، يسقط في شباك الحب فتلتهب عاطفته التهاباً مخيفاً ويجتاحه الحب اجتياحاً جارفاً .

ويقضي رئيس الكتيبة ، زوج حبيبته ماريا ديمتريفنا ، فيتزوجها فيودور ضارباً بنصيحة أطبائه عرض الحائط بعد أن استقر في يقينه أنه برئ من مرضه وعاد سليما معافى .

وما كاد يضمها الى ذراعيه حتى تناثرت الشائعات هنا وهناك تومئ الى أن الأرملة أنفقت عشية عرسها مع عاشق آخر دون زوجها الجديد في السن ، وسنرى أن هذا العاشق الجديد سيلحق بحبيبته ماريا عندما ينال دوستويفسكي اجازته بالعودة الى روسيا نهائياً .

وأخيراً هبط الشتاء يحمل الرطوبة من جانب والحمرة القرمزية الي وجنتي ماريا من جانب آخر ... وتراءى في الأفق ما يشير الي أنها لن تلبث أن تلحق بزوجها الأول الراحل بين حين وحين ، فنفقت سوقها عند حبيبها الصغير والصرم من شبابها الغض وصباها الناضر ما كان يغرى بالخيانة ويدفع الى الاثم ...

* * *

في هذه الايام كان فيودور ينضج فكره في مشكلة الشر ، فهي شاغله الذي مافتئ يأخذ عليه كل جانب من جوانب حياته .

وأنشأ خلال هذه الفترة من عمره قصتين لا تتصلان باقامته الطويلة في سيبريا بسبب من قريب أو بعيد ، أما أولى القصتين فهي « القرية ستيبانشيكوفو » وأما القصة الثانية فهي « حلم العم » وقد أنتجها سنة ١٨٥٩ ومن ثم كتب « ذكريات بيت الموتى » سنة ١٨٦١ ، ويمكن اعتبارها وثيقة نفسانية رائعة أبدع فيها وصف حياته طوال الفترة التي قضاها في المنفى ، ويغلب عليها طابع الهدوء والرزانة وينتشر في ثنيها ذاك الرثاء العميق لأولئك الرفاق المحكومين ولا تبخل بكلمات لطيفة على فريق من السجانين إذ أنه تكشف لديه أن في هؤلاء المجرمين « نفسيات عميقة » تحمل القوة والجمال ، وقد ضلت نفوسهم بجريرة لم يكونوا بمسؤولين عنها أبداً ...

وقد حفلت هذه السنة (١٨٦١) بانتاج ضخم بالنسبة اليه ، إذ أصدر في بطرسبورج مجلة دورية « فريميا » ـ الزمان ـ وذلك بالاشتراك مع أخيه ميخائيل وقد ضمت تلك المجلة كتابه « المعذبون والمهانون » .

* * *

ما من مرة عاد بذكرياته القهقوي إلا تبدت أمام ناظريه حديقة المرضى التي طالما ألهبت عواطفها وأججتها ، وإنه ما يزال يذكر أن المريض يظل أبداً بجانب



فیدور دوستویفسکی

من الجدار والسليم بجانب آخر ، وقد علقت بذهنه نظرة إلى ذلك ترى أن المريض لا بد أن يموت ، أما السليم فيجب أن يعيش حقاً وصدقاً .

ونشطت أهواؤه من عقالها بعد أن طال أسارها حتى وجدت لهـــا مادة في شخص « أبوليناريا بانكراتييننا سوسلوف » وهي طالبة في ريعان الصبا وميعة الشباب ، كانت تسير في المظـاهرات الاشتراكية حاملة راية حمراء وفي فمهـــا الاناشيد الحماسية و « المارسيليز » بصورة خاصة ، وقد استمعت الطالبة النجيبـة الى فيودور يوما وهو يحاضر فكتبت اليه في الغداة تخبره أنها تحبه ...

« كانت شهوانية في غير عنف ، جلدة حتى في الحب ، وكانت تقـــوى على ارتكاب جريمة بكثير من عدم المبالاة .. فهي باردة كجليد الشتاء ، تنظر الى الجميع دون اكتراث كـأنها راهبة من راهبات القرون الوسطى ، على أنها رغم ذلك لم يكن في الوجود امرأة تعدلها في شهوانيتها ... »

أما عاشقها فيودور فقد كان يتنازعه انسانان فانسان منها يعمل جاهداً ليجد حلاً لمشكلة الجريمة والعقاب ، ذلك أن دوستويفسكي كان قد افتتح أيام وجوده في سيبريا أنه لا يمكن أن يقوم هناك تعادل بين الجريمة التي يرتكبها الانسان والشر الذي تقترفه يداه وبالتالي بين العقاب الذي يناله . وكان هذا التفكير مدعاة لأن يسوّد دوستويفسكي بضع صفحات يجمع فيها ملاحظاته ويرسم أشخاصه ويناضل لينحت في كلمات معدودات قصة « راسكولنيكوف » .

ألم يعاهد فيودور نفسه أن يسبر دائماً أغـــوار العالم الباطني وأن يعيش ويموت في صومعة فنه ؟

وإنسان من ذينك الانسانين يطير أبداً على أجنحة حلمـــه ، عابراً أوروبا باسرها مع « أبوليناريا » التي تصده وتعذبه وترهقه صدوداً وعذاباً وتحمله على أن يحبها ويبغضها في آن واحد وأن يجثو على ركبتيه أمامها والعبرات مـــلء عينيه

متوسلاً اليها ليلة بعد ليلة ألا تغلق باب مخدعها دونه ... إذ وجد في ذلك وسيلة جديده يذلّ بها نفسه وينمّي حبه وحسّه .

ولا تلبث أن تصل إلى مسامعه أخبار امرأته ، فهي وشيكة الانطفاء ، فتراه يسارع اليها يرعاها أبداً ويرقبها وهي تذوي جذوة جذوة وتنطفىء ومضة ومضة وتبصق في كل قطعة دم من رئتيها جزءاً من حياتها وقبساً من ضيائها حتى خبا المصباح وانطفأ نور السراج وعادت الظلمات فوق بعضها تتراكب .

يطلّ عليه خلال هذه الفترة أمران فأما الأول فهو أنه حين رجع الى بطرسبورج من رحلته في أوروبا ، نشر مجلته — الزمان — « ملاحظات الشتاء عن انطباعات الصيف » (١٨٦٣) ، وهي وثائق عما شاهده في الغرب من مراءاة لاعلاج لها تسم الغرب بميسمة سيء ، إذ كان يرى في الغرب جثة لاحياة فيها ! وقد تعلم عن الغرب أن يقامر بذاك الهوى العاتي التي وضعه في قصته « المقامر » وأما الأمر الثاني فهو هجره « أبولينا ريا » بعد أن اكتشف أن لها علاقة بعشيق آخر في باريز ، ومن ثم ساءت العلاقات بينهما باستمرار حتى انتهت الى درجة الحقد والكراهية .

وبينما كان فيودور دوستويفسكي يعيش هذا الواقع المضطرب أرسل له أحد أصدقائه « آنا غريغوريفنا سنيتكينا » ليملي عليها كتابه الاخير !

وتنظر « آننّا » في خشية وذهول في محيا هذا الرجل الذي يكتب « الجريمة والعقاب » إلى جانب سرير زوجته التي تلفظ أنفاسها الأخيرة .

ولما شارف الكتاب على نهايته ودبّ الاضطراب في كيان دوستويفسكي قالت له « أنّا » : « فيودور ! إنه من المتعذر أن يجتمع جبلان ، أمّا كائنان بشريان فيستطيعان ذلك... » ، وكان هذا الحديث الخاطف سبيلاً لزواجها منه..

ونجده خلال هذه الفترة تتوالى عليه الأحداث ، إذ كان في حالة يرثي لها

مادياً بعد أن خسر آخر فلس معه على مائدة القمار في أوروبا ، واضطر أن يستدين من « أبوليناريا » ثمن بطاقة العودة الى وطنه، ومن جانب آخر فقدمنعت السلطات مجلته من الصدور فاضطر إلى اصدار مجلة جديدة باسم « أبوخا » — العصر — » ولكن سرعان مامُني بالفشل الذريع بُعيد صدور الأعداد الاولى ، فتكدست عليه الديون من كل حدب وصوب وأخذت بخناقه فعاش حياة كلها قلق واضطراب ؛ ولعله لم يتزوج من « آنا » بدافع الحب ، إذ نجده على صلة مستمرة مع « أبوليناريا » فهو يراسلها حتى بعد زواجه الجديد ؛ ولكنّ « آنا » كانت روحاً طيباً حقاً ، إذ أحبته بملء قواها واستطاعت باخلاصها أن تكسبه أخيراً فكانت له زوجاً ورفيقاً وسكرتيرة وممرضة .

وعندما انتهى من كتابة قصته تساءل بينه وبين نفسه : «حدثني ، هل الله موجود ؟ .. » .. وما يكاد يطرح هذا السؤال الرهيب حتى يصل الى مسامعه صوت رهيب أيضاً ، يخترق الحجب والأستار ويأخذ بيده ليقوده (مثل دانتي) الى مستقرّ الملعونين : « إن الانسان إنما يخلص لأن الشيطان موجود فحسب ، ولأنه بالتالي لايكتسب الوعي الا" بوساطة هذا الشيطان !! » .

وبعد أن صدرت روايته الكبيرة « الجريمة والعقاب » أصبح من المتعارف عليه أن" فتياناً وفتيات يقصدونه في داره متحدثين عن مصير الانسان الاجتماعي فاذا ذكروا أمامه أحلامهم عن إسقاط القيصر وتأسيس جمهورية على غرار الجمهوريتين الفرنسية والامريكية ، رجعت به الذكرى الى أيام منفاه ، يوم كان يعيش بين القتلة والسفاكين ، وتراه بين الفينة والفينة يهز رأسه يمنة ويسرة في حزن عميق هاتفاً : « لا .. إن ما نحتاج اليه لنجدد العالم لم يكن العنف مطلقاً ، بل كان فعلاً عظيما ... انه ثورة عظيمة منبثقة من الداخل » ...

غير أن" هؤلاء الذين كان يخاطبهم دوستويفسكي بهذا الكلام كانوا يعترضون

عليه وبريق النار يكاد يتحدّر من محاجرهم قطعاً من نار : « ولكن . . . كيف تقوى على حمل هذه الفئات من البشر على أن تنبثق هذهالثورة العظيمة ، بل هذا العمل الجبار ، من الداخل كما تقول ؟ .. » ولكنه لايلبث أن يردّ عليهم قائلاً : « وما الحاجه الى دعوة « هذه الفئات من البشر » ؟ . . . أفلستم تدركون القوة الجبارة التي يمكن أن يبدعها إنسان صالح واحد ؟ ألا فليظهر رجلٌ صالح واحد، ولسوف يتبعه الناس أجمعين !!! »

وما أسرع ما جرت ريشته ليمثّل إنساناً نبيلاً وكاملاً حقاً ، ليمثل صورة عن الجمال المطلق ، فجاءت الصورة لابسةً « الأمير ميشكين » في روايته « العبيط » ؛ ولكنه سرعان ما كتب بالمقابل « الأبالسة» ليرفض بعنف عات تلك المدنية الغربية المزيفة والتقدم الغربي الزائف : ولم يكن ذاك الرفض نتيجة كراهيته المدنية — كما فعل تولستوي — وإنما لأنه على النقيض من ذلك يحبها اشدّ الحب ؛ ولأنه يحبها فهو يرفض بعنف أسسها المادية التي النفس وتقضي على الروح !

ولقد سبق له ان شاهد في الغرب تلك الرأسمالية الفقيدة الروح ، ورأى الى جانب ذلك تلك التفاهةالصارخة التي ترين عليه والتي تدعو للسأم والضجر ،ولذا فهو لن يستطيع أن يتصور مستقبل الانسانية إلاّ عن طريق تنظيم جديد شامل يبدل كلّ شيء ويقلبه رأساً على عقب !! ...

* * *

وتنقلب صفحة من صفحات الزمن ، إذا بنا نجد دستويفسكي وقد أصبح مظهرُه غريباً في سنوات حياته الأخيرة ، ونره من جانب آخر وهو يخترق الحجب الواحد تلو الآخر شاقاً دربه الى أغوار نفسه العميقة ؛ وإنه لينطلق في حديقته ، مطرق الرأس تحت وطأة أفكاره المرهقة ! فأي إنسان هو هذا المخلوق المركب من سقط المتاع كما هو مركب من اللهيب ، هذا الملك الشيطان العظيم ؟..

الحكمة في جنونه ، وجنون العظمة في حكمته ؟..وإنك لتراه يخلق أبطال قصصه مجانين وحكماء ، قديسين ومجرمين ،ومجرمين،وتراهبالتالي يستنطق كلاً منهم الجواب على لغز الحياة ! ...(١)

وإنه ليسير في الطرقات يرهف السمع الى ما يقوله أولئك الناس الذين يمر بهم ، فتراه يصغي لكل كلمة ، ويلتقط كل شاردة وواردة ، ويتصيّد كل ابتسامة أو لفتة ، منتظراً ان يكون في احدى هذه المظاهر ذاك الجواب الذي يترقبه !

ونراه من جانب آخر يرتفع بأفكاره الى مستوى يسمو على وجدان النـاس قاطبة،ويخفق بأجنحته الجبارة عبر الزمان والمكان ليرى شمساً جديدة وارضاً جديدة أيضاً .

« إن البحر الزمرّدي الضاحك وهو يلعن الشطران يُقبلها في محبة بيّنة تكاد تنطق عن تلك العاطفة الواعية ؛ وإن الاشجار الطويلة الرائعة المنتصبة بعظمـة وقوة تحييني أوراقها التي لا تحصى بصدىً عذب الجرس ناعم الايقاع ... »

« ... وكان الغسق ملتهباً بألوان براقة ، كما كانت تدّوم في الجو شراذم من الطير وتحط دون خوف على كتفي ويدي ، تداعبني في كثير من المرح باجنحتهـا الصغيرة المرتعشة ... لقد كانت الأرض كأنها لم يدنسها العدوان بعـــد ، يعيش عليها بشر لم يعرفوا الخطيئة حتى الآن ... لقـد أروني أشجـــارهم ، ولكنني لم أستطع فهم الحب العميق الذي يتطلعون به اليها ... وإني لمقتنع أن هؤلاء البشر كانوا على اتصال بكواكب السماء بطريقة ما ... ولم يك لهم دين ، ولكني على مثل اليقين من أن لهم المعرفـــة الاكيدة بأنهم إذا ما استنفدوا مرحهم الارضي فلسوف يبدأ بالنسبة إليهم آنذاك اتساع عظيم ليحتكوا بالكون جميعاً ... لقد كانوا مغرمين يبعضهم إغراماً شاملاً عميقاً ... ونظروا إلي بأعينهم الغـالية ،

---

(١) كتب في هذه الاثناء روايتيه الكبيرتين (المراهق - ١٨٧٥) و (الاخــوة كرامازوف ١٨٨٠) كما أصدر (مذكرات كاتب ١٨٨٠) .

المفعمة حباً ... ولكنني أفسدتهم جميعــــاً !.. أما كيف أمكن أن يتم ذاك الافساد فهذا ما لست أدريه ... وكل ما أعرفه هو أنني المسبب لذاك السقوط ! ولقــد تعلموا أن يكذبوا ، وأن يحبوا الكذب ، وعرفوا بالتـالي جمــــال الأكذوبة !!!...

وشرعوا يتكلمون لغات مختلفة ، وتوصلوا إلى معرفة « الحزن » ، وبالتــالي إلى محبته ، وأصبحوا وبهم حنين الى العــذاب ، وأضحوا يقولون : إن الحقيقة لا يمكن أن تنبثق إلا من الألم !!! وعنــد ما كانوا يغضبون كان يأخــذ بزمامهم الحديث عن الأخوة والانسانية ..! وكذلك عند ما ارتكبوا الجريمة أجدوا لها العدالة وكتبوا لأنفسهم هذه المدونات من القوانين ليحافظوا على تلك العــدالة ، ثم أقاموا المقصلة ليحفظوا تلك المدونات من القوانين ..

وسرعان ما ظهر رجال يتساءلون كيف يمكنهم أن يتحدوا بحيث لا يعترض أحد منهم سبيل الآخر ، في الوقت الذي يحب فيه نفسه كأكثر ما يحب أي شيء في الوجود ... ومن هنا اندلعت نيران حرب عظيمة في سبيل هذه الفكرة ... ولقد بكيت من أجلهم كثيراً ، وأشفقت عليهم إشفاقاً بعيداً ، ومــددت ذراعي اليهم ، متهماً نفسي ، وأخبرتهم أن ذلك جميعاً لم يكن من صنعي وحـــدي ... ورجوتهم أن يسمروني على الصليب ، وعلمتهم بالتــــالي كيف يصنعون سليباً ، ولكنهم لم يفعلوا ، وقابلوا ذلك جميعاً بالضحك مني ، وطفقوا يحسبونني مجنوناً ... حتى إذا أدركت ذلك أيقنت أنه لا بد من الاستيقاظ من هذه الغفوة ، فاستيقظت ، ورفعت يدي الى العلاء وناديت الحقيقة الأبدية !! . »

وأخيراً ، وبعد طول عناء ، ترامى إلى مسامعي الجواب ، عبر ظلمات الضلال الانساني الممتزج بالعذاب والجنون معاً : « لسوف يأتي ... أجل سيـــأتي اليه الانسان الذي سخر العالم منه وسماه مجنوناً عبيطاً ... ولسوف يتعلمون كيف

يتأثرون خطاه عند ما يلقنهم المعنى الحقيقي العميق للخير والشر ! وإن الذي يوقع الألم ، وبالتالي الذي يقع عبء الألم عليه ليسا مخلوقين مختلفين بل هما الجسد الواحد نفسه ، والروح الواحدة نفسها ..! وإن كل انسان مسؤول عن أفعال الجنس البشري بأسره مسؤول عن أفعال كل انسان !.. ولسوف يأتي هذا الذي يسمونه « مجنوناً عبيطاً » ويحل في هذه الارض حيث يلوح الانسان حقيقياً ، وهو ليس إلا مجرد شبح ، كما يتراءى اليه أيضاً على أنه نور وهو في واقع الأمر حقيقة خالدة ؛ وعند ما يحل هذا المخلوق السامي ويعلمنا الحقيقة الواحده وهي أن سائر البشر ، من أرفع قديس إلى أوضع قاتل ، إنما يتلمسون طريقهم بدروب مختلفة نحو ينبوع النور الوحيد ، نور الذاتية الشاملة ، نور المحبة العميقة العامة » .

* * *

وإنه يفكر ، ويغرق في التفكير عند ما يحس شيئاً غريباً على يديه ، فينظر ، ويحدق ، ويلحف في التحديق ليجد دم رئتيه قد انصب فيها ... « والحياة غير جديرة بان يلعنها اللاعنون ، كما أن الموت غير جدير بأن يرهب جانبه ... »

وتبكي امرأته وأبناؤه حول الجثمان الذي أحاطوه بالدموع ...

ويرسل حكماء روسيا قاطبةً رسائل التعزية الحارة ، بينما تتصاعد من جوف الليل أصوات الرهبان وطلابهم وهي ترتل الصلوات الاخيرة ...

« يا أبنائي ..! لا نحننَّ الى حياة أبدية مقبلة ، يا أبنائي ..! ما لم نتوصل للخلود على هذه الارض فاننا لن نبلغ اليه إذن أبداً ..! إن الخلود ههنا ، وفي هذا الوقت بالذات ... وإن هناك لحظات يجب أن نصل اليها ، إنها لحظات من الوجود الاكثر رفعة والأبعد سمواً ، وذلك عند ما يقف الزمن جامداً لا حراك به ، وتذوب كل حياة بشرية في حياتكم الخاصة ، فتلك هي لحظات الخلود ... »

« إن الجنس البشري بكامله لم يتحرك بعدُ نحو هذه اللحظات الكاملة ،

هذه اللحظات الخارجة عن نطاق الزمان » ، ذلك أن معنى الحيـــاة ليس في « استمرار » الانسان من جيل الى جيل بل استحالة الانسان من وحش الى ملك سام ، من خاطئ الى قديس !

إن الحياة هي صعود مستمر من المستويات المنخفضة الى المستويات العالية في الوعي ، حتى تصبح لحظه القديس الاسمى ، حقيقة الخاطئ الابدية ، « وعندها تنتقل الخليقة باسرها من الدياجير الى الانوار » ..

* * *

وحملوه ، بين الالحان التي لا تنتهي ، وبين الدموع التي ما تنفك سجاما ليواروه رمسه الخالد الثامن والعشرين من كانون الثاني سنة ١٨٨١ !

الجناح الثقافي

الكتاب الأول

الفصل الأول

في مساء يوم من أيام تموز ، والحرارة فيه على أشدهـــا ، خرج شاب من غرفته المؤثثة المتواضعة ، الكائنة في الطابق الخامس من البناء القائم في شارع « س » وهبط السلالم ثم اتجه يبطء نحو جسر « ك » بعد أن نجح في تجنب لقاء صاحبة البيت التي كانت تقيم في جناح خاص في الطابق الادنى وترقب من يهبط من الاعلى خلال باب المطبخ الذي يطل على السلم والذي كانت تتركه مفتوحاً أبداً . وكان يخشى لقاءها لانه كان مديناً لهـا بمبلغ كبير اقـاء سكناه في تلك الغرفة التي تشبه الزنزانة ولقاء الطعام الذي كانت تقدمه اليه ؛ فكان يهاب ذلك اللقاء ويشعر بارتباك واضطراب كلما اراد التسلل من الدار .

وليس مرد ذلك خوفه وانكساره ، انما كان بسبب الانقباض والتطير اللذين لازماه منذ حين . فقد عاش منطوياً على نفسه في عزلة تامة يوقره العوز وتسحقه الفاقة حتى بات يتهيب المقابلات على اختلاف ألوانها ...

وبلغ به الحال أن ارتضى بما أحاطه من شظف وجوع بعد أن كان يشعر انه بمرارة وألم . فأهمل الموارد التي كانت تكسبه خبزه اليومي وعزف عن البحث عن سواها ...

لم تكن صاحبة الدار لتخيفه حقاً مهما بلغت نواياهـا المبيتة ضده ؛ لكنه ما كان يطيق الوقوف معها على « بسطة » السلم والاصغاء الى ذلك السيل المتدفق من الكلمات التي تنطلق من فمها حول موضوعات لا تهمه في قليل أو كثير ، والتي يعقبها دائمـاً إلحـاح متكرر بلزوم دفـع ما عليه من ديون ، إلحاح توشيه

التهديدات والشكايات وتضطره من جانبه الى اختلاق الحجج والاعتذارات والكذب... فكان يفضل أن يتسلل على السلم كالقط الحذروأن يختفي دون ان يراه احد؛ حتى اذا ما بلغ الطريق، تخلى عن مخاوفه أو تخلت عنه لتعود اليه في محاولته التالية عندما تدعوه الحاجة الى الخروج من جديد !

ولم يكد يلغ الشارع في تلك الليلة حتى تبخر الخوف الذي يلازمه من دائنيه ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة وراح يحدث نفسه قائلا :

«كيف يثير هذا الامر التافه في نفسي كل هذا القلق وانا أتدبر موضوعاً خطيراً كالذي انا بصدده ؟ . . . صحيح ان كل شيء في متناول يد الانسان ، ولكنه يفلت كل شيء بنذالته وجبنه . انيمتلهف لمناقشة هذا الامر كمبدأ لأعرف ما يخيف الرجال اكثر من سواه ... لا شك أن ما يخيفهم لا يتعدى مجرد اجتيازهم خطوة في سبيل تنفيذ فكرتهم ، أو تلفظهم بكلمة دون تدبر ... بيد اني اثرثر كثيراً . . . ولأنني اكثر الكلام لااعمل شيئاً .. او على الاصح اني اثرثر لافتقاري الى العمل ... ولقد تعلمت ذلك خلال هذا الشهر بسبب بقائي اياماً كثيرة منطوياً في ذلك الجحر افكر في كل شيء وفي لاشيء . . .

ولكن لم اذهب الآن الى هناك ؟ هل استطيع تنفيذ ما اعتزمته ؟ هل يعقل ان اكون جاداً في ذلك ؟ لا أعتقد أنني جاد في عزمي . . . انني اخدع نفسي بوهم يداعب مخيلتي . ولكنه لا يتجاوز حد الدعابة . نعم الدعابة . »

كان الجو خانقاً والحرارة لا تحتمل ، والشارع مزدحماً بالناس وقد تناثرت على جنباته « السقالات » المنصوبة وقطع القرميد واحجار الكلس ، وعبق الجو بالغبار والعفن التي يتفرد بها الصيف والتي ألفها فقراء بيترسبورج الذين اقعدهم سوء حالهم عن ارتياد امكنة الاصطياف .

لم تكن أعصاب الشاب المتعبـــة لتحتمل مثل تلك المناظر المجبولة بالاحاسيس المؤلمة التي ترهق الاعصاب . أضف الى ذلك روائح المشارب المتوافرة في ذلك الجزء من المدينة والسكارى الذين يلاقيهم السائر أينما اتجه . . . كل ذلك كان يضفي على هذا الخليط من المشاهد لونا قاتماً تتقزز منه النفس .

بدا الامتعاض واضحاً على قسمات وجه الشاب الدقيقة ... ولكنه كان انطباعاً خاطفاً سرعان ما تلاشى . ولم يلبث أن استغرق في تفكير عميق واستولى عليه نوع من الذهول ، فراح يتقدم في طريقه دون ان يرى شيئاً مما حوله أو ان يحاول رؤية ما يحيط به .

لم يكن قبيح المنظر هزيل التكوين ، بل كان مليحاً يلفت النظر ، ذا شعر أشقر فاتح وعينين داكنتين وقامة فوق الوسط ، رشيقاً متين البنيان . كان يسترسل احيانا في مخاطبة نفسه على جري عادته التي ألفها في ايامــه الاخيرة واعترف بهــا ، ثم لا يلبث ان يضبط نفسه ليعترف بان افكاره مضطربة متوترة وأنه كان خائر القوى منذ أن امضى اليومين السابقين دون أن يتنــاول طعاماً يذكر .

كان يرتدي ثيابا بالية لم يكن ليخرج بمثلها الى الشارع لولا اعتياده عليها وإن سكان ذلك الحي لايلقون بالاً الى مثل هذه الامور .

اقترب من « سوق العلف » حيث تقوم متاجر من طراز خاص ، ويقطن عدد من الصناع والعمال تزدحم بهم شوارع هذه المنطقة من بيترسبورج وأزقتها ، وبدت لعينيه صورة نشيطة حافلة بالحركة ، لا تدعو مجالاً للخوف من التعرض لنقد المارة اذا ما وقعت ابصارهم على مظهره الشاذ الزري . لكن نفسه كانت طافحة بشعور من الاحتقار الاهوج حتى انه رغم سرعة التأثر المعروفة فيه والتي كانت تبلغ لديه احياناً مبلغ السذاجة ، كان يعرف ان خجله من عرض اطماره في

الشارع لن يكون اكثر منه في عرضها في أي مكان آخر . بيد انه كان يخشى ان يقابل بعض معارفه واصدقائه القدماء الذين كان عازفا عن لقيام والاحتكاك بهم .

وحدث ان مر سكير كان محمولا لغير ما سبب على عربة كبيرة فارغة . فلما حاذاه هتف به قائلا : « اسمع يا هذا ... يا صانع « البرانيط » الالماني ! » فتوقف الشاب فجأة وامتدت يده بحركة عصبية الى قبعته المائلة على جانب رأسه على أبشع شكل ! لقد كانت قبعة مستديرة عاليه كان اشتراها من محلات « زيمرمن » لكنها خلقت لكثرة الاستعمال وحال لونها وامتلأت بالثقوب واللطخات وتمزقت حوافيها ، وخامره شعور لا يمت بصلة الى الارتباك بل بالفزع...

تمتم قائلا : — لقد كنت اتوقع ذلك . وانها لهفوة عظيمة هذه التي اكاد اتورط فيها . إن اتفه الاشياء تكفي لتعريض القضية كلها للخطار ... نعم إن هذه القبعة تلفت إلي الانظار . لانها مضحكة وهذا هو السبب الذي يجعلها محط الانظار ؛ فلو استبدلتها بقبعة من ذات الطرف الواحد « كاسكيت» لانسجمت تماما مع أسمالي . إن أي كساء للرأس مها كان قديما افضل من هذه التي لم يعد يمكن تسميتها والتي لا يقبل احد أن يضع مثلها على رأسه فهي ترى عن بعد ويبقى شكلها عالقاً في الاذهان . نعم ... لسوف يذكرونها ... وستصبح عندئذ دليلا على إداتي .. بينما ينبغي ان امر في هذا الظرف دون أن ألفت الي الانظار . نعم .. شيء تافه بل شديد التفاهة ولكنه يكفي لافساد كل التدابير . وعلى الغالب تفسد أتفه الاشياء جلائل الامور !

لم يكن يقصد مكانا قصياً ، بل كان يعرف عدد الخطى اللازمة لبلوغ هدفه ابتداء من باب مسكنه .. نعم .. لقد كان عليه ان يقطع سبعمائة وثلاثين خطوة تماما . فلقد عدها لما كان مشروعه كامناً في نطاق التصور .. ولم يكن ليؤمن في

ذلك الحين بمثل تلك الاحلام وبامكانية تحقيقها ، بل كان يكنها في اعماقه ايدخل البهجة والرضى على نفسه متـأثراً بجرأة تلك الاحلام المخيفة الحافلة بالمغريات . ولكن ها قد مضى على ذلك شهر كامل . وبـدأ ينظر الى الامور ويتخيلهـا من زاوية مختلفة. وعلى الرغم من انه كان يعيب على نفسه خلال مناجاته لها قلة نشاطه وتردده وعدم ثقته ، الا انه اعتاد برغمه على اعتبـار « ذلك الحلم الكريه » امراً جديراً بالعناية وها هو الآن في طريقه للقيام « بتجربة » لمشروعه ، فلا عجب اذا تعاظم اضطرابه مع كل خطوة .

اقترب من بناء كبير يشرف احد جانبيه على القناة والآخر على شارع « ع » وقد اجتاحته هزة عصبية عنيفة ، كان هذا البناء المقسم الى مساكن صغيرة ، مأهولا بعدد من الصناع من مهن مختلفة بين صانعي اقفال وخياطين وطاهيـات وكان فيه ألمانيون من فئات مختلفة ، وفتيات من بائعات الجسد وموظفين صغـار مما جعل حركة الدخول والخروج دائمـة خلال البوابتين الكبيرتين والنـاس يخترقون الساحتين الملحقتين بذلك البناء الضخم في طريقهم الى السلالم. وكان امر العناية بالبناء موكولا الى ثلاثة أو اربعة من الخدم . فكان سروره عظيما حينما لم يصادف منهم احداً وهو يجتاز البوابة ويتسلل الى الداخل صاعـداً سلماً الى اليمين . كان الظلام شديداً في ذلك السلم الضيق المعد للخدم . ولـكنه كان قد اعتاد صعوده حتى اصبح ملماً بكل دقائقه ؛ وشعر انه في تلك الظلمة بمنجـاة عن كل عين باحثة .

ولما بلغ الدور الرابع ، راح ينـاجي نفسه قائلا : « ماذا يكون حـالي من الخوف اذا حدث وجئت لتنفيذ « الخطة » وانا الذي ارتعـد فرقـاً من مجرد التجربة ؟

التقى هناك بجنود قدماء ـ اصبحوا حمالين بعد تركهم الخدمة ـ كانوا يسدون

عليه الطريق وهم ينقلون اثاث مسكن اخلاه مؤخراً موظف الماني كان يشغله مع اسرته. وكان يعرف هذا سلفاً ، فراح يحدث نفسه على عادته قائلا : «ان هذا الالماني يرتحل اذن ، ولن يبقى في هذا الجزء من البناء الا تلك العجوز ، لا بأس .. انها معلومات مفيدة على اية حال .. » ، ثم قرع باب العجوز .

ند عن الجرس صوت صدىء وكأنه لم يصنع من النحاس بل من الحديد (التنك) الابيض شأن كل الاجراس التي في المساكن الصغيرة المشابهة لهذا المسكن ، ولقد ذكره صوت الجرس الذي كان قد نسيه ، بواقعة لم يلبث أن تمثلها في خاطره .. فارتجف فجأة وشعر بان أعصابه لن تستطيع الاحتمال اكثر مما احتملت .

انفرج الباب قليلا ، ومن خلال الفتحة الضيقة ، راحت صاحبة المسكن تعاين هذا الدخيل بحذر واضح . كانت عيناها تلتمعان في الظلام ، فلما شاهدت الحمالين يعج بهم المشى ، اطمأنت بعض الشيء وفتحت الباب على مصراعيه ، فاجتاز الشاب العتبة ليدخل الى حجرة امامية صغيرة غارقة في الظلام تؤدي الى مطبخ يفصله عنها حاجز من الخشب ، ووقفت العجوز امامه تتفحصه بنظرها بسكون .

راح بدوره ينظر اليها : لقد كانت عجوزاً عجفاء قصيرة القامة تحمل على كاهلها عبء اعوامها الستين ، ذات عينين مستديرتين ثاقبتين وأنف صغير مدبب ووجه اقرب الى الشراسة . كانت عارية الرأس يلتمع شعرها الاشهب من الزيت الذي ضمخ به ، وكانت تحيط عنقها الطويل الدقيق الشبيه بساق الدجاجة ، بخرقة من النسيج القطني وقد ألقت على كتفيها فراء رثاً متآكلا ، وهي لا تنفك تسعل سعالا عميقاً . ولعلها لمست في نظرته شيئاً غريبا اذ سرعان ما ارتد اليها حذرها وعادت الى عينيها نظرات الشك التي استقبلته بها .

تذكر الفتى انه يجب ان يتقرب اليها وأن يكون لطيفاً مستملحاً ، لذلك انحنى امامها باحترام وهو يتمتم قائلا :

ـــ اسمي راسكو لنيكوف ، وانا طالب علم . ولقد جئت اليك منذ شهر تقريبا . . .

فاجابت العجوز وهي تضغط على كل كلمة من كلماتها دون ان تزايلها النظرة المتشككة :

ـــ اذكر يا صديقي انك زرتني من قبل .. نعم انني اذكر ذلك تماما .

فاردف راسكو لنيكوف وقد اقلقه حذر العجوز كما ادهشه :

ـــ حسناً . . لقد عدت في سبيل امر من نوع ذلك الذي سبق ان عرفته . .

ثم سكت وراح يحدث نفسه قائلا : « لعلها حذرة هكذا دائما .. غير انني لم الاحظ ذلك في المرة السابقة .. » وتملكه شعور كريه .

صمتت العجوز كأنما تفكر فيما قاله الشاب ، ثم اشارت اليه بيدها نحو باب الغرفة وقالت وهي تفسح له الطريق :

ـــ فلتدخل ياصديقي ..

كانت الغرفة صغيرة يكسو جدرانها ورق اصفر وتزين النوافذ ستائر من « الموصلين » تضفي عليها الشمس الغاربة في تلك الساعة ضياء قويا . وبنظرة سريعة ، شملت الغرفة ومحتوياتها ، حاول راسكو لنيكوف ان يطبع في مخيلته معالمها . اتضح لديه من نظرته الاولى ، انه ليس فيها ما يلفت النظر ، كان اثاثها القديم البالي يتألف من اريكة ذات مسند عريض من الخشب المليء بالعقد ، وطاولة بيضوية الشكل موضوعة بالقرب منها ، يضاف الى ذلك منضدة زينة ذات مرآة في حاجزها وعدد من الكراسي المرصوفة بحذاء الجدران ، وكانت لوحات غير ذات

قيمة تحيط بها اطارات متداعية مهشمة ، تمثل فتيات المانيات يحملن في ايديهن العصافير ، معلقة على الجدران ، وفي احد الاركان اضىء قنديل امام تميمة دينية « ايقونة » صغيرة .

لكن جو الغرفة كان يوحي بنظافة دقيقة . فقد كانت قطع الاثاث ملمعة مصقولة والارضية الخشبية مطلية بالشمع ولامعة حتى ليتعذر اكتشاف ذرة من الغبار في المسكن كله .

لم يمر الشاب بهذه البادرة دون ابداء ملاحظته لنفسه على عادته إذ قال :

— « لا يمكن لغير هؤلاء العجائز المترملات الخبيثات ان يحطن انفسهن بمثل هذه النظافة » .

وراح يتطلع بزاوية عينه بفضول الى ستار من قماش هندي يخفي وراءه بابا يؤدي الى غرفة ثانية — لم يدخل اليها قط من قبل — تحوي على سرير العجوز وخزانتها .

تبعته العجوز الى الغرفة وانتصبت واقفة امامه لتعود الى تفحصه والتدقيق في قسماته عن قرب ، ثم سألته بلهجة جافة :

— ماذا تريد ؟

فاخرج الشاب من جيبه ساعة دقيقة قديمة من الفضة وقد نقشت على غلافها الكرة الارضية وتدلت منها سلسلة من الفولاذ وقال :

— لقد جئتك بشيء ترهنينه !

— ولكن الرهن السابق قد حل اجله منذ ثلاثة ايام ..

— لا تبتئسي .. سوف ادفع لك فائدة شهر آخر ، فصبراً . .

— سأصبر اذا شئت يا بني وانا في حل من بيع المرهون منذ الآن !

— وهل تعطيني كثيراً لقاء هذه الساعة يا آليونا ايفانوفنا ؟

ــ آه .. انك تأتيني باشياء تافهة عديمة القيمة . انت تدري يا صديقي أنني في المرة السابقة رهنت لك ذلك الخاتم لقاء روبلين رغم انـه يمكن شراء مثله من اي صائغ بروبل ونصف !

ــ حسناً ، اقرضيني اربع روبلات ولسوف اعيدها اليك واسترجع ساعتي لانني ورثتها عن ابي ، انني ساحصل على مال في فرصة قريبة .

ــ روبل ونصف اذا اردت، وعلي ان احسم منهاالفوائد سلفاً .

فصاح الشاب مستنكراً : ـ روبل ونصف ؟..

ــ لك الخيار في اخذها او رفضها .

وارفقت قولها باشارة من يدها التي تحمل الساعة فقدمتهـا اليه . . . اطبقت اصابع الشاب عليها ، لقد بلـغ من ثورة غضبه ان كاد ان ينسحب . . بيد انـه تمالك نفسه بسرعة حينما فكر في انه لا يملك شروى نقير ، وطمـأن نفسه بانـه ما جاء لهذا الغرض وحده ، لذلك فقد قال لها بصوت خشن قاس :

ــ حسناً .. هات المبلغ . .

نبشت العجوز في جيبها بحثاً عن مفاتيحها ، ثم مضت الى الغرفة التي يحجب بابها الستار . ولمـا انفرد بنفسه ، راح يرهف السمع بفضول وقـد استغرق في الحدس والتخمين . تناهى الى اذنه صوت الخزانة وهو يفتح فناجى نفسه قائلا : « امل المال في الدرج الاعلى » . حسناً . . انها اذن تحمل مفاتيحها في جيبهـا الايمن وهي جميعها في حزمة واحدة تجمعها حلقة من الفولاذ وبينها مفتاح اكبر من الاخرين بثلاث مرات لا شك انه ليس لباب الخزانة . وعلى هذا فان لديهـا ولا شك صندوق حديدي وهذا مما يثير الفضول . . فالصناديق الحديدية كلهـا تفتح بمفاتيح من هذا الطراز .. ولكن كم امقت هذا ..

رجعت العجوز بعد برهة وابتدرته قائلة :

— باعتبار فائـدة الروبل الواحد عشرة « كوبيكات » في الشهر ، فان مجموع الفائدة التي يجب ان اتقاضاها سلفاً عن روبل ونصف هي خمسة عشر كوبيكا ، يضاف اليها فائدة الروبلين اللذين اقرضتها لك في الشهر الفائت ولم تردها ، وهي على هـذا الاساس عشرون كوبيكا ، فيصبح مجموع الفـائدة خمسة وثلاثين كوبيكا ، ويبقى لك على ساعتك هذه روبل واحـد وخمسة عشر كوبيكا ها كها . .

— كيـف ذلك ؟ الن يبقى لي اذن الا روبل واحـــد وخمسة عشر كوبيكا ؟

— تماما . .

لم يعقب الشاب بكلمة، ومد يده فاخذ المال وراح ينظر الى العجوز كما لو كان لديه ما يفعله او ما يقوله لها دون ان يستطيع تحديد ذلك القول وذلك الفعل على وجه الدقة ، واخيراً قال :

— علي آتيك في الايام القريبة المقبلة بشيء آخر ، قطعة فضية على شكل علبة سجاير فاخرة انتظر ان يردها إلي قريبا احد الاصدقاء .

ثم صمت مرتبكا ، فقالت آليونا ايفانوفنا:

— سنتحدث عن ذلك في حينه يا عزيزي .

اتجه نحو الردهة وهو يقول بلهجة اجتهد ان تكون بريئة بسيطة :

— الوداع .. وعلى فكرة ، هل انت دائما وحيدة في البيت ؟ هل لا تمكث اختك لديك احيانا ؟ .

— ماذا يهمك من شأن اختي ؟

— لا شيء البته .. لا تتصوري شيئا .. الوداع يا آليونا ايفانوفنا.

خرج « اسكولينكوف » وهو فريسة اضطراب متزايد . وراح وهو يهبط

السلم ، يتوقف احيانا وكأنه اقتنع بامر ما فجأة . ولما بلغ الشارع هتف :

ـ آه يا ربي ! كم هو مقيت كل هذا .. هل من المعقول .. هل من المعقول . . ان أ ... ثم اضاف مؤكداً : « لا ، انها حماقة ، انه محـال . . هل حقيقة مرت برأسي فكرة مريعة كهذه ! يا للحمأة التي يستطيع قلبي ان يضمها في اعماقه . . انه شر الضرر ، بل القـذارة ، الخزي الملطخ بكل ذلك . . كلما افكر اني هدهدت هذا الامل .. »

كان يفتقر الى التعابير والكلمات القـادرة على التعبير عن الشعور الذي كان يهزه . فالاشمئزاز العميق الذي كان يعذبه ويقلقه حينما كان في طريقه الى مسكن هذه العجوز ، بلغ من شدته وامتداده في نفسه درجة جعلته عاجزاً عن الافلات من ضيقه وتبرمه الحاليين . مضى في سبيله يذرع الرصيف مترنحاً كالرجل الثمل دون ان يلقي بالاً الى المـارة الذين كان يصطدم بهم . ولم يتجلد ويتماسك الا عند ما ابتعد عن الدار المشؤومـة بشارع كامل . اجال بصره فيما حوله . فاذا به امام حانة تطل على الطريق يهبط النازل اليها على سلم يقوده الى طبقـة سفلى ، واذا باثنين من السكارى يخرجان منها وهما يتساندان ويتشاتمان . ودون ان يفكر في الامر هبط « راسكو لنيكوف » الدرجات الى الحانة .

لم يكن قد دخل حانة من قبل ولكنه كان يشعر بدوار في رأسه وبعطش حاد في جوفه ، كان يشتهي ان يشرب كأساً من « البيرة » المنعشة وكان يعزو ضعفه الى الجوع . انتحى ركناً معتماً قذراً وطلب لنفسه الشراب ، وعب كأسه الاولى بشراهة ؛ فشعر براحة وعادت افكاره اكثر وضوحـاً وتركيزاً ؛ راح يخاطب نفسه يحفزه امل جديد :

ـ حماقات هي كل هذه الافكار .. ليس في الامر ما يزعج . ان هـــذا

التشوش مرجعه مادي ؛ ولسوف استعيد قوة التفكير بعد ان اعب قدحاً آخر واتناول قطعة من (البسكويت) ؛ سيعود الي صفاء افكاري ورباطة جأشي .. نعم لا شك ان هذا كان عديم الاهمية . .)

شع في عينيه بريق خلفته الوداعة التي اعقبت الراحـــة النفسية التي شعر بها ، وبدا كأنه قد تخلص منــذ حين من حمل كان يبهظ كاهله وراح يلقي على الموجودين نظرات مفعمة بالود والصداقة . غير ان شعوراً غامضاً كان يؤكد له ان هذا التفاؤل الذي غمر نفسه يرجع كذلك الى حالة مرضية .

لم يكن في الحانة الا نفر قليل من الرواد في مثل تلك الساعـــة .. فقد غادرها في اعقــاب الثملين ـــ اللذين رآهما يخرجان منهـا عنـد دخوله ـــ خمسة اشخاص يجذبون معهم فتاة ترقص على انغام (اكورديون). فلما خرجوا ، عم السكون في المكان وران الهدوء . ولم يبق في الحانة الا رجل ـ يبدو انـه من الباعة ـ يعاقر كأساً امامه وقد سيطر عليه الشراب . . بينما كان زميله ـ وهو رجل طويل القامة ضخم الجثة ـ يرزح تحت وطأة المسكر . كان يترنح على مقعده يميناً وشمالا ؛ ومن حين الى آخر ، كان يستفيق من غفوته فيبــاعد بين ذراعيــه مقلداً الراقصات ؛ فيتلوى جسمه الممتلئ الضخم بفعل تلك الحركات الوتيرة التي كان يزاولها وهو جالس في مقعده . كان يدمدم بصوت نشاز(لازمة) ويحاول تذكر الابيات التابعة لها فتخرج من فمه متفككة متعثرة :

خلال عام داعبت زوجتي .

خلا .. ل عام دا .. عب . . ت زوجتي . .

ثم يصمت ويغفو حتى اذا استفاق من جديد راح يغني :

كنت امر بالباديا لتشيسكايا

عند ما وجدت صديقتي الطيبة . . . .

وغني عن القول انه كان وحده يطرب لغنائه بينما كان صديقه يقابله بمظاهر التقزز والاستنكار كلما انفجر في غنائه بعد اغفاء طويل!
كان هناك ايضاً رجل آخر يلوح عليه انه موظف متقاعد . . .
كان يجلس منفرداً وهو يتناول من كأسه جرعات صغيرة بين الحين والآخر ويسرح طرفه حوله . . . كان يبدو انه فريسة اضطراب معين . . .

الفَصْلُ الثّاني

لم يكن « راسكو لنيكوف » ميالاً الى المجتمعات بل كان كما أسلفنا ، يتحاشى كل احتكاك مع الناس وخصوصاً في الآونة الاخيرة . غير انه في تلك اللحظة ، كان يشعر بدافع يجتذبه الى اقرانه من النـاس وكأن ثورة قامت في كيانه جعلته يتنكر لعزلته ويندفع ساعياً وراء اقامة علاقات مع الآخرين ! كان ذلك الشهر المؤلم الحافل بالعزلة والاحاسيس المختلفة قد نال منه لدرجة راح بعدها يحس برغبة قوية في التعرف الى جو جديد وعالم جـديد حتى ولو كان مرذولا موبوءاً . وهكذا شعر بسرور دفعه الى المكوث في مكانه اطول مدة ممكنة .

كان صاحب الحانة منزويا في حجرة مجاورة للبهو العام لكنه كان لا يفتأ يتردد على « الصالة » الرئيسية حيث زبائنه يشربون ويسمرون فيهبط اليهم درجات كثيرة تظهر منه بادئ ذي بدء حذاءه اللامع الانيق ذا الساقين الحمراويين . . ولم يكن يضع حول عنقه رباطاً بل كان يرتدي تحت « الرودنكوت » المنسجم مع قامته ، صدارة من الساتان الاسود شديدة القذارة وكان وجهه يلمع من الشحم اشبه بقفل غمس في الزيت حديثاً . ووراء الخوان ، كان ينتصب غلام يكاد يبلغ الرابعة عشرة من عمره ، بينما يقوم غلام آخر اصغر سناً على خدمة الزبائن . وكانت حلقات من القثاء معروضة على شكل ساعة ، الى جانب قطع من « بسكويت » حائل اللون وشرائح من لحم السمك تفوح منها رائحة كريهة . .

وكانت الحرارة شديدة خانقة لا تحتمل والجو مشبعاً برائحة الكحول حتى انه يكفي ان يتنفس المرء خمس دقائق فيه حتى يثمل .

يحدث احيانا ان نلتقي باشخاص نجهلهم تمام الجهل ومع ذلك نشعر باهتمام بهم وبدافع يقربنا منهم قبل ان نبادلهم كلمة واحدة . . كذلك كان شعور « رانسكو لنيكوف » حيال ذلك الرجل الجالس في معزل عن الآخرين . . ذلك الذي يلوح عليه انه موظف متقاعد . . فلم ينقطع عن النظر اليه خصوصاً وان الموظف بدوره كان يرقبه بالحاح ، والرغبة في التقرب منه واضحة على وجهه . بينما كان ينظر الى الآخرين بما فيهم صاحب الحانة ، نظرة عادية ، نظرة خبير ، طافحة بنوع من الترفع المقرون بالاشمئزاز وكأنهم يأتون بعده في رفعة المقام والمكانة الاجتماعية او درجة الثقافة ، حتى ليعز عليه ان يبادلهم الحديث والكلام . كان رجلا متجاوزاً العقد الخامس من عمره ، متوسط القامة متين البنيان تبعثرت على فروة راسه السوداء شعرات بلون اشهب تشي بسنه . وكان وجهه متورماً بتأثير الادمان، اصفر، او على الاصح ميالا الى الخضرة . وكانت عيناه تلتمعان تحت جفنيها المتنفخين تشوبها حمرة لا تخفي الحيوية العنيفة الماثلة في نظراتها . وكانت فيه ظاهرة خاصة تجتذب الانتباه : ذلك ان نظرته كانت تستعر بنوع من الحماس . . . لم يكن ينقصه الذكاء ولا الاتزان ولكن كانت تصدر عنه احيانا حركات فجائية غير مقصودة يمكن ان تعزى الى الجنون . كان مرتدياً لباساً اسود رسمياً « فراك » قديماً ممزقاً وقد انتزعت ازراره الا واحداً كان لا يزال صامداً في مكانه على شكل ما ، وكأنه اراد بادخاله في العروة المقابلة له ، ان يحتفظ بالمظهر اللائق بدافع من احترام الرسميات ؛ وقد برز من الصدارة المحدبة قميصه المغطى بالبقع والاوساخ . . كان حليق اللحية ككل الموظفين ولكن لحيته ما كانت مزالة منذ ايام بدليل تلك الحزمة من الشعر

القاسي التي كانت نابتة على خديه ، اما حركاته وهيئته فكانت مطبوعة « بالبوروقراطية » المهيبة .. كان يبدو عليه برغم ذلك شيء من القلق :فكان لا يفتأ يسوي شعره ويضغط راسه بين راحتيه حيناً تلو الآخر بيأس وقنوط، جاعلا مرفقيه على المائدة القذرة المبتلة بالجعة . واخيراً نظر الى راسكو لنيكوف بثبات وخاطبه بصوت مرتفع حازم قائلا :

— هل تعتبرني متجاسراً يا سيدي اذا اتصلت بك بهذا الشكل المباشر ؟ أنه على الرغم من ان مظهرك لا يدل على مكانة رفيعة، غير ان خبرتي تدلني على أنك رجل ذو تربية حسنة لم تعتد الشراب . لقد كنت ابداً احترم التربية خصوصاً اذا تماشت مع الشعور القلبي . اني احمل لقب مستشار واسمي مارميلادوف المستشار القانوني . هل انت موظف بالمثل ؟

فاجابه الشاب وقد بوغت قليلا من لهجة التفخيم التي اتسم بها حديث الرجل ومن مفاجأته بهذا الحديث المباشر الذي لم تسبقه مقدمات :

— كلا .. انا طالب علم ..

لم يستطع — رغم الرغبة التي أحس بها مؤخراً في اقامة علاقات مع كائن من كان — التحرر من ذلك الشعور بالنفور الذي ما انفك يلازمه ويستمر في نفسه كلما وجه اليه غريب كلاماً ينال منه او على الاقل يحمل بين طياته معنى النيل من شخصه . .

إسترسل الموظف قائلا :

— طالب علم او طالب سابق ! لقد فكرت في هذا . انها الخبرة الطويلة المستمرة . .

ووضع أصبعاً على جبهته تأكيداً لميزاته العقلية واضاف قائلا :

— لقد كنت طالب علم او انك على الاقل ترسمت برنامجاً دراسياً . . ولكن

هل تسمح لي ؟..

وأشفع كلامه بالفعل ، اذ نهض من مجلسه مترنحاً وحمل صحيفته وقدحه واتجه نحو مائدة الفتى حتى اذا ما بلغها جلس الى جانبه ..

كان ثملا ولا شك ، ولكنه كان يتحدث بجلاء وحماس لو لا بعض الالتباس والاختلاط الذي كان يشوب حديثه بين الحين والحين . تهافت على « راسكولنيكوف » بتعطش حتى وكأنه كان هو الآخر قد امضى شهراً كاملا لم يتحدث خلاله مع أحد !

اردف بلهجة رزينة يقول :

— حقيقة يا سيدي العزيز ان الفقر ليس عيباً ، كما اعرف كذلك أن الادمان رذيلة .. لكن العوز يا سيدي نعم العوز ، إنه عيب ولا شك . لانك في الفقر تستطيع الحفاظ على نبل شعورك المرهف . لكنما في العوز لم يتوصل احد الى الابقاء على كرامته ! والمعوز لا يستدعي طرده بالعصا بل بالمكنسة ، لتكون معاملته اكثر زراية وتحقيراً . . والناس على حق في ذلك . لان المعوز نفسه هو اول من يتذلل ويريق ماء وجهه ..

واردف بعد صمت قليل :

— منذ شهر يا سيدي ضرب السيد « ليبيزيا تنيكوف » زوجتي . . وانت تدرك أن زوجتي تختلف عني بالطبع .. فهل رأيت مثل هذا الذل ؟.. واخيراً اسمح لي بان ألقي عليك سؤالا واعتبره لمجرد الفضول : هل أمضيت مرة الليل على نهر النيفا في الزوارق التي تحمل العلف ؟

فاجابه راسكولنيكوف :

— كلا .. لم يسبق أن وقع لي ذلك ! ولكن ماذا تقصد بسؤالك ؟

ــ حسناً . . اردت ان اقول : إنني أبيت حيث ذكرت لك منذ خمس ليال !

ثم ملأ قدحه وافرغه في جوفه واسترسل في التفكير ... كانت ثيابه ومابقي عالقاً بها من القش نؤيد قوله ،حتى ان رأسه لم يسلم من المساهمة بنصيبه في هـذا التأييد .. ويمكن للناظر اليه ان يحكم بانه لم يبدل ثيابه ولم يغتسل منذ خمسة ايام حقاً .. كانت اظافره مسودة لكثرة ما تراكم تحتها من الاوساخ ويداه الضخمتان المحمرتان ، قذرتين بشكل ملحوظ .

بدا كأن الحديث قد اجتذب اهتماما عاماً بين الموجودين لم يبلغ بعد درجـة التركيز . فالغلامان كانا يتضاحكان وراء الخوان الكبير بينما لاح صاحب الحـانة وكأنه نزل من غرفته العليا خصيصاً للاستماع الى هذا الانسان « المسلي » ! فكان جالساً على مقربة وهو يتثاءب بخمول ويتصنع الاهتمام مما يؤكد ان « مارميلادوف » كان معروفاً منذ بعيد في ذلك المكان . لا شك ان ضعفـه إزاء ميله لالقاء المحاضرات الطنانة ، عاد عليه بمحادثات كثيرة مع غرباء لم يكن يعرفهم من قبل في غير تلك الحانة .. وعادة التحدث الى الناس مستحكمة عند كثير من السكارى وخصوصاً لدى اولئك الذين لايجدون معاملة حسنة في دورهم ، والذين يفضلون أي شيء على المنزل .. لذلك تراهم يحاولون بث رفاق السكر شكاياتهم وتظلمهم سعيـاً وراء اكتساب عطفهم اذا امكنهم ذلك .

هتف صاحب الحانة بصوت جهير :

ــ يا لك من مهرج يا هـذا .. لم لا تشتغل ؟ لم لا تؤدي اية خدمـة طـالما أنك موظف ؟

فاجابه « مارميلادوف » موجهاً حديثـه الى راسكو لنيكوف كما لو كان هو المتحدث :

— لم لا أؤدي خدمـــة يا سيدي ؟ لم لا أؤدي أية خدمـــة ؟ أولا يقطر قلبي دمــاً كلما احسست بما انا عليه من ذل وحقارة ؟ . . عندما ضرب السيد « ليبيزيا تنيكوف » منذ شهر زوجتي المسكينة بيده بينما كنت انـا متهالكاً اشبه بالاموات لشدة السكر .. أو لم يكن ذلك ليحز في قلبي ؟ اسمح لي ايها الشاب . . هل وقع لك . . إه . . ان توسلت لاقتراض بعض المـال دون جدوى ؟

— لقد حـدث لي ذلك .. اريد ان اقول . . مـاذا تقصد بكلمـة دون جدوى ؟

— اريد ان اقول بكلمة دون اية جدوى ، ان تكون متأكداً سلفاً من ان مساعيك فاشلة لن تصل بك الى نتيجة .. خذ على سبيل المثال : انت تعرف سلفاً وبكل تأكيد ان هذا الرجل ـ وهو اشد المواطنين نفعاً واحسنهم مركزاً ـ لن يقرضك مالا مهما تذرعت باسباب . اذ لمَ يقرضك ماله ؟ انه يعرف سلفاً انك لن ترد اليه ما تقترضه فهل يعطيك بدافع الشفقة ؟ ان السيد « ليبيزيا تنيكوف » ـ وهو من المطلعين على الآراء الحديثة ـ اوضح مرة ان العلم نفسه ينفي الشفقة ، وان الحال كذلك في بريطانيا حيث يسيطر الاقتصاد السياسي ... كنت اسألك: لم يوافق على اقراضك المال ؟ مع ذلك فانك على الرغم من علمك الاكيد بعقم محاولاتك فانك تسير الى هذا الهدف لكي . . .

وقاطعه راسكو لنيكوف قائلا :

— وما فائدة الاستمرار ؟ . .

— ذلك لانه ليس امامك سبيل آخر ، ولانك تميز المكان المناسب عن سواه . المهم ان الحاجة تدفعك الى سلوك سبيل معين . ولسوف يأتي يوم تجد نفسك فيه مكرهاً على تقرير مصيرك . خذ مثلا : عند ما ذهبت ابنتي الوحيدة المرة الاولى

للحصول على بطاقتها.لقدقمت بنفسي بتدبير يعود علي بالفائدة .. نعم ان ابنتي حصلت على بطاقة وهي تعيش من هذه المهنة !..

ولما شعر بالغلامين يسخران منه ، وبصاحب الحانة يشاطرهما السخرية بدوره ، ورأى ان وجه الشاب قد ظللته سحابة من الحزن ، اردف يقول ببرود ظاهر .

— لا تبتئس يا سيدي ، لا تبتئس .. فلقد تعودت مثل هذه الهزات من الرؤوس .. ان ما اقوله معروف من الناس اجمعين ، والاسرار جميعها تنكشف آخر الامر ، انني اقابل مثل هذه الامور بالخزي وليس بالاحتقار .. ليكن . نعم ليكن . هذا هو الانسان!(ecce homo !) اسمح لي ايها الشاب هل تستطيع .. كلا ، يجدر بي ان أعبر عن رأيي بطريقة اكثر واقعية . لأقل : هل تجرأ بدلا من هل تستطيع .. نعم هل تجرأ — بعد ان تمعن النظر فيّ في هذه اللحظة — ان تقول بالتأكيد انني لست خنزيراً ؟

غير ان الشاب لم يعقب بكلمة .. بينما استرسل الخطيب المفوه بانتظار انتهاء عاصفة الضحك التي اثارتها عبارته الاخيرة في « الصالة » :

— حسناً .. لنفترض انني خنزير ولكن هي ! انها سيدة ! انا صورة عن الحيوان ولكن كاترين ايفانوفنا — زوجتي — شخصية ممتازة .. فهي ابنة ضابط كبير .. نعم لنفترض انني فاسد ولكنها — هي — تملك قلبا حانيا الى جانب ثقافتها وعواطفها النبيلة ! ومع ذلك .. آه لو انها اشفقت علي يا سيدي .. ان كل انسان يا سيدي بحاجة الى ملجأ يشعر فيه بالحنان والشفقة ! وكاترين جائرة ظالمة رغم شهامتها ونبلها ورغم علمي بانها عندما تنقي البراغيث عن ثيابي كما افعل احيانا بنفسي، فانها لا تعمل ذلك الا بسبب اشفاقها علي ..

تعالت الضحكات مجدداً في المكان فاردف يقول وقد علا وجهه الوقار مجسداً :

ــ آه يا إلهي .. لو ان مرة فقط .. ولكن لا .. كل ذلك لا يجدي . . فما فائدة الكلام ؟ نعم ما فائدته ؟ انني لم اعامل مرة بحنان . لكن لقد غدا ذلك امراً عاديا بالنسبة إلي وغدوت وحشا بالفطرة !

وهنا تدخل صاحب الحانة في الحوار وهتف بعد ان اهوى بقبضته على المنضدة :

ـ وحش فطري .. وأي وحش !

ـ تلك هي طبيعتي ! اتدري يا سيدي .. انني شربت حتى جواربها ولا اقول احذيتها .. لان ذلك يكون غير متناسق مع الوقائع . . اما جواربها . . نعم جواربها فقد شربتها .. وشربت كذلك منديل عنقها المصنوع من شعر الماعز ، وكان قد أهدي اليها قبل زواجنا .. فهو اذن يخصها ولايخصني .. ونحن نسكن غرفة باردة ... لقد اصيبت بسعال في الشتاء الاخير وها هي الآن تبصق دما .. ولنا ثلاثة اولاد صغار، وتشتغل كاترين ايفانوفنا من الصباح وحتي المساء ، فهي تغسل الملابس وتنظف الاواني وتعنى بالاطفال لانها منذحداثةسنها اعتادتالنظافة وألفتها .. وصدرها ضعيف وقابليته للسل جلية واضحة اشعر بها تماما . وكيف لا اشعر بذلك ؟ انني كلما اكثرت من الشراب، كلماازددت احساسا بذلكالخطر . ذلك لانني اكتشف في الشراب استيعابا كبيراً للالم والشفقة . ولذلك اشرب ! انا اشرب لاضاعف ألمي ..

ثم احنى رأسه بيأس على المائدة وابث كذلك برهة لا يريم . ولما استعاد هدوءه اعقب قائلا :

ـ ايها الشاب ، يخيل إلي انني اقرأ على وجهك إمارات حزن معين ! وقد

احسست بذلك منذ ان دخلت ، مما حدا بي الى الاتصال بك . انني باطلاعك على تاريخ حياتي ، لم اقصد تحقير نفسي في اعين هولاء الكسالى المتراخين الذين يعرفون ذلك بعد ان استمعوا الي اكثر من مرة ، ولكنني كنت ابحث عن انسان لطيف حسن التربية لأبثه شكواي . اعلم ان زوجتي تلقت علومها في مؤسسة ارستقراطية جيدة في الاقاليم وقد رقصت عند تخرجها امام الحاكم مرتديه «شالها» وكانت الحفلة تضم عدداً من الشخصيات الرسمية .. ولما انتهت ، حصلت زوجتي على شهادتها وعلى « مدالية » ذهبية .. فاما المداليه ، فقد بعناها كذلك منذ زمن بعيد .. إه .. واما « دبلوم » الشرف ، فلا زالت تحتفظ به الى اليوم في صندوق. وقد أطلعت عليه مؤخراً صاحبة المسكن الذي نقطنه . . نعم . . لقد أطلعتها عليه رغم مشاحناتها المستمرة معها . ذلك انها كانت في حاجة الى التباهي امام بعضهم ، فعمدت الى ذكرياتها الماضية تحييها . وانا لا اثقل عليها ، نعم لا اثقل عليها ، لان ذكرياتها القديمة هي كل مابقي لها الآن . اما ماتبقى فقد تبدد كالسحاب .. نعم .. نعم ، انها سيدة غضوب متباهية وصعبة المراس . فهي تغسل ارض مسكنها بيدها وتقنع برغيف من الخبز الاسود . لكنها لا تتزحزح قيد انملة امام الامور التي تتعلق بالاحترام والكرامة . لذلك لم تحتمل سماجة السيد ايبيزيا تنيكوف . فلما ضربها هذا بسبب ذلك ، لازمت فراشها متأثرة بالاهانة التي لحقت بها اكثر من آلام الضرب الذي نالها . لقد كانت ارملة لما تزوجتها وكانت اماً لثلاثة اطفال صغار .. وقد تزوجت للمرة الاولى ـ بدافع الميل ـ ضابطا من سلاح المدفعية هربت معه من بيت ذويها . كانت تحبه حباً جنونياً ، ولكنه سقط فريسة المقامرة ، فحوكم بسبب ذلك ومات على اثر المحاكمة . لقد كان يضربها في ايامه الاخيرة ، وعلى الرغم من انه لم يترك لها شيئا عند وفاته ، فانها لا زالت تذكره اليوم وملء عينيها الدموع ! انها تذكره كلما ارادت ان تقارن بيني وبينه لتشعرني بما انا عليه؟

وانا مسرور من ذلك لانه يتيح لها بهجة التخيل والتذكر . . ولقد ظلت بعد وفاته وحيدة مع اطفالها الصغار في إقليم ناء مجهول حيث التقيت بها اول مرة . كانت في فاقة مستحكمة لا استطيع وصفها لـك على الرغم من انني تذوقت كل انواع العوز . . وكان ذووها جميعهم منصرفين عنها مغفلين امرها ، مع ذلك فقد كانت فخورة ابداً معتزة بنفسها . . وعندئذ يا سيدي تقدمت انا ، وكنت ارملا بالمثل ،ولي من زوجتي الاولى فتاة كانت في الرابعةعشرة من عمرها ! طلبت يدها لانني ما كنت استطيع تصور مثل ذلك الالم الهائل ينزل بسيدة مثلها . . لك ان تحكم بنفسك الى اي مدى بلغت بها الفـاقه حتى قبلت ان تتزوجني ،وهي المهذبـة المثقفة سليلة الاسرة العريقة . . المهم انها قبلت بي وهي تبـكي وتنتحب وتلوي يديها المأ . ذلك لانها لم تجد لنفسها مخرجا آخر ! انت تدرك ماذا اقول . . انت تفهم ما اعني بكلمة : لم تجد لنفسها مخرجا . . ام تراك لم تفهم بعـد المعنى ؟ كلا . . انك لم تفهمه بعـد ! لقد قمت بواجبـاتي حيالها طيلة عام كامل بشرف وامانة دون ان اقرب هذا (واشار بيده الى زجاجة الشراب)، لانني افهم معنى العواطف . غير أنني لم أوفق في تحريك عواطفها .. وبما إنني كنت عرضة لفقـد وظيفتي بين حين وآخر دونما سبب ألالهم إلا الدواعي الاداريـة البحتة ، فقـد شغفت بالشراب .. وقد مضى علينا عام ونصف منذ أن جئنا نسعى في هذهالعاصمة البديعة المزينة بعدد كبير من الابنية الضخمة . إننا لم نصل الى هنا الا بعـــد اغتراب ومصائب لا تحصى .. فوجدت هنا عملا ما لبثت أن فقدته كالعـاده .. ولـكن ليكن معلوماً لديك أنني فقدت عملي بخطيئتي هذه المرة لأن طبيعتي الفطارية انتصرت على تطبعي . . اننا نعيش اليوم في كوخ حقير تمتلكه أميلي فيودوروفنا ليبويشسل . أما كيف نعيش ومن أين ننفق وكيف نقتات . . فـــذلك مالا أعلمه ! ..

ان في الدار التي نقطن غرفة منها ، عدداً من المستأجرين الأُخر . . وكأننا في « كفر نعوم(١) » حقيقيه .. نعم !.. وكانت ابنتي من زوجتي الاولى تنمو مع الزمن . أما ما عانته من « خالتها » زوجتي خلال أعوام نموهـا، فانني أفضل أن لا أخوض فيه . لأن كاترين ايفانوفنا، رغم أنها تفيض بالشعور والرقة ، ألا أنهـا لا تخرج عن كونها سيدة قاسية سريعة الغضب . أقول لك هــذا فقط، إذ ماذا يجدي البحث في مثل هذه الامور !.. لم تتلق ابنتي سونيا شيئاً من الثقافـة كما لا بد خمنت .. ولقد حاولت منذ اربع سنين أن أعلمها بعض التاريخ العـام والجغرافيا، غير أنني توقفت عن متـابعة هـذا النشاط لأنني شخصياً ضعيف في هذه المواد ولأن الكتب اللازمة لاستدراك هــذا الضعف تنقصني .. آه ماذا أقول .. إن مثل هذه الكتب المفيدة لم يعد لها وجود ! اذن فقد توقفنا عند سيروس ملك الفرس ..

ولما شبت ابنتي وبلغت الرشد ، قرأت بعض المؤلفـات الروائية .. ولقـد أعارها السيد ليبيزيا تنيكوف مؤخراً كتاباً عنوانـه : (فيزيولوجية لويس) . أتعرفه ؟ .. لقد قرأته بشغف عظيم. بل أنها التهمته التهاماً، وكانت تقرأ لنا أحياناً بعض الفقرات منـه بصوت عال .. ذلك هو كل ذخرهـا الذهني ! والآن إنني أتوجه اليك يا سيدي لألقي عليك سؤالاً بصورة خاصة جداً :

« هل تستطيع فتاة فقيرة ولكن متعففة أن تربح شيئاً مذكوراً من عمل شريف »؟ لا .. إنها لن تربح اكثر من خمسة عشر « كوبيكا » في اليوم اذا كانت شريفة وليس لديها مؤهلات خاصة .. نعم خمسة عشر « كوبيكاً » وعلى

---

(١) كفر نعوم مدينة من مدن (فلسطين الشماليـة) ، ويقصد المؤلف تشبيه الدار بالمحشر لكثرة سكانها ! ـــ المترجم ـــ

شرط أن لا تغفل عن العمل دقيقة واحدة ! وقد نالهـا من مستشار ولاية « كلوبستوك » إيفان ايفانوفيتش ما لا يسر ! أتعرفه ؟ لعلك سمعت به ! حسناً .. إن هذا الرجل اللامع لم يكتف بان تمنع عن دفع أجرة قمصانه الستة المصنوعة من القماش الهولندي الفاخر والتي خاطتها له ، ولكنه طردها ايضاً وهو يشتمها ويغلظ لها القول ، وقد ركلها بقدمه وأطلق عليها كل الاسماء التي اسعفته بها قريحته. محتجاً بأن ياقة واحدة من القمصان لم تكن مصنوعة بدقة وأنها فصلت بشكل خاطىء .. كل هذا بينما الصغار يتلوون جوعاً .. وأمهم كاترين ايفانوفنا لا تنفك تذرع غرفتنا وهي تعصر يديها وعلى خديها لطخات حمراء من بوادر ذلك المرض المخيف ! كانت تصيح بها مغضبة قائلة : « أيتها الكسول .. أولا تأكلين وتشربين وتتدفئين ؟ » .. ولكن قل لي بربك ماذا تـأكل المسكينة وماذا تشرب إذا كان الصغار لم يجدوا منـذ ثلاثـة ايام ما يعضغونه في افواههم الجائعة ؟.. نعم .. لقد تمت دون ان أحاول إسكاتها .. ولم أسكتها ؟ لقد كنت ثملا واقرب الى انسان ميت مني الى مخلوق حي .. كنت اسمع «سونيتي » تتكلم. انها هادئة كثيرة الاحتمال فكانت تتكلم بصوت عذب..وهي شقراء ولها سحنة شاحبة دائماً هزيلة ابداً ..

كانت تقول : « ما العمل يا كاترين ايفانوفنا ؟ هل من المعقول أن أزاول مثل هذه المهنة ؟.. غير أن « داريا بافلونا » — وهي امرأة سيئة السمعة معروفة لدى رجال البوليس — عاتبتها اكثر من مرة لاستنكارها مثل هذا الامر مدفوعة من قبل صاحبة المسكن !.. لذلك فقد أجابتها كاترين ايفانوفنـا بلهجة تشوبها السخرية قائلة : « يا الهي .. هذا كنز جدير أن يحتفظ المرء به .. » .. كلا .. لا تلمها على هذا يا سيدي لا تلمها ! فهي لم تكن مالكة اعصابها عند ما تفوهت بتلك الكلمات .. فلقد كانت عواطفها مهيجة ، وكانت في اقصى حالات الحنق والغضب.

انها مريضة وامامها اطفالها يبكون من الجوع ويصرخون ! لم تتفوه كاترين ايفانوفنا بتلك الكلمات إلا لتسفه الحجة التي تذرعت بها ابنتي .. وتلك هي عقليتها .. فهي تضرب الأطفال عند ما يبكون ولو كان بكاؤهم بسبب الجوع .. لانها تفقد اعصابها اذا غضبت وثارت !

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة .. واذا بسونيا تنهض واقفة وتتشح « بلفحتها » ثم تخرج من الغرفة . . لم تعد قبل الثامنة فاتجهت بسكون الى حيث كانت كاترين ايفانوفنا ووضعت امامها على المائدة ثلاثين روبلا .. ودون أن تنبس ببنت شفة ، اخذت الدثار الكبير الاخضر (وقد فاتني أن أقول لك أن لدينا واحداً نستعمله جميعاً حسب الحاجة وهو من قماش « المدام ») فلفت به رأسها وجسدها وتهالكت على السرير ووجهها الى الجدار .. بينما كان كتفاها الناحلين وجسدها الهزيل مسرحاً لقشعريرة وتشنجات تفصح عن سريرتها ! كنت انا على حالي من السكر ، مستلقياً كما كنت .. فرأيت ايها الشاب ، نعم رأيت كاترين ايفانوفنا تنهض بسكون ايضاً وتتجه نحو سرير « سونيتي » الصغيرة .. هناك ركعت على ركبتيها واستمرت طيلة تلك الامسية راكعة بقربها تقبل اقدامها دون فتور ولا توقف .. ولقد نامت بقربها وعانقتها .. نعم لقد نامتا كلتاهما بينما كنت انا متهالكا مخموراً ..

صمت مارميلادوف وكأنه فقد النطق وملأ قدحه بسرعة وأفرغه في جوفه دفعة واحدة فندت عن حنجرته فرقعة مكتومة ثم أعقب يقول :

ـــ .. ومنذ ذلك الحين يا سيدي اضطرت ابنتي صوفي سيميونوفنا أن تقتني بطاقة لمزاولة مهنتها . وبسبب ذلك ايضاً لم تستطع البقاء عندنا فغادرت المنزل . أما كيف وقع ذلك فان الامر في منتهى السهولة . ذلك أنه إثر ملابسة مزعجة ، وبناء على اخبار من بعض المغرضين ساهمت فيه « داريا فرانتزوفنا » بقسط وافر

بحجة أننا أسأنا في تقديرها وتقديم آيات الاحترام الواجبة علينـــا حيالها ، احتجت صاحبة الدار التي تقطنها على سلوك ابنتي وادعت أنها لا تحتمل وجودها في دارها على الرغم من أنها دفعت داريا من قبل للتأثير عليها . . وهكذا انتقلت ابنتي من حال الى حال .

ثم جاء دور السيد ليبيزيا تنيكوف الذي . . إه . . كان له ذلك الموقف مع كاترين ايفانوفنا . . كان ذلك بسبب سونيا . لقد كان في البداية يلتمس من سونيا التفاتة غير انه ما لبث حتى راح يبدي صدوداً واعراضاً وتذمراً . كان يقول : « كيف أستطيع العيش في منزل يضم هـذا العار وأنا ذلك الرجل النير المعروف » . . غير أن كاترين ايفانوفنا لم تسكت ازاء هـذا الادعاء الفارغ . . بل صمدت له وقاومته ،ومن هنا كان ما حصل لها على يده! أما « سونيتي » الصغيرة فانها تزورنا غالباً عند هبوط الظلام،فتساعد كاترين ايفانوفنا وتقدم لها ما يلزمها.. وهي تقطن عند الخيـاط كابيرناوموف الذي أجر لهـا غرفة خاصة . وهـــذا « الكابيرناوموف » أعرج وألكن . . وله عائلة ،وأبناؤه جميعهم ورثوا عنـه عاهته النطقية وكذلك زوجته . . فهي لكناء مثله،وكلهم محشورون في غرفة واحدة . غير أن لسونيا غرفتها الخاصة التي يفصلها عن غرفة الاسرة حاجز من الخشب . . نعم . . انهم اناس فقراء جداً وتمتامون . . نعم . . وذلك الصباح ، نهضت من فراشي وارتديت اسمالي ثم اتجهت الى حيث يقيم صـاحب السعـادة ايفان آثانـا سيفيتش بعـــد أن رفعت ذراعي الى السماء مبتهلا . . على فكرة . . هل تعرف صاحب السعادة ايفان آثانا سيفيتش ؟ كلا ؟ . . انك اذن لاتعرف رجلا ورعاً . . انه شمعة بكر « شمع كافوري » نصبت امام الرب ! والشمع يذوب . . نعم ولكن هذا ذاب دمعاً بعد أن استمع الى ما عندي من القول . . وقال لي بالحرف الواحد: حسناً يا مارميلادوف . . لقد خذلت آمالي في المرة الاولى، غير أنني سأعيدك الى

العمل على مسؤوليتي الشخصية فاذكر ذلك .. هيا بمكنك أن تنسحب ! » ولقد قبلت آثار أقدامه .. بالخيال طبعاً .. لأنني لو أردت عمل ذلك فعلا لما سمح لي به . لأن هذا الرجل رفيع الشأن من أنصار المبادىء الرسمية الجديدة فيما يتعلق بالتربية والمعاملة .. وعدت الى مسكني . ولا تسل عن الهياج الذي حصل حينما أعلنت أنني سأعود للعمل ولقبض المرتب !

طغى انفعال عنيف على مارميلادوف فتوقف عن متابعة حديثه .. وفي تلك الاثناء ، دخلت شرذمة من السكارى الى الحانة بصخب وضجيج وعلى العتبة ارتفعت انغام متباينة من أرغن استؤجر لهـــذه المناسبة ولا شك ، بينما راح طفل في السابعة من عمره يرفع عقيرته مغنياً « المزرعـة الصغيرة » .. وعم الصخب في « الصالة » بينما تهافت المعلم وأجيراه لخدمة الزبائن الوافدين ! وتابع مارميلادوف قصته دون أن يعبأ بالضجيج :

كان يبدو عليه الانهيار التام الا أنه كلما ازداد الثمل نيلا منه كلما قويت رغبته في الحديث والثرثرة .. وبدا وجهه منيراً لمجرد أن تذكر انه توصل الى استعادة عمله .. وكان راسكو لنيكوف يصغي اليه بانتباه ..

.. « مضى على ذلك خمسة اسابيع يا سيدي .. نعم .. خمسة اسابيع منذ ان بلغ نبأ عودتي الى العمل مسامع كاترين ايفانوفنا وابنتي الصغيرة . كنت كمن انتقل الى النعيم في حين أنني كنت من قبل مهملا ككلب حقير ، لا اسمع الا الشتائم والسباب .. اما في ذلك الحين فقد كانوا يمشون على اطراف اصابع اقدامهم اذا كنت نائماً ويوصون الاطفال بالسكوت والخلود الى السكينة . . « عاد سمعان زاخاريتش تعباً وهو الآن يستريح فصمتاً . . » وكانوا يقدمون إلي القهوة قبل ذهابي الى المكتب ويسخنون « الكريما » .. نعم « الكريما » الاصلية الحقيقية ! لقد استطاعوا اخيراً أن يأتوا بها وأن يجدوا احد عشر روبلا ونصفاً

لتجديد ملابسي وصيانة مظهري .. أما أين وجدوا هذا المبلغ فذلك ما لا أعلمه .. كل ما أعرفه هو أنني امتلكت أحذية جديدة وقميصاً من القطن وثوباً كاملا أنيقاً كل ذلك بأحد عشر روبلاونصف .. فبدوت على أكمل وأحسن ما يمكن أن أكون .. ! وكنت عند عودتي الاولى من المكتب ألاحظ أن كاترين إيفانوفنا قد هيأت طبقين لتناول الطعام : حساء ولحم بقر مملح ببراعة . . الشيء الذي لم أره ولم أعهد مثله من قبل . كانت من قبل لا تملك ثوباً ترتديه ، أما ذلك الحين فقد ظهرت على أحسن زينة وكأنها ذاهبة لزيارة بعضهن .. لقد تجدد العتيق القديم على شكل من الأشكال لأن لها موهبة عمل كل شيء من لا شيء . كانت معتنية بشعرها تبدو انسانا آخر بياقتها الصغيرة البيضاء وأكمامها النظيفة . لقد بدت اصغر سناً وأوفر جمالاً .. وكانت سونيتي الصغيرة العزيزة تكتفي بتزويدنا بالمال وهي تقول : « لن أستطيع التردد عليكم بكثرة في الوقت الحاضر لأن ذلك غير ممكن في هذا الظرف .. سوف أحضر عند هبوط الظلام ولن يراني أحد هل تسمعون ؟ ! »

أويت الى فراشي ذلك المساء مبكراً فلم تعترضني كاترين ايفانوفنا ! هل تصدق هذا ؟ ولم يكن قد مضى على اشتجارها مع أميلي فيودوروفنا اكثر من ثمانية ايام . مع ذلك فقد دعتها لتناول القهوة ومكثتا معاً حوالي ساعتين . . وقد سمعتها تهامسان : « نعم .. إن سيميون زاخاريتش قد استعاد عمله وهو يقبض مرتبه من جديد .. لقد تقدم بنفسه الى صاحب السعادة فجاء سعادته بنفسه ليقود سيميون زاخاريتش من يده على مرأى من الآخرين ويدخله مكتبه . . » فهل سمعت هذا ؟ هل سمعت ؟.. واضافت زوجتي تقول : « لقد قال له سعادته : لا شك يا سيميون زاخاريتش أنني اذكر خدماتك التي سبق أن أديتها لنا وعلى الرغم من ميلك الى الخمر فانني بناء على وعدك لي بالاقلاع عن تلك العادة

ونظراً لعدم الاستغناء عنك (هل سمعت هذا . هل سمعته ؟) فانني آمل الآن ان تبر بكلمتك . »

نعم . انني أعترف لك بانها ابتكرت كل هذا من عندهـا وسوته وأنضجتـه ليبدو معقولاً . فلا تظنن بان ذلك كان مجرد عبث يقصد منـه الظهور . كلا . لقد انساقت هي نفسها وراء تخيلاتها .. كانت هي نفسها تتعزى بهذا القول واشهد الله ! واست ألومها كلا است ألومها من اجل ذلك .. اذ كر أنني عند ما أتيتهـا منذ ستة ايام بمرتبي الاول — ثلاثةوعشرونروبلا واربعون(كوبيكا)— كاملا دون نقصان ، دللتني بعبارات عذبة ولعلك تفهم معنى ذلك التدليل اذا أوضحت لك اننا كنا منفردين هي وانا لا يعكر صفونا وجود احـــد ! نعم . . لقـد دللتني وهي تغمز خـــدي بـأناملهـــا وتقول بصوت عـــذب : « آه يا ملفوفتي الصغيرة !.. »

توقف مارميلادوف برهة وبدا كأنه يحـاول الابتسام بدلالة الرعشة التي اجتاحت ذقنه . ثم تمالك نفسه .

كان ذلك الوسط : الحانة وذلك المظهر الفاسق الليـالي الخمس التي قضاهـا في زورق للعلف ، ومنظر الزجاجة إضافـــة الى الحب العميق الذي يكنه ذلك الرجل لاسرته ، كل هـــذه الاشياء كانت تذهل جليسه الشـاب الذي كان يصغي مأخوذاً وكأنه استحـال الى اذان ... بيد انـــه لم يتخلص من شعور التبرم والنقمة : لقد نقم على نفسه لأنـــه ارتـاد وسطاً كذلك الوسط !

هتف مارميلادوف مسترسلا :

— عزيزي السيد ، عزيزي السيد ، لعل كل هـذا يدعو الى الضحك مـع أنني لا أني اعرض على مسامعك ، مآسي العـــائلية الشخصية ! اما بالنسبة إلي

فانني لا أرى في كل ذلك ما يضحك . لأنني قادر على استعادة التجسس بكل ما قلته لك ... لقد كنت مستسلماً لحلمي الذهبي طوال ذلك اليوم وأمسيته الفردوسية ! كنت أحلم في اعادة بناء أسرتي وكساء اولادي كنت أتوقع أن اجلب الهدوء الى نفس زوجتي وأتطلع الى انتزاع ابنتي من الوهدة التي تردت فيها واعادتها الي حظيرة الاسرة .. كنت أحلم بأشياء اخرى كثيرة .. نعم .. كنت استطيع التفكير بحرية في كل هذا لأنه ميسور للانسان مباح له .

وفجأة انتفض مارميلادوف ورفع رأسه يحدق في وجه زميله الجديد . . . ثم قال :

— ومنذ صباح اليوم الثاني وبعد كل هذه الاحلام الجميلة وعلى الدقة منذ خمسة ايام فقط ، سرقت من زوجتي كاترين ايفانوفنا مفتاح صندوقها بحيلة بارعة شأن اللص المدرب واستوليت على رصيد راتبي الذي كنت أعطيته لها وها أنت ذا تراني أين جئت .. بل انظروا إلي جميعكم لقد غادرت منزلي منذ خمسة ايام وهم يبحثون عني هناك ولا شك ! ولقد فقدت مركزي وشربت نعم شربت بذلتي الجديدة بعد أن استبدلتها بهذه الأطمار البالية في حانة بالقرب من جسر « مصر » وانتهى كل شيء !

لم يكد مارميلادوف يصل الى هذا الحد من حديثه حتى ضرب جبهته بقبضته وصرف على اسنانه وأغلق عينيه ثم مال بمرفقيه بقوة على المائدة . لكن ذلك لم يدم اكثر من خمس دقائق عاد بعدها الى مطارحة زميله الحديث نظر اليه بعين لم تخل من خبث مصطنع وقال وهو يبتسم :

— لقد كنت اليوم عند سونيا وطلبت منها مالاً لأثمل . . . ها ها ها . . .

صاح واحد من افراد « الشلة » الذين دخلوا الحانة يقول :ــ وهل أعطتك؟ واشفع سؤاله بقهقهة مجلجلة ! غير أن مارميلادوف لم يلتفت الى المتكلم بل وجه حديثه الى راسكولنيكوف وقال :

ـــ هذه الزجاجة اشتريتها من المال الذي أعطتنيه ! لم تكن تملك الا ثلاثين « كوبيكاً » لقد تأكدت من ذلك بنفسي فاعطتها لي دون أن تهمس بكلمة .. لقد اكتفت بالنظر ولكن ليس كما ينظرون هنا .. بل أنهـــا كانت نظرة علوية لا يحسنها الا الذين يؤمنون بان الرجال لا يستثيرون الا الشفقة ولا يستحقون الا البكاء من اجلهم وليس اصدار الحكم عليهم ! ولعمري ان ذلك يعـادل أبلـغ الحزن لما لا يوجه اليك أي تثريب ! نعم .. ثلاثون « كوبيكاً » اخذتهـا راضياً رغم حاجتها اليها . ألست من هـذا الرأي يا عزيزي ؟ انها الآن احوج ما تكون الى النظافة ومتطلباتها ؟ وتلك النظافة تكلف ثمناً معيناً وانت تفهمني ولا شك ! فهناك المراهم والأدهان التي يجب شراؤها والتي لا يمكن عمل شيء بدونهـا .. هناك الملابس الأنيقة والأحذية الجميلة الثمينة التي تصون الاقـدام من برك المـاء التي تعترض طريقـك . انت تفهم ولا شك يا سيدي وتدرك ما معنى الحفـاظ على النظافة !

اذن ما قولك وأنا أبوها اسلبها الثلاثين « كوبيكا » التي لم تكن تملك غيرها ولأي شيء ؟ لأعاقر الخمر وانهل من الشراب !.. هل في الدنيا من يشفق على مثل ذلك الرجل الذي هو انا ؟ قل بربك هل تشفق على مثلي ؟ أجب بنعم ، او لا .. هل تشفق علي الآن يا سيدي ؟ قلهـا ولا تخف ، هل تشفق ؟.. نعم او لا .. ها ها ها ها .

اراد بعد ذلك ان يرتشف جرعة جديدة ولكنه لم يجد في الزجاجة شيئاً .. كانت الزجاجة قد فرغت .

صاح به صاحب الحانة وكان قد عاد الى مكانه قريباً منها :

— ولمَ يشفق على مثلك ؟

ودوت ضحكة صاخبة مصحوبة بشتائم وسباب . ذلك ان الذين لم يكونوا قد استمعوا الى تلك المناجاة ، كانوا يصرخون لا لشيء إلا للنيل من الموظف السابق والتسلي على حسابه .

وزأر مارميلادوف فجأة وهو ينهض قائلا :

— الشفقة ؟ ولم الشفقة ؟

كان منتصباً وذراعاه مرفوعتان كان فريسة حماس واندفاع شديدين كان يتحدث كما لو لم يكن قد سمع بتلك الكلمات من قبل .

— لمَ يشفق عليّ ؟ أهذا ما قلته ؟ انك على حق فانا لا اوحي بالشفقة علي .. على العكس ينبغي ان اصلب نعم ان اصلب على صليب وليس ان يرثي لحـالي ! ولكن اصلبوني بعد ان تحاكموني واشفقوا علي قليـلا وانتم تصلبونني وعندئـذ سأمضي الى عقابي لأنني لست مشوقاً للسرور بل انني في شوق لـلألم والدموع وانا متعطش اليها فهل تظن — ويحك — ان نصف الزجاجة التي قدمتهـا إلي قـد خففت ما بي ؟ لقد بحثت في اعماقها عن الألم .. الألم والدموع هذا ما انا بسبيل البحث عنه فيها ! فلما لمستها بشفتي وجـدت ما اريد ! ولسوف يرحمني من يشفق على الناس اجمعين .. ذلك الذي يفهم كل شيء ! انه الأحد .. هو القـاضي العادل .. ولسوف يظهر يوم الدينونة وسيقول : « اين هي تلك الفتاة المسكينة التي ضحت بنفسها من اجل « خالة » لها مصدورة ؟ ضحت بنفسها لتساعد اطفالاً لم يكونوا اطفالها ! اين هي تلك الفتاة التي اشفقت على ابيها في الارض ، ذلك السكير الكريه دون ان تتنكر له بقسوة وتقرز ! » .. ولسوف يقول لها : « تعالي ! لقد عفوت عنك مرة .. المرة الاولى .. ولسوف اسامحـك واعفو عن

خطيئاتك التالية لأنك احببت بعنف » ولسوف يعفو عن « سونيتي » نعم سوف يعفو عنها انا اعرف انه سيعفو عنها . لقد احس قلبي بذلك منذ ان كنت عندها منذ حين !.. لسوف يحاكم الجميع .. نعم الجميع دون استثناء واسوف يصفح عنهم جميعاً : عن طيبهم وخبيثهم شريرهم ولطيفهم . . وعند ما ينتهي منهم جميعاً ، لسوف يستدعينا نحن ايضاً ! وسيقول لنا : « هيا اقتربوا انتم ايضاً . تعالوا ايها الخاطئون » ! وسوف نتقدم جميعنا دون خجل وسيقول لنا : « ايها الخنازير ! ان صورتكم تشبه صورة الحيوان وانتم تحملون طابعه ! ولكن اقتربوا مع ذلك!» ولسوف يهتف الهادئون العاقلون : « رباه . . كيف تتقبل هؤلاء ايضاً ؟ » فيجيبهم : « يا معشر العقلاء الهادئين ، اذا كنت اتقبلهم فذلك لأنهم جميعاً لم يتوقعوا يوماً ان يصبحوا من المنبوذين واهل الجحيم ! » . . واسوف يفتح لنا ذراعيه بعد ذلك فنرتمي بينها ونبكي ونفهم كل شيء ! حتى كاترين ايفانوفنا نفسها ستفهم ! رباه .. ليأت ملكوتك !

استنفذ المسكين قواه وهو يلقي موعظته المؤلمة فتهالك على مقعده تعباً منهوكا دون ان ينظر الى احد وكأنه نسي كل من كانوا حوله واستغرق في بيداء التفكير ! احدثت اقواله تأثيراً خاصاً في النفوس حتى ان السكون عمّ خلال فترة من الزمن ولكنه سكون راحت تمطر بعده الشتائم على المتكلم وتغرقه الضحكات فمن قائل !

— احسنت في خطبتك !

الى آخر يعقب بقوله : — إنه يهذي . . وثالث يصيح :— يالك من موظف صغير حقير ! وهكذا . .

فرفع مارميلادوف رأسه فجأة واهاب بزميله قائلا :

ـــ هيـا لنخرج يا سيدي .. رافقني .. انني أقطن في دار « كوزل » في نهاية الباحة لقد حان الوقت فهيا الى حيث كاترين ايفانوفنا !

لم يكن راسكو لنيكوف بأقل منه لهفة على الرحيل فقد كان يفكر منذ برهة في مساعدة مارميلادوف الذي برهن على ان لسانه اقوى من ساقيـه اللذين ما كانا يعاونانه على الوقوف مما جعل مهمة راسكو لنيكوف عسيرة !

كانت المسافة التي يتحتم عليهما اجتيازها تتراوح بين مائتين وثلاثمائة خطوة فكان كلما اقترب الثمل من المكان المنشود كلما اكتسحت كيانه الرهبة والمهابة .. راح يقول لمرافقه بانفعال :

ـــ لست اخشى كاترين ايفانوفنـا في هـذه اللحظة . . لا ولا ان تجذب شعري وتقتلعه اذ ماذا يهمني ان تقتلع شعر رأسي ؟ بل انني اؤكد انه من الضروري ان تفعل ذلك . كلا ليس ذلك ما اخشاه في هذه اللحظـة ولكنني اخاف من عينيها .. نعم عينيها ومن اللطخات الحمراء التي تزين خديها واخاف ايضاً من تنفسها .. ترى هل شاهدت من قبل كيف يتنفس المصابون بذلـك المرض ؟ خصوصاً عندما يستهدفون لمشاكسة او احتدام جـدال ؟.. انني اخاف كل هـذا واخاف سماع صوت الاطفال وهم يبكون لأنني لا اعرف ماذا سيكون حالهم اذا كانت سونيا لم تأتهم بما يأكلون .. اما الضرب فلست اخافـه واعلم يا سيدي ان ذالك الضرب لا يؤلمني بل على العكس انه يهيئ لي احياناً لوناً من اللذة لا قدرة لي شخصياً على الاستغناء عنها ! انه خير .. نعم من الخير لي ان تنفحني « علقة » ترفه بها عن نفسها .. ذلـك افضل ولا شـك .. والآن ها هي الدار . . بيت « كوزل » إن صاحبها الماني غني مهنته صانع اقفال .. هيا قدني !

اجتاز الزميلان الباحة وراحا يتسلقان الطبقـات الاربعة التي تفصلها عن غرفة كاترين ايفانوفنا .. فكانوا كلما امعنوا في الصعود ازداد الظلام حلكة . .

كانت الساعة تشرف على الحادية عشرة وعلى الرغم من أن الليل في بترسبورغ لا يكون ليلا بالمعنى الحقيقي في مثل ذلك الوقت من العام، إلا ان ذلك لم يمنع العتمة من ان تخيم على أعلى السلم !

كان الباب الحائل اللون الذي يشرف على نهاية السلم من الأعلى مفتوحاً ، وكانت هناك ذبالة تضيء غرفة حقيرة جداً لا يتجاوز طولها عشر خطوات ؛ وكان يمكن رؤية كل ما فيها من « بسطة » السلم فاذا بالفوضى تعمها . .

كان كل شيء فيها مهملا منثوراً وعلى الأخص ألبسة الاطفال . وفي احدى الزوايا نشر دثار بال تملؤه الثقوب كان يخفي وراءه ولا شك سريراً . اما في الغرفة فلم تكن العين لتقع على كرسيين وديوان محطم يغطيه قماش من « المشمع » في حالة سيئة جداً ! وامام الديوان انتصبت طاولة مطبخ مصنوعة من خشب الصنوبر لم يكن يغطيها طلاء ولا غطاء ! وعلى ركنها كانت شمعة مضاءة تلفظ انفاسها في شمعدان من الحديد . كان مارميلادوف يشغل غرفة خاصة تشكل هذه ممشى لها وكان الباب المؤدي الى تينك الغرفتين — على ما في هذه الكلمة من استعارة جريئة — مواربا وكانت تنبعث من ورائه صرخات وصيحات . . كان هناك من يضحك ويقهقه كما هو حال الذين يلعبون الورق ويحتسون الشاي ويتسامرون ! فكان يمكن التقاط بعض الكلمات دون ان يكون لها مؤدى واضح !

تعرف راسكولنيكوف فوراً على كاترين ايفانوفنا . كانت امرأة شديدة النحول دقيقة القوام متوسطة الطول متناسقة التكوين . كانت تحتفظ بشعرها الكستنائي البديع ولكن خديها كانا أقرب الى اللطختين لشدة احمرارهما . كانت تذرع غرفتها جيئة وذهاباً ضامة يديها الى صدرها متصلبة الشفتين ، تتنفس تنفساً قصيراً متقطعاً وكانت عيناها تلتمعان من الحمى لكن نظراتها كانت

حادة قاسية فكان الناظر اليها تحت ذلك الضوء المتذبذب الخافت يحس عما يشيعه ذلك الوجه المحموم بفعل السل من أسى في النفس . خمن راسكولنيكوف سنها فاعطاها ثلاثين ربيعاً فكانت والحالة هذه لا تشكل مع مارميلادوف زوجاً متجانساً ..

لم تكن قد سمعت صوت خطى الوافدين ولم تكن قد رأتهما .. إذ كانت مستغرقة في خواطرها لا تسمع ولا ترى ! وكان جو الحجرة خانقاً مع ذلك لم تكن النافذة مفتوحة وكانت تنبعث رائحة عفن شديدة من السلالم مع ذلك لم يكن الباب المؤدي اليها مغلقاً .. وكانت سحابة من دخان السجاير تكتسح غرفتها من الغرفة المجاورة فيشتد سعالها ومع ذلك لم تكن مغلقة ذلك الباب الذي كانت تنبعث من ورائه تلك السحب ! وكانت صغرى الفتيات ولها من العمر ست سنين ، نائمة على الارض بل قل منكفئة على الارض منطوية على نفسها ورأسها متكئ على الديوان . أما الطفل — وكان اكبر من أخته بعام واحد — فقد كان يرتجف في زاوية الغرفة وهو ينتحب .. لا شك أنها كانت قد فرغت للتو من ضربه ! وأما البكر وهي في التاسعة من عمرها ، طويلة القامة بالنسبة الى سنها ، رقيقة كعود الثقاب ، فكانت شبه عارية الا من قميص مهلهل ممزق وعلى كتفيها العاريتين دثار من الصوف ادخلت عليه الام تعديلات كثيرة لم تستطع برغمها ان تجعله يبلغ ركبتيها .. كانت واقفة في زاوية الغرفة تضم الى صدرها أخاها الأصغر وتطوقه بساعدها العاري الهزيل الضامر كانت كأنها تهمس في أذنيه بكلام يمنعه من معاودة البكاء بينما كانت هي ترتعد هلعاً وتتابع أمها بعينيها الداكنتين الكبيرتين اللتين كانتا تبدوان أكثر اتساعاً في محجريهما من ذلك الوجه الذي يكسوه الرعب المنيف .

لم يدخل مارميلادوف الى الغرفة بل جثا على ركبتيه ودفع راسكولنيكوف

الى الامام . فلما أبصرت المرأة بذلك الغريب يدخل غرفتها توقفت ساهمة امامه وقد انتشلها دخوله المفاجيء من شرودها .. وحاولت أن تفسر سبب وجوده فظنت أنه يقصد الغرفة المجاورة خصوصاً وان غرفة مارميلادوف كانت تستعمل كمدخل لها . فلما بلغت من تفكيرها هذا الحد اتجهت نحو الباب الآخر لتفتحه له دون ان تعيره التفاتاً . غير أن نظرها وقع فجأة على زوجها ورأته جاثياً على ركبتيه امام العتبة فندت عن صدرها صيحة غضبى وهتفت وقد أعماها الغضب :

— آه .. ها قد رجعت .. أيها اللص .. أيها الوحش ... أين المال ؟ ماذا في جيبك ؟ أرني ! إن هذا ليس ثوبك فأين ذلك الثوب ؟ أين المال ؟ تكلم !.. وارتمت عليه تفتشه .. فأبعد مارميلادوف ذراعيه بسكون واستسلام ليساعدها على إتمام مهمتها . لم تجد في جيبه ولا « كوبيكاً » واحداً !

صاحت به :

— ماذا عملت بالمال اذن ؟ آه يا ربي .. هل يمكن ان تكون قد ثملت به كله ؟ لقد كان في الصندوقة اثنا عشر روبلا قبل أن تسطو عليها ..

وفجأة استبد بها الغيظ والغضب فأمسكت بشعره وجذبته بكل قواها الى الغرفة بينما كان — هو — يسهل عليها تلك المهمة في حدود طاقته مستجيباً لها محاولا اللحاق بها على ركبتيه وهو على جثوه ! وبينما كانت زوجته تهزه من شعره بعنف وتضرب رأسه بأرض الغرفة ! كان هو يردد موجهاً الكلام لرفيقه :

— إن هذا يفيدني يا سيدي ! إنه لا يؤلمني .. واستيقظت الصغيرة التي كانت نائمة على الارض وراحت تصرخ باكية معولة ولم يتمكن الطفل الذي الى جانب

أخته الكبرى من مقاومة خوفه اكثر من ذلك فانخرط هو الآخر في بكاء مرير وازداد التصاقاً باخته التي كانت بدورها ترتعد من الرعب فكانت ترتجف كورقة في مهب ريح عاتية !

كل ذلك والمرأة ما فتئت تصيح يائسة :

ـ لقد انفقه كله على الشراب .. لقد شربه كله ! وهذا الثوب ليس ذاك الذي اشتريته له .. رباه لقد سقطنا من جديد بين انياب الجوع .. الجوع ! وراحت تشير بيدها الى أطفالها وهي تتلوى من الألم وتقول :

ـ آه من هذا الوجود المريع !

ثم زمجرت قائلة : ألا تستحي .. ألا تخجل ..؟! لم تكتف بما فعلت بل توجهت نحو راسكولنيكوف وصاحت به :

ـ لقد جئت من الحانة معه ؟ لقد سكرت معه ؟ كنتما تشربان معاً ... أخرج من هنا ..

تهافت الشاب طالباً النجاة دون أن ينبس ببنت شفة وكان باب الغرفة الاخرى الذي كان مواربا قد فتح على مصراعه وبان خلال الفتحة بعض الفضوليين الذين حلا لهم مشاهدة تلك التمثيلية المؤلمة ! وكانت الاعناق مشرئبة و « النظارة » متلهفون بين مدخن لفافة ومولع بغليون ! كانت اجسادهم ملفوفة في جلابيب نوم ممزقة بالية وكان بعضهم مرتدياً ألبسة صيفية خفيفة اقرب الى التبذل وآخرون في أيديهم ورق اللعب ! وكان يزيد في تسليتهم قول مارميلادوف وهي تجذبه من شعره إن ذلك يفيده ولا يؤلمه ! ولقد تدافع اؤلئك المتطفلون حتى كادوا ان يبلغوا حجرة جيرانهم لو لا أن اوقفتهم همهمة حانقة مغضبة ! تلك الهمهمة كانت تنبعث من صدر أميلي ليبيوشسبل التي ظهرت على « المسرح » لتعيد

الامور الى نصابها على طريقتها وهي تسقي المرأة المسكينة سيلا من الشتائم ملوحة لها للمرة المائة بوعيدها القاضي بتخلية الغرفة منذ الصباح !

استطاع راسكولنيكوف قبل خروجه ان يجمع في قبضته الدريهات القليلة التي تبقت لديه من « الروبل » الذي انفق بعضه في الحانة وان يضعها خلسة على حافة الكوة . فلما بلغ السلم ، ندم على ما فعل وود لو استعاد ما منح وراح يناجي نفسه قائلا :

« يا لها من حماقة تلك التي ارتكبتها في التو واللحظة ! ان لديهم « سونياهم » بينما انا في مسيس الحاجة الى المال . » . غير انه تذكر اقوال مارميلادوف حين قال : « ان سونيا بحاجة الى الأدهان والى كل متطلبات النظافة » فأيقن أنه لن يستعيد منحته حتى ولو اتيح له ان يتسلل دون ان يعترضه احد ! لا لن يفعل ذلك .. ان وسائل النظافة غالية الثمن !

تابع سيره نحو غرفته وهو يغمغم : « ان سونيا لا تستطيع الكسب بسهولة ... ان ملاحقة الغني بقصد السيطرة عليه لا تخلو من متاعب واخطار ! نعم ... لولا دريهاتي لما كان باستطاعة افراد هذه الاسرة البائسة الا التطلع بلوعة وحرمان الى الطعام الذي لا يستطيعون نيله ! مسكينة سونيا ... يا للمهنة التي دفعوها اليها بتأثير الحاجة ! نعم ... لقد ذرفوا دمعاً سخيناً في بادئ الامر لكنهم سرعان ما اعتادوا تلك التضحية وألفوها . نعم ... ان الانسان نذل حتى انه يعود نفسه على تقبل كل شيء !

ثم تابع تفكيره وقال يخاطب نفسه :

« هيا يا فتى ... لقد كنت قاسياً في حكمي . اذ لو لم يكن الانسان في حقيقته نذلاً أو بالاحرى لو لم تكن النذالة من صفات الانسانية لكان معنى ذلك ان كل ما في الوجود ليس الا اباطيل ... نعم أراجيف خيالية لا حد لها ... ولا شك أنها كذلك !

الفَصلُ الثّالِثُ

استيقظ راسكو لنيكوف متأخراً بعد ان حفل نومه بالأحلام المزعجة ، فلم يفده نومه الطويل في استعادة قواه . كان مزاجه حاداً مستطيراً وبدت الغرفة لناظريه بشعة كريهة . بدت أشبه بقفص طوله ست خطوات ذي مظهر عريق بالبشاعة بوريقاته الباهتة التي تزين جدرانه ، يسبح الغبار الكثيف في ارجائها ، منخفضة جداً حتى انه كان على طويل القامة ان يتحاشى ارتطام رأسه بسقفها، اما الأثاث فكان يتناسب معها : ثلاثة مقاعد متداعية قديمة ومنضدة مدهونة « مجازاً » في احد اركانها وقد تراكمت فوقها الكتب والدفاتر التي يشهد الغبار الذي يعلوها انها لم تمس منذ أمد بعيد !.. وكان هناك كذلك « اريكة » كبيرة تشغل المساحة القائمة بين منتصف الغرفة والجدار مجللة بقماش هندي ممزق كان راسكو لنيكوف يستعملها بدلاً من السرير ! وكثيراً ما كان ينام عليها بألبسته كلها دون ان يبسط فوقها غطاء ما ويلتحف معطفه القديم ، معطف التلمذة ! وكان يستعيض عن الوسادة — لافتقاره الى واحدة — بكيس صغير حشر فيه كل ما وصلت اليه يده من ملابس داخلية قذرة أم نظيفة على قدر حاجته .. وكذلك كانت هناك منضدة صغيرة امام « السرير » !

كان من العسير على المرء الانحطاط الى اسوأ من هذا المصير ! . . مع ذلك فان راسكو لنيكوف كان في حالة نفسية تجعله يرتضي تلك الحقارة فكان منظر كوخه الزري يبعث في نفسه نوعاً من السرور . كان قد ألف العيش في عزلة تامة كالسلحفاة التي تلجأ الى بيتها الطبيعي .. غير انه لم يكن راضياً عن الخادم

ذات الوجه الذي يثير في نفسه حقداً مريراً كلما أطلت ذات صباح لتراقب ما يجري في غرفته . تلك هي عادة بعض المخبوابن الذين يثورون بفعل بعض الاشياء دون بعضها الآخر ! وكانت صاحبة الدار قد انقطعت عن تقديم الطعام اليه منذ اكثر من خمسة عشر يوماً . فلم يفكر — رغم ذلك الصوم الاضطراري — في وجوب النزول اليها ومناقشتها الأسباب ! وكانت « ناستاسيا » وحدها — وهي الطاهية والخادم الوحيدة في المنزل — راضية عن ذلك المستأجر لأنها كفت نهائياً عن ترتيب سريره وتنظيف غرفته اللهم الا اذا صدف أن مرت من هناك مرة في الاسبوع وبيدها مكنستها .. وكانت هي التي أيقظته هذا الصباح — لدهشته — وهي تهيب بهِ ان ينهض :

— هيا انهض ! كيف تنام الى هذا الوقت وقد تجاوزت الساعة التاسعة ؟ لقد أتيتك بالشاي فهلا ارتشفته ؟ سوف تموت من الجوع اذا بقيت على حالك !

فتح المستأجر عينيه وارتعد ! فقد عرف صوت ناستاسيا ! ولكنه تمالك اعصابه وقال بصوت خافت :

— أهي صاحبة الدار التي ارسلت إلي هذا الشاي ؟

وضعت امامه آنية الشاي الخاصة بها والتي كانت فيها بقايا الشاي الذي تحدثت عنه ثم القت بجانبها بقطعتين صغيرتين من السكر المصفر وقالت : — آه .. صاحبة الدار !... ليكن !

تناهض الشاب وراح يبحث في جيوبه — وكان نائماً بألبسته كاملة — ثم اخرج قطعة نقود صغيرة وقال :

— هاك ياناستاسيا إئتني اذا اردت بقطعة صغيرة من الخبز ثم اذهبي الى اللحام واشتري لي بعضاً من « النقانق » واجهدي ان تكون

رخيصة الثمن !

— سآتيك بالخبز حالاً . اما « النقانق » فانني أفضل عليهـا حساء الملفوف الذي عندنا بعضه ؛ فلقد رفعت لك جانباً منـــه مساء امس ولكنك تأخرت في عودتك ! انه حساء لذيذ جداً ..

عادت اليه بعد قليل بالخبز والحساء فمضى يأكل بنهم بينما جلست الى جانبـه وراحت تثرثر . كانت من تلك النسوة القرويات اللاتي يتمتعن بلسان لا يدركه الاعياء ! قالت تحدثه :

— تريد « براسكوفي بافلونا » أن تشكوك الى البوليس !

فأربد وجه راسكو لنيكوف واجاب مستفسراً :

— تشكوني الى البوليس ؟ ماذا يزعجها مني ؟

— انك لا تدفع لها ولا تريد اخلاء الغرفة وهذا ما يزعجها منك !

فهمهم بين اسنانه يقول :

— يا للشيطان .. هذا ما ينقصني في هذه الآونة ! إن ذلك يأتي في غير موضعه !

ثم تابع بصوت مرتفع يقول :

— يا لها من حمقاء ! سوف اقابلها اليوم وسأتحدث معها في الامر !

— قد تكون حمقاء كما تقول مثلي تماماً .. ولكن انت الذي تنعم بالذكاء الألمعي لمَ تبقى هكذا منزوياً دون أن تمـد أنفك الى الخـارج ؟ كنت من قبل — على حد قولك — تعطي دروساً للاطفال فلمَ لاتقوم الآن بأي عمل ؟

فأجابها بلهجة جافة دون أن يعي ما يقول :

— انا أعمل شيئاً ما ..

— ماذا تعمل ؟

ــ عملا . . .

ــ أي عمل ؟

فأجابها برزانة بعد صمت قصير قائلا :

ــ انني أفكر !

كان مزاج ناستاسيا مرحاً حتى انها اذا ابتهجت لشيء مها بلغت تفاهته ، راحت تضحك بسكون ضحكة مكبوتة تهز جسمها كله وتجعلها تتلوى بعنف حتى ينتهي بها الحال غالباً الى قذف ما في احشائها ! تلك كانت احدى ميزاتها ولقد كانت فريسة لتلك الميزة في تلك اللحظة عند سماعها جواب الشاب !

ولما استطاعت النطق قالت :

ــ هلا فكرت على الأقل .. في كثير من المال ؟

ــ لا يمكن إعطاء دروس اذا لم يكن لدى المرء أحذية وعلى كل حال انني لا ابالي !

ــ لا عليك ! . .

واسترسل بلهجة شرسة وكأنه يناقش أفكاره الشخصية وقال :

ــ دروس ؟ لا يجني الانسان منها الا النذر القليل . .

ــ لعلك تريد اكتساب ثروة كاملة دفعة واحدة . .

فأجابها بلهجة مطمئنة بعد تفكير قصير قائلا :

ــ نعم ثروة كاملة . .

ــ مهلا .. انك تخيفني لأنك تتوق الى الوثوب الخطر .. وعلى فكرة ، لقد وردت اليك رسالة في غيابك كدت انساها . .

ــ ماذا ؟ رسالة إلي ؟ وممن ؟

— ممن ؟ لست ادري ! لقد أعطيت الساعي من جيبي الخاص ثلاثة «كوبيكات» فهلا أعدتها إلي ؟

فهتف بها راسكو لنيكوف قائلا وقد هزته المفاجأة :

— بحق السماء اذهبي وجيئيني بها ! يا إلهي !

لم تمض دقيقة حتى كانت الرسالة بين يديه ، كان يتوقع ان تكون من أمه التي تقطن مقاطعة « ر ... » وصدق ما توقعه ! فلما اخذهـا بين يديه شحب لونه .. فقد انقطعت عنه الرسائل منذ أمد بعيد ؛ وكانت افكاره تزيدفي إيلامه.. وابتهل الي الخادم بضراعة أن تذهب وتتركه لوحدته :

— هاك « كوبيكاتك» الثلاثة يا ناستاسيا وانصرفي .. انصرفي بحق الرحمن.. بحق السماء عجلي بالانصراف !

كانت يده ترتعد والرسالة فيها ، ولم يكن يريد فضها بحضور الخادم . كان يشعر بحنين للبقاء « وحده » مع ذلك الكتاب، فلمـا ارتحلت ناستاسيا ، حمل الرسالة الى شفتيه وقبلهـا وراح يتمهل في معـاينة العنوان الذي كانت تحمله ! .. لقـد تعرف على كتابة امه العزيزة ، ذلـك الخط الدقيق المائل ، خط امه التي علمته اول مبادىء القراءة والكتابة .. واخيراً فض الغلاف فطالعته رسالة مطولة سطرت على ورقتين كبيرتين امتلأت صفحاتها كلها بكتابة دقيقة متلاحقة .

عزيزي روديا : ها قد مضى شهران لم اتصل بك كتابة خلالها ، ولقد تألمت لذلك وقاسيت من هذا الانقطاع حتى اني لم استطع النوم الليلة الماضية لكثرة ما فكرت فيك . أعتقد أنك لن تلومني على سكوتي الطويل القسري ! وانت تعلم كم احبك .. فأنت كل ما تبقى لنا : لدونيسـا ولي ، انت كل شيء بالنسبة الينا ، كل املنا وايماننا بالمستقبل ... لا تسل عن حالي حينما علمت أنك

تركت الجامعة منذ شهور بسبب ضيق ذات يدك ، وان دروسك انقطعت وكذلك مواردك !

كيف استطيع يا ولدي ان اساعدك وانا لا امتلك الا مائة وعشرين روبلا في العام هي كل جرايتي .. ان الخمسة عشر روبلا التي بعثت بها اليك منذ اربعة اشهر ، كنت اقترضتها — كما تعلم — من احد الباعة عندنا : فاسيلي ايفانوفيتش فاخروشين . انه رجل باسل وقد كان صديقاً لأبيك . بيد أنني عنـــد ما فوضته بقبض جرايتي استيفاء لدينه ، لم اتمكن من الوفاء قبل اليوم، مما جعلني خـــلال هذه المدة عاجزة عن امدادك باي عون . اما الآن والحمـد لله ، فانني اعتقد ان بمقدوري ان امدك بعض الشيء ، وعلى العموم نستطيع اليوم ان نباهي باننا في حال يتحسن باطراد الامر الذي بادرت الى اطلاعك عليه .. فهل خمنت يا عزيزي روديا ما هو السبب ؟ ان اختك يا ولدي تقطن منذ شهر ونصف معي واننـا نأمل ان لا نفترق بعد اليوم ابداً . حمداً لله فقد انتهت آلامهـــا واسوف اطلعك على دقائق الامر بالترتيب لكي تدرك كيف وقع ذلك ، الامر الذي اخفينـاه عنك حتى اليوم .

عند ما كتبت لي منذ شهرين انه ترامي الى سمعك ان اختك دونيـا موضع معاملة سيئة من قبل مستخدميها آل سفيدريكايلوف وانك تسألنا ايضاحاً عن ذلك يفي بحاجتك الى الاطمئنان ، ما كنت اعرف كيف اجيبـك . . . ولو أنني اخبرتك بالحقيقة كلها لهجرت المدينة واقطعت الطريق مشياً على قـدميك لتصل الينا . ذلك لانني اعرف عواطفك وافهم عقليتك ، فما كنت لتترك اختـك عرضة للامتهان والاعتداء عليها حتى انني شخصياً كنت يائسة ولكن لم يكن بوسعي عمل شيء ! زد على ذلك أنني ما كنت اعرف الحقيقة كلها . . . وكان أسوأ ما في الامر ان اختك « دونيا » لما عملت عندهم كمربية منذ عامين ، استلفت مائة روبل

بشرط ان تحسم على دفعات من اجورها الشهرية ، الامر الذي جعلها عاجزة عن التحرر من ربق مستخدميها قبل وفاء السلفة ... وهذا المبلغ (واستطيع الآن أن اصارحك يا عزيزي روديا) كانت استلفته بصورة خاصة لترسل اليك منه الستين روبلا التي تلقيتها منا في العام الماضي ... وقد خدعناك كلتانا حينما اوهمناك انه مال ادخرته اختك من قبل ... والان اطلعك على الحقيقة كلها لأن الله منّ علينا واراد ان تختلف اوضاعنا كلها وتتحسن ولأنني اريدك ان تدرك الى أي حد تحبك اختك دونيا واي قلب عطوف نادر المثيل تحمل بين ضلوعها ... والقضية هي ان السيد سفيدريكايلوف كان يعاملها في البداية بخشونة وصلف ... فكان يعرضها على مائدة الطعام لمختلف انواع الهزء والمشاكسة المعجوجة ... ولا اريد الاسترسال في شرح هذه التفاصيل المؤلمة كي لا أثيرك واحرك غضبك دون جدوى طالما أن هذه الامور قد انتهت الان ولن تعود ...

موجز القول ، كان مركز دونيا أليماً لدى آل سفيدريكايلوف رغم ما كانت تلاقيه من حسن المعاملة من زوجته « مارتا بيتروفنا » ومن كل سكان المنزل الآخرين ، لكن ماذا نتج عن ذلك ؟ تصور ان ذلك المأفون كان منذ امد بعيد يضمر ميلا نحو دونيا وانه كان يخفي كل ذلك تحت ستار من الغلظة والفظاظه والاحتقار ! ولعله كان يخجل من نفسه او انه استنكر ما يبيت لها من آمال محرمة وهو الطاعن في السن ، رب الاسرة الكبيرة ... ومن اجل ذلك كان ينقم على دونيا ويحقد عليها ... ولعله كان يقصد من وراء تلك القسوة والسخرية التي كان يعرضها لها ان يجعل الباقين يحذون حذوه في معاملتها . غير انه لم يستطع الصمود والمثابرة على خطته ... وبلغ منه الهوس أن راح يفاتح دونيا بصراحة بما في نفسه ويعرض عليها عروضاً دنيئة ممنياً إياها بشتى المكافآت والعطاءات ومؤكداً لها استعداده لهجر اسرته والفرار معها الى حيث ينعم بحبه الاثيم سواء

أ كان ذلك في إحدى ممتلكاته النائية ، أو في خارج البلاد ... لك أن تتصور بعد هذه المقدمة في أي ذعر وأية رهبة كان تعيش أختك المسكينة . . وما كان لها أن تفكر في ترك عملها ، ليس بسبب السلفة الواجبة التأدية فحسب ، ولكن لتجنيب مارتا بيتروفنا الألم الذي سيحدثه لها علمها بالأمر ... وهي لو علمت به ، أو شعرت بظل من الشك في نفسها في هذا الصدد ، لأحدثت في الاسرة مشاحنات لا تؤدي إلا إلى أسوأ النهايات والاحتمالات . أضف الى ذلك الفضيحة التي كان يمكن أن تلحق بدونيا ، رغم أننا لم نتمكن من اجتناب هذه الفضيحة كلياً . .

كانت دونيا لا تستطيع الفرار من ذلك البيت المقوت ، قبل ستة اسابيع على الاقل ، وذلك بنتيجة ظروف شتى ... وانت تعرف اختك ، وتعرف كم هي حكيمة عاقلة متينة الخلق ! وهكذا عوات دونيا على الاحتمال ، مطمئنة الى شجاعتها التي لا تخونها في مجابهة تلك الأمور ، مهما كانت الظروف حرجة ، والملابسات دقيقة خطيرة ! وقررت الامتناع عن الكتابة الي حول هذا الموضوع ، كي لا تثير الرعب في نفسي . لذلك فان رسائلها التي كانت ترد الي تباعاً ، لم تكن تحمل أي تلميح حول هذا الموضوع ؛ فجاءت الخاتمة بشكل فجائي غير متوقع ! ذلك أن « مارت بيتروفنا » — بصدفة عجيبة — داهمت زوجها في البستان ، وهو يبتهل الى دونيا ، ويتوسل اليها ... ففهمت الموضوع على عكسه ، واتهمت دونيا بما كان ينبغي لها أن تتهم به زوجها . فقام بينهما في ذلك البستان مشهد مريع ... كانت « مارت بيتروفنا » ترفض الاستماع الى ايضاحات « دونيا » ، بل انها سمحت لنفسها أن تضربها وأن تصيح في وجهها طيلة ساعة من الزمن ، وامرت اخيراً ان تعاد الى المدينة — عندنا — على عربة قروية عادية ، ألقيت فيها حاجاتها دون نظام ولا ترتيب ... وتكدست في تلك

العربة ألبستها « وبياضاتها » وكل ما حملته معها في ذهابهـــا إلى ذلك البيت ...
وكانت السماء تمطر مطراً غزيراً ، واضطرت دونيا على ما كانت عليه من تجريح وخزي ، أن تقطع سبعة عشر فرسخاً برفقة الفلاح ، وفي عربة مكشوفة .
فاحكم الآن بنفسك على نوع الجواب الذي كان يمكنني إرساله اليـك ، جوابـاً على كتابك الذي بعثت به إلي منذ شهرين ؟ . لقد كنت يائسة ، لا أكاد أفقه شيئاً مما يدور حولي ، فلم أجرأ على مكاشفتك بالحقيقة ، وإلا لتجرحت كرامتك، ولاستثارك الغضب ، ولكنت أتعس المخلوقات . . خصوصاً ما كنت لتستطيع الاتيان بأي أمر ، الا زيادة موقفك سوءاً وخطورة ! هـذا مع العلم أن دونيـا حذرتني من مفاتحتك بالموضوع ، فلم أجد في نفسي القدرة على تدبيج رسالة تحمل تفاصيل تافهة مغلوطة لا أعرف كيف أصوغها !

استمرت الافتراءات تروج هنا في المدينة ، طيلة شهر كامل . وكنـا هدفـاً مكشوفاً لها ؛ وبلغت من شدتها أننا – دونيا وانا – ما عـــدنا نستطيع وطء أرض الكنيسة بأقدامنا ، خشية ألسنة الناس الحداد ، ونظرات الاحتقـار التي كنا نستهدف لها ، والهمسات التي كانت ترتفع في استقبالنا ؛ وبلغ الحـال حداً لم يعد بعضهم يخجل من إبداء آرائه أمامنا وجاهياً دون خفر ولا حيـاء .. وأدار معارفنا ظهورهم لنا ، وقلب لنا أصدقاؤنا ظهر المجن . حتى امتنع بعضهم عن توجيه التحية الينا ومخاطبتنا .. ثم بلغني من مصدر موثوق أن بعض المستخدمين والموظفين الصغار ، تآمروا بينهم ، وقرروا إهانتنا بشكل دنيء ، بـأن يلطخوا باب مسكننا بالقطران ، حتى أن مالكي الدار راحوا يدعوننا الى اخلائهـا ...
وكانت « مارت بيتروفنا » وراء كل هذه التخرصات والأفاعيل ؛ فقـــد راحت تنشر القصة كما فهمتها في كل مكان تؤمه ، لتنال من دونيا وتحط من قيمتهـا ..

وكانت معرفتها بالناس من مختلف الطبقات تسهل مهمتها ؛ خصوصا وانها ميالة بطبعها الى الثرثرة والتحدث عن شؤونها الداخلية ، الأمر الذي كان يهددنا بانتشار تلك القصة ، ليس في مدينتنا فحسب ، بل في المقاطعة كلها ؛ وبلغ من حزني أن وقعت فريسة المرض ، على عكس دونيا التي اظهرت جلداً عجيباً ...

ليتك رأيتها وشهدت كيف كانت تحتمل كل هـــذه الافتراءات المرذولة ، وتشجعني على الاحتمال وتعزيني بالمصاب لتخفف وطأته في نفسي . انهـا ملاك ! وقد رحمنا الله وغمرنا باحسانه إذ انتهت آلامنا .. ذلك أن السيد سفيدريكايلوف قرر الاعتراف بذنبه ، والاقلاع عن خطئـه .. ولعله أشفق على دونيا ممـا حلّ بها بسببه ، فشرح « لمارت بتروفنا » الأمر بحذافيره ، وقـــدم اليها الأدلة التي تنادي ببراءة دونيا الكلية وتدعمها .. واذكر منهـا بصورة خاصة ، رسالة كانت دونيا قد وجهتها اليه قبل أن تفاجئها مـارت بتروفنـــا في الحديقـة ، كانت تطلب اليه فيها أن يكف عن ملاحقته لها ، وتعتذر له فيهـا عن ملاقاته في الموعد الذي رجاها أن توافيه فيه .. — وقد بقيت تلك الرسالة بعـد انسحاب دونيا بين يدي السيد سفيد ريكايلوف — وتعتب عليه فيها سلوكه المشين حيـال زوجته مارت بتروفنا . وتذكره بانه متزوج ورب عائلة ، وإن تصرفه سوف يجلب التعاسة والشقاء للأسرة كلها . وتدعوه الى الكف عن مضايقة فتـاة مسكينة عزلاء ، لا تملك عن نفسها دفاعـــاً . . . كل ذلـــك بلهجة عنيفة شديدة حاسمة .

خلاصة القول يا عزيزي روديا ، كانت تلك الرسالة مؤثرة ونبيلة ، حتى اني لم أتمالك نفسي عن الانتحاب عند ما قرأتها . ولا أستطيع اليوم أن أعيد تلاوتها دون ان تملأ الدموع عيني .. وجاءت شهادة الخدم مصداقاً لصحة ما جاء في رسالة دونيا ، مؤيدة لها . أولئك الخدم الذين ظهر أنهم كانوا يعرفون اكثر

مما قدر السيد سفيد ريكايلوف نفسه ، كما يحدث دائماً في مثل هـذه الحالات ..
وقد ذهلت « مارت بيتروفنا » للنبأ ، فكان صدمة أليمة لها ، زادت شدتهـا عن الصدمة الأولى — كما اعترفت بنفسها بعدئذ — .. ولم يبق لديهـا أي شك في براءة دونيا .. وهكذا لم تكد شمس الصباح تشرق — وكان اليوم أحداً — حتى هرعت الى الكنيسة تبتهل الى العذراء شديدة القدسية أن تساعدها على احتمال هذه التجربة العنيفة ، والقيام بالواجب المترتب عليها . ثم جاءت تزورنا بعد ذلك مباشرة ، دون أن تتوقف في الطريق ،فقصت علينا الخبر بحـذافيره ، وبكت بحرارة واندفعت — تحت تأثير ندمها وشعورها بالاثم — الى دونيا تعانقها،وتطلب اليها الصفح عنها . ثم غادرتنا وطافت في انحاء المدينة كلها ، فلم تترك أحـداً من معارفها الا وأزجت دونيا أمامه مديحاً حاراً ، وسكبت سيلا من الدمع وهي تشيد بنقاء عواطفها ، ونبل اخلاقها .. ولم تكتف بذلك بل راحت — زيادة في تبرير موقف دونيا وسعياً وراء رد اعتبارها السليب إليهـا — راحت تتلو رسالتهـا بصوت عال أمام الناس ، تلك الرسالة التي حدثتك عنها ، والتي وجهتهـا دونيـا الى السيد سفيد ريكايلوف .. بل وسمحت لمن أراد ان ينسخ عنها صورة ليحتفظ بها ، ويطلع عليها من يشاء (وهو تصرف لا أعتقد أنه في محله) . . وبهـذه الطريقة لبثت « مارت » عدة أيام متتالية تطوف المدينة ، ساعية لاصلاح ما افسدت، فلم تترك أحداً من معارفها الا وحدثته بالنبأ الجديد ، حتى أن بعض هؤلاء راح يبذها في نشر الخبر والتعقيب عليه !.. وكانت زيارة مارت بيتروفنا متوقعة لكل مكان ، فكان يعرف سلفاً انها ستقرأ الرسالة في يوم كذا ، حتى ان الذين سبق لهم سماع ما جاء فيها ، كانوا يقصدون حيث تكون ، ليستمعوا من جديد الى تلك التلاوة العتيدة !

انني أعتقدت أن مارت بيتروفنا بالغت كثيراً في امثال هـذه التصرفات ،

ولكنها كانت ترضي ضميرها وتحتكم لعقليتهـــا ؛ وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التعرف ان عاد الى دونيا اعتبارها ، وتحررت نهائياً من الوصمة التي كانت تهدد حياتنا ... وقد تلقت دونيا عروضاً كثيرة للتدريس في عدة دور ، الا انها رفضت تلك العروض ؛ واستعدنا مرة ثانية مكانتنا بين النـــاس الذين راحوا يعربون لدونيا عن مودتهم وأسفهم .. وكان لهذا الحدث اثر في تسهيل التحسن الذي طرأ على موقفنا ، اذ تقدم خطيب يطلب يد دونيا فوافقت عليه ، وانا بدوري بادرت الى اخبارك .. اذ رغم ان القضية قد بُتّ فيها دون اخذ موافقتك فاننـا — دونيا وانا — ندرك تماماً أنك لن تدرهـا في نفسك ، خصوصاً متى عرفت أننا ما كنا لنستطيع ارجاء البت فيها ، وانك ما كنت لتستطيع الحكم على الموضوع بدقـــة ، وانت حيث انت الآن . . . واليك تفصيل القضية كما وقعت :

بيير بيتروفيتش لوجين المستشار القضائي ، يمت بقرابة بعيدة الى مـارت بيتروفنا ، التي لعبت دوراً فائقاً في هذه المناسبة . فهو الذي بدأ يعرب لقريبته عن رغبته في التعرف الينا ؛ وقـــد استقبلناه بالطبع على احسن ما يكون الاستقبال ، وقدمنا له القهوة ... وفي اليوم التالي بالذات بعث الينا رسالة عرض فيها بأسلوب مهذب رغبته ، والتمس جواباً سريعاً وحاسماً .. وبيير هذا ، رجل اعمال جم المشاغل تعتبر الثواني ثمينة في حياته .. ولسوف ينتقل الى بيترسبورج! نلما أطلعنا على رغبته ، فوجئنا بها ، كما لا شك تتصور ذلك . لأنه كان عرضاً نجائياً غير منتظر .. فأمضينا كلتانا سحابة يومنا نمحص المسألة ، ونناقشها على كل الوجوه . صحيح ان سن بيير هذا يبلغ الخامسة والاربعين ، الا ان مظهره مرض جداً ، فيه جاذبية للنساء ؛ وهو الى جانب ذلك ذو مركز ممتاز ، ورجل مرموق رغم ما يبدو على محياه من كبرياء وترفع . لكن ذلك قد لا يعدو

المظهر ، مجرد مفعول النظارة الاولى ليس الا ؛ ولسوف تلقاه في بيترسبورج ، ولن يتأخر ذلك ، فآمل ان لا تحكم عليه باندفاع ودون روية ، كعادتك يا عزيزي ، اذا لمست في مظهره مما يستوقف الانتباه للوهلة الأولى ! اقول لك لمجرد القول ، رغم وثوقي من أنه سينتزع اعجابك ولأنه ، لكي نحكم على رجل من اي نوع كان ونتوصل الي معرفة سريرته ، ينبغي أن نتصرف حياله بحكمة واحتراس بالغين . اذا اردنا ان لا نقع في شطط يصعب تصحيحه بعدئذ وازالة آثاره . اما فيما يتعلق ببير بيتروفيتش ، فلدينا اكثر من دلالة على أنه من خيرة الرجال ، واوفرهم احتراماً !.. وقد صرح لنا في زيارته الأولى انه رجل ايجابي حقاً ، ولكنه ازاء عديد من النقاط ، يؤمن « بمبادىء الأجيال الحديثة » حسب تعبيره الخاص . وانه عدو التسرع في الحكم على الأشياء ... ولقد حدثنا في زيارته تلك بأشياء كثيرة ، لأنه — كما يبدو — معجب بنفسه بعض الشيء . يحب ان ينصت الناس الى حديثه ، مما لا يجدر اعتباره عيباً الا اذا شئنا ان نفرط في الحكم !... انني لم افهم شيئاً كثيراً من كل ما قال ، غير ان دونيا شرحت لي انه على الرغم من ان ثقافته الأساسية لم تكن عالية ، الا أنه ذكي تبدو عليه الطيبة والنبل ... انك تعرف عقلية اختك يا روديا . انها شابه ذات تفكير منطقي قويم ، مثابرة شريفة النفس رغم قلبها الحساس المتأجج كما لاحظت عليها ذلك . طبيعي أن ، لا دونيا ولا بيير ، ارتبط احدهما بالآخر بغرام مسبق . لكن دونيا — الى جانب كونها فتاة ذكية — شابة نبيلة كملاك السماء ، تعتبر ان من واجبها بناء سعادة زوجها الذي عليه بدوره ان يفكر بمثل ذلك ، الأمر الذي لا نجد لدينا أي دافع للشك فيه رغم السرعة التي رافقت البت في هذه القضية ! انه على العموم من الرجال الاذكياء النابهين ، فهو يدرك اذن ان سعادته العائلية ستكون اكثر توطيداً كلما كانت دونيا محفوفة بالسعادة والهناء . اما فيما يتعلق ببعض التباين

في الأمزجة وتوافه الميل ، والذي يرجع في الغالب الى تباين في الآراء — وهو الأمر الذي لا يمكن اجتنابه حتى في اكثر الاسر تفاهماً وسعادة — فان دونيا تكفلت في علاجه على طريقتها . انها تؤكد لي ، بأن ليس في الأمر ما يتعلق ويشغل البال ، وانها ستتغاضى عن كثير من الأمور شريطة ان تعم العدالة ، ويسود علاقاتها التجرد والنزاهة .

ان المظاهر كثيراً ما تخدع ياولدي ! فقد بدا لي هذا الرجل لأول وهلة غضوباً بشيء من الوقاحة ، غير أنني تأكدت من ان هذا الشعور يرجع الى صراحته الشديدة .. وقد صرح في زيارته الثانية لنا ، عقب ابلاغه موافقتنا ، انه قبل ان يصادف دونيا ويتعرف اليها كان مقرراً ان لا يتخذ لنفسه زوجة الا فتاة شريفة دون بائنة ، تذوقت معنى الحرمان والفاقة .. وفسر لنا وجهة نظره هذه قائلا : ان الرجل لا يجب ان يكون مديناً بشيء لزوجته ، ومن الخير ان تنظر المرأة الى زوجها نظرتها الى محسن كريم . هذا مع العلم انه عبر عن رأيه ذاك بشكل ألطف مما كتبته لك ، غير انني نسيت عباراته التي تفوه بها ، واكتفيت بأن نقلت اليك المعنى ! كما أنه لم يقل ذلك القول متعمداً متروياً ، بل ان تلك العبارة افلتت من فمه خلال حمى النقاش والحديث ، حتى انه بعد ان قال ما قال عاد يصلح ما تفوه به ، ويزيل ما قد يكون علق في نفوسنا من آثاره ! ولبثت أعتبر ذلك القول لوناً من الاهانة ، وفاتحت دونيا بعد ذلك بما خمنت ، فأجابتني بشيء من التبرم « ان الكلام شيء والأفعال شيء آخر » وهو قول على العموم لا يخرج عن الحقيقة !

أمضت دونيا ليلتها الأولى ساهرة .. تلك الليلة التي سبقت قرار

القبول .. كانت تظنني نائمة . لذلك فقد نهضت من فراشها ، وراحت تذرع غرفتها جيئه وذهاباً ، ثم جثت على الأرض وراحت تصلي بحرارة وقتاً طويلا ، امام « الايقونه » وفي الصباح ، انهت الي قرارها بالموافقة على الزواج !

قلت لك في متن هـــذه الرسالة ان بيير بيتروفيتش سيسافر الى بيترسبورج ، وان اعمالاً هامة تقتضيه ذلك السفر ، وانه سيفتتح فيهـا مكتباً للمحاماة فهو يزوال هذه المهنة منذ زمن بعيد ، وقد ربح مؤخراً قضية هامة . على ذلك ، تستطيع اعتبـاره يا عزيزي روديا ، ذا منفعة بالنسبة اليك ، وقد اتفق رأينا ــ دونيـا وانا ــ على انـك تستطيع منذ اليوم ان تبني مستقبلك الذي اصبح مؤمناً نهائياً . . آه . . ليت ذلك يتحقق بالفعل .. انه سيكون فعلا نجاحاً منقطع النظير ، او قل رضواناً من الله لا اكثر ولا اقل .. حتى ان دونيا لا تنفك تفكر في ذلك ! ... ولقد ألحنا الى بيير بيتروفيتش بذلك ، فكان جوابه متحفظاً ولكنه صرح بأنه يفضل بالطبع ان يدفع اتعاباً لواحد من افراد الاسرة طالما انه لن يستطيع الاستغناء عن امين سر له « سكرتير » ، شريطة ان يبرهن ذلك القريب على كفاءته ، فيشغل مركزه بجدارة (ولست عاجزاً عن ذلك ابداً !) ثم عبر عن شكوكه في ان تكون دراساته في الجامعة لا تسمح لك بمزاولة العمل في مكتبه ؛ وتوقفت المسألة عند هذا الحد . غير ان دونيا التي لا يشغلها امر اكثر من هذا ، ستعود الى البحث فيه من جديد ... لقـد وضعت منذ ايام مشروعـاً مستعجلا يتعلق بمستقبلك : هي تجزم بانك تستطيع ان تصبح بعد قليل مساعـداً لبيير بيتروفيتش ، بل شريكاً له في اعماله القانونية ، خصوصاً وانـك

طالب في كلية الحقوق ! انني شخصياً من هذا الرأي ، لذا تراني أسبح في هذه الأمال ، وأتيه في خضم هـذه المرئيات معتبرة كل ذلك حقيقة واقعة ! وعلى الرغم من تحفظ بيير بيتروفيتش الحـــالي ، وهو تحفظ واضح السبب لأنه لم يتعرف اليك بعد ، فان دونيا متأكدة تماماً من أنها ستبلغ الهدف بفضل نفوذها الذي تفكر في استمالة على زوجها المقبل .. نعم انهـا واثقة من ذلك !

اننا ولا شك نمتنع عن التحدث عن آمالنـا أمام بيير بيتروفيتش ، خصوصاً عن رغبتنا في ان نراك يوماً شريكاً له ، لأن بيير هـذا رجل واقعي وامله اذا شهد وعرف ما نضمر عزا ذلك الى اغراقنا في الخيـال والاوهام . هذا عدا عن اننا — دونيـا وانا — لم نحدثه قط عن املنا في ان يقدم الينا المال اللازم ، طيلة وجودك في الجـــامعة لمتـابعة دروسك ؛ ونحن واثقتان من أننا في غير حاجة الى التحدث عن هـذا الأمر ، الذي سيكون بديهيـاً في المستقبل ، والذي لا شك سيبدأ من جانبه ، بعد ان يسمعك بعض المواعظ ، لأنـه لن يستطيع رفض هـذا الرجاء الذي تتقدم به دونيا اليه كزوج ! عدا عن انك ستكون مساعده الايمن في اعماله ، وبذلك تخرج القضية عن نطاق الاحسان والمساعـدة وتكون بمجرد دفع اجر انت تستحقه لقـاء عملك . تلك هي مشـاريع دونيـا التي تضمرهـا لـــك ، وانـا متضـامنة معهـــا في ذلـــك مؤيدة لها !

كذلك لم نتحدث في هذا الامر لانني كنت أهدف الى جعلك معه على قدم المساواة ، بعد ان تتقابلا للمرة الاولى ! ذلك ان دونيا كانت تتحدث اليه عنك بلهجة كلها حماس وتأييد ، فاذا به يجيبها لكي يحكم على رجل مـا ينبغي ان

يراه عن قرب ، وأن يحتك به . لذلك فهو يحتفظ برأيه فيما يتعلق بك الى اليوم الذي سيتعرف عليك فيه .

سأطلعك كذلك على أمر يا عزيزي روديا . إنه ليس رأي بيير بيتروفيتش بالطبع ولكنه — ولنقل — هذيان امرأة عجوز ! ذلك أنني بسبب اعتبارات معينة ، افكر في البقاء حيث أنا ، بعد زواج أختك دونيا ، بدلاً من أن أشاطرهما السكن . انني واثقة من أنه سيكون له من نفسه ما يحفزه على مطالبتي بعدم الافتراق عن ابنتي ، وسأرفض بالطبع طلبه ... وهو وإن كان لم يحدثني بعد بشيء ، ولكنه واضح أنه سيكون كذلك ! وقد لاحظت أكثر من مرة في هذه الحياة ، أن الأصهار لا يضمرون خيراً لحمواتهم ، لذلك فانني الى جانب رغبتي في عدم ازعاجها في عشها ، أفكر جدياً بالاحتفاظ بحريتي المطلقة واستقلالي التام !.. ولن أعدم قطعة من الخبز أتبلغ بها ، وأنا أم لولدين مثل دونيا ومثلك ! ولسوف أقطن بالقرب منكما كليكما .

وأخيراً ساصل بك يا روديا الى النهاية الطيبة التي احتفظت لك بها في هذه الرسالة : ألا فاعلم يا عزيزي روديا اننا سوف نجتمع ثلاثتنا قريباً ، ولسوف نتعانق بحرارة بعد فراق دام ثلاثة اعوام . ذلك أنه تقرر — مسبقاً — أن نذهب — دونيا وأنا — الى بيترسبورج . أما متى سيكون ذلك ؟ فلست أدري ! إنما ارجح أن يكون ذلك خلال ثمانية أيام . وهو متوقف على الاستعدادات التي سيتخذها بيير بيتروفيتش والزمن الذي ستتطلبه . غير أنه سيخبرنا في حينه لنوافيه الى بيترسبورج ، لأنه يتعجل زواجه ويهدف الى الانتهاء منه خلال الشهر أو على أبعد حد ، في وقت جد قريب : أي بعد عيد « انتقال العذراء » !

آه ... بأية سعادة سوف أضمك الى صدري ! ودونيا ... إنها تحترق شوقاً الى رؤيتك ... لقد قالت ذات مرة مازحة : انها لم تتزوج بيير بيتروفيتش إلا لكي

تنتقل الى بيترسبورج وتراك ! انها ملاك كريم ! لقد اخبرتني بأنها لن تضيف شيئاً الى رسالتي اليك هذه المرة، ورجتني أن أعلمك بأن لديها أشياء كثيرة سوف ترويها لك بنفسها ، أشياء تبلغ من الكثرة حداً يجعلها عاجزة عن الامساك بالقلم وتسطيرها اليك بالترتيب والتسلسل . لأنها تعرف أن الأسطر القليلة — مهما بلغ عددها — ، لن تستطيع ايضاح ما يعتلج في نفسها . لأن الاسطر توقظ الحنين في النفس لا أكثر ... لسوف نلتقي قريباً يا ولدي غير انني عازمة على أن أرسل اليك في الايام القريبة ، كل ما أستطيع ارساله من مال . اذ ان اعتباري المالي قد ارتفع في كل مكان منذ أن عرف الناس ، أن دونيا ستتزوج من بيير بيتروفيتش . وأنا أعرف ان اتاناس ايفانوفيتش سيوافق على تسليفي خمسة وسبعين روبلا على جرايتي السنوية ، مما سيجعلني قادرة على أن أرسل اليك منها خمسة وعشرين أو ثلاثين روبلا . ولو لا خوفي من نفقات الطريق وما قد يطرأ علينا ، لأرسلت اليك أكثر من هذا المبلغ . انني أحتاط لهذا رغم أن بيير بيتروفيتش عرض علينا أن يتحمل جزءاً من النفقات الناجمة عن هذه الرحلة ، فيطلب الى واحد من معارفه أن يقوم بنقل متاعنا . غير أننا يجب ان ندفع قيمة تذاكر سفرنا حتى بيترسبورج . وليس من المعقول أن نحل في المدينة دون أن يكون معنا مال يكفينا في أيامنا الاولى على الأقل . هذا مع العلم أن دونيا وأنا ، دققنا في كل صغيرة وكبيرة ، واتخذنا لها الحيطة . وبذلك فلن يكلفنا السفر غالياً . اذ لا يفصلنا عن محطة السكة الحديدية أكثر من تسعين فرسخاً ، وقد اتفقنا مع أحد الفلاحين على ايصالنا اليها ، سنسافر في الدرجة الثالثة بكل اطمئنان ورضى ، وبذلك سأنجح في ارسال ثلاثين روبلا اليك وليس خمسة وعشرين .

أعتقد أن ما كتبته حتى الآن يكفي ؛ فقد ملأت ورقتين كبيرتين لم أترك فيها مكاناً خالياً . لقد أنهيت لك قصتنا كما وقعت ، والله يعرف كم وقع لنا من حوادث!

والآن يا عزيزي روديا ، أقبلك على البعد بانتظار تلاقينا المقبل ، وأحمل اليك قبلات دونيا التي كلفتني بها ، وليرض عنك الله ولتحل عليك بركتي كأم .

أحبب اختك دونيا يا روديا ، أحببها بقدر ما تحبك ، واعلم أنها تحبك حباً عميقاً لا حدود له ، تحبك أكثر مما تحب نفسها ! انها ملاك كما قلت لك . وأنت يا عزيزي روديا ، أنت كل شيء بالنسبة الينا ، أنت أملنا وعزاؤنا في المستقبل . أرجو الله أن تكون سعيداً فنكون كذلك سعداء ...

هل تصلي دائماً كما كنت تفعل من قبل يا روديا العزيز ؟ وهل تؤمن أبدا بالقدرة والعناية الالهية المقدسة ؟ انني أخاف أن تكون الزندقة التي بدأت تسري بشدة اليوم ، قد وجدت طريقها الى نفسك . اذا كان ذلك قد حدث ، فسأصلي من أجل هدايتك يا ولدي . واذكر يا ولدي الحبيب ، كيف كنت تتمتم صلواتك لما أن كنت طفلا وكان ابوك حياً . كنت تجلس على ركبتي ، وكنا جميعاً سعداء. فالى اللقاء يا ولدي ، أضمك بعنف بين ذراعي وأرسل اليك قبلاتي .

محبتك حتى القبر

بولشيري راسكو لنيكوف

كانت العبرات تغسل وجنات راسكو لنيكوف منذ أن قرأ الكلمات الاولى. غير أنه ما أن فرغ من قراءة الرسالة كلها ، حتى شحب وجهه واكتسحت جسده رعشة هزت كيانه ، بينما انفرجت شفتاه عن ابتسامة باهته كلها مراره ! ترك رأسه يسقط على الوسادة القذرة المحشوة بالالبسه ، وراح يفكر . كان وجيب قلبه يصم آذانه ، وكانت أفكاره توقد نيران الحمى في جسده . شعر أنه سيختنق في هذه الغرفة الصفراء التي تشبه الخزانة أو الصندوق ، بينما تاهت نظراتـه في الفضاء ... ولم يلبث أن اختطف قبعته وخرج دون أن يتهيب هذه المرة من لقـاء

صاحبة الدار على السلم ! نعم لقد نسي هذه الحيطة تماماً ... سار في اتجاه (ايل سان بازيل) جزيرة القديس باسيل ، ماراً بالشارع (فـ ...) كما لو كانت هناك أعمال هامة مستعجلة تنتظره . غير أنه راح كعادته يناجي نفسه ويتحدث اليها بصوت مرتفع احياناً ، دون ان يلاحظ ما حوله ، او يبالي بمن يصطدم بهم ، شأن السكير المدمن .

الفَصلُ الرابعُ

كانت رسالة أمه تعذبه ... فقد أدرك منذ البداية الاساس أو الجوهر الذي قامت عليه خطة أمه وأخته ؛ فوصل الى قرار حاسم . قرار نهائي لا رجعة فيه : « لن يحدث هذا الزواج وأنا على قيد الحياة ... أما السيد لوجين فالى جهنم ! »

نعم كانت التضحية واضحة تقذي العيون ... فراح يتمتم بين أسنانه وعلى وجهه ابتسامة من نجح في مسعاه .

— لا يا أمي ، لا يادونيا ، لن تخدعاني ... يا للعذر الذي تتذرعان به عن عدم استشارتي في الامر ، والذي دفعكما الى البت فيه بدوني . آه ... لم يكن ينقصني إلا هذا ... انهما تظنان أن لا أمل بعد ذلك في فسخ الخطوبة ... سنرى هل هناك امكان أم لا ... كم هو عجيب ذلك القول : « انه رجل عملي جداً هذا الـ : بيير بيتروفيتش ، جم المشاغل حتى أنه لا يستطيع الا أن يتزوج بسرعة البرق ! » ... كلا يا دونيا ... أنا أرى بوضوح وأعرف « كل » ما تزمعين قوله لي ... أنا أعرف ما كنت تفكرين فيه تلك الليلة عند ما كنت تذرعين غرفتك بقلق .. أنا أعرف ماذا طلبت الى الله في صلواتك لعذراء كازان التي تزين صورتها غرفة أمي الصغيرة ! ان الصعود الى غولغوتا(١) صعب شائك ه ... هكذا اذن قررت نهائياً ... هل يعجبك يا أختي آفدوتيا رومانوفنا أن تتزوجي رجل أعمال ايجابي يملك ثروة (ولنقل أنه يملك ثروة ، لأن ذلك أكثر ايجابية وأشد تأثيراً) ، ويشغل عملين ويشاطر الاجيال الحديثة مبادئها

---

(١) غولغوتا Golgotha جبل بالقرب من اورشليم صلب عليه المسيح ــ المترجم

(كما كتبت امي) ، حسن المظهر كما لاحظت ذلك بنفسك ! ان هـــذا « المظهر » هو الباقـــة ! ودونيـــا ، انهـا ستتزوج بهذا المظهر ... رائع ... رائع !

لمَ ألحت أمي في رسالتها الى « الأجيال الجديدة » ؟ انه أمر يثير الفضول . هل أرادت وصف عقلية الشخص ، أو أن لها أهدافاً أبعد من ذلك ؟ كأن تسترضيني مثلا لحساب السيد لوجين ؟ آه يا للماكرات . . . يجب معرفـة المدى الذي بلغت اليه الصراحة التي تبادلتاها تلك الليلة وذلك النهار والايام التي تلته .. انه أمر جدير بالاهتمام ! هل نطقتا « بالكلمات » التي كتبتها لي كلها ، أم أن كلاً منهما خمنت ما في ذهن الاخرى . لا شك أن ذلك هو نصيب الجزء الأوفى من هذه القصة . ان ذلك واضح في الرسالة .

بدا الرجل « بارداً » بعض الشيء حيال أمي ، فراحت الساذجـة المسكينة تطلع دونيا على ملاحظاتها ، فانزعجت هذه وخاطبتها في « شيء من التذمر » ... لا شك انها ستتذمر ! من ذا الذي لا يتذمر اذا كان الامر منتهياً وفي غير حاجة الى سؤال أو جواب ؟ عند ما يكون القرار النهائي متخذاً دونما حاجـــة الى نقاش ؟.. ولمَ كتبت لي كذلك : « احبب دونيا يا رودي لأنهـا تحبك أكثر من نفسها » . أو ليس ذلك بسبب تبكيت الضمير الذي كان يعتلج في أعماقها ، بسبب تضحية ابنتها في سبيل ابنها ؟ ... « أنت أملنـا وذخرنا للمستقبل ، أنت كل شيء بالنسبة الينا ... » ! آه يا أمي !

أحس بغضب عنيف يملأ صدره ، حتى أنه ود لو قابل السيد لوجين ، اذن اقتله ! وأضاف يحدث نفسه وهو يتابع زوبعة أفكاره :

ــ هه ... بالطبع ، يجب التصرف ببطء وحذر لمعرفـة أي شخص وسبر غوره ، غير أنّ السيد لوجين كالضياء نفسه ، في غـــير حاجة الى درس وسبر !

فهو قبل كل شيء « رجل أعمال ومظهره حسن » ... تصور أنـه تحمل أعبـاء نقل «عفشها» على نفقته !.. فكيف لا يكون طيباً بعد كل هذا ؟ أما هما ــ خطيبته وأمها ــ فستستخدمان قروياً وستقطعان الطريق الى المحطة في عربة مغطاة بقماش خلق ، وأنا أدرى بالمشقة في مثل هذه الرحلات . لكن ماذا يهم ؟ ليست المسافة الا تسعين فرسخاً فقط ! !

ثم « سوف ننتقل بهدوء في عربة من عربات الدرجة الثـالثة » مسافة ألف فرسخ ! لا شك أن الواجب يقضي على الانسان أن يتصرف بحسب امكانياته . ولكن ما قولك يا سيد لوجين ؟ ان الموضوع يتعلق بخطيبتك ! ثم انـه لا يمكنك أن تجهل حاجة أمها واضطرارها الى الاستلاف على جرايتها لتقوم بتلك الرحلة! لا شك انـك فهمت ذلك بعقليتك التجارية ، وخمنت أن في هـــذه العملية شخصين لا يمكن الا أن يتساويا من حيث الشروط والواجبات . واذن فعلى أحدهما أن يقدم الخبز وعلى الآخر أن يقدم الملح أمـا التبغ (على حد قول المثل) فهو علاوة « على البيعة » ! وهكذا أيهـا الرجل العملي ، لقد تصرفت بما يضمن مصالحك لأن نفقات شحن « العفش » ستكون أقل تكليفاً من أجرة الانتقال ولعلك تنقل «العفش» مجـاناً . . . فهل غفلتا عن هذا أم تعمدتا اغفاله ؟ والعجيب أنهما سعيدتان ... كيف يغفل المرء عن الادراك أن هذه الباكورات ليست الا أزهـاراً ، وأن الثمار ستأتي بعدها ... نعم كيف ؟.. صحيح أن البخل ليس هو كل ما يثير الحفيظة في هذا الموضوع ، حتى يأتي معه القبح ويعقبه التصرف! ان مثل هذا التصرف ينبىء بكامل البرنامج عندما يتم الزواج . فلم اذن تنحدر أمي الى مثل هـــذا الجنون ! كيف ستصل الى بيترسبورج ، بثلاثة روبلات في جيبها أو كمبيالتين تقول هـــذه المرأة العجوز . « ورقتين

صغيرتين ». هه ... على أي شيء تعتمد في عيشها في بيترسبورج ؟ لقد تأكدت — من بعض الدلالات — أن بقاءها مع ابنتها في بيت واحد بعد الزواج مستحيل ، حتى ولو كان في الأيام الاولى ! لا شك أن ذلك الرجل النبيل كان قد أغفل عامداً بضع كلمات ، حتى يُفهم قصده . ومع ذلك فان أمي تريد أن تستغفلني ، وتجعلني أعتقد أنها هي التي سترفض ! ماذا تنتظر ؟ وعلى أي شيء تعتمد ؟ على مائة وعشرين روبلا جرايتها السنوية التي يجب إنقاصها بما يسدد القرض لصاحبه : آثاناس ايفانوفيتش ؟ إنها تقضي الشتاء كله وهي تحيك الدثارات الصوفية والقفازات ، وتتعب بذلك عينيها ؛ ولكن ذلك لا يأتيها بأكثر من عشرين روبلا في العام ، تضاف الى المائة والعشرين التي هي من حقها ... فهي اذن تعتمد على كرم السيد لوجين !..

« سوف يعرض عليَّ بنفسه ، سوف يرجوني قبول ما يعرض » . لها أن تتبجح ! ذلك شأن أصحاب النفوس النبيلة الطاهرة . إنه ليروق لهم أن يفرقوا حتى اللحظة الاخيرة ريش الطيور القذرة عن ريش الطواويس كما يقول المثل ، إنهم لا يرون إلا الخير ولا شيء إلا الخير ، ومهما بلغ من احتمالهم للشر وتعرضهم له ، فانهم لا ينطقون الكلمة التي يجب أن تقال في هذا الصدد ... إن مجرد التفكير في الشر يقلق مثل تلك النفوس الساذجة ، نعم ، انهم يحجبون أعينهم بأيديهم أمام الحقائق حتى تصفعهم الصورة الحقيقية وتصطدم بأنوفهم . .

كم أود أن أعرف اذا كان هذا السيد لوجين يحمل أوسمة أم لا ! انني أراهن أنه يحلي من عروته شريط القديسة آن ، وأنه يضيف اليه

الصليب عند ما يدعى الى وليمة يقيمها بعض الرجالات الرسميين أو التجار .. فليس هناك من خطر أن ينسى ذلك في حفلة زفافـــه ! ولكن ايذهب الى الجحيم ...

يا الهي ! إن أمي خلقت هكذا ، لكن دونيا ؟ عزيزتي دونيـا ... أنا أعرفك جيداً . لقد كنت في العشرين من عمري لما فارقتـك آخر مرة ! كنت أعرف عقليتك . فقد كان لدي من الوقت ما يكفي لهـذه المعرفة . . . ها أن أمنا الصغيرة تكتب لي وتقول : ان دونيا « صبورة جداً ».. أنا أعرف عنك ذلك. أعرفه منذعامين ونصف ومنذعامين ونصف لم أكف مرة عن التفكير في هذا الصبر ، وبصورة أدق ، في هذه الطاقة الكبيرة التي تمتلكينها ، الطاقة على الاحتمال والصبر ! كيف لا وقـــد صبرت على مثل سفيدريكايلوف وكل الملابسات التي لازمته ... انها طاقة جبارة هائلة ! واليوم تعتقدين أنت وأمي أن لا عليك اذا صابرت واحتملت « لوجيناً » الذي يبـــدي اغتباطه لمصاهرة نساء فقيرات ويدلي برأيه حول هذا الموضوع في المقـابلة الاولى !.. حسناً ... لنفترض أن « ذلك قد أفلت منه » رغم أنه ذلك الانسان الرزين المفكر الذي لا يمكن أن يغفل عن مثل هـذه الاقوال فيدعهـــا تسبق ارادته وتعاند رغبته في كتمانهـا ! ولكن كيف فات دونيا هـذا ؟ كيف تستطيع أن تعيش مع زوج هذا رأيه ؟ أجدى لها أن تأكل خبزاً يابساً وتتجرع قطرات من الماء ، من أن تتورط وتبيع روحها ! كيف تستغني عن حريتهـا من أجل قضية لها علاقـــة بالترف . نعم لن تفعل ذلك ولو كان في سبيل كل الـ : «سشليسويغ(١) — هولستن » فكيف من اجل هذا اللوجين ! كلا . . . ان

---

(١) كلمتان الاولى لمقاطعة دانيمركية والثانية لمقاطعة بروسية ضمتا معاًوادخلتا في عداد الاراضي البروسية تحت هذا الاسم. — المترجم — . . . .

دونيا التي عرفتها ليست هذه التي أراها اليوم ... ولا يمكن ان تكون قد تغيرت عما كانت عليه ... فماذا أقول ؟

لا شك أن البقاء لدى آل سفيدريكايلوف محزن أليم ، كما أنه مؤلم كذلك أن يتجول المرء من مقاطعة الى اخرى كل حياته لقاء مائتي روبل في العام ليعمل في تربية الأطفال وادارة البيوت . لكنني أعرف أن اختي تفضل أن تعامل معاملة الزنجي بالنسبة الى صاحب مزارع المطاط أو معاملة « ليتواني » بالنسبة الى الألمانيين ، على أن تفسد روحها واحساسها بالارتباط مع رجل لا تميل اليه أبداً وليس بينها وبينه أي توافق أو امتزاج ، مدفوعة أبداً بغنم شخصي . حتى ولو كان السيد لوجين مصنوعاً من سبيكة من الذهب أو منحوتاً في قطعة من الماس ، فان دونيا ما كانت لترضى أن تكون الحظية «السرية» الشرعية للسيد لوجين . فلم اذن وافقت الآن ؟ ما هذا ... آه ... أي سر غامض ؟ ان الأمر واضح جداً : فهي ما كانت لترتضي ذلك من أجل نفسها أو من اجل رفاهها حتى ولو كان في ذلك انقاذاً لها من الموت ! فهي لم تكن لتبيع نفسها هكذا ... لكن اذا كان الأمر من أجل شخص آخر ، انها في هذه الحالة تبيع نفسها ... نعم إنها تبيع نفسها ! اذا كان الشخص الذي تضحي من أجله يأتي في منزلة أرفع من منزلة نفسها ! أي اذا كانت تحبه حب عبادة ، وهنا ينجلي السر ! انها تبيع نفسها من أجل أمها وأخيها ! انها تفرط في كل شيء إلا في هذين ! نعم ... اننا نحاول في بعض المناسبات قتل عواطفنا ، فنحمل حريتنا الى السوق نعرضها ، حريتنا وسعادتنا وراحتنا حتى وضميرنا .. نعم كل شيء ! نبيع حياتنا اذا كان في هلاكها اسعاد المخلوقات التي نحبها ونرجو لها السعادة ! بل اننا نمضي الى أبعد من هذا ، فنبتدع ما يحلنا من ذمتينا ، ونستعير حكمة اليسوعيين لنهتدي خلال وقت ما ، الى تهدئة واجبنا ، ونقنع انفسنا بأنه

ما كان ، ان هو الا أحسن ما يمكن أن يكون ، وأنه طالما أن النتيجة ستكون حسنة ، فان الوسائل الى بلوغ هذه النتيجة تجد ما يبررها . نعم نحن هكذا . . والقضية في منتهى البساطة والوضوح . من الواضح أن روديون رومانوفيتش راسكو لنيكوف — أي أنا — هو الذي يأتي في الصف الأول من هذه القضية ، وهو محور التضحية ! كيف لا ؟ ينبغي دعم سعادة هذا « الراسكولنيكوف » وضمان حريته ومثابرته على دروسه في الجامعة وتأمين عمل شريف له في مكتب مرموق يكون شريكاً فيه فيصبح غنياً ... ولمَ لا ؟ سوف يتذوق لذائذ الشهرة وطعم الظفر حتى ولو كان في نهاية ايامه ! أما الأم فهي ليست بذات موضوع هنا ... المهم هو ابنها روديا « روديايها » ألابن المدلل ، ألابن البكر ! كيف لا تضحي من أجل ولد بكر « كهذا » بفتاة — كدونيا — ؟ آه ابنها الاخوات العزيزات الظالمات ... أعتقد ان الاستعداد للوصول الى نهاية تشبه تلك التي ترددت فيها سونيا ليس بعيداً اذا كان ذلك في سبيل إسعاد روديا ! نعم ... سونيا ... سونيا مارميلادوف ، سونيا الخالدة التي ستبقى أزلية ما بقي العالم ...

يا الله ... هل فكرتما في التضحية التي أنتما بصددها ؟ هل قمتما بهذه التضحية اذن ؟ هل قارنتما بين قواكما ومصالحكما ؟.. هل وجدتما ذلك معقولا ؟ أتدرين يا عزيزتي دونيا أن مصير سونيا ليس أحط من مصيرك في عيشك مع لوجين ؟

ان امي تقول « ان المسألة ليست مسألة حب متبادل مسبق » . لكن كيف يمكن أن يقوم هنا حب أو مجرد ميل ، طالما أن الازدراء والاحتقار والتوتر هي كل ما يبدو الى الآن ! أولا يساوي هذا مصير تلك الفتاة التي دفعت الى البغاء واضطرت الى « الاحتفاظ بالنظافة » ... هل هناك فارق بين المصيرين ؟

انا لا أجد فارقاً ... انا افهم معنى « النظافة » . انَّ « نظافة » « لوجين » تعادل « نظافة » سونيا . لعلها اكثر سوءاً واشد حقارة واكبر مقتاً ... نعم انها اكثر من ذلك ، لانك انت يا دونيا ، تملكين بعض الرفاهية، بينما الامر بالنسبة الى سونيا هو اجتناب الموت جوعاً ... ان هذه « النظافة » يادونيا ، هذه النظافة تكلف غالياً ... وغداً ، لما ينهار الثقل ساحقاً قواكما ، لن يكون الندم ممكناً ... لن يتبقي لكما الا الدموع والأحزان ... والآلام واللعنات ! دموع ساكنة تذرفهانها بهدوء ، لأنكما لستما « مارت بيتروفنا » ... وانت يا امي ماذا سيحل بك ؟ انت منذ الآن قلقلة حزينة معذبة ! فماذا يكون حالك عند ما تبصرين بوضوح ... وانا . .. نعم انا ... من ظننتماني ؟ انا لا اريد تضحيتك يا دونيا ، كذلك لا اريد تضحيتك يا أمي الصغيرة ! ان ذلك لن يكون وانا على قيد الحياة ... نعم لن يكون ... لن احتمل هذا وان أتقبل به !

ثاب راسكو لنيكوف الى نفسه بعد طول استغراق ، فتوقف برهة كأنه يعيد النظر فيما قال ... وراح يخاطب نفسه معنفاً :

ـ لن يكون ؟... ماذا تفعل انت لتمنع ذلك ؟ هل تمنعها عن ذلك ؟ وبأي حق من فضلك ؟ ماذا تستطيع ان تعوضها به او أن تعدها بتحقيقه لقاء هذا الحق الذي تريد ممارسته ؟ اأن تكرس لها مصيرك ومستقبلك « عند ما تنهي دراساتك وتجد وظيفة تشغلها » ! ؟ ان هذه النغمة معروفة فضلا عن أنها تنبىء بالمستقبل .. نعم المستقبل . بينما نحن نعيش في الحاضر . فماذا أعددت لهذا الحاضر ؟ انك قانع بالعيش على فتات مائدتها ... وهذا المال الذي أنفقته وستنفقه، أو ليس من القروض التي تتدار كانها لك ؟ أليس ما ابستطاعتنا اقتطاعه من المائة روبل التي تتقاضيانها في العام ؟ أليس كذلك مما ستقترضه أمك بفضل

ثعارفها بآل سفيدريكايلوف؟ كيف تحميهامن آل سفيدريكايلوف ومن هـــذا ال : اثاناس ايفانوفيتش فاخروشين ايهـا المليونير المنتظر ؟ هل تظن نفسك من الآلهة حتى تتصرف بمقدراتها ؟ اسوف تجد أمك وقتاً كافيـــاً خلال السنوات العشرة المقبلة لتفقد ابصارها لكثرة ما تنهك عينيهـا بحيـاكة « الشيلان » والقفازات ، بينما تكون الشابة قد فقدتـه لكثرة مـــا تذرف على دموع ... واختك ؟ تصور قليلا مـــاذا سيحدث لأختـك خـــلال عشر سنين فهل فهمت ؟..

وهكذا كان الشاب يتعذب ويتألم بهذه الأسئلة والمحاكمات ، ويثـير كوامن غضبه وكأنه يجد متعة في ذلك ... انما الجـدير بالذكر أن تلك الأسئلة لم تكن جديدة تماماً بالنسبة اليه ، اذ لم يكن لديه شيء غير منتظر ... بل أنه كان يشعر بها منذ زمن طويل ، كانت هذه القضية ماثلة امـــام عينيه ، تنمو وتترعرع حتى اتشحت منـــذ حين بوشاح المعضلة المخيفـة ، المعضلة الموحشة المروعة التي تحرق دماغه وقلبه دون هوادة ، متطلبة جواباً حاسماً كان يؤمن أنه لن يكون ! وجاءت رسالة أمه فكان لها في نفسه وقع الصاعقـة ... نعم ان الوقت اليوم ليس وقت الشكوى والتحسر ومعالجة المسألة سلبياً ، اذ انه ثبت لديه مواقع « آ + ب » ان المسألة صعبة الحل ،فكان يجب والحالة هذهالشروع في امر فوري وبأسرع ما يمكن . كان ينبغي له أن يتخذ قراراً مهما كلفه الامر ، بالغاً ما بلغ من خطورة ؟

كان يتساءل محنقاً : « هل أضع حداً لحياتي ؟ هل أتقبل الوقائع واحتملها ، خانقاً في نفسي كل شعور بالنقمة والثورة والتمرد.. هل أتنازلعنحقي فيالحياة، حتى في العمل ، حتى في الحب ؟..

تذكر فجـــأة السؤال الذي طرحـــه مأرميلادوف مســاء أمس حين قال :

— « هل تفهم يا سيدي ، هل تفهم معنى جملة : « لم يعد يعرف أين يذهب والى أين يقصد ؟ هل تفهم معنى هـذا ؟ يجب أن يكون لكل انسان جهة يذهب اليها ! .. »

ارتعدت فرائصه فجأة وعادت الفكرة التي كان يهدهدها في خيـاله امس ، تمثل امام عينيه . لم يرتعـــد لأن الفكرة القديمة عادت الى الظهور ، كان يعرف سلفاً أنها ستخامره ، كان يحس بهـا انهـا تلاحقه وتشق لنفسها طريقاً لتصل الى الصف الاول من معروضات فكره ، كان ينتظر أوبتها ... ثم ان الفكرة لم تكن كتلك التي كان يشعر بها امس او منـذ شهر ... لأن تلك كانت أشبه بالخيال ، الخيال المجرد . أما فكرةاليوم، فكانت مختلفة كل الاختلاف، انها اكثر من مجرد حلم ، انها تبدو بشكل جديد مجهول منه .. كان يفهم سبب هذا التبدل ومؤداه ..

اندفع الدم الى رأسه وغشيت عينيه سحـــابة ، فبدا كل شيء قاتمـاً ... راح يتلفت حوله متلهفاً باحثاً عن شيء ... مقعد مثلا . لأنه كان يشعر برغبة عنيفـــة في الجلوس ... كان يسير حينـذاك في شـارع « ك » ... فأبصر بمقعد على بعد مائـــة خطوة من مكان وقوفـــه ! اندفع الى حيث كان المقعد بكل مـــا في سـاقيه من قوة . لكن حادثـــاً وقـــع له في الطريق استلفت انتبـــاهه وأخره عن غـايتـــه .

كانت أبصاره عالقة بالمقعد الذي يقصد اليـه ، فاذا بامرأة تسير على بعد عشرين خطوة أمامه . لم يعرها اي اهتمام في البدايـة ، كمـا كان



سونيا

شأنه في كل ما يحيط به ، اذا كان مشغول الفكر مستغرقاً في خواطره . . . ،
وكثيراً ما وقع له أن عاد الى غرفته دون أن يعلم بأي الشوارع مرّ ، وكيف
وصل الى حيث كان ... كان يسير هكذا عفوياً دون تقدير ولا تدبر ... غير
أن هذه المرأة التي كانت تمشي أمامه، لم تكن تخلو من شيء شاذ يستوقف الانتباه
للوهلة الأولى ؛ شيء بدأ يحتكر تدريجياً كل اهتمامه ، حتى نسي كل شيء إلا
التحديق فيه والتطلع إليه ! أراد اكتشاف هذا السر الذي يجعل تلك المرأة
حافلة بالشذوذ الغريب ، كانت تسير في ذلك الجو الحار الخانق ، عارية الرأس
دون مظلة وقفازات ، وكانت تطوح ذراعيها بأسلوب مضحك . كانت تلبس
ثوباً من الحرير الرخيص ، غريب التكوين ، يبدو كأنه لا يجد مستقراً على
جسد لابسته ويكاد يتخلف عنه لولا رباط خفيف يثبته في مكانه . ثوب ممزق
ابتداء من التقاء الجزع بالساقين ، تتدلى منه قطعة انفصلت عن مجموعه وراحت
تتأرجح كلما تحركت صاحبته ... كانت تلف عنقها العاري « بلفحة » صغيرة
لا تكاد تستره . لم يكن هذا وحده يستوقف النظر ، بل المرأة نفسها . إذ كانت
تسير بخطى غير متزنة ، تتعثر في مشيتها وتتمايل يميناً وشمالاً ... مما أيقظ فضول
راسكو لنيكوف ، فأدركها في اللحظة التي بلغت فيها المقعد ، وتهالكت على
جانبه ، ملقية رأسها على المسند مغمضة عينيها اللتين انهكهما ولا شك التعب ...
كانت نظرة واحدة اليها تكفي ليعرف الناظر أنها مخمورة تماماً ... فبدا المشهد
لعينيه غريباً شاذاً حتى أنه ود لو كان مخطئاً ..

كان يرى أمامه فتاة ذات وجه صغير يدل على سنها المبكرة ، فهي لم تكن تبلغ
السادسة عشرة من عمرها ، دقيقة التكوين تحيط برأسها ثروة من الشعر الذهبي
الاشقر ، جميلة الوجه منتفختة ! كان يبدو عليها أنها لا تعي ما حولها ... فقد

عقدت ساقيها الواحدة فوق الأخرى ، فظهر منها أكثر ما يجمل ظهوره عادة ، مما يدل على إنها لم تكن لتشعر بوجودها في الشارع .

لم يجلس راسكو لنيكوف لا، ولم يمض في طريقه كذلك ، بل وقف يتأمل الفتاة دون أن يصل في قراره الى رأي حاسم ... كان ذلك الشارع مقفراً معظم الوقت ، أما في تلك الساعة (الواحدة بعـــد الظهر) وفي مثل تلك الحرارة الخانقة ، فان مرور الناس فيه يكون غريباً حقاً . مع ذلك فقد كان هنـاك سيد يقف على مسافة خمس عشرة خطوة ، منتحياً جانباً في ممشى بين اشجار الشارع ، يبدو عليه أنه ينتظر بدوره أن تسنح له فرصة للاقتراب من الفتاة المخمورة ، تنفيذاً لرغبات معينة ! ولعله شاهدها هو الآخر فلاحقها، ولكن راسكو لنيكوف عرقل مسعاه بظهوره . فكان ذاك يلقي عليه نظرات حاقدة دون أن يشعره بذلك، وينتظر بفارغ الصبر أن يمضي ذلك المتطفل حتى يحل محله . كان الأمر واضحاً لا يحتاج الى تمحيص . فهذا السيد في الثلاثين من عمره متين الجسم ممتلئ الجسد مزدهر الوجه ، ذو شفتين ورديتين يزينها شارب صغير ، يرتدي ملابساً تدل على أناقة كبيرة . إذن ؟ لقد أصبحت الغاية معروفة !

شعر راسكو لنيكوف بغضب جامح ، وود بجدع الأنف لو يوجه إهانة الى ذلك الديك الرومي.. فاقترب منه وقد ضم قبضتيه انفعالاً وصاح به وهو يكشر عن أسنانه التي غطاها الزبد !

— أنت يا سفيدريكايلوف ... ماذا تبحث هنا ؟

فقطب السيد حاجبيه لدى سماعه الاسم الذي اطلقه راسكو لنيكوف استعارة عليه ، وقال بلهجة خطيرة وترفع مرموق !

— ماذا تريد أن تقول ؟

— إبرح هذا المكان فوراً ... هذا ما أردت أن أقوله !

ــ كيف تجرأ على التلفظ بهذا الكلام أيتها الحشرة ؟.. وهز سوطه بيده !
فلم يمهله راسكو لنيكوف وارتمى عليه دون أن يفكر بأن خصمه الضخم يساوي اثنين من حجمه ! وفي تلك اللحظة ، شعر بيد تقبض عليه بشدة من الخلف .
واذا برجل من رجال البوليس يتدخل في الأمر قائلا :
ــ أيها السادة ، المرجو تجنب المشادة في مكان عام ...
ولما شاهد أطهار راسكو لنيكوف صاح به :
ــ من أنت يا هذا ؟ وماذا تريد ؟ . .
نظر راسكو لنيكوف بجرأة الى رجل البوليس . كان له سالفان أشهبان يضفيان على وجهه النبيل ذي التقاطيع الدالة على النباهة والذكاء ، لوناً من الوسامة ! قال :
ــ إنني أريدك أنت بالذات !
ثم أمسك بذراعه وأردف :
ــ أنا طالب علم سابق واسمي راسكو لنيكوف اذا كان يعنيك معرفته ...
واستدار نحو « الديك الرومي » وقال :
ــ وانت ، تعال معي ، سأريك شيئاً ... ومشى نحو المقعدالذي تخاذلت عليه الفتاة يرافقه الشرطي وأردف :
ــ أنظر ، انها مخمورة تماما ، لقد رأيتها تسير على غير هدى في الشارع ، ومن يدري من أين خرجت ومن هي ! غير أنه من الواضح ، أنها ليست محترفة . انها على الأرجح فتاة مسكينة ، إئتمر بها حتى أغريت على الشرب فثملت ... ولعل هذه هي المرة الاولى التي تتذوق الخمرة فيها ... لقد أريد بها شر فنصب لها هذا الشرك الذي تردت فيه ! لعلك تفهم يا سيدي ما أعني ... لقد ألقي بها الى الشارع بعد أن نال منها الأنذال ما يشتهون ... أنظر الى ثوبها الممزق وكيف

لبسته أو بالأحرى كيف أنزلت فيه ... من الجلي أنها لم تلبسه بنفسها ، إنها أيد غير مجربة تلك التي ألبستها هذا الثوب ... أنها أيدي الرجال ... والآن إلق نظرة على هذا السيد السمين الذي كدت أتشاجر معه منذ قليل .. انني لا أعرفه بل إنني رأيته اليوم للمرة الاولى ... لقد شاهدها هـذا السيد النبيل وهي على حالها هذا من الثمل وفقد الحواس ، وقد رأيتهـا لا تعي ما تعمل ولا تستطيع التمييز بين الخير والشر ، فاراد أن يقترب منها ليفاجئها في هذه الحال ويقودهـا الى أي مكان ... ثق انني لست مخطئاً فيما أقول ... لقد شهدته بنفسي يرقبهـا ويحصي حركاتها ويتبعها . فكان حضوري عائقـاً غير منتظر . وهو ينتظر أن أبرح المكان لينفذ مأربه . انظر كيف ابتعد بعض الشيء وراح يتظـاهر بلف « سيجاره » ... فكيف السبيل لانتزاع هـذه الفتاة من براثنه ؟ كيف السبيل لاعادتها الى ذويها ؟

أدرك الشرطي على الفور ماذا هناك وراح يفكر . كانت نواياه حيال الرجل السمين غير خافية . انما كانت هناك عقبة من نوع آخر . . تلك هي الفتـاة المخمورة . انحنى عليها يتفحصها عن قرب ، وبدت على وجهه آيات الشفقة والحنان ودمدم قائلا :

— يا للطفلة المسكينة ! لا زالت طفلة تماماً ... لقد خدعوها ولا شك . . . هذا واضح ! هل تسمعين يا آنسة ... أين تقطنين ؟

وفتحت الصغيرة عينيها المتعبتين وقد اصطبغتا بلون الدم ، وحدجت سائليهـا بنظرة بلهاء ، ثم حركت ذراعها ملوحة وكأنها تحاول طردها .

بحث راسكو لنيكوف في جيبه واخرج عشرين كوبيكاً قدمها للشرطي وقال له : — أرجو أن تستدعي عربة وأن ترافقها الى منزلها اذا كنت تعرف عنوانها ! ولكن كيف السبيل لمعرفة العنوان ؟

اما الشرطي فقد عاد ينادي الفتاة بعد ان أودع المال في جيبه :

ــ يا آنسة ، يا آنسة ، سوف أقودك بنفسي فـــالى أين تذهبين ؟ أين تقطنين هه ؟

تمتمت الفتاة وهي تلوح بذراعها قائلة :

ــ إغرب عن وجهي أيها « الكلاّب »... دعني بسلام .

بدت امارات الألم على وجه الشرطي وراحت تتنازعـه عوامل مختلفة بين اشفاق وانتصار للفضيلة المنتهكة ، واستنـكاراً للنعت الذي أطلقته عليه . وقـال مسترسلا :

ــ كم هو مخجل ما أنت فيه يا آنستي ...

ثم خاطب راسكو لنيكوف مرة ثانية وهو يتفحصه من رأســـه وحتى أخمص قدميه :

ــ هنا الصعوبة الحقيقية ... نعم هنا العقبة .. انها لا تعي شيئاً . فهل لقيتها بعيداً عن هنا ؟

ــ لقد قلت لك انها كانت تسير أمامي تائهة شاردة اللب وهي تمايل وتترنح، ولم تكد تصل الى هذا المقعد حتى تهاوت عليه !

ــ يا إلهي كم هو مخجل هذا الذي يجري في هذه الايام . فتاة كهذه ، بل طفلة لم تشب عن الطوق تثمل ... لقد ُغرر بها حتماً ليس هناك شك أبداً . ان ثوبها ُممزق كله ... آه من أولئك الفجار الذين يسابقون الوقت ويمضون الى أهدافهم من أقصر الطرق !.. لعلها من عائلة كريمة أصيبت بالفـــاقة والعوز . فالمدينة تحفل بهذه العائلات البائسة اليوم ... ان النـاظر اليها يخيل اليه أنهـــا آنسة فاضلة ...

صمت الشرطي برهة وعاد الى المخمورة يحاول اعادتها الى صوابها ... لعل له

والى الآخر بنات « يفضلن يعتبرن آنسات فاضلات » يتبعن الاساليب سائدة بين الفتيات ، المقتبسة عن ابتكارات مصطنعة لا تمت الى حسن التربية في شيء ...

بادر راسكو لنيكوف يقول :

ــ المهم أن لا ندعها فريسة لهذا السافل ، فهو قمين بتدنيسها من جديد ! ذلك ما يريد وليس من العسير تبيانه . . . ألا ترى أنه لا ينصرف ... الفاجر !

كان يتكلم بصوت مرتفع وهو يشير الى السيد ... وسمعه هذا فكاد أن يغضب من جديد .. غير أنه تمالك واكتفى بأن ألقي على الطالب المفلس نظرة تنطوي على الازدراء . واخيراً استدار على عقبيه ، وراح يمشي بتمهل مبتعداً ، ثم توقف من جديد بعد قطع عشر خطوات ..

قال الشرطي بلهجة حالمة :

ــ أن لا نتركها له أمر ميسور ، لو أنها ذكرت لنا اين تقطن .. وعاد يهزها ويصيح : يا آنسة ، يا آنسة !

فتحت الفتاة عينيها وبدت كأنما استعادت بعض حواسها ، ونظرت بامعان الى الشرطي ورفيقه ، ثم نهضت وسارت في الاتجاه الذي جاءت منه ، ودمدمت وهي تلوح بيدها شأن من يطرد انساناً يضايقه : « المغفلون ! ماذا يريدون من ملاحقتي » وراحت توسع الخطى وهي تتعثر وتترنح . اما الرجل الانيق السمين ، فقد راح يتبعها من جديد محافظاً على المسافة التي بينهما ، دون أن يغادر المشى بين الأشجار !

اثارت هذه الفعلة حفيظة الشرطي ذي الشاربين الكبيرين فقال لراسكو لنيكوف بلهجة العزم والتصميم :

ــ لا تبتئس ... لن ادعها له ! وتبع الفتاة ومطاردها ... وقبل أن

يبتعد عن الفتى أردف يقول : كم انتشر الفسق والفساد في هـــذه الأيام ...! أما راسكو لنيكوف ، فقد كان في تلك اللحظة كمن وخزته إبرة نفذت خلال جسده. شعر برد فعل عكسي تجاوب صداه في نفسه فهتف ينادي الشرطي ، ولما استدار هذا نحوه مستجيباً لندائه قال له :

ـــ دعك من هذا ... لم تحشر نفسك فيه ؟ دع الرجل يتابعها ، دعه يبحث عن تسليته ! ماذا يهمك منه !

فاتسعت حدقتا الشرطي وظن أنه حيال مخبول ذاهب العقل ، فلم يعـــد ولم ينفض يده من المهمة التي آلى على نفسه إتمامها ، بل اكتفى بأن لوح بيده ومضى وهـو بين مصـدق ومكذب يتبع الرجل الانيق والفتـــاة . وما ان اصبـــح راسكولنيكوف وحيداً حتى خاطب نفسه بقوله :

ـــ لقد حمل معه العشرين « كوبيكاً » التي كنت أملكها . يا للشيطـــان ... لسوف يجعل الآخر يدفع له بعض المـــال ليترك له الفتـــاة ! وستكون تلك خـاتمة القصة . . . يا الله ! هل لمثلي أن ينصب نفسه حـامياً للغير ؟ هل لي الحق بالتدخل ؟ مـاذا يهمني اذا افـترس النـــاس بعضهم بعضاً ؟ ثم كيف سمحت لنفسي باعطـاء العشرين « كوبيكاً » التي كانت معي ؟ هل هي تخصني فعلا ؟

شعر ازاء هذه الافكار والاسئلة ، بحمل ثقيل يهبط على صدره يكاد يكتم انفاسه ! جلس على ذلك المقعد الوحيد وتاهت أفكاره في سمـــاء الخيال ... لقد كان من العسير بالنسبة اليه أن يفكر في أي شئ ... كان يتمنى لو فقد الوعي وخسر الاحساس ، حتى اذا ما استفاق ، كان كل شئ قد أضحى منسياً ، فيعود الى حياة جديدة لا أفكار محزنة فيها ولا تفكير ... ألقى نظرة الى حيث كانت الفتاة جالسة ولم يتمالك نفسه أن قال :

ــ يا للفتاة المسكينة ، سوف تعود الى وعيها وستبكي ، ثم تطلع أمها على كل شيء ... واسوف تضربها أمها أول الأمر ، اسوف تجلدها بشدة وقسوة واذلال. بل لعلها ستطاردها من البيت ! واذا افترضنا جدلاً أنها لن تطاردها ، فانها لن تعدم واحدة مثل داريا فرانتزوفنا لتشم رائحة الفريسة وتحوم حولها . ولسوف تبدأ الفتاة بالتنقل هنا وهناك ، وبعدئذ سيكون المستشفى (والحال أبداً كذلك بالنسبة للخاطئات اللاتي يعشن في كنف أمهات شريفات يفضلن التخلص من عارهن بصمت) ولن تخرج منه حتى تعود اليه ! وهكذا فانها لن تبلغ التاسعة عشرة من عمرها ، حتى تصبح سقيمة عليلة وتكون قد انتهت ... النهاية نعم ... اقد شهدت حالات مشابهة ! ولكن ماذا يهم ؟ يا للشيطان ... يبدو أن هناك نسبة مئوية ينبغي أن تدفع في مكان ما ... الى الجحيم ؟ نعم ذلك ضروري لانعاش الآخرين والابقاء عليهم . نعم ... نسبة مئوية ... يا له من تعبير جميل ... كلمات منمقة مطمئنة ذات طابع علمي ... اذ من ذا الذي يرهب هذه الكلمة : نسبة مئوية ! أما لو كانت كلمة أخرى ... لكان الحال أقل طمأنينة ... ماذا مثلا لو أن دونيا أدخلت في هذه النسبة على شكل من الاشكال؟ النسبة الواجبة الدفع اليوم أو في المستقبل ؟ ..

وفجأة ثاب الى رشده وتذكر أنه خرج من غرفته لسبب ما فهتف :

ــ رباه ... الى أين أمضي ؟ كان هناك سبب وجيه دفعني الى الخروج من غرفتي ! نعم ... نعم ... لقد خرجت مباشرة بعد قراءة الرسالة ... آه لقد تذكرت ، كنت أقصد ايل سان بازيل ... نعم كنت أريد الذهاب عند رازوميخين ! ولكن لماذا أذهب الى هناك ؟ كيف طرأت لي فكرة الذهاب الى رازوميخين فجأة ؟ غريب ..

أدهشه تصرفه ... لقد كان رازوميخين أحد أصدقائه القدماء في الجامعة !

ومن الغريب انه لما كان يتابع دروسه في الجامعة ، لم يكن يختلط بزملائه ويرتبط بهم بصداقات ، حتى أنهم جميعاً تنكروا له وتغافلوا عن وجوده . فكان لا يزور أحداً ولا يسره أن يستقبل أحــداً ... لا يشترك في اجتماعات الطلبة ولا في مناظراتهم ، عازفاً عن لهوهم ومجونهم ... وكان منصرفاً الى العمل منكباً على الدراسة ، فاستطاع بذلك اكتساب عطف زملائه . لكنه لم يكن محبوباً من أحد ! كان فقيراً معدماً مشتطاً في كبريائه عزوفاً عن الناس ... كان يبدو أبداً وكأنــه يتدبر أمراً في سريرته ! كان بعض زملائه يعتقدون أن له أسلوباً كريهــاً بالنظر اليهم ، حتى لكأنهم أطفال ، وكأنـه متفوق عليهم بالذكاء والمعرفة وادراك الامور ، وكان يعتبرهم دونــه ايماناً ومعتقداً .

أما مع رازوميخين ، فقد كان الامر مختلفاً ، اذ كان اكثر ميلا اليه ، اكثر صراحة معه وأشد تعلقاً به من كل الزملاء الآخرين ... ولم يكن من الممكن معاملة رازوميخين خلاف ذلك . فهو شاب يتفجر لطفــاً وايناساً ، بسيطاً نقي السريرة طيباً حتى السذاجة ... وكان ذلك المظهر الساذج يخفي وراءه تعمقاً في الأمور وكرامة موفورة ... فكان محبوباً من أقرانه جميعــاً وخصوصاً أولئك الذين عرفوه واختبروه . نعم ... لقد كان بسيطاً بل وساذجاً أحياناً ، ولكنه لم يكن قط أحمقاً ... كان ذا مظهر جذاب بقامته المديدة ونحول وجهه ، ولحيتـه المهملة وشعره الأسود ... كان يظهر احياناً على حقيقته جباراً عربيداً ... حتى أنه ذات مرة ، بينما كان خارجاً مع اصدقائه الى المدينة ، تغلب بضربة واحدة على نقيب في الجيش ، يبلغ طوله ستة اقــدام تقريباً ... وكان يستطيع أن يشرب بشكل مريع ، كما كان يستطيع الامتناع عن الشراب وعدم الاقتراب منه . كان

كذلك يسترسل احياناً في تصرفات مشبوهة ولكنه كان يعرف دائماً كيف يتخلص من نتائجها وينآى بنفسه عن مضاعفاتها ، وكانت هناك ميزة اخرى تضاف الى مزايا رازوميخين الكثيرة : ذلك أنه ما كان يستسلم امام أية خيبة أمل تصيبه ، ولا يتراجع اذا ركبه النحس ! كان يستطيع أن يعيش في حجر وأن يحتمل آلام الجوع ولذعات البرد وآلامه ، دون أن يتذمر . لأنه كان فقيراً يعول نفسه بنفسه ويبحث عن المصادر التي تغذيه بايراد مناسب ، ويزاول كل الأعمال ... كان يعرف أن هناك عدداً لا يحصى من الحيل التي يمكن اللجوء اليها في العمل — طبعاً — ... ولقد امضى ذات مرة شتاء كاملا دون أن تدخل النار حجرته . مع ذلك ، فقد كان يؤكد أن ذلك أفضل ، لأن الانسان ينام بهدوء وهناء اذا كان يشعر بالبرد ! لقد كان في ذلك الوقت خارج الجامعة .. نعم لقد ترك الدرس ، ولكن لفترة قصيرة كما كان يقول . كان يعمل جاهداً للتغلب على الظروف القاسية وتيسير الدراسة ، ولم يكن راسكو لنيكوف قد زاره منذ اربعة اشهر . وكان رازوميخين يجهل عنوانه بدوره ! ولقد لمحه ذات مرة منذ شهرين مضيا ، لكنه أدار وجهه حتى لا تقع عينه عليه . بل انه انتقل الى الرصيف المقابل كي ينجو من المقابلة ... ولقد لاحظ رازوميخين ذلك ، غير أنه تابع طريقه دون أن يزعج « صديقه » ...

الفَصْلُ الخَامِسُ



فكر راسكو لنيكوف في أمره وهو على حاله ذاك ، وراح يخاطب نفسه قائلا :

— بالأمس عزمت على زيارة رازوميخين . كنت أريده على أن يجد لي عملا على طريقته ... عملا أفيدمنه : تدريس مثلا ... أي عمل . أما الآن ، كيف يمكن أن أفيد منه ؟ لنفرض أنه اوجد لي من أدرسهم ، وأنه تقاسم معي آخر « كوبيك » يملكه — هذا اذا كان يملك شيئاً — ليشتري لي أحذية وملابس أظهر بها ، فماذا يكون ؟ هل هذا ما أنشده بالفعل ؟ الحقيقة ان زيارتي لرازوميخين ضرب من الحماقة ...

كان عزمه على زيارة رازوميخين يقلقه ويغمر روحه بعذاب مستمر ... بدا كأنه كان يعرف السبب الحقيقي لهذا العزم ... كان يقلب أوجه الرأي في هذه المسألة العادية ، ليجعلها تبدو ذات طابع خاص بي ، فيفرغ ما في جعبته من لوم وعتاب على نفسه منددا زاجراً ... كان يتساءل : « هل صحيح أنني فكرت باصلاح كل شيء بمساعدة رازوميخين ؟... » كان يفكر ويفكر ... ويضغط على جبهته بيده ، حتى واتته فكرة ... فكرة مفاجئة غريبة كانت محصلة تردده العميق العنيف . ناجى نفسه يناقشها بهدوء كمن اتخذ قراراً نهائياً :

— هه ... سأذهب الى رازوميخين ... سأذهب الى رازوميخين ولا شك .. ولكن ليس الآن . سأذهب اليه صباح اليوم التالي « للعمليه » ، بعد أن تكون قد انتهت بنجاح ، لأعيد معه بناء كل شيء على قواعد جديدة ! ثم استدرك بعد

أن ثاب الى نفسه وقال : « وبعد ذلك ؟ هل حقيقة سيكون « ذلك » حسناً لاغبار عليه ؟ هل يعقل أن يكون كذلك ؟ »

غادر المقعد الذي جلس عليه ، بل انتزع نفسه عنه انتزاعاً ، ومضى بخطى حثيثة ، وكأنه يهرب من شيء يتابعه . تاقت نفسه للعودة الى بيته ... الى حيث بدأ ... ولكن هذه الفكرة أثارت في اعماقه الاشمئزاز . فهناك .. في ذلك الحجر المرتفع المنزوي .. اختمرت تلك « العملية » في ذهنه منذ نيف وشهر ... اذن لا ينبغي أن يعود الى هناك .. ومضى دون ان تكون له وجهة يقصدها .

انقلب اضطرابه العصبي الى نوع من الحمى .. الى نوع من المرض ، فراح يرتجف وكأن البرد يهرأ جسده ، رغم ذلك الحر الخانق الذي يشبه نار الأتون الملتهبة .. تسلط بمجهود جبار على أعصابه ، وأجبر حواسه على الانتباه ، وعينيه على التطلع فيما حوله بتدقيق ودقة ، عله يجد في المحيط الذي يمخر فيه ، مادة ترفـه عن نفسه وتسليه . لكنه لم يوفق في هـذا ايضاً .. كان يعود من جديد الى احلامه وتخيلاته .. كان جسده وحده يعيش على الأرض ، أما روحه وعقله ، ففي مجاهل لا يعرف لهـا قراراً ... عادت القشعريرة تكتسح جسمه وتهزه ... فنظر حوله ليجد أنـه نسي ما كان يفكر فيه ، ونسي اين يكون ، والى أين يمضي ... وهكذا اجتاز جزيرة « سان بازيل » كلها ، فبلغ نهر « نيفا الصغير » ، واخترق الجسر ثم استدار في طريق الجزر . تلطف الجو بعض الشيء بفعل المياه والنباتات الطفيلية التي تكسو المكان ، فكان لهذا التبدل في الجو اثره في تهدئة اعصاب الشاب بعض الشيء . وارتاحت عيناه لهذا المشهد بعد ان انهكها الغبار ... غبـار الشوارع وذرات الجير .. وارهقها منظر الأبنية الكبيرة الضخمة وهي تسد امامها المنافـذ . وصل الى حيث لا غبار ولا عفن ولا اختناق ... ولا ... ولا حانات ! غير أن هـذه

الراحة التي شعر بها فترة وجيزة ، فقدت بعد قليل بهجتها ، وانقلبت ثقيلة الوطء تنهك قواه . كان يتوقف احياناً امام « فيلا » ضائعة بين الخضرة ، ليتطلع خلال الحاجز الخارجي ، الى الشرفات وعليها نساء جميلات بكامل زينتهن ، واطفال هاتئون ، بعضهم يلعب في الحديقة وينادي الآخرين ... كانت الازهار تجذب انتباهه بصورة خاصة ... انها مخلوقات صامتة ...! وبين الحين والحين ، كانت تطالعه مناظر الترف والنعيم ، بين عربات انيقـــة وفرسان من الجنسين ، فكان يتـــابعهم النظر بفضول ، ثم ينسى وجودهم حتى قبل أن يختفوا عن ناظريه ...! توقف مرة ليعد ما يملك من مال . فوجد أن ثروته تبلـغ ثلاثين « كوبيكاً » ، وتذكر أنه أعطى رجل البوليس عشرين « كوبيكاً » ، وأعطى ثلاثـــة لناستاسيا من اجل الرسالة ، فيكون اذن ، قـــد منح آل مارميلادوف مساء البارحة ، حوالي سبعة وعشرين روبلاً وخمسين « كوبيكاً » كانت كل المبلغ الذي كان يملكه هو ثلاثون روبلاً وقد اعطاها كلها لآل مارميلادوف . كانت دريهاته على كفه يحصيها . لكنه نسي لمَ اخرجها من جيبه وقام بعملية الاحصاء ... لا شك أنه كان يحس سبباً وجيهاً دفعه لفعل ذلك . لكنه نسيه ! وصدف أن مر امام دكان شواء ، فهاجت نفسه وتاقت الى الطعام . فدخل المطعم وتنـــاول فيه كأساً من الخمر (العرق) واكل شطيرة محشوة باللحم المبهر ... لم يكن قد شرب الخمر منذ أمد طويل . لذلك فقـــد أثر القدح الصغير في أعصابه ، رغم أنه مجرد قـــدح صغير ! فغدت خطاه متثاقلة وطاب له أن ينام . لذلك عاد في طريق مسكنه ، لكنه لم يكد يبلغ جزيرة « بيتروفسكي » حتى توقف منهوك القوى ... فتنكب الطريق ودخل بين الأدغال ، يرتمي على الحشائش حيث استغرق من فوره في نوم عميق .

يلاحظ أن أحلام المرء في الحالات المرضية ، تمتـــاز غالباً برونق عادي وألوان صارخة وتشابه عجيب مع الواقع . لكن تسلسلها واخراجها يبلغان

من الواقعية ومن دقة التفاصيل مبلغاً ، يجعلها تبدو أشبه بلوحة فنان عبقري . حتى أن الحالم نفسه لو استطاع رسمها في يقظته ، لنافس فيها الفنانين الموهوبين أمثال بوشكين وتورجينيف . إنما الأحلام التي من هذا النوع ، أحلام مؤلمة تترك في نفس المرء ذكرى باقية ، وتحدث على نفسيته أثراً غير حسي تزيد في تحطيم أعصابه وزعزعة ثقته . كذلك كان الحال بالنسبة للحلم الذي تخيله راسكولنيكوف ..

حلم في طفولته هناك ... في مدينتهم الصغيرة ... عند ما كان في السابعة من عمره ..! وفي يوم عيد كان يتجول مساء مع أبيه في ضواحي المدينة ، في جو مشبع بالغبار ، والحرارة شديدة الارتفاع ، والأمكنة هي هي التي انطبعت صورتها في ذهنه . .. بل أن الذكرى ما كانت لتوضح معالمها كما أوضحها الحلم . كانت المدينة الصغيرة قائمة في منطقة مكشوفة وكأنها الكف ... لم يكن يحيط بها مرتفع واحد ولا شجرة واحدة ... وفي الافق البعيد ، كانت نقطة سوداء صغيرة ، تفضح وجود حرش صغير ... وعلى بعد خطوات من آخر بستان من بساتين المدينة ، كانت هناك حانة ... حانة كبيرة كانت تترك في نفسه أثراً سيئاً ، بل تخيفه كلما كان يمر بالقرب منها وهو يتنزه مع أبيه . كان فيها أبداً جمع غفير من الناس يتبادلون الشتائم والصراخ ، ويضحكون ويغنون أغنيات بذيئة ، وكثيراً ما كانوا يتضاربون ! وحول تلك الحانة كان عدد من السكارى بوجوههم البشعة تفوح منهم رائحة كريهة . فاذا صادفهم ، كان يلتصق بأبيه وهو يرتعد ..! وعلى مقربة من تلك الحانة كانت هناك الطريق ، طريق مختصرة مغطاة بالغبار ... غبار اسود ، تنعطف على بعد ثلاثمائة خطوة على شكل مرفق ، ثم تدور حول المقبرة ... وفي وسط المقبرة تقوم الكنيسة ، وهي مبنية من الحجارة ، ذات قبة خضراء ، كان يذهب اليها مرة أو مرتين في العام ، أثناء

القداس الذي كانوا يقيمونه على روح جدته المتوفاة منذ زمن بعيد يسبق ميلاده !
كان يحمل معه في تلك المناسبة قطعة من الحلوى « كاتو » موضوعة في صحن أبيض ، وملفوفة في منديل . كانت تلك الحلوى تصنع من السكر وعلى سطحها صليب من حبات الزبيب المغموسة في الارز ..

كان يحب تلك الكنيسة بصورها القديمة التي كانت غالباً دون اطارات ، ويحب الكاهن ذا الرأس المرتجفة ... كان الى جانب ضريح جدته الذي تغطيه قطعة كبيرة من البلاط ، ضريح صغير يرقد فيه أخوه الاصغر الذي توفي في شهره السادس ، فكان لا يعرفه كذلك ولا يحتفظ له في ذاكرته بأية صورة . كل مافي الأمر أنهم قالوا له بأن ذلك هو ضريح أخيه. فكان كلما زار المقبرة ، رسم أمامه على صدره علامة الصليب بخشوع ورفع قبعته عن رأسه ثم انحنى ليقبل الضريح البارد !

كان يحلم في تلك اللحظة بأنه مع أبيه يسيران في الطريق الى المقبرة فيمران امام الحانة ... فيقبض على يد أبيه بشدة وينظر الى تلك الناحية — ناحية الحانة — برعب ظاهر ، فيجذب انتباهه أمر غريب ! كانت تدور فيها حفلة داعرة حقيقية : نساء « بورجوازيات » في ألبسة أيام الآحاد ونساء من العوام مع رجالهن وأنواع مختلفة من المخلوقات التي تعيش في الاوساط المظلمة . . . الطبقة السفلى ... كانوا كلهم سكارى بين نساء ورجال يرقصون وينشدون الاغاني ... وكان أمام باب الحانة عربة غريبة الشكل ... عربة ضخمة من ذلك النوع الذي تجرها خيول قوية متينة وتستعمل لنقل البضائع وزكائب الخمر ... كان يحب رؤية تلك الخيول القوية الجبارة ذات الذوائب الطويلة والسيقان المتينة ، تمشي براحة ، بايقاع متزن وهي تجر وراءها أثقالاً كأنها

الجبال دون أن يبدو عليها التعب وكأن أحمالها ترفه عنها بدلاً من أن تنهكها !

والغريب أن تلك العربة لم تكن تقطرها الخيول الجبارة القوية . بل كانت مقطوره الى « كديش » أعجف من ذلك النوع من الجياد التي يرثى لحـالها ، والتي كثيراً ما شاهد مثلها ، وهي تجهد في جر حمولة من الخشب أو القش على الطرق المخربة حيث تغرز العجلات الى محاورها في الأتربة والحفر ، والفلاحون يسوطونها بوحشية وقسوة على ظهورها وأحياناً على وجوهها وعيونها حتى أنه كان يشعر بوقع السياط على جسده هو إشفاقاً منه عليها فيكاد ينفجر من البكاء لولا أن تسارع أمه الى إبعاده عن النافذة موفرة عليه متابعة هذا المشهد الكئيب المفجع !

وفجأة ارتفع ضجيج كبير : فقد خرج من الحانة عدد من الفلاحين « الموجيك » الأقوياء وهم يغنون ويتضاحكون ويرقصون « البلالايكا » وهم على أسوأ حال من الثمل ، يرتدون قمصاناً حمراء وزرقاء و« جواكيتهم » على أكتافهم. صاح أحدهم :

ــ اصعدوا ... اصعدوا جميعكم سوف أنقلكم جميعاً فاصعدوا ..

كان المتكلم فتى ضخم العنق منتفخ الوجه بلون أشقر مشبع بالحمرة .

ــ ايستطيع « كديش » كهذا أن يحملنا ؟..

ــ اسمع يا ميكوكا ... لا شك أنك مجنون ... من ذا الذي يفكر في ربط فرس هزيل كهذا الى عربة هائلة كهذه العربة ؟

ــ لعمري ... هذا حيوان تكدست على ظهره أعباء عشرين سنة وتزيد ..

تلك كانت الملاحظات والآراء التي تطايرت من الأفواه إثر الدعوة الغريبة التي تقدم بها ذلك الفتى الى أولئك السكارى ... غير أنها ملاحظات لم تزعزعه عن

رأيه فهتف وهو يقفز الى العربة ويمسك بمقاود الحصان الهزيل :

ـــ اجلسوا جميعاً ... لسوف أحملكم كلكم ... لقد أعرت حصاننا الأشعل الى « ما تنيتي » وقد ذهب به منذ لحظات . وهذه الفرس ملكي أيها الأصدقاء .. انها كرب وأسى بالنسبة الي . واني أفكر أحياناً في أن أقتلها لأنها لا تساوي الشوفان الذي تلتهمه .. هيا اصعدوا ولسوف أجعلها تمشي خبباً ..

أخذ السوط في يده وراح يهزه وكأنه يتلذذ سلفاً بما سيذيق الحيوان المسكين من ضرب موجع أليم .

وصاح بعضهم يقول : ـــ فلتصعدوا اذن ... ألم تسمعوه يقول أنه سيجعلها تطير خبباً ..؟

وآخر يقول : ـــ انها لم تخب منذ عشر سنين على الاقل ».

وثالث : ـــ بل ستخب ... لا تشفقوا عليها أيها الاصدقاء ، ليضربها كل منكم بسوطه ... ليستعد كل منكم ... هيا ... انهالوا عليها بالضرب ..

راحوا يصعدون الى العربة ... عربة ميكولكا وهم يضحكون ويتبادلون السباب ... وجلس ستة اشخاص فيها بانتظار الآخرين ، لأن المكان كان يتسع للكثيرين ، وحملوا معهم امرأة ضخمة ذات خدين بارزين مصبوغين . كانت ترتدي « صدارة » من القماش الهندي الأحمر وتحشر قدميها في حذائين عاليين ثقيلين ... وكانت تكسر بندقاً بين أسنانها وتضحك بين حين وآخر .. كذلك كان الجميع يضحكون ... وكيف لا يضحكون وهذا الحطام الذي على شكل فرس مدعو للسير خبباً بهذا الحمل الثقيل !

أخذ غلامان كانا في عداد الراكبين سوطاً ليساعدا به ميكولكا في مهمته القاسية .. مهمة جلد الحيوان .. وارتفعت الصيحات تحث الدابة على السير. واستصرخت هذه قواها ، لكنها لم تستطع أن تخب بل بالكاد استطاعت التقدم

خطوة واحدة . كانت تضرب الأرض ، وهي تكاد أن تخرج من جلدها من ألم السياط الثلاثة التي كانت تلهب ظهرها وتنهال عليها كالبرد بينما تضاعف ضحك الركاب وصخبهم ! وغضب ميكولكا وعبر عن غضبه بلسعات أشد قوة كما لو كان يعني ما يقول من أن الفرس ستخب . واندفعت من بين الجماعة التي بقيت على الرصيف فتاة صغيرة بدت معجبة بالمنظر . صاحت مستعطفة .

— دعوني اركب يا أصدقائي !

فأجابها ميكولكا ملء حنجرته :

— هيا اصعدى . اصعدوا جميعاً ، سوف اقودكم الىمنازلكم وسترون كيف سأثير حماس هـــذه الفرس. وراح يضربويضرب ويضرب ويبحث عن أدوات جديدة ليستعملها في هذه المهمة .

صاح الفتى :

— أبي أبي ، أبي ماذا يعمل هؤلاء ؟ أبي إنهم يضربون الحصان الصغير المسكين ! فيجيبه أبوه :

— هيا بنا ، هيا بنا ، انهم سكارى قادرون على ارتكاب حماقة . دع هؤلاء المأفونين ، تعال لا تنظر اليهم ! وأراد أن يبعده عن المكان !

غير أن الفتى تملص من يد أبيه فاقـــداً أعصابه وهرع الى الحصان الصغير الذي كاد أن ينفق من الألم : فيستجمع أنفاسه وقواه ويعاود الجردون جدوى . وكان الركاب يصيحون :

— اضرب ، اضرب الى أن ينفق ، وعلى كل حال لن يتأخر ذلك ...

بينما صاح عجوز من النظارة مستنكراً هذا المشهد :

— أولست مسيحياً انت ؟ أجب بلا او نعم أيها الوحش !

وأضاف آخر :

ـ هل رأيتم قبل الآن حصاناً صغيراً هزيلا كهذا يجر حملا بهذه الضخامة؟
وثالث موجهاً حديثه لميكولكا :
ـ أيها القذر .. ويجيب ميكولكا غير آبه بالاعتراضات :
ـ فيم تتداخلون ؟ إنه حصاني أصنع به ما أشاء . ليصعد من يريد ، لسوف أجعله يسير خبباً .!

وفجأة انفجرت ضحكة هائلة طغت على صوت ميكولكا: ذلك أن الفرس لم تعد تحتمل الضرب الذي ينهال عليها ولم تكن تستطيع السير بحملها، وكنتيجة طبيعية لغضبة الحيوان راحت تستعمل قائمتها الخلفيتين دلالة على احتجاجها العنيف . حتى أن المحتجين أنفسهم لم يتمالكوا من الضحك . وهرع فتيان من « الشلة » فأمسكا بسوطين وراحا يلهبان كشح الحيوان بالضرب الوجيع كل من جانب . وكان ميكولكا يشجعهما بقوله :

ـ اضربا ، اضربا على الأنف والعينين والوجه .

ويصيح آخر من ركاب العربة : غنوا يا أصدقائي . نعم لنغن ؛ وسرعان ما رفعوا العقائر بأغنية قذرة مبتذلة على أنغام الصفير وحركات الأرجل في ضبط الايقاع بينما ظلت المرأة الضخمة تكسر بندقاتها بين أسنانها وكأن مايجري لا يعنيها في قليل أو كثير .

ركض الفتى اذاً نحو الحصان واندفع الى الامام وهو يشاهد أولئك القساة يضربونه على عينيه وملء وجهه وراح يبكي . كان قلبه يتفطر حزناً ودموعه تنهمر بغزارة ... أحس بالسوط يلمس جانب وجهه حينما كان أحد الضاربين يرفعه بيده لينهال به أداء لمهمته . غير أنه لم يشعر بالألم .. كان يصيح ويتلوى ويستصرخ عواطف الموجودين ويندفع نحو الرجل العجوز ذي اللحية المدببة الشائبة مستنجداً ، فيقابله هذا بهزات من رأسه شأن من أصدر حكمه وانتهى.

وتحاول امرأة إمساكه من يده لتخلصه من ذلك الجمع الحاشد، فيفلت منها ويعود قرب الفرس ... الفرس التي كانت في تلك اللحظة على آخر رمق .

لم يكف ميكولكا عن الصراخ والغضب، كان ينعت الدابة المسكينة بما يحضره من كلمات . ولما لم تستجب له ألقى السوط من يده واحتضن مقعداً كبيراً كان داخل العربة رفعه بيديه الى الأعلى بجهد بالغ وانهال به بضربة عاتية شرسة على ظهر الفرس المسكينة وهو يصيح معترضاً على الاحتجاجات التي ارتفعت من حوله ويقول :

— انها ملكي، ملكي ! ..

وصدر عن ارتطام المقعد صوت مكتوم بينما تعالت بين النظارة أصوات تقول :

— اجلدوها . لمَ لا تجلدون ؟ لماذا توقفتم ؟.. فيرفع ميكولكا المقعد ثانية الى أعلى ويهبط به من جديد على ظهر الحيوان التعس الذي سقط على مؤخرته ثم نهض كالمجنون واستجمع آخر ما تبقى له من قوى وجذب، جذب دون أن يستطيع التقدم . والسياط الست والمقعد الضخم ترتفع وتهبط دون شفقة بقوة ووحشية وبشكل رتيب، وميكولكا يكاد يجن غيظاً لأنه لم يجد طريقة يقتل بها الحيوان بضربة واحدة . أما المتفرجون فقد قنعوا بابداء الملاحظات . فمن قائل :

— كم هو جلود هذا الحيوان ! وآخر :

— لن يعيش طويلاً، فقد دنت نهايته ! وثالث يزمجر :

— ان ضربة فأس واحدة هي وحدها قادرة على وضع حد لكل هذا .

لم يكتف ميكولكا بكل ذلك، وهو الذي أعماه الغضب ... ألقى فجأة بالمقعد جانباً، وانحنى يفتش في عربته عن سلاح جديد ثم انتصب وفي يده

عتلة من الحديد وصاح ملء حنجرته يحذر المجتمعين حول الدابة مما سيكون ، وانهال على ظهر الحصان بضربة صاعقة حشد فيها كل قوته فترنح الحيوان وسقط وهو يحاول جر العربة ، ولما أصابته الضربة الثانية هوى على الأرض وكأنه جُرّ من قوائمه ...

لم يشفق ميكولكا ولم يهز المشهد عواطفه ، بل قفز من العربة كالمجنون وهو يصيح : لنجهز عليها ... لنجهز عليها . وراح الناس يختطفون ماتقع عليه أيديهم : سوط ، عصا ، مقعد ؛ أي شيء وينهالون به على الفرس المحتضرة بينما كان ميكولكا واقفاً قرب رأسها يهوي عليه بعتلته دون إشفاق حتى أن الحيوان المسكين اختلج أخيراً ومد عنقه الى أقصاه ثم زفر زفرة عميقة ونفق . وصاح صائح :

— لقد نفقت . وآخر :

— لم لمْ تخب ؟

وهتف ميكولكا وعتلته في يده وقد اختلط الدم ببياض عينيه :

— انها ملكي! وبدا كأنه يأسف اذ لايرى شيئاً يضرب به . وتعالت اصوات بين النظارة محتجة تقول :

— لقد وضح الآن أنك لست مسيحياً . نعم لقد وضح !..

أما الطفل الصغير فلم يكن يعي ما حوله . أطلق صيحة مريعة وشق لنفسه طريقاً بين الجمع متجهاً نحو « الكديش » وجثا بالقرب منه وراح يعانق رأسه الميت المثخن بالجراح ويقبل عينيه وشفتيه وفجأة تغلب عليه الغضب فارتمى على ميكولكا مطبقاً قبضتيه ، وفي تلك اللحظة أدركه أبوه الذي كان يحاول عبثاً ايجاده بين الحشد والامساك به وصاح :

— لنذهب ، لنذهب ، لنعد الى البيت...

كان الطفل يبكي وجسمه يهتز . شعر بأن شيئاً ما يقطع عليه تنفسه ويلجم لسانه فجهد حتى صاح من صدر كليم :

ـ أبي ! لمَ . . لمَ قتلوا هـــذا الحصان البريء المسكين ؟

فأجابه أبوه :

ـ انهم سكارى ياولدي يتسلون . ثم هل يعنينا هذا ؟ تعال ياولدي نرتحل. وطوقه ابوه بذراعيه ولبث يعاني ثقلا شديداً على صدره . . . كابوساً مريعاً ؛ يحاول التخلص منه واستبداد انفـاسه المبهورة . وبلغ من ضيق صدره ان كاد يختنق . فأطلق صيحة مدوية واستفاق . . .

استفاق راسكو لنيكوف فوجد أن العرق يتصبب على جسده ، وقد ابتل به شعره ؛ واستوى جالساً والرعب ماثل في عينيه وقال وهو يزحف نحو شجرة قريبـــة ليستند الى ساقهـا . كان يتنفس تنفساً عميقاً . هتف :

« حمداً لله . إنه ليس اكـثر من حلم ! . . . ولكن ألا يجوز ان يكون هذا بداية حمى ؟ حلم مخيف »

كان يشعر ان جسمه محطم وأن روحه تعيش في ظلام وخيبـة . فأسند مرفقيه على ركـبتيه وأخـذ رأسه بين يديه وراح يفكر وينـاجي نفسه على طريقته :

ـ رباه ! هل هذا ممكن ؟ هل أستطيع أن آخذ فأساً بيدي فأضرب به الرأس وأجعل الدماغ يتناثر ؟ هل يمكن ان أسبح في الدماء الحـارة المزجـة ؟ هل استطيع تحطيم القفل والسرقـــة ؟ سوف أرتعـد ، سوف أرتعـد وأنا مغطى بالـدم . . . رباه ! بضربات فأس . . . هل ذلك ممكن ؟

كان يرتعـــد كالورقـة الجافـــة امام الريح العاتيـة وهو

يحدث نفسه . عاد من جديد يستغرق في ذهوله المعهود ! ناجى نفسه قائلاً :

ــ رباه ! ماذا حل بي ؟ كنت أعرف سلفاً أنني لن أحتمل ذلك . والبارحة لما قمت بتلك التجربة . نعم البارحة فهمت تماماً أنني لن أحتمل هذا ، فلم شككت في الأمر حتى الآن . والبارحة تماماً وأنا أهبط السلم قلت لنفسي ان ذلك مريع وقذر ... إنه انحطاط ... رباه ! لم استطع النوم وهذه الفكرة وحدها تثير حفيظتي وتشل حركتي خوفاً . كلا لن استطيع .. لن استطيع .. ولنفرض جدلاً أن كل حساباتي وتخميناتي لا تترك مجالاً للشك وأن كل ما قررته خلال هذا الشهر واضح وضوح الشمس ، دقيق كعلم الحساب فانني ــ رباه ــ لن استطيع التصميم . كلا ... ابداً .. لن استطيع اتخاذ قرار نهائي . فكيف ؟ كيف انني حتى الآن ...

وقف ذاهلا ونظر حوله دهشاً لوجوده حيث كان ثم اتجه نحو الجسر « ت » .. شاحب الوجه ، ملتهب العينين ، منحل الاطراف ، يهده التعب .. خيل اليه أن تنفسه كان اخف من المعتاد ، وشعر أنه تحرر من عبء ثقيل كان يسحقه زمناً طويلا وأن روحه انتعشت بعد طول غم ، فهتف ضارعاً : « رباه ! هب لي من لدنك طريق الصواب حتى أقلع عن حلمي الملعون ....

اجتاز الجسر ونظر بسكون وهدوء الى نهر « نيفا » وغروب الشمس يضفي عليه لون النار ، والشمس محمرة عند الافق . لم يشعر قط بضعفه رغم التعب الذي كان ينهكه حتى ليظن أن العلة التي كانت في قلبه تعكر صفو حياته قد برئت وشفيت . حراً ....حراً ، كانه الان حراً .... لقد

مجا من السحر ، من الاغراء ، من الآلام .. من الوسواس المرعب ، وغداً عندما يستعرض هذا الوقت بكل ما حصل فيه وما وقع له في هذه الأيام دقيقة فدقيقة ، ثانية فثانية ، نقطة فنقطة سيحس في اعماقه احساساً خرافياً ممتعا ! وعلى الرغم من أن تلك الحال لم تكن شديدة الغرابة الا أنه كان يجد فيها شيئا من نفسه وكأنه يكتشف ويتصور مقدراته ومصيره .

كان يجهل الأسباب التي تدفعه الى التجول في الشوارع متخذاً طريقا مطولة للعودة الى غرفته وهو الذي كان على آخر رمق يسحقه التعب ، والألم . كان يستطيع اللجوء الى طريق اقصر تعيده بسرعة الى حيث يستريح ، ومع ذلك فهو يذهب الى حيث لم تكن تدعوه حاجة الى الذهاب ، عاد عن طريق « شارع العلف» دون أن يفسر لنفسه الأسباب . صحيح ؟.. لقد حصل له أن عاد الى غرفته مرات دون ان يعرف كيف وصل وأي سبيل سلك . نعم لقد وقع ذلك اكثر من عشر مرات ! أما لمَ وقعت تلك المقابلة الهامة الحاسمة وغير المنتظرة في ذلك المكان بالذات الذي لم يكن لديه من سبب يدعوه الى ارتياده ، وفي تلك اللحظة الحاسمة من حياته حيث ما كان يمكنه وهو على حاله تلك وفي ظروفه التي عاش فيها أن يتجنب التأثر بها واخضاع مصيره لها ، فذلك ما كان يتساءل عنه دائما ! وأخيراً عده شركا هيأته الأقدار ليقع فيه :

كانت الساعة تشرف على العاشرة حينما اخترق السوق . وكان الباعة المتجولون وأصحاب المخازن يغلقون دكاكينهم أو يجمعون بضاعتهم المعروضة ويحزمونها ليعودوا بها الى دورهم وقد انقطع سيل الزبائن ، وهنا وهناك بالقرب من دكاكين الشواء ومداخل البؤر ، وفي الساحات القذرة النتنة التي تحيط

منازل « شارع العلف » كان الصعاليك والسوقة وحثالة المصانع يعج بهم المكان !
وكان راسكولنيكوف يميل الى هذه الامكنة والازقة المحيطة بها فيرودهـا
لما يخرج تائها دونما هدف يقصده لأنه ما كان يستهدف هنا لأي نوع من النقد
المزري وهو في تلك الاسمال البالية . كان يمكن ان يتنزه المرء هنا دونما
خشية من فضيحة او زرية ! وعلى زاوية زقاق « ك » كان بائع وزوجه يبيعان،
منفصلين ، خيوطـــا ، واشرطة ، ومنـــاديل قطنية ، و « خرداوات »
كانا يستعدان لمغادرة المكان والعودة الى مسكنهما ويتلكـآن قليلا في الثرثرة
مع شخص يعرفانـه . اما ذلك الشخص فكان اليزابيت ايفانوفنا او
بالاختصار اليزابيت كما كان يسميها الناس وهي الاخت الاصغر لأليونا ايفانوفنا
تلك العجوز المرابية ارملة معاون في الكلية والتي كان راسكولنيكوف قـد
رهن امس ساعته عندها حينما كان يقوم « بتجربته ». كان عارفا بوجود هذه
الـ « اليزابيت » منذ زمن بعيد وكانت هي بدورها تعرفه بعض الشيء . كان
يعرف انها فتاة خرقاء خجول مرحة العقلية حمقاء بعض الشيء في الخامسة
والثلاثين من عمرها تعاملها اختها الكبرى معاملة الرقيق . كانت تشتغل من
اجلها ليلا نهاراً وتضطرب تحت وطء نظراتها وتحتمل منها كل اهانة حتى الضرب.
كانت تلك اللحظة تحمل ربطـة في يدها وتقف مترددة امام البائع وزوجتـه
تصغي اليها بانتباه وهما يرويان لها امراً بحماس ظاهر. ولما شاهدها راسكولنيكوف
احس بشعور مبهم غامض يشبه الذهول يستحوذ عليه رغم ان تلك المقابلة
لم تكن تعني بالنسبة اليه شيئا مهما . وسمع البائع يقول متمما حديثه :

— لك ان تقرري يا اليزابيت ايفانوفنا فالأمر منوط بك . عودي غداً في
السابعة وسيكونوا جاهزين .

فأجابت اليزابيت ساهمة بصوت واهن وكأنها تحجم عن اتخاذ قرار : غداً ؟

فقالت زوجة البائع وهي امرأة عطوف في عينيها اشفاق :

— آه .. آه كم تخيفك العجوز اليونا ايفانوفنا ! لعمري ان المرء ليعتقدك طفلة اذا استمع اليك . رغم انها ليست اختك بالمعنى المفهوم. ان هي الا اخت بالعهد ومع ذلك انظري كيف تعاملك .

وقاطعها زوجها قائلا :

— نعم لمرة واحدة اغفلي عن اخبار اليونا ايفانوفنا . اتبعي نصحي : تعالي الينا دون ان تستأذنيها فالمسألة مهمة ولسوف تقتنع اختك بعدئذ بذلك .

— ومتى ينبغي ان احضر ؟

— حوالي الساعة السابعة غداً. ولسوف يأتون بدورهم، ولسوف تحكمين بنفسك

واضافت الزوجة : — ولسوف يقدمون لك الشاي ...

فأجابت اليزابيت دون ان تخرج عن شرودها :

— حسنا سأحضر ... ثم تأهبت للانصراف .

كان راسكولنيكوف قد تجاوزهم في تلك اللحظة فلم يسمع من حديثهم اكثر مما سمع ... وقد تعمد ان يبطىء الخطى دون أن يشعرهم بذلك ساعياً الى سماع ما يستطيعه من تلك المحاورة . وكان الذهول الذي أحس به في البداية قد انقلب تدريجاً الى رعب فقشعريرة باردة اكتسحت كيانه . لقد عرف شيئاً عن طريق الصدفة المحضة ... شيئاً هاماً في « مشروعه » لقد عرف أن اليزابيت الأخت الوحيدة للعجوز المرابية ستكون غائبة عن المنزل — منزل اختها — غداً في الساعة السابعة ... أي أن العجوز ستكون وحيدة في تلك الساعة . .

كان يفصله عن غرفته عدد قليل من الخطى فلما دخل مسكنه كان كمن حكم عليه بالموت . لم يكن يستطيع المناقشة ولا البحث في شيء ولكنه شعر من صميم كيانه أنه فقد من جديد حرية الفكر والارادة وأنه فقدهما نهائياً .

لا شك أنه اذا كان قد انتظر سنوات طويلة اللحظة الحاسمة لتحقيق «مشروعه» فذلك لأنه لم يكن ليستطيع الاعتماد على مثل هذه الصدفة السعيدة التي عرضت له اليوم وفي تلك اللحظة بالذات . نعم لا شك أنه ما كان يستطيع معرفة الوقت الذي تكون فيه العجوز منفردة دون أن يستقصي ذلك ويتحقق منه بطرح أسئلة خطيرة هنا وهناك قد تجعل المسؤولين يذكرونه عند التحقيق وهكذا فقد تقرر أن يكون غداً في ساعة معينة ، الموعد الذي تكون فيه عجوز معينة وحيدة في دارها وأن يكون هناك فتى يقصد اغتيالها . نعم كان ذلك مقرراً من الازل .

الفَصْلُ السَّادِسُ

كان مقدراً أن يلم راسكو لنيكوف بالسبب الذي دعا البائع وزوجـــه الى دعوة اليزابيت ، ان يعرف أنه بسيط عادي . فقد كانت هناك عائلة كريمة أخنى عليها الدهر تريد بيع بعض حاجات من ألبسة وأثواب نسائية ، ولما كانت تلك العائلة تخجل من عرض تلك الحاجات في السوق فقد راحت تبحث عن مشترية . وكانت اليزابيت تهتم بمثل هذه الامور ولها زبائن كثر لأنهـــا كانت معروفـة بنزاهتها وأسعارها المعقولة وعزوفها عن المساومة . كانت قليلة الكلام كثيرة اللطف رقيقة المعشر شديدة الحذر .

غدا راسكو لنيكوف في أيامه تلك خيالياً متطيراً وقد خلف ذلك التطير في نفسه آثاراً لا تمحى حتى أنه كان يميل الى الاعتقاد ـ وهو في صدد هذه القضية ـ أن هناك تسابقاً غريباً وغامضاً في الاحداث ، تسابقاً شاذاً ترافقه سلسلة من المؤثرات والمصادفات : ففي الشتاء السابق كان أحـــد أصدقائه الطلاب المدعو « بوكوريف » ذاهباً الى « خاركوف » فأعطاه عنوان العجوز آليونا ايفانوفنا في سياق حديث عابر ، وأعلمه أنه يستطيع أن يجد لديها مايقترضه اذا دعته الحاجة وكان لديه رهينة يقدمها .

ومضت ايام طويلة قبل ان يتذكر راسكولنيكوف ذلك العنوان ، لانه كان يعطي دروسا مأجورة يتخلص بريعها من ضائقاته المالية . فلما تزايدت متطلباته لم يكن لديه الا حاجتان تصلحان لتكونا رهناً ترتضيه العجوز : الساعة القديمـة المصنوعة من الفضة التي ورثها عن أبيه والخاتم الذهبي المزين بثلاثة أحجار حمراء

كانت اخته قـــد اعطته له على سبيل الذكرى لما ان افترقا اول مرة . فقرر ان يضحي بالخاتم بادئ ذي بدء فيقدمه للمرابية . ولما ذهب اليهـا شعر نحوهـا بكراهية عميقة قبل ان يعرف عنها شيئاً . ولما أعطته « الورقتين النقديتين » عرج في طريق عودته الى البيت على حانةموبوءة وطلب لنفسه قدحا من الشاي ثم جلس يفكر . فنبتت في رأسه فكرة غريبة ما لبثت أن سيطرت على تفكيره .

كان إلى مائدة قريبة منه طالب لا يذكر أنه رآه أو عرفه من قبل . وكان الطالب يجلس مع ضابط يحتسيان الشاي بعد أن فرغا من شوط « بليار » . سمع راسكو لنيكوف الطالب يحدث الضابط عن مرابية عجوز ، أرملة مساعـــد في الكلية ، اسمها آليونا ايفانوفنا ويعطيه عنوانها فكان ذلك في حد ذاته نوعاً من الغرابة في نظره . فهو قد وصل تواً من لدنها وها إنهم هنا يتحدثون عنها ! إنهـا الصدفة ولا شك ولكنه وقع تحت تأثير شعور معين ! وكأن الطالب أراد دعم ذلك الشعور وتنميته في نفسه ، فراح يروي لصديقه تفاصيل دقيقة كثيرة تتعلق بتلك الـ « اليونا ايفانوفنا » . كان يقول :

— إنها مدهشة ، ... يمكن للمرء أن يجد لديها دائمـــاً ما يقترضه ... فهي غنية كأحد اليهود تستطيع إقراض خمسة آلاف روبل دفعة واحدة ولا تتنازل عن روبل واحد تقرضه لقاء رهن . ولقد غمرت عدداً كبيراً من أصدقائي بحسن صنيعها غير أنها عنيدة قاسية كالجمل !

وهكذا راح الطالب يقص على زميله مايعرفه من صفات للمرأة فقرر أنها خبيثة جشعة وأن تأخر يوم واحد عن أجل الدفع الممنوح من قبلهـــا ، يكفي لضياع الرهينة التي في يدها ؛ وانها تعطي ربـع قيمة الشيء المرهون وتستوفي فائدة تتراوح بين خمسة وسبعة في المائة عن الشهر الواحد . ولم يغفل ذلك الطالب أية

معلومات عن المرابية : فذكر في سياق حديثه أن لها أختاً تدعى البزابيت وأنها صغيرة نسبياً ومستكينة لدرجة أن العجوز تضربها لأتفه الاسباب وتسيطر عليها سيطرة تامة رغم أن طول هذه الـ « البزابيت » لا ينقص عن ستة أقدام ، وهذا وجه الغرابة في الموضوع كما كان يقول !

وهنا انتقل موضوع الحديث وتركز حول اخبار البزابيت فكان الطالب يتحدث عنها بغبطة ملحوظة دون أن يكف عن الضحك حتى أن الضابط الذي استمع اليه حتى تلك اللحظة بشغف واهتمام، رجاه أن يبعث بتلك الـ « البزابيت » اليه لتغسل له ثيابه الداخلية . لم تفت راسكو لنيكوف كلمة واحدة من ذلك الحديث . حتى أنه تأكد من إحاطته علماً بكل ما يتعلق بتلك العجوز دفعة واحدة : فالبزابيت هي الأخت الصغرى ولكن من أم أخرى ، ولها من العمر خمسة وثلاثون عاماً تعمل ليل نهار لحساب أختها وتشغل في بيتها مركز الطاهية والغسالة الى جانب اشغال الحياكة التي كانت تقوم بها كلما سمح لها الوقت ؛ وانها كانت ترهق نفسها بالعمل والخدمة وتعطي أختها كل ربحها دون أن تجرأ على تقبل عمل ما أو عقد صفقة ما إلا باذن العجوز وموافقتها . وكانت المرابية قد كتبت وصيتها التي حرمت فيها البزابيت من كل شيء باستثناء بعض الأثاث . ولم تكن البزابيت تجهل ذلك . كانت تعرف أن أختها العجوز قد وهبت ديراً في مقاطعة « ن ... » كل مالها ، التماساً لراحة روحها عند الموت .

لم تكن البزابيت تمت الى بيئة راقية رغم انحدارها من أسرة عاشت في المدينة . كانت طويلة القامة ، هزيلة التكوين ذات قدمين كبيرتين ملتويتين ، تنتعل دائماً أحذية مشوهة ، وتميل الى النظافة المفرطة . وكان ما يزيد في دهشة الطالب واستغرابه أن البزابيت تلك كانت دائماً حبلى . حتى أن الضابط لم يتمالك أن قال معقباً :

ــ إنك هنا تعطي صورة لوحش مخيف .

ــ يجوز ... انها نحاسية اللون وكأنها جندي في لباس امرأة ولكن لا يمكن أن تنحدر الى مرتبة الوحش . إن لها سماتاً غاية في الطيبة وعينين جميلتين . وهي هادئة ووديعة ترتفي كل شيء حتى يمكن القول أن ابتسامتها جذابة ..

فقال الضابط متسائلا وهو يضحك :

ــ هل يمكن أن تروق لك ؟

ــ لمجرد غرابتها فقط . أما تلك العجوز اللعينة : فأقسم أنني ما كنت لأشعر بأي تبكيت في ضميري لو قتلتها وسلبتها مالها ...

ضحك الضابط لقول صديقه . غير أن راسكو لنيكوف ارتعد له : لقد كان غريبا أن يسمع ذلك . غريباً أن يسمع فكرته على لسان غيره !

قال الطالب بحماس مخاطباً زميله :

ــ سوف أطرح عليك سؤالاً جدياً لو سمحت وبالطبع إنني أقول ذلك على سبيل المزاح فحسب . قارن بين عجوز خرقاء حمقاء خبيثة غليظة الفؤاد مريضة غير ذات فائدة لأحد ، لاتعرف من حياتها لم تعيش،وستموت غداً ميتة طبيعة ... هل تفهم ، هل تفهم ؟

فقاطعه الضابط قائلا بعد أن أصغى اليه باهتمام وراقبه بنظرة منفعلة :

ــ لا شك اني أفهم .

واسترسل الطالب يقول :

ــ نعم قارن بين عجوز كالتي وصفتها وبين قوى فتية نشيطة تضيع هباء لافتقارها الى السند والدعم ، قوى تضيع بالالوف وفي كل مكان ... مئات بل ألوف من الاعمال الممتازة والمشاريع التي يمكن تحقيقها وتنفيذها بأموال تلك

العجوز الموهوبة لدير ... مئات بل ألوف من المخلوقات يمكن تسييرها في الطريق القويمة وعشرات من الأسر يمكن انقاذها من المجاعـــة والانحلال والدمار والتفكك وتجنيبها مستشفيات الامراض السارية بتلك الاموال . فلتُقتل إذاً وليؤخذ مالها وليكرّس بعدئذ لنفع الانسانية . فهل تعتقد أن جريمة تافهة كهذه لا تساوي ألوف الحسنات التي تقابلها . فكر أن حياة واحـــدة تنقذ ألوفاً من الدمار والانحلال والفساد ... مئات من الارواح تنقذ لقاء روح تزهق . ألا ترى في ذلك عملية حسابية واضحة ؟ ثم ما وزن حياة عجوز خبيثة كهذه في الميزان العام ... عجوز سخيفة بليدة معلولة ؟ إنها لا تساوي ذرة بل جرثوماً بل وأقول أن حياتها أبخس من ذلك ثمناً . لأن هـــذه العجوز ضارة بالانسانية . انها تبتز وتحتكر المستقبل بثمن الحاضر ، انها وحش ضار ... أتدري أنها مؤخراً عضت اصبع اليزابيت في ساعة غضبها فكادت أن تقطعه لو لا قليل ؟

فقال الضابط :

ــ لا شك أنها غير جديرة بالحياة . ولكن هي الطبيعة !

ــ آه ... آه يا صديقي . الطبيعة ؟ الطبيعة ؟ يمكن تبديلها وتعديلها وتسييرها والا أوشكنا على الغرق في خضم من المعتقدات الفاسدة . لو تركنا الطبيعة وشأنها لما لمع رجل كبير . يقولون : « الواجب ! الضمير » وأنا لاأعارض ولا استنكر الواجب والضمير لكنني أطلب بل أطالب بايضاح معنى هذه الكلمات ! حسناً . سأطرح عليك سؤالاً آخر :

ــ كلا ! بل دع لي أنا فرصة السؤال :

ــ أنت الآن في اندفاع كلامي كالخطيب المفوه ولكن قل لي هل تتعهد بقتل هذه العجوز « بنفسك » ؟

ـــ بالطبع لا . انني أتحدث من وجهة النظر العدالية وذلك لايعني أنني أقصد نفسي بالذات في هذه اللحظة .

ـــ حسناً . اذا اردت رأيي قلت لك انه طالما لا تحزم امرك على تنفيذ مـا تقول فلا يمكن ان تتعلق المسألة بالعدالة ... هيا نلعب شوطاً آخر ...

كان راسكو لنيكوف فريسة اضطراب عنيف لأن تلك النظريات لم تكن غريبة عنه . انها نظريات وآراء شباب سمعها غالباً ، وهم يتداولونها على اشكال مختلفة وبصدد مواضيع مختلفة . ولكن لم جمعت الصدفة تلك الآراء وادخرتها حتى تلك اللحظة ليسمعها راسكو لنيكوف ؟ او على الاصح كيف انتقلت افكاره بحذافيرها الى راس سواه في اللحظة التي نبتت فيها في راسه وراحت تزدهر ؟ كيف يفكر هو في العجوز ثم لا يلبث حتى يسمع حديثاً يدور حولها ؟ انهـــا صدفة غريبة . وقد لبث ذلك الحديث الذي دار في تلك الحـانة يؤثر تأثيراً كبيراً على الأحداث التي وقعت بعد ذلك حتى انه ليقال أن هناك علاقـــة او ارتباطاً أو تقريراً يصدر عن القدر ..

* * *

عنـــد ما عاد راسكو لنيكوف من « سوق العلف » استلقى على « سريره » ولبث ساعة لايريم ولا يتحرك . وكان الظلام قد أرخى سدوله في ذلك الحين ولم يكن لديه شمعة يوقدها بل ان فكرة ايقادهـا ـــ لو وجدت ـــ لم تكن لتخطر على باله . لم يذكر أبداً خلال المدة الاخيرة أنه استطاع التفكير في شيء ... وأخيراً عادت اليه قشعريرة الحمى التي شعر بها مؤخراً فوجد أن خير ما يفعله هو النوم . فاغمض عينيه واستغرق في نوم عميق .

نام أكثر من عادته ولم يتخلل نومـه أحلام ، حتى ان ناستاسيا التي دخلت غرفته في العاشرة صباحاً وجدت صعوبة في ايقـــاظه . كانت تحمل اليه الشاي

والخبز . الشاي الذي كانت قدمته له من قبل في انائها الخاص .

هتفت باحتقار :

ــ رباه كم ينام انه لا يحسن الا النوم .

نهض باجهاد وهو يشعر بألم في رأسه ، فراح يتمشى في غرفته ثم لم يلبث أن سقط على السرير من جديد . صاحت ناستاسيا :

ــ أتعاود النوم ؟ هل أنت مريض ؟..

ولما لم يجب ، أردفت :

ــ ألا تريد أن تحتسي قدحاً من الشاي ؟

فأجابها بضعف وهو يغمض عينيه ويستقبل الجدار بوجهه : ـ فيما بعد ..

انحنت ناستاسيا فوقه وهي تقول :

ــ لعمري قد يكون مريضاً ... ثم دارت على عقبيها وخرجت ، ولم تعد اليه إلا في الساعة الثانية وكانت تحمل الحساء . كان لا يزال نائماً كما تركته والشاي لم يمس ، فراحت تهزه بعضب وتقول :

ــ مابك لا تنفك تنـام ؟ هل أنت مريض ؟ أجب بنعم أو لا !

لكنها لم تتلق جواباً كذلك . فنظرت اليه باستنكار وقالت :

ــ من الخير الك أن تقوم بجولة في الشارع ، قد يفيـدك الهواء الطلق ... ماذا لو جلست قليلا !

جلس الشاب في «سريره» وأطرق برأسه محـدقاً مستغرقاً في خواطره ، ولم يرد على قولها : ــ فيما بعد ... ارتحلي .. وأشار بيده نحو الباب . فوقفت برهة تتأمله بنظرة اشفاق ثم خرجت .

لبث مطرقاً بضع دقائق ثم رفع رأسه ونظر باستغراق إلى الشـاي والحساء وأخيراً انتزع قطعة من الخبز وأمسك بالملعقة وبدأ يأكل ... ابتلـع لقيمات دون

شهية وبشكل آلي . فسكن الألم الذي في رأسه ولما انتهى من طعامه تمدد على « السرير » ولكنه لم ينم . بل لبث ساكناً مستلقياً على صدره دافناً وجهه في «الوسادة » . كان يفكر ويفكر وكانت أحلامه غريبة . كان يتصور نفسه هناك في إفريقيا ، في مصر بالقرب من بعض الواحات ، ويرى أن القافلة تستريح والجمال تنام هائئة ، وأشجار البلح نامية على شكل دائرة محيطة . وكان الجميع يتناولون الطعام أما هو فكان يشرب من غدير جار من مجرى قريب من هناك . ولقد شعر أن ذلك الماء أنعشه ... إنه ماء أزرق صاف يسيل فوق حصى ملونة وفي مجرى من الرمال التي تعكس إشعاعاً ذهبياً .

وفجأة سمع دقات ساعة بوضوح فانتفض ورفع رأسه ونظر من النافذة وبعد أن خمن الوقت غادر «سريره » كما لو انتزعته أيد خفية . شعر باشراق عقلي فسار متلصصاً نحو الباب يواربه بهدوء ويصغي . فلم يسمع أية ضجة على السلم كما لو أن كل من في البيت كانوا نياماً . راح يعتب على نفسه استغراقه في النوم كل هذا الوقت دون أن يتخذ العدة لما هو في سبيله . واعتبر هذا الاهمال منه عملا شنيعاً شاذاً . فقد أدركه الوقت والساعة أشرفت على السادسة ؛ وهنا شعر بوجيب قلبه يتجاوب في الحجرة ، واستولت عليه عجلة خارقة صاخبة مضطربة طردت الذهول والنعاس اللذين كانا مستولين عليه . كانت الاستعدادات اللازمة بسيطة غير معقدة . فاستنجد بكل قواه ليدبر الامر ويبلغ به مبلغ الكمال فلا ينسى شيئا ولا يغفل أمراً وشعر بضربات قلبه تكاد تخنقه فصمد وقاوم وأخرج من « وسادته » رزمة من الثياب انتقى منها قميصا قذراً خلقا نزع منه « سريدة» بعرض بوصة واحدة وطول ثمانية بوصات أراد أن يصنع منها عقدة سيالة « أنشوطة» يثبتها في معطفه، الأمر الذي لن يستغرق منه الا دقائق معدودات . نزع معطفه الصيفي الواسع المصنوع من قماش قطني متين (وهو اللباس الخارجي الوحيد الذي كان يملكه) ، وبدأ

يخيط في داخله تحت الابط طرفي « السريدتين » . كانت يداه ترتعـــدان خـلال تلك العملية ولـكنه أنجزهـا بدقـة لا تفضحها العـين ، ثم ارتدى المعطف ...

كان قد هيأ الابرة منذ بعيد وكذلك الخيط كان محتفظا به في قمطر المائدة ملفوفا في ورقة باعتناء .أما «الانشوطة» فكانت من تصميمه : ادخرها للفأس إذ أنه يستحيل عليه الخروج الى الشارع والفأس في يده ، أما اخفاؤهـــا تحت المعطف فيستوجب استعمال اليد أو الذراع لتثبيتها . ولكن بمثل هذه «الانشوطة» ليس عليـه الا أن يدخل الجزء الاعلى منها فيها ويتركها متدلية دون أن يخشى سقوطها ؟ وستبقى تحت ابطه طيلة الرحلة ولن يقتضيه الامر الا ادخال يده اليسرى في جيب معطفه والامساك بالمقبض ليمنعهـا من التأرجح . ولما كان معطفـه عريضا حتى لـكأنه غرارة كبيرة ، فان الناظر اليه لن يستطيع أن يحـدس أنه يسند بيـده شيئا . وهـكذا نبتت فكرة «الانشوطة» في رأسه منذ نيف وخمسة عشر يوما ...

أنهى عمليته ومد يده الى الفراغ الواقع بين « الديوان» وحافة الجدار من الجهة اليسرى وعبث برهة بأصابعه باحثا ثم اخرج «الرهينة» التي ادخرها لهذه المناسبة. لم تكن شيئا ثمينا بالمعنى المفهوم .كانت عبارة عن قطعتين من الخشب المجلو المصنوع على شكل علبة السجائر وقد غطاهما بقطعة من الحديد الابيض (تنك) عثر عليهـا خلال احدى نزهاته ، ثم لفها بعناية في ورقة بيضاء ناصعة نظيفة جداً ألصقها من أطرافها حتى ليتعذر نزعها بسهولة . كان قصده من ذلك لفت انتبـــاه العجوز وقتـا كافيا واشغـالها زمنا بنزع الغلاف بانتظار اللحظـة الحاسمة . وقد عمد الى قطعة الحديد لتزيد في وزن العلبـة الموهومة حتى لا تدرك

العجوز خدعتـــه للوهلة الاولى . . . وهي خطة مدروسة بعنـايه ومعدة بحذق .

سمع فجأة صوتا من ساحة الدار يهتف :

— لقد أعلنت الساعة السادسة منذ طويل .... فكان لهـــذا القول رد فعل عنيف في نفسه : « السادسة منذ زمن طويل ؟ رباه ! »

اندفع نحو الباب وأصاخ السمع ثم أخذ قبعته ونزل الدرجات الثلاثين بحذر القط وحرصه وتوقف برهة : كان عليه تنفيذ الجزء الاهم من تلك الاستعدادات: سرقة الفأس من المطبخ .

أما لمَ استعمال الفأس بالذات ؟ فذلك ما لا يعرفه ! لأن الفكرة واتته من قبل فتبناها وتقبلها دون نقاش ...

يجدر ابراز نقطة هامة في قرار راسلولينكوف: ذلك أنه كلما اتخذت خطته صبغة نهائية كلما ازدادت في عينه رهبة ووحشية لدرجة أن الصراع الاليم الذي كان ينشب في أعماقه كلما ناقش تلك الفكرة كان يجعله أبعد ما يكون عن تنفيذ عزمه . حتى انه في تلك اللحظة ، رغم جمعه كل مايلزم لتلك « العملية » وتدقيقه في كل التفاصيل حتى التافه منها ، كان لا يزال يعتقـد أن ما سيقدم عليه ضرب من المستحيل ... نوع من الاغراق في الوحشية . مع ذلك كان يشعر ان التراجع متعذر في تلك اللحظة !

لم يكن الحصول على الفأس يقلق باله من قبل نظراً لسهولته : فناستاسيا غالبا ما تكون غائبة عن البيت مساء لأنها تزور الجيران حينا أو تكون في السوق أحيانا تاركة باب المطبخ مفتوحا... ذلك الباب الذي كان علة قلق راسكولينكوف وخوفه كلما أراد التسلل من البيت . فلم يكن أسهل عليه من ان يتسلل الى المطبخ بهدوء فيأخذ الفأس ليعيدها بعد ساعة على الاكثر عندما يكون كل شيء قـد

انتهى . بيد انه كان يخشى بعض الثغرات في هذه الخطة كأن ترجع ناستاسيا قبل الوقت فيتعذر عليه اعادة الفأس ويضطر للانتظار حتى تسنح فرصة أخرى، يجوز ان تكتشف خلالها ضياع الفأس فتبحث عنها صارخة مزمجرة وبذلك يتولد الشك اوعلى الاقل يسبب نمو الشك. لكن الوقت ما كان يسمح له بالتريث امام هذه العقبة التافهة ، لأن تفكيره كان منصرفا الى الناحيـــة الأهم من الموضوع تاركا توافـه التفصيـل الى ما بعد عندمـا يكون قد انتهى من عمله .

رغم هذا فانه ظل يشعر باستحالة تنفيذ « العمل » . تذكر على سبيل المثـال حاله مساء البارحة — لما أن أقنع نفسه بوجوب اجراء تجربة تقتصر على زيارة المكان دون ان يرافقها أي عمل — وكيف ثارت خواطره واضطربت افكاره وتخاذلت ساقاه رغم ما كان يقنع به نفسه من أقوال ومن ان لا ضير من اجراء التجربة طالما انها تتعلق بحلم وليس بحقيقة . بيد انـه حلل النتيجة الادبية لتلك المسألة تحليلا دقيقاً فكان تفسيره وافتاؤه من الدقة وحسن السبك لدرجة لم يشعر معها في وجدانه بأي اعتراض . لم يكن يريد التساهل مع نفسه في هذا الموضوع بل كان يبحث بعناد عن اعتراضات وانتقادات تسفه قراره . لكن نهار امس الغني بحوادثه المفاجئة الحاسمة أثر فيه تأثيراً آلياً فكان كمن يقسر على اتبـاع الطريق ترغمـه قوة قاهرة لا قبل له بمقاومتها ... كمن أطبقت على ثوبه عجلة جبارة وراحت تدور وتجذبه اليها بشدة وتصميم .

فكر من قبل — قبل ان يضع خطته — في الاسبـاب التي تجعل كل جريمة سريعة الاكتشاف ، وفي الدوافع التي تتيـح للمحققين العثور بسهولة على آثار تدين القتلة وخرج بنتائج مثيرة : كان السبب الرئيسي — على رأيه — هو الاستحالة الطبيعية لاخفاء الجريمة في صدر المجرم نفسه . لأن المجرمين من أي

نوع كانوا يشعرون عند تنفيذ جريمتهم و بعدها بقليل، بضعف في إرادتهم وفي أحكامهم ؛ وكان راسكو لنيكوف مؤمناً بأن ذلك الخور يستحوذ على الانسان كما يتسلط عليه المرض وينمو فيـــه باطراد حتى أنه يبلغ الذروة قبل الاقدام على تنفيذ الجريمة بقليل ، ويظل على هذه الحال أثناء ارتكابها ويبقى أثره زمناً ما بعد ذلك بحسب الاشخاص ودرجة مقاومتهم ثم لايلبث أن يزول شأن كل الامراض. بقي أن يعلم هل المرض يرافق الجريمة أبداً أم أن الجريمة ذاتها هي بحسب طبيعتها ممتزجة بنوع من المرض ... ذلك مالم يتوصل الى حله حتى تلك اللحظة !

ظن راسكو لنيكوف — حينما بلغ من تحليله هذا الحد — أن أمره سيختلف بعض الشيء عما استنتج وأن مثل ذلك الانقلاب الروحي لن يحدث في نفسه. وظن أن قواه الفكرية وإرادته لن تتخليا عنه خـــلال مراحل « مشروعه » لسبب بسيط : هو أن ماهو بسبيله (ليس جريمة). وليس لنا أن نفسر الاسباب الـتي أوصلته إلى هذه النظرية الأخلاقية ، لكننا نكتفي بالقول أن الصعوبات العملية ذات الصبغة المادية البحتة ما كانت تلعب في ذهنه إلا دوراً ثانوياً . كان يقنع نفسه بقوله : « - يكفي أن أراقب إرادتي ووجداني وأسيطر عليهما حتى أتغلب في اللحظة الحاسمة على كل الصعوبات التي قد تعترض مشروعي » .

لكن اللحظة الحاسمة كانت تتأخر باستمرار حتى بات يشك في المبادىء التي أوجدها والاستنتاجات التي استخلصها من مناقشاته . والآن بعـد أن حان الوقت فان الحوادث اتخذت صبغة جديدة غير منتظرة ، وأول عقبة صادفته كانت عندما بلغ نهاية السلم قرب ذلك الباب الذي كان أبداً مفتوحاً إذ أنه بينما كان يلقي عليه نظرة جانبية ليتأكد من غياب ناستاسيا وصاحبة الدار أو على الاقل غياب الاولى ووجود الثانية في غرفة مغلقة داخل الشقة ، ليتسنى له أخذ الفأس دون أن يراه أحد ، رأى لدهشته البالغة ، أن ناستاسيا كانت هناك مشغولة بنشر بياضات على الحبال

فاستمر في سيره وكأنه لم يرها . لكنها أبصرت به بل أنها راحت تتابعه بنظرها حتى تجاوز نطاق الرؤية المتاح لها في مكانها وهكذا أخفق في أهم جزء من خطته .

وراح يعتب على نفسه وقد عصفت بين جوانحه غضبة حيوانية ويقول :

ـ « من أين جئت بتلك الفكرة السخيفة ، فكرة غياب ناستاسيا عن المطبخ في اللحظة الحاسمة ولمَ ، لمَ اعتبرتها أمراً واقعاً رغم مايعتورها من أخطاء سخيفة ؟ »

وقف أمام الباب الخارجي للبناء تتنازعه عوامل شتى : فهو لا يستطيع الخروج الى الشارع هكذا دون هدف لأن في ذلك إيلاماً له ، ولا يريد العودة الى غرفته فالايلام أشد ! راح يدمدم حانقاً : « لقد أضعت فرصة جوهرية وأضعتها الى الابد ! »

وفجأة التمعت عيناه ببريق خاطف وارتعش كيانه فرحاً : شاهد في غرفة حارس البناء شيئاً يلتمع ، شيئاً عرف فيه ضالته التي أخفق في الحصول عليها من المطبخ : فأساً كامنة بين قطعتين من الخشب ، تحت مقعد الحارس ! ولما كان الباب مفتوحاً فقد حدس أن يكون الحارس خارج الغرفة غير بعيد عنها ... لم ينتظر أكثر من ذلك واقترب من الكوخ وهو ينادي بصوت مختنق حتى اذا تأكد من غيابه دخل الكوخ وانتزع الفأس فأودعها المكان الذي أعده لها تحت معطفه وخرج دون أن يراه أحد .

قال يحدث نفسه : ـ الحقيقة أن الشيطان يتدخل عندما يخفق الذكاء ... وارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة : لقد خدمه الحظ وشجعته تلك الخدمة أيما تشجيع .

سار في الشارع ببطء خشية ايقاظ الشكوك وجهد في أن يتحاشى النظر الى الوجوه زيادة في الحيطة والحذر . تذكر فجأة قبعته الشاذة فهتف غاضباً : « رباه ! كيف فاتني استبدالها بما كنت أملكه من نقود البارحة ؟ » وأفلتت شفتاه سبة بذيئة . وبينما هو في طريقه لمح ساعة جدار في دكان مر بالقرب منها فاذا بها تشير

الى السابعة وعشر دقائق فكان ينبغي إذاً أن يحث الخطى خصوصاً وأنه معتزم بلوغ المكان من الطريق الجانبية . والغريب أنه في المرات السابقة ، مرات التجربة ، كان يشعر برعب واضطراب . أما الآن فلم يكن يحس بشيء من ذلك بل ويمكن القول أن شعوراً بالارتياح كان يغمره . كانت أفكاره متجهة وجهات لاعلاقة لها بما هو بصدده . كان يقول وهو يسير بالقرب من حديقة « يوسّوبوف » انه من المستحسن لو عمد الى إقامة نوافير كثيرة كبيرة لتلطف الجو في مثل هذه الامكنة العامة ، ثم لاحظ أنه لو عمد إلى توسيع « البستان الصيفي » حتى « ساحة مارس » ودمج في حديقة « باليه ميشيل » فان ذلك سيكون تجديداً جميلاً نافعاً « لسان بترسبورغ » وهنا أثار انتباهه سؤال عرض له فجأة : لمَ يفضل الناس في المدن الكبيرة — سواء بدافع الحاجة أو بدافع الذوق - السكنى في الأحياء التي لاتتخللها نوافير ولا حدائق والتي ليس فيها إلا الوحل والعفن والروائح القذرة ؟ وتذكر نزهته في « شارع العلف » والأسباب التي دفعته اليها فلم يتمالك أن تمتم : « يالي من أحمق ! يجدر بي أن لا أفكر في هذا .. أعتقد أن أولئك الذين يساقون الى ساحة النطع يستمتعون لآخر مرة بالمناظر التي تحيط بهم وهم في طريقهم الى الموت » .

ومضت هذه الفكرة في رأسه برهة لكنه سرعان ما أطفأها إذ كان قد بلغ الدار التي يقصدها وأصبح الباب قبالته . تناهى الى سمعه صوت ساعه بعيدة تدق دقة واحدة فهمهم : « هل يمكن أن تكون النصف بعد السابعة ؟ مستحيل ان هذه الساعة مغلوطة » .

خدمه الحظ مرة أخرى عندما هم باجتياز عتبة المكان حتى ليظن أن القضية جاءت عمداً . فقد مرت في تلك اللحظة عربة كبيرة محملة بالقش راحت تجتاز المدخل الرئيسي للدار وبذلك حجبت دخوله فلم يشعر به أحد حتى أن العربة لم تكد تبلغ

الباحة إلا وكان قد بلغ السلم الأيمن وارتقاه . وتناهت الى سمعه أصوات مزمجرة آتية من جانب العربة .وفتحت نوافذ كثيرة مطلة على الباحةغير أن الأبواب المطلة على السلالم لبثت مغلقة .

راح يصعد قاصداً الطبقة الرابعة حيث تقيم العجوز وقد وضع يده على قلبه ليمنعه من الوثوب . وتحسس الفأس التي إلى جانبه واطمأن الى وجودها للمرة الاخيرة ... سره خلو المكان في تلك اللحظة ... صحيح أن في الطبقة الثانية مسكناً غير مأهول وأن بعض العمال يقومون باصلاحات فيه ، غير أن ذلك لم يثبط من عزيمته . تجاوزهم دون أن ينظر اليه أحد وراح يحدث نفسه قائلاً : « لاشك أنه كان من الاصلح عدم وجودهم ولكن لا بأس على كل حال فهناك طبقتان أخريان ».

بلغ الطبقة الرابعة ووقف أمام الباب ونظر الى المسكن الخالي المقابل لمسكن العجوز . تذكر أن في الطابق الثالث مسكناً يقوم ولا شك تحت مسكنها مباشرة وهو خال بالمثل وراودته فكرة عابرة لحظة واحدة : « أوليس من الخير أن أعود ؟» غير أنه لم ينتظر الجواب بل راح يسترق السمع وأذنه لصق باب العجوز فلم يسمع حركة . كان السكون يخيم على السلالم بالمثل فألقى نظرة أخيرة حوله وتأهب مستعداً وهو يرفع من جديد مقبض الفأس تحت معطفه ويتساءل : « أولست شاحباً بعض الشيء ؟ إن العجوز حذرة جداً فهلا يجدر بي أن أتريث برهة ريثما استرد روعي ؟ » .

لكن ضربات قلبه لم تخف ، بل على العكس كانت تزداد باطراد فلم يأبه لها وأمسك بحبل الجرس لجذبه ثم عاد يقرعه بعد نصف دقيقة بأشد من المرة السابقة دون أن يتلقى جواباً ! شعر أن لافائدة من القرع بالحاح لانها ستثير ريبة العجوز بدلاً من أن توحي اليها بالاطمئنان ... ولا شك أنها في الداخل وحيدة كما يعرف سلفاً وهذا هو سبب التلكؤ الذي يبدو عليها ... نعم ... لقد كان يعرف بعضاً

من عادات آ ايو نا إيفانوفنا ..

أصغى من جديد إلى البابفسمع فجأة احتكاك يد على مزلاج البابمن الداخل وحفيفاً خافتاً كالذي يتخلف عن مرور شخص قرب الجدار .. وسواء اكتسبت حواسه إرهافاً خاصاً أم إن الحركة كانت واضحة مسموعة ، فانـــه لم يتمالك أن ارتعد وهو يفكر أن وراء هذا الباب يقف شخص ينصت مثله إلى ما قد يدور في المشى ... ولعله مثله ، قـد ألصق أذنه على الباب ... فراح يتحرك في مكانه مثيراً ضجة معقولة ليجنّب الشخص المترقب وراء الباب كل خوف وحذر ، ثم عاد يقرع للمرة الثالثة بهدوء دون أن تظهر عليه بوادر نفاذ الصبر ... وظلت هذه اللحظة ماثلة في خاطره ، حتى أنه لبث يذكرها أمداً طويلاً .. أدهشه الاستعداد الذي أبداه والحيل التي تذرع بها على الرغم من انه — خلال فترات متقطعة — كان يشعر بانعدام الاحساس وكأنه بارح جسده .

وفجأة ، سمع صوت المزلاج وهو يرفع ...



راسكولنيكوف يتأهب لارتكاب الجريمة

الفَصلُ السَّابعُ

وورب الباب بهدوء كالمرات السابقة وبدت العينان الحادتان الحذرتان تلتمعان وسط الظلام . وفي تلك اللحظة فقـــد راسكولنيكوف هدوءه وكاد أن يفسد خطته كلها بالخطيئة التي ارتكبها : ذلك أنه خشي أن يدفع الحذر بالعجوز الى إغلاق الباب في وجهه ، ولم يلاحظ أن وجهها كان يعكس إحساسها بالاطمئنان ، فأمسك الباب وجذبه نحوه بشدة حتى أن العجوز الـتي كانت تمسك به بحذر وعنف معاً اندفعت معه الى الممشى . ولما رأى أنها تتصدى له لتمنعه من الدخول تقدم نحوها وفي عينيه نظرة وحشية أخافت العجوز ، فتراجعت خطوة الى الوراء وأرادت أن تقول شيئاً غير أن لسانها لم يسعفها بالنطق .

ابتدرها بلهجة سعى أن يجعلها طبيعية :

ــ مساء الخير يا أليونا ايفانوفنا ... لقد جئتك بالرهينة التي وعدتك بها ... ولكن لنمض الى هناك حيث النور ... وراح يدفعهــا أمامه بعنف وهو يدخل الغرفة دون أن تدعوه إلى الدخول . وعادت العجوز تقف في سبيله وقد استعادت القدرة على النطق وصاحت :

ــ يا إلهي ؟ ماذا تريد ؟ من أنت ؟ ماذا تبغي ؟.

مد لها راسكولنيكوف يده بالعلبة الوهمية وقال :

ــ هيا يا أليونا إيفانوفنا . أنا من معارفك القدماء أنا راسكولنيكوف وهذه هي الرهينة التي حدثتك عنها مؤخراً .

تناولت العجوز العلبة ومضت تتفحصها ثم لم تلبث أن عادت تنتصب أمامه

وتنظر في عينيه محدقة ... كانت تتأمله بانتباه وريبة وقـــد مضت دقيقة خيل لراسكولنيكوف خلالها أن عيني العجوز تلتمع بسخرية مرة كما لو أنها خمنت كل شيء ، فشعر بضعف شامـل وبنوع من الخوف حتى أن تحديق العجوز لو استمر نصف دقيقة أخرى الاذ بأذيال الفرار .

بذل مجهوداً جباراً للتغلب على ضعفه وقال بلهجة خبيثة :

ـــ ماذا دهاك حتى تنظري إلي بهذا الشكل ؟ ألا تعرفينني ؟ هذه العلبة التي حدثتك عنها فاما أن تأخذيها وإما أن تعيديها إلي لأتصل باناس آخرين .

قاه بتلك العبارات عفوياً حتى أن العجوز اطمأنت للهجته بعض الشيء ووجدت في قوله مايشجعها فقالت وهي تنظر الى الرهينة :

ـــ لكن يا صديقي لمَ تصرفت هكذا منذ قليل ؟ ثم أشارت الى العلبـــة وأضافت : ماهذا ؟

ـــ علبة سجائر فضية . ماذا دهاكِ ؟ لقد حدثتك عنها من قبل .

فمدت يدها وهي تقول :

ـــ كم أنت شاحب ! ويداك ترتجفان ! هل أنت مريض ؟

فأجابها بصوت مرتجف :

ـــ كيف لايشحب من لايجد ما يأكل ؟ إنني مصاب بالحمى ...

وخذلته قواه من جديد . غير أن العجوز اقتنعت بالجواب وتناولت الرهينة وعادت تسأل وهي تزن البضاعة في يدها وتنظر بحدة الى راسكولنيكوف :

ـــ ماهذا ؟

ـــ إنه الشيء ... علبة السجاير .. علبة فضية ، عاينيها .

ـــ هم !... لاتبدو أنها من الفضة ثم إنها ملفوفة بعناية .

وراحت تسعى لازالة الغلاف فاقتربت من النافـذة حيث النور أقوى بعض

الشيء لأنها تحتفظ بنوافذها مغلقة دائماً رغم الحرارة الخانقة ، وتركته لحظات وقد أدارت له ظهرها ... ففك أزرار معطفه وخلص الفأس من العقدة السيالة « الأنشوطة » دون أن يخرجها من تحت إبطه وأسندها بيده اليمنى تحت معطفه . شعر بضعف هائل يكتسح ذراعيه وبحركاته تتثاقل وكأن أطرافه قدت من رصاص وخاف أن تسقط الفأس من يده ! وفجأة أحس بدوار . تناهى الى سمعه صوت العجوز وهي تقول :

— يالها من فكرة سقيمة تلك التي قضت بحزم هذه العلبة في مثل هذا الغلاف ... فكان لهذه الجملة وقع السحر في نفسه . كان الوقت يدركه وعما قليل ستكتشف المرأة الخدعة وعندئذ يضيع كل شيء .

أخرج الفأس من مكانها ورفعها بكلتا ذراعيه دون أن ينتبه الى حركته وتركها تسقط آلياً ودون عنف على رأس العجوز ؛ فقد كانت قواه خائرة . لكنه سرعان ما استرد قواه بعد الضربة الاولى . وكانت العجوز كعادتها عارية الرأس وشعراتها البيضاء القليلة مضمخة بالأدهان كالعادة مجدولة على شكل ذنب فأر وملفوفة على مشط صغير في مؤخرة رأسها .

أصابتها الضربة الأولى في قمة رأسها وساعده في ذلك قصر قامتها . وكانت الرهينة لاتزال في إحدى يديها . ثم انهال عليها بكل قواه بضربة ثانية وثالثة مستهدفاً الرأس فتفجر الدم وكأنه سفح من إناء ، وتهاوى جسمها على الأرض فتراجع الى الوراء ليتفادى الاصطدام بها ... كانت قد فارقت الحياة وقد اتسعت حدقتاها وكأنها على وشك الخروج من محجريها بينما راح وجهها وجبينها يختلجان ويتقلصان من تشنجات النزع الأخير .

وضع الفأس على الأرض قرب القتيل وراح يبحث في جيوبها حاذراً تلويث يديه بالدماء التي كانت تتدفق من رأسها . بدأ بالجيب اليمنى حيث رآها تضع المفاتيح

في المرة الاخيرة . كان محتفظاً بصفاء ذهنه لايشعر بأي خدر أو دوار باستثناء رعدة خفيفة في يديه وكان يقظاً حذراً فلم يتسخ ثوبه . عثر بالمفاتيح التي كانت تجمعها رزمة واحدة وتربطها حلقة من الفولاذ وهرع الى الغرفة الداخلية التي كان يحجب الستار بابها .

كانت غرفة صغيرة جداً يقوم في صدرها دولاب من الزجاج يغص «بالأيقونات» والى الجدار المقابل سرير نظيف جداً وعليه غطاء من الحرير المبطن بالقطن مصنوع بعناية ودقـــة . وبالقرب من الحاجز الخشبي الذي يفصل بين الغرفتين قامت الخزانة . والغريب أنه لم يكد يدخل المفتاح في القفل ويسمع الصرير حتى اعترته رعدة اكتسحت كيانه وأحس برغبة ملحة بالفرار لكن تلك الرغبة لم تدم أكثر من لحظة واحدة إذ لم يكن من السهل التراجع بعد أن وصل الى تلك المرحلة. تملكته فكرة جديدة مقلقة : « ألا يمكن أن تكون العجوز لازالت على قيد الحياة أو أن تكون الحياة قد عادت اليها ؟ فترك المفاتيح والخزانة وعاد قرب الجثة وأمسك بالفأس مرة أخرى ورفعها بين يديه لكنه لم يضرب . ذلك لأن وفاة العجوز كانت أمراً محققاً . انحنى فوقهـــا يتفحصها عن قرب فرأى أن جمجمتها محطمة وأن الجزء الأعلى منها قد انتزع من مكانه وود لو لمسه بيده ولكنه تماسك . شاهد بركة من الدم تجمعت على الأرض ووقع بصره فجأة على شريط من الحرير يطوق عنق القتيل فجذبه ولكنه امتنع عليه . كان الشريط غارقاً بالدم فحاول رفعه ولكن عائقاً كان يحول دونه . تملكه نفاذ صبر غريب وود لو استعمل الفأس مجدداً ليقطع الشريط بضربة واحدة ولكنه لم يجرأ على ذلك . وبعد عناء وجهد دقيقتين لوث خلالها أصابعه والفأس بالدم توصل الى استخلاص الشريط من الجثة . كان يتدلى منه كيس نقود وصليبان أحدهما من خشب السرو والآخر من النحاس وبينهما صورة من « الصيني » أما في الكيس فكانت حافظة نقود منتفخة من جلد

الوعل ذات قفل صغير من الفولاذ . وضع راسكولنيكوف الحافظة في جيبه دون أن يعاين مافيها والقى الصليبين فوق المرأة وحمل معه الفأس وعاد الى غرفة النوم من جديد .

راح يعمل بعجلة محمومة : ويجرب المفاتيح عبثاً ولم يكن سبب ذلك ارتعاد يديه، لأنه كان يميز أشكال المفاتيح وأحجامها ويدرك تماماً أن هذا مثلاً لا ينطبق على فتحة القفل. وبغتة تذكر ذلك المفتاح الطويل ذي الأسنان المشرشرة وقدّر أنه لا يمكن أن يكون لهذه الخزانة (وهو تقدير سبق له أن توصل اليه من قبل) بل إنه مفتاح صندوق حديدي ما حيث يمكن أن تكون فيه كل ثروة العجوز . وعلى هذا فقد ترك الخزانة وراح يبحث تحت السرير معتمداً على أن العجائز اعتدن دائماً إخفاء صناديقهن في مثل ذلك المكان .

لم يخطيء الظن فقد شاهد صندوقاً كبيراً ذا غطاء محدودب مكسو بقماش « الماروكان » الأحمر ومزين بالمسامير الحديدية ، ولما أدخل المفتاح في القفل فتحه بسهولة : وقع بصره بادئ ذي بدء على غطاء أبيض يخفي فراء أرنب تزينه أشرطة وبطانة حمراء وثوب من الحرير ثم حرملة « شال » . أما ما تبقى فلم يكن أكثر من خرق لا قيمة لها ولا شكل ؛ فراح يزيل الدم العالق بيديه مستعملاً بطانة الفراء الحمراء وهو يحدث نفسه قائلاً :

— انها حمراء والدم أحمر ولا شك أنه لن يظهر عليها ...

وبينما هو يفتش بين الخرق ، إذ عثر على ساعة ذهبية تنزلق بينها . فحفزه ذلك على متابعة البحث متأكداً أن أليونا ايفانوفنا تحتفظ بين هذه الخرق « بالرهائن » التي تحصل عليها لقاء ماتسلفه من مال . بل لعل مايراه الآن لا يعدو الرهائن التي عجز أصحابها عن دفع ما استلفوا عليها من نقود فأصبحت ملكاً للعجوز . رأى مجموعة غريبة من أقراط وأساور ودبابيس ثمينة بعضها لا زال في علبه المخملية

والبعض الآخر ملفوفاً بعناية بأوراق الصحف ؛ فأودع تلك الأشياء جيبه دون تردد ... ولم يستحسن فتح العلب كلها وفض اللفافات خشية أن يستغرق ذلك من الوقت ماهو في مسيس الحاجة اليه .

وفجأة سمع صوت خطوات في الغرفة التي سجت فيها جثة القتيل ؛ فتوقف وقد عقل الرعب القاتل حركاته فشلها ... وانقطع الصوت حتى أنه عزا ما سمعه الى اضطراب أعصابه وتخيلاته السقيمة المريضة . غير أنه سرعان ماسمع صرخة خافتة أشبه بزمجرة مكتومة ... وران سكون مريع دام دقيقة أو دقيقتين ... كان خلالها مقعياً بالقرب من الصندوق يحاول عبثاً استعادة هدوئه وتنفسه الرتيب.. وفجأة انتفض بعنف وأخذ الفأس بيده ثم هرع الى الغرفة التي ترك فيها القتيل !

كانت « اليزابيت » واقفة في وسط الغرفة وهي تحمل حزمة كبيرة ، وكانت تنظر بذهول وتبلد الى أختها الميتة وقد شحب وجهها حتى غدا كقطعة من القماش القذر.. بدا عليها أنها عاجزة عن الصراخ فلما رأته مندفعاً نحوها ارتعدت كالورقة التي تتقاذفها الرياح ، وقد اعترتها قشعريرة متقطعة وعلا وجهها تشنج دوري رتيب! رفعت ذراعيها وراحت تتراجع ببطء أمامه باحثة عن زاوية تلتصق فيها وهي تحدق في وجهه خرساء مكتومة الأنفاس . اندفع نحوها رافعاً فأسه فتقلصت شفتا المرأة المسكينة تقلصاً أليماً شأن بعض الأطفـــال عندما يفاجأون بشيء يخيفهم ويحاولون الصراخ مستنجدين . كانت تلك التعسة من السذاجة بحيث أنها لم ترفع ذراعيها لتحمي وجهها كما ينتظر غريزياً في موقف كالذي وجدت فيه . بل إن حركتها كانت من الضعف والحيرة حتى أن يدها لم ترتفع الى مستوى الكتف وهكذا أصابتها ضربة الفأس ملء رأسها ،وكان يستعملها هذه المرة من جزئها الحاد المدبب،فشطرت رأسها شطراً وتهاوت البائسة في مكانها بينما تناول راسكولنيكوف الحزمة التي كانت بين يديها وألقى بها جانباً وعاد الى غرفة النوم من جديد .

بدأ الرعب يستحوذ على نفسه أكثر فأكثر وخصوصاً بعد جريمته الثانية التي لم يكن قد مهد لها أو أدخلها في حسابه وشعر برغبة ملحة في مغادرة المكان وكأنه أدرك في تلك اللحظة دقة موقفه وحرجه وأنه على الرغم من توقعه مثل تلك المصاعب والعقبات فانه لم يكن حتى ذلك الحين إلا في المرحله الاولى وليس يدري كم من موانع جديدة ستنتصب في طريقه قبل أن يعود سالماً الى غرفته ، بل كم جريمة أخرى سوف يضطر الى ارتكابها واقتراف وحشيات أبشع فأبشع صيانة لسلامته ؟.. لو أنه توقع كل ذلك لكان حرياً به أن يتراجع . ود الآن لو يوقع بنفسه ليس من الخوف بل من الاشمئزاز وبشاعة ما أقدم عليه .

راح ذلك الاشمئزاز يتزايد في نفسه دقيقة فدقيقة حتى همّ بالابتعاد عن غرفة النوم والصندوق وسيطر على عقله شرود جديد أشبه بالتخيل . بلغ به الأمر أن نسي نفسه أو على الأصح نسي الفكرة الرئيسية التي جاء من أجلها ليهتم بتفاصيل ثانوية تافهة . من ذلك أنه لاحظ في المطبخ دلواً مملوءاً بالماء مثبتاً فوق مقعد خاص فقرر أن يغسل يديه والفأس لانها كانت مغطاة بالدم . واندفع الى حيث كان الدلو فغمر فيه حديد الفأس وانتزع قطعة من الصابون كانت في علبة على حافة النافذة وراح يغسل يديه داخل الدلو بالذات ولما انتهى أخرج الفأس وأمضى ثلاث دقائق وهو يزيل ما علق بقبضها من نقاط الدم حتى أنه استعمل الصابون لهذه الغاية ثم جفف يديه والفأس بقطعة من الثياب كانت منشورة على حبل في المطبخ ، اقترب بعد ذلك من النافذة ليتسنى له معاينة مقبض الفأس بوضوح ولما تأكد من خلوها من الآثار أقلقه أن يكون المقبض رطباً وأخيراً أعادها إلى مكانها من «الأنشوطة» وألقى نظرة أخيرة على معطفه وسرواله وحذائه فرأى للوهلة الأولى نقاطاً صغيرة على حذاءيه فبلل خرقة ومسحها . وخيل اليه أنه لم يعاين كل شيء وأن هناك بعض التفاصيل غابت عن عينيه المدققتين فوقف برهة في وسط الغرفة يتأمل موقفه

وظن لحظة أنه بات أقرب الى الجنون لأنه يفتقر في تلك اللحظة الى الوعي الكافي للتحليل والتفكير والاستنتاج وزمجر يقول : « رباه ! ينبغي أن أفر ، أفر » ! غادر غرفة النوم محاولاً الخروج وهناك لقي ماصعقه صعقاً — وهو أدق تعبير يطلق على ماشعر به في تلك اللحظة — فوقف متسمراً في مكانه لايصدق عينيه : رأى الباب ، الباب الخارجي الذي يؤدي الى حيث الجثتين ويطل على المشي الخارجي ، ذلك الباب الذي قرعه منذ قليل ، الذي نفذ منه الى هذا المسكن ، رآه مواربا !.. ومعنى ذلك أنه كان خلال كل هذا الوقت غير مغلق بالمفتاح ولا بالمزلاج وإذاً فان العجوز كانت قد تركته مفتوحاً من باب الحذر ، التعقل وبذلك أتيح لاليزابيت أن تدخل إذ لاشك أنها لم تنفذ خلال الجدران .

بادر الى الباب فأغلقه ودفع المزلاج وراءه ووقف لحظة يفكر : وليس الأمر مجرد إغلاق الباب ، إنما المهم هو الخروج » . فعاد يفتح الباب ويصيخ السمع . تناهى إلى أذنيه صوتان صاخبان يعربدان بسباب وشتائم فتساءل عمن يكون صاحباهما وانتظر بفارغ الصبر أن تخفت أصواتهما ويرتحلا ، وأخيراً وبعد لأي هدأت الأصوات . وبينما كان يستعد للخروج سمع في الطابق الأسفل صوت باب يفتح وزمجرة على السلم فخمن أن شخصاً ما يهبط إلى الأسفل وهو يدمدم لحنا وتساءل مرة أخرى قائلاً :

— مابالهم يحدثون مثل هذا الصخب ؟

أغلق الباب من جديد وعاد ينتظر حتى خيم السكون وهدأت الأصوات . وما كاد يضع قدمه على الدرجة الأولى حتى تناهى إلى سمعه صوت خطى بعيدة آتية من أسفل السلم وشعر أن تلك الخطوات تتجه إلى حيث هو بالذات أو بالأحرى إلى حيث كان . أما كيف خمن ذلك ؟ وما هي الميزات التي تفردت بها تلك الخطى حتى توصل إلى ذلك الاستنتاج ؟ ليس يدري ! كانت خطوات ثقيلة متزنة بطيئة

وكانت في تلك اللحظة قد بلغت الطبقة الاولى من البيت وبدأ وقعها يتجاوب مرتفعاً باطراد . أحس كأن صاحب الخطى يلتقط أنفاسه المبهورة بصعوبة ، فلبث يتابع تلك الخطوات بسمعه حتى بلغت الطابق الثالث ولم يبق لوصولها اليه إلا زمن يسير بينما لبث هو جامداً في مكانه عاجزاً عن تحريك أطرافه .

بدأ القادم يرقى الى الطبقة الرابعة عندما استرد راسكولنيكوف حواسه ونجح أخيراً في العودة الى المسكن الذي غادره فأغلق الباب وراءه ثم دفع المزلاج ببطء وهدوء محاذراً احداث أي صوت . كانت حركته غريزية فحسب فلما فرغ منها قبع وراء الباب كاتماً أنفاسه وجعل يصغي بكل حواسه .

بلغ القادم الباب ولم يعد يفصله عنه إلا ذلك الحاجز الخشبي وشعر بأنه يصيخ السمع بدوره وأنه يتنفس بصعوبة وتصوره راسكولنيكوف ضخم الجثة طويل القامة ! قرع الزائر الجرس وانتظر برهة ثم عاود الكرة ولم يلبث أن استولت عليه غضبة مفاجئة فراح يهز الباب نافذ الصبر . وكان راسكولنيكوف يراقب المزلاج وهو يهتز في مكانه وخيل اليه أنه سيتداعى آخر الأمر تحت وطأة الهزات العنيفة وخطر له أن يمسك المزلاج بيده ويدعمه ولكنه خشي أن يفطن « الآخر » الى ذلك فطاش صوابه وبدأ الدوار يغزو رأسه وظن أنه ضائع لامحالة . وفجأة سمع القادم يزمجر .

ــ ماذا جرى ؟ هل استغرقتا في النوم أم أن أحداً قتلها ؟ يا للجيفتين ! هيه ! أليونا إيفانوفنا أيتها الساحرة العجوز ! اليزابيث إيفانوفنا ياذات الجمال الرائع ! افتحا .. آه ياملعونتان ! هل يعقل أن تكونا نائمتين ؟

ومن جديد عاد يقرع الجرس بالحاح في ثورة غضبه حتى كاد أن يقطع الحبل وبدا كأنه ليس غريباً عن المرأتين وأنه يشغل مركزاً هاماً عندهما . وفي تلك اللحظة ارتفعت أصوات خطوات أخرى سريعة حفيفة ... كان قادم آخر يقترب من

المسكان ، قادم لم يسمع راسكولنيكوف صوت خطاه أول الأمر وسمع الحديث التالي يدور بين المجهولين : سمع القادم الجديد يقول :

ـــ لايعقل أن لايكون أحد في البيت . مرحباً يا « كوخ » .

كان الصوت رناناً مرحاً حتى أن راسكولنيكوف قدر أن صاحبه لايعدو أن يكون شاباً في مطلع العمر . وأجاب الصوت الآخر :

ـــ الشيطان وحده يعرف ! لولا قليل لاقتلعت القفل منذ لحظات ، ولكن كيف عرفتني أنت ؟

ـــ كيف هذا ؟ ألم أهزمك أمس الأول في « كامبرينوس » ثلاثة أشواط متعاقبة بالـ « بليارد » ؟

ـــ آه .. آه ...

ـــ غريب أن لايكون في المنزل أحد ، بل أستطيع القول أنه غاية في الغرابة أين يمكن أن تكون العجوز في هذه اللحظة ؟ عندي ما أقوله لها ؟

ـــ وأنا كذلك ياصديقي عندي ما أقوله لها ..

ـــ اذاً ما العمل ؟ لم يبق إلا أن ننسحب . ولكنني لا أفهم مع ذلك لمَ تحدد تلك الساحرة موعداً في هذه الساعة ثم تتخلف عنه ، والأدهى من ذلك أنني جئت من بعيد ، ياللشيطان ! لست أفهم أينْ مضت . فهي لاتتحرك كل العام من بيتها ! تلك الساحرة . إنها مريضة تشكو ألماً في ساقيها مع ذلك فهي ليست في مسكنها .

ـــ ماذا لو سألنا حارس البناء ؟

ـــ ماذا نسأله ؟

ـــ أين ذهبت ومتى تعود !

ـــ هم !... ياللشيطان ! نسأل ... نسأل ... ولكن بما أنها لم تعتد الذهاب الى أي مكان فكيف نسأل ؟..

وجذب مقبض الباب من جديد وتابع :

ـــ الى الشيطان لابد وأن نذهب خائبين .

ـــ انتظر ... انظر ... ألا ترى كيف أن الباب قد تحرك لما جذبته ؟

ـــ حسناً .. وماذا بعد ؟

ـــ هـذا يعني أنه غير مغلق بالمفتاح ، بل بالمزلاج ... ألا تسمع « صلصلة » المزلاج ؟

ـــ حسناً .. وماذا بعد ؟

ـــ اولا تفهم ؟ معنى ذلك أن واحدة منهما في البيت، فلو أن كلتيهما خارجتان لأغلقتا الباب بالمفتاح من الخارج وليس بالمزلاج من الداخل . انتبه ... هل سمعت الصوت الذي يحـدثه المزلاج ؟ اذاً .. لـكي يستطيع المرء أن يدفع المزلاج ينبغي أن يكون في الداخل هل أدركت ؟ هما هنا غير أنهما لاتفتحان .

فصاح كوخ مأخوذاً :

ـــ يه !.. لاشك انهما هنا ...

وعاد يهز الباب بعنف بينما هتف الشاب يقول :

ـــ انتظر . لاتجذب الباب هـكذا ... إن في الامر ماريب ... فلقد قرعت الجرس وهززت الباب بعنف وهما لاتفتحان واذاً فهما مغمى عليهما أو ...

ـــ ماذا ؟

ـــ هيا لنأت بالحارس وليوقظهما بنفسه .

ـــ حسناً ...

وراح الاثنان يهبطان السلم وفجأة هتف الشاب :

ـــ انتظر ... قف أنت هنا قليلا وأنا سآتي بالحارس !

ـــ ولمَ أبقى ؟

— من يدري؟

— ليكن!

وهتف الشاب متحمساً قبل أن يهبط السلم :

— أرأيت ؟.. إنني أستعد لا كون قاضي تحقيق ! مما لاشك فيه نعم لاشك فيه أن في الامر سراً مريباً .

بقي كوخ في مكانه وحيداً وجذب مرة أخرى حبل الجرس فارتفع صوته مجلجلا ثم أخذ يهز الباب ولكن بهدوء وكأنه مستغرق في خواطره . كان يدير المقبض يميناً ويساراً ليتأكد تماماً من أن الباب غير مغلق بالمفتاح ثم نفخ كالثور الهائج وانحنى على ثقب البـــاب ينظر خلاله . لكن المفتاح كان فيه من الداخل وهذا ما حال دونه وما اعتزم .

أما راسكولنيكوف فكان واقفاً دون حراك يضغط على فأسه ذاهلا . كان مستعداً لمقاومتها والقضاء عليها عندما يعودان وقد واتته فكـرة مناداتهما للقضاء عليهما بل لشتمهما والسخرية منهما .

ومر الوقت دقيقة دقيقة ولم يعد الشاب مما جعل « كوخ » يتململ قلقاً وأخيراً هتف يقول :

— يا للشيطان ! ماذا بعد ؟ لمَ أنتظر ؟

وترك مكانه ومضى يهبط السلم مسرعاً حـتى اختفى وقع قدميه الثقيلتين . وبحركة غريزية ، فتح راسكولنيكوف الباب ثم أغلقه على أحسن ما استطاع وهبط السلم بدوره مندفعاً فبلغ الطبقة الثانية حينما تناهى إلى سمعه صخب وضجيج ينبعثان من الأسفل ، وحار في ايجاد مخبأ يلوذ به وكاد أن يعود أدراجه لولا أن سمع فجأة صوتاً يصيح :

— آه .. أيها الوحش القذر ! أوقفوه !

وأعقب ذلك هبوط ســــريع على السلم في الطبقـــة السفلى وصوت يصيح بجنون :

ــ ميتـكا .. ميتـكا .. ميتـكا .. ميتـكا .. ميتـكا .. ليأخذك الشيطان .

وأعقبت الصرخات زمجرة مريعة استمرت حتى بلغت الساحـة الخارجية ثم عاد السكون وفي نفس الوقت انبعث عـدد من الرجال يتحدثون بأصوات مرتفعة وراحوا يصعدون بضجيـج وصخب.قدر راسكولنيكوف أن يكون القادمون ثلاثة أو أربعة وغمغم « لقد أتوا » وبيأس واستبسال اتجه نحوهم وهو يقول لنفسه : ليكن مايكون ! فأناضائع سواء أوقفوني أو تركوني أمر لأنهم سيذكروني حتما !

لم يبق بينه وبين القادمين إلا طبقة واحده وفجأة لاح له الخلاص ... رأى على مقربة منه الى اليمين مسكناً خالياً تماماً وقد ترك بابه مفتوحاً عرف فيه المسكن الذي يقوم العمال بترميمه وأدرك أن أولئك العمال هم الذين خرجوا منذ قليل يتحدثون بأصوات مرتفعة وبدا له كأنهم تعمدوا ترك الباب مفتوحاً ليتيحوا له مجال الاختفاء . وكان أرض المسكن ملطخاً بالجير وفي وسط الغرفة صفيحة والى جانبها فرشاة كبيرة ووعاء فيه أصباغ . وبسرعة البرق انسل راسكولنيكوف الى الداخل والتصق بالجدار .ولم يكد يتوارى حـــتى وصل القادمون الى مكانه واستمروا يصعدون الى الأعلى وهم يتحدثون . وانتظر بضع ثوان ثم هبط مسرعاً فلم يجد أحداً في طريقه حتى بلغ الباب الرئيسي فنفذ منه الى الشارع .

كان يعرف أنهم في تلك اللحظة قد بلغوا مسكن العجوز وأنهم ذهلوا امام الباب المفتوح الذي كان منذ لحظات مستعصياً عليهم ورآهم بعين الخيـال يتأملون الجثتين خـلال دقيقة وانهم توصلوا اخيراً الى الادراك بان المجرم كان منذ قليل وراء هذا البـاب المغلق وانه نجح بوسيلة ما في الاختفاء والفرار تحت انوفهم . ولعلهم اهتدوا كذلك الى انه توقف لحظة في المسكن الخالي حينما كانوا يصعدون

الى الطبقة الرابعة ... لكنه ما كان يجرأ على حث خطاه رغم انه كان على بعد مائة خطوة من المنعطف الاول . كان يتساءل : « ماذا لو تسللت خلال احد المداخل واختفيت تحت واحد من هذه السلالم في بيت من هذه البيوت المجهوله» ؟ كلا ! سوف يؤذيني ذلك. اذاً هل التي بفأسي في مكان ما ؟ هل أستقل عربة ؟ كلا ! يا للتعاسة ! الويل الويل !

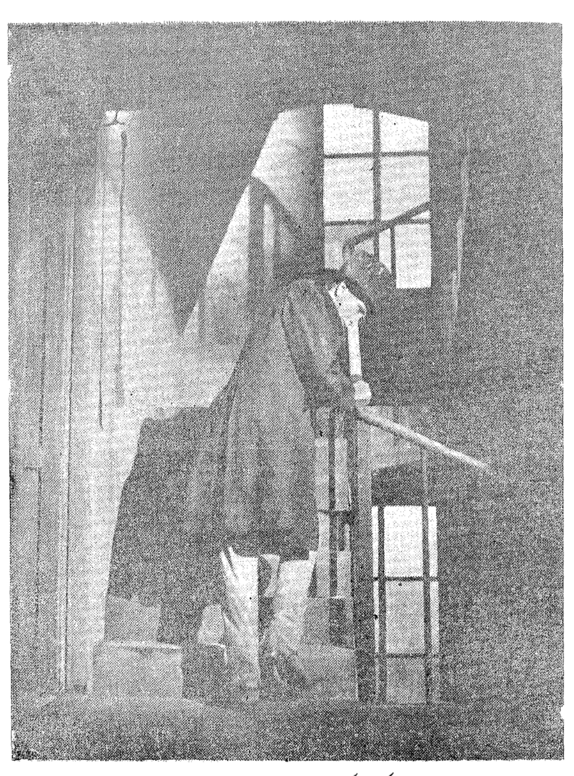
واخيراً مر بزقاق فانعطف فيه وهو يكاد ان يموت من الذعر . كان حاله يوحي بالشك وينطق به . لكن الازدحام كان شديداً فضاع فيه كما تضيع الذرة في صحراء من الرمل. وبلغ من انفعاله واضطرابه انه كان يسير على قدميه بمعجزة . وكان العرق يغمر وجهه ويتصبب على عنقه حتى انه سمع بعضهم يهتف به حينما بلغ مدخل القنال :

— « يبدو لي انك جلد جم المقاومة » !

راح يهدأ اضطرابه كلما اوغل في السير ولما بلغ الرصيف رُوّع اذ راى عدداً قليلاً من الناس هناك وخشي ان تكون ملاحظته اسهل بين هذا العدد القليل وود لو رجع إلى ذلك الزقاق المزدحم. واخيراً بذل مجهوداً خارقاً وقام بدورة وصل بعدها الى منزله عن طريق آخر .

لم تكن افكاره هادئة تماماً حينما تخطى مدخل البيت لذلك فانه لم يتذكر الفأس إلا عندما بلغ السلم وعندئذ فقط تذكر ان عليه إعادتها الى مكانها بسرية تامة. ولم يستطع إقناع نفسه بجواز التملص منها كيفما اتفق دونما حاجة الى اعادتها الى مكانها لان فكرة استبقائها زمناً آخر بانتظار القائها في باحة منزل مجهول عندما تسنح الفرصة لم تكن تعجبه .

وهنا تدخل القدر ايضاً لأنه راى باب كوخ الحارس مغلقاً فاتجه نحوه دون تفكير ولا تدبر ودفع الباب برعونة حتى ان الحارس لو كان في مكانه وسأله عما



راسكولينكوف على السلم ، بعد الجريمة

ريد لما زاد على أن يقدم له الفأس دون أن يتفوه بحرف واحد . لكن الصدف أرادت أن تضيف إلى ملابساتها العجيبة فصلاً جديداً فلم يكن الحارس في كوخه. وهكذا أتاحت له أن يعيد الفأس إلى مكانها بين قطعتي الخشب كما وجدها بل وأكثر من ذلك : استطاع أن يبلغ غرفته دون أن يقابل أحداً لأن باب المطبخ « العتيد » كان مغلقاً ... وهكذا استلقى راسكولنيكوف بكامل ثيابه على « السرير » لا لينام بل ليستغرق في ذهول عميق حتى أنه لو دخل بعضهم غرفته لانتفض وانتصب واقفاً وهو يصيح ويرتعد .

كانت صور وخيالات وأفكار مبعثرة مشوهة تحتدم وتصطخب في رأسه لم يوفق في تمييز شيء منها ولم يستطع الأخذ بواحدة منها رغم الجهد المنيف الذي كان يبذله .

القسم الثانى

الفَصلُ الأوّل

ابث مستلقياً وقتاً طويلا .. وكان يبدو أحياناً متنبهاً يدرك أن الليل قد أقبل وأن قسما منه قد لُف في حساب الزمن ، لكنه ما كان يفكر في النهوض.. وأخيراً بدا له أن النور يعم الغرفـــة وأن النهار قد أقبل ، فلبث في ذهوله مستلقياً على « السرير » ووجهه إلى الأسفل ، بينما صكت أذنيه زمجرات مريعـــة صادرة من الشارع ... كانت تلك الزمجرات مألوفـة لديه من قبل لأنها أصوات السكارى الذين يخرجون من الحانات صاخبين ... خمن أن الساعة قد جاوزت الثانية صباحاً ... وقفز فجأة من « السرير » وكأن يداً انتزعته منه وهتف : « كيف ؟ الساعة الثانيـــة ؟.. » وجلس مستغرباً وسرعان ما عادت به الذاكرة الى الوراء فوعى كل شيء .

خيل اليه في اللحظات الاولى أنه فقد العقل ، فسرت في جسده رعدة باردة من أثر الحمى التي بدأت تنهش عقله وجسمه كما كانت تفعل به من قبل ... واصطكت أسنانه حتى لكأنها تتحطم في فمه ... نهض الى الباب يفتحه ويصغي بانتباه فلم يسمع حركة ولا حساً ... وكل من في البيت مستغرق في النوم . سرح طرفه في غرفته وعاد ينظر إلى نفسه واستغرب كيف أغفل إغلاق باب غرفته من الداخل بالمزلاج عندما آب من جولته ... وكيف سمح لنفسه بالارتمـاء بكامل ثيابه على «الديوان» دون أن يخلع حتى قبعته ! نظر إلى القبعة فاذا بها قد انحدرت عن رأسه لتستقر على الأرض حيث كانت « وسادته » وتمتم على عادته القديمة : « لو أن أحداً دخل غرفتي ماذا كان حري به أن يظن ؟ سيقول أنني ثمل ولكن ... » .

هرع الى النافذة وراح يتفحص ثيابه بدقة على الضوء القوي الذي كان يتدفق

خلالها . لكنه سرعان ما استسخف الطريقة التي يسلكها ... فنزع ثيابه وهو يرتجف ليقوم بالفحص اللازم . لم يترك ثنية إلا وبحث خلالها ، ولا طيـــة إلا وسواها وبحث فيها وأعاد الفحص مثنى وثلاثاً .. دون أن يجد لطخة واحدة باستثناء بضع نقاط تجمعت أسفل كم سرواله ، فأخذ سكيناً كبيراً من النوع الذي يطوى وقطع ذلك الجزء من الثوب وهكذا بدا كأن كل شيء قد اختفى ...

تذكر فجأة حافظة النقود والأشياء الأخرى التي أخذها من صندوق العجوز والتي كانت في تلك اللحظة تملأ جيوبه ! لم يكن قد فكر في إخراجها والتخلص منها بل إنه لم يفكر فيها منذ قليل وهو يتحرى ثيابه ! كيف ذلك ؟ هل هـذا معقول ؟ وبلمحة خاطفة ، بادر إلى انتزاعها من جيوبه والقائها على المائدة ثم قلب بطانة جيوبه خشية أن يبقى فيها شيء لم يعثر عليه وحمل ما تراكم لديه منها إلى زاوية من الغرفة ... وفي تلك الزاوية من الجدار ، كانت بعض القطع من سجاد الزينة معلقة وقد بليت وحال لونها حتى بات وجودها لونا من الوان البؤس الذي تفيض به الغرفة ، فحشر تلك الأشياء في ثغرة وراءها تحت الورق الباهت الذي يزين الجدار وتمتم : « هكذا ... ان ترى ولن تعرف ... وسألحق الحفظة بها » .

شعر براحة بال وعاد يتأمل المكان الذي أخفى فيه مسروقاته ولم يلبث أن هتف : ـ « يا إلهي ... ماذا فعلت ؟ هل يسمى هذا « مخبأ » ... أهكذا يخبئ المرء ما يريد ؟ » ... والحقيقة أنه لم يكن قد فكر في غير المال النقدي لذلك لم يكلف نفسه عناء البحث المسبق عن المخبأ المناسب . واسترسل يدمدم :

ـ « لكن الآن ... نعم الآن ؟ هل لي أن أغتبط بهذه النتيجة ؟ هل هكذا تخفى الأشياء ؟ لاشك أنني فقدت العقل ! » ..

ولما أعياه التفكير ، عاد إلى « السرير » مرة ثانية يجلس عليـــه وعادت القشعريرات القاسية تهز جسده ... وبحركة آلية ، جذب اليه معطفه القديم الذي

كان ملقى على « كرسي » هناك وتدثر به ، واستحوذ عليه الذهول فراح في بحران عميق وهو بين النوم واليقظة وفقدان الحس ! لكن ذلك لم يدم طويلاً إذ لم تمض دقائق معدودة حتى انتفض من جـــديد وانحنى بارتياع يفحص ثيابه ؛ وزمجر خلال أسنانه المطبقة يقول :

ــ « كيف أسمح لنفسي بالنوم وأنا لم أنته من عمل شيء ؟ لاشك انني لم انته من شيء ... نعم لاشك ! وكيف أزعم ذلك وأنا لم أرفع « الانشوطة » من مكانها من المعطف ؟ » .

انتزع « الانشوطة » ومزقها قطعاً صغيرة وأودع القطع « وسادته » وهـــو يتمتم : ــ « كيف غفلت عن هذا ؟ كيف غفلت عن هذا الأمر ؟ أما هذه القطع الممزقة من القماش فانها لن تثير الآن أية شبهة ، أو على الأقل هذا مايبدو لي ... نعم كذلك يبدو لي » ووقف في وسط الغرفـــة وهو يجيل حوله نظرات محمومة واجفة فلم يترك الأرض ولا الجدران إلا وتفحصها بدقة ليتأكد من أنه لم ينس شيئاً .

كان شعوره بأن كل شيء بدأ يخونه حتى الذاكرة ، يؤلمه أشد الألم ويزيد في تعذيبه ؛ فدمدم مروعاً : « ماذا ... هل يعقل أن يبدأ ذلك ؟ هل يعقل أن يكون العقاب قد بدأ يدب ليعمل عمله ؟ ويلاه ... هاهو !.. هاهو !.. انه هو ... » كانت القطع الممزقة التي فصلها عن سرواله والتي كانت آثار الدماء عالقـة فيها ، ملقاة باهمال على الأرض عرضة لأنظار أي داخل متطفل ! لذلك لم يتمالك أن هتف وهو فريسة القلق القاتل : « ماذا جرى لي ؟.. ماذا حصل لي ؟ » .

خطرت له فكرة غريبة في تلك اللحظة : لعل تلك الثياب كلها ملوثة بالدماء دون أن يلاحظ ــ هو ــ ذلك ؛ أم لعله لم يتمكن من العثور عليها نظراً لحواسه الضعيفة الفانية وتفكيره السقيم القاتم ! وفجأة تذكر أن حافظة النقود ملوثة هي الأخرى بالدم . فناجى نفسه قائلاً : « ...وعلى ذلك فان الدم ينبغي أن يكون قد

علق في جيبي كذلك لأن الدماء لم تكن قد جفت عليها حينما أودعتها جيبي ! » ..
وقرن القول بالفعـــل فقلب بطانة جيبه وإذا عليها آثار واضحة من الدم فهتف :
« إذن ... لم يهجرني التفكير السليم تماماً ... لازلت أمتلك قواي العقلية وحرية
تفكيري وإلا لما توصلت الى هذه الاستنتاجات ! » .وندت عن صدره زفرة فرح
وغبطة وراح يتذوق هذا الانتصار المبين ويحدث نفسه بقوله : « لم يكن ماشعرت
به من قبل إلا الضعف الذي تحدثه الحمى ... كان لحظة ذهول فحسب » . ونزع
بطانة الجيب الأيسر كلها ! وفي تلك اللحظة نفذ شعاع من الشمس خلال النافذة
وسقط على حذائه الأيسر ... كانت بعض الآثار تبـدو على مقدمة الحذاء ...
فغمغم : « إن مقدمة حذائي كلها مغموسة بالدم » ... أي أنه في لحظة شرود ، وطأ
بقدمه بركة الدم هناك ! وزمجر بانفعال يقول : « ما العمل الآن ؟ كيف أتخلص
من هذا الآن ؟ كيف أتخلص من هذا الجزء من نعل الحـذاء ومن بطانة الجيب
ومن قطع السروال الملوثة ؟ » .

جمع تلك الأشياء كلها وحملها في يده ووقف منتصباً في وسط الغرفـة يجيل
الطرف حوله مستطلعاً منقباً وراح يتساءل : « أفي المدفأة ؟ ولكنهم سيبحثون فيها
قبل كل شيء ! أأحرقها ، ولكن كيف وبأي شيء وأنا لا أمتلك ثقاباً ! كلا ...
الأفضل أن ألقيها بعيداً ! » . وعاد الى « الديوان » يجلس عليه واسترسل يقول :
« ولكن الآن ... فوراً ... ودون تأخير ! » لكن رأسه سقطت مجـــدداً على
الوسادة يثقلها المرض والتعب والانهاك ومن جديد أحس بالرعدة المتجمدة الاليمة
تجتاح جسده المتداعي ... ومن جديد جذب معطفه اليه يتدثر به . واستمر وقتاً
طويلاً فريسة فكرة واحدة تضرب على أعصابه باستمرار والحاح . فكرة التخلص
من تلك الآثار بأسرع مايمكن ... كانت تتجسد أمام ناظريه وفي خياله وتحدثه
قائلة : « فوراً ... فوراً ... » .

حاول مراراً أن ينهض من « السرير » ولكنه كان يخفق في كل مرة . وسمع فجأة قرعاً عنيفاً على الباب وصوتاً مزمجراً يقول :

ــ افتح ... هل أنت ميت ؟ نعم أم لا ؟ انت لاتحسن إلا النوم ... إنـه ينام اياماً كاملة كالكلب ! هيا افتح ... لقد تجاوزت الساعة العاشرة !

كان المتحدث ناستاسيا المخيفة ... ناستاسيا فحسب ! وسمع صوتاً آخر يقول :

ــ لعله ليس في غرفته !

فانتفض راسكولنيكوف وقال يخاطب نفسه : « اللعنـــة ... هذا صوت الحارس ! ترى ماذا يريد ؟ » شعر أن قلبه يكاد أن يبلغ فمه .. وقالت الخادم مزمجرة تجيب على تعليق الحارس :

ــ ومن الذي أغلق الباب بالمزلاج إذن ؟ أرأيت هذا ؟ انه يحبس نفسه الآن! هل يخشى أن يخطفه أحد ! هيا افتح ...استيقظ أيها « اللوار »(١) .. استيقظ .

خاطب راسكولنيكوف نفسه قائلاً : « ماذا يريدون ؟ لماذا الحارس ؟ لقد اكتشف كل شيء ! هل أقاوم أم أفتح ؟.. ليذهبوا إلى ... »

ونهض قليلاً وانحنى نحو الباب فرفع المزلاج ... كانت غرفتـه من الضيق بحيث تسمح له أن يحل ذلك دون أن يبارح مكانه ! ورأى أمامه الحارس وناستاسيا منتصبي القامة !

تفحصته ناستاسيا بنظرة غريبة أما هو فقد نظر الى الحارس نظرة ملؤهـا التحدي واليأس ! فمد هذا يده اليـــه وفيها ورقة سمراء مطوية ومختومة بالشمع الأحمر ! وقال وهو يسلمها اليه :

ــ إنها دعوة جاءت من الدائرة !

---

(١) ــ اللوار حيوان قارض ، يختفي طيلة الشتاء ويقتات بالبلوط يضرب به المثل لمن ينامون نوماً عميقاً .. المترجم

— اية دائرة ؟

— من دائرة الشرطة ! إنهم يطلبونك ... ألا ترى انها من دائرة البوليس!

— البوليس ولمَ ؟

— لست أدري ! إنهم يدعونك فاذهب اليهم !.. ونظر اليه باهتمام والقى نظرة شاملة على المكان ثم انصرف .

قالت ناستاسيا دون أن تفارقه بنظرها :

— ألست منحرف المزاج ؟ إن آثار الحمى بادية عليك منذ البارحة !

فلم يتحرك ولم يجب ، لكنه فض الدعوة التي سلمها اليه الحارس دون أن يلقي نظرة على مافيها بينما أردفت ناستاسيا وقد لانت لهجتها بعض الشيء وظهرت إمارات الشفقة على وجهها : — حسناً ... لاتنهض ... وإذا كنت مريضاً فلا تذهب إلى دائرة الشرطة فليس في الامر مايستدعي العجلة .. ماهذا الذي في يديك ؟

نظر الى حيث أشارت فرأى قطعة السروال الملوثة والجزء الذي انتزعه من « نعل » حذائه و ... بطانة الجيب الملوثة ! كان لازال محتفظاً بها في يده وقد نام وهي في يده لم يفلتها ! لم يفعل شيئاً ... بل ضغط بشدة على تلك الأشياء في يده وارتمى على فراشه وهو بين الموت والحياة ... كانت الحمى تنهش جسده ومقاومته تضعف باستمرار . بينما استرسلت « ناستاسيا » تقول :

— أرأيت الى هذه الخرق والتفاهات يجمعها وكأنها كنوز ثمين ! والأدهى من ذلك أنه ينام وهو ممسك بها ! وانفجرت في ضحكتها المكتومة وراح جسمها يهتز ويرتعد ويتلوى على الأثر !

أخفى راسكولنيكوف تلك « التفاهات » تحت معطفه بسرعة شأن البخيل الذي يدافع عن ثروته وحدجها بنظرة عميقة نفاذة ... شعر وهو في شبه غيبوبة أن الأمر ليس خطيراً كما توهم لأنه لايعقل أن يعامل امرؤ يراد توقيفه وسوقه

بهذا الشكل ! وسمع « ناستاسيا » تخاطبه وكأن صوتها صادر عن مكان سحيق !

ــ ألا ترغب في قدح من الشاي ؟ سوف آتيك بقدح إذ لا زال بعضه في الاناء !

فدمدم دون ان يعي :

ــ كلا ... سأذهب ... اريد ان اذهب الى هناك ... الى الدائرة فوراً ... وهمَّ بالوقوف . فخرجت دون ان تضيف كلمة واحدة .

هرع الى النافذة يعاين قطعة « النعل » والخرق الملوثة وقال : « إنها ملطخة ولا شك ، ولكنها غير واضحة المعالم والفضل يعود الى الاحتكاك والطين اللذين جعلا اللون حائلاً ... وهكذا فان « ناستاسيا » لم تميزها عن بعد ! حمداً لله ! » ثم ادنى « الدعوة » من عينيه وراح يقرأ ... لبث يقرأ ويتمعن برهة طويلة حتى فهم . كانت دعوة عادية جداً من مكتب مدير شرطة الحي « قوميسير » يطلب اليه فيها المثول في القسم في التاسعة والنصف من ذلك النهار !

اخذ يسأل نفسه قائلاً : « ما معنى هذه الدعوة ؟ انا شخصياً لا تربطني علاقات مع رجال الشرطة ... ثم لماذا اليوم بالذات ؟ »

هم ان يجثو على ركبتيه مبتهلاً إلى الله ان يلهمه الرشد والسكينة من ذلك القلق المميت الذي استولى عليه ... وتلاعبت على شفتيه ابتسامة لم يكن مبعثها الرغبة في الصلاة بل الدوافع التي سولتها له . ارتدى ملابسه على عجل وهو يتمتم : « اذا خسرت نفسي فسحقاً ... نعم لا يهمني ان اضيع ولا يمكن إلا ان البس في قدمي هذا الحذاء وسوف تضمحل كل الآثار عندما يزداد اتساخاً ! » لكنه لم يكد يدخل قدمه فيها حتى سحبها باشمئزاز وهلع . بيد انه فكر انه لا يملك زوجاً آخر ، فعاد يضحك وهو يتمتم : « لن يحصل شيء ... ها قد لبسته في قدمي »... وفرغت منه » ! شعر ان ساقيه لا تحملانه فدمدم مستنتجاً : « انه الخوف » . واعقب وهو يشعر براسه تدور ومعالم الأشياء تغيب عن ناظريه : « إنها خدعة !

إنهم يتذرعون بالمكر ليستدرجوني ثم ينالون مني نيلاً وضيعاً » . وتمالك نفسه بجهد خارق واتجه نحو السلم يهبطه وهو يقول : « المزعج في الأمر أنني في حالة هذيان أو مايقربها ... وقد أفلت بعض الحماقات عفواً »

فكر وهو في طريقه إلى السلم بالمسروقات التي خبأها في تلك الثغرة من الجدار فغمغم : « لعلهم يتهزون فرصة غيابي للقيام بتفتيش دقيق في حجرتي » . غير أنه هز كتفيه دلالة على اليأس والاستسلام للمصير وتابع طريقه وهو يقول : « ايفعلوا مايبتغون علي أتخلص من آلامي ! »

كانت الحرارة في الطريق لاتحتمل كالعادة لأن السماء شحت في تلك الأيام الثلاثة الماضية فلم تهطل قطرة واحـــدة من المطر ... وعاد منظر الجير والآجر والقرميد يصافح عينيه ويحدث في نفسه ذلك الأثر المقبض حتى أنه شعر بالدوار... كذلك نفذت الى أنفه رائحة العفن وأبخرة الحانات القذرة وعاد يصطدم بالسكارى في كل خطوة وحول كل منعطف ! وهكذا عادت اليه أعراض الحمى كعادته كلما خرج في نهار شديد النور قوي الحرارة .

وصل إلى المنعطف الذي سلكه أمس في ذهابه والتي نظرة قلقـــة نحو ذلك « البيت » ثم حول أبصاره وجهة أخرى . وغمغم يتساءل بوجل : « أتراني أعترف إذا سألوني في دائرة الشرطة ؟ » .

كانت دائرة البوليس على بعد ربع « فيرست » (١) من محل إقامته في الطبقة الثالثة من بناء حديث جداً . وقد أتيح لراسكولنيكوف أن يزور دائرة البوليس في مركزها السابق قبل أن تنتقل الى المركز الجديد ... أما هذا المركز فلم تكن لديه أية فكرة عنه .

اجتاز المدخل العام فاذا بسلم إلى يعينه كان يهبط عليه في تلك اللحظة واحد

---

(١) فيرست : ١٠٦٧ متراً . المترجم

من « الموجيك » وبيده كتاب . فغمغم : « لعله الحاجب وعلى هذا فان المكتب هنا» . صعد السلم شارداً دون أن يحاول الاستفسار عن وجهته من أحد .

قال يخاطب نفسه : « سوف أدخل وأركع على ركبتي وأعترف بكل شيء !».

كان السلم ضيقاً وشديد الميل مليئاً بالماء القذر تفضي عليه مطابخ المساكن كلها التي تعمر بها « أدوار » البناء الثلاث وتبقى أبوابها مفتوحة طيله النهار فتنتشر منها روائح مزعجة . وكان الحجاب لايفتأون يصعدون ويهبطون وسجلاتهم تحت آباطهم ورجال الشرطة يعج بهم المكان بالاضافة إلى عدد كبير من الاشخاص من الجنسين وكل ينتظر دوره ؛ وكانت الحرارة خانقة في الداخل يزيد في ضغطها رائحة الزيت التي كانت تنتشر من الغرف حديثة الطلاء حتى ليحس المرء بالغثيان. انتظر راسكولنيكوف لحظة وآثر بعدئذ الانتقال الى الغرفة المجاورة . كانت غرف البناء كلها صغيرة منخفضة ... شعر بلهفة لاتقاوم تدفعه إلى استباق الزمن وبلوغ غرفة المدير ليطمئن الى السبب الذي دعي من أجله . فلما دخل الغرفة الثانية شاهد نفراً من الكتبة منكبين على دفاترهم . ولم تكن ملابسهم أفضل من ملابسه سأله أحدهم قائلاً :

— ماهي حاجتك ؟

أبرز راسكولنيكوف تذكره الدعوة فلما قرأها الكاتب قال له :

— أنت طالب علم ؟

فأجاب : — نعم طالب علم سابق .

تفحصه الكاتب بنظرة لاتنطوي على شيء من الضجر أو الحقد . كان رجلاً أشعث الرأس بشع المنظر ذا نظرة ثابتة متحجرة ؛ أشار بيده الى الغرفة الأخيرة في الممشى وقال :

— اتصل بأمين السر هناك .

اتجه راسكولنيكوف نحو الغرفـــة الرابعة والأخيرة ، وكانت ضيقة تعج بالمراجعين . كان الحاضرون أفضل حالاً ممن شاهـدهم حتى تلك اللحظة في تلك الدار وكان بينهم سيدتان إحداهما ترتدي ملابس الحداد متجهة بوجهها نحو أحد الكتاب تملي عليه أقوالها . أما الأخرى — وكانت ضخمة الجسم ذات وجه زاهي اللون تشوهه لطخات من أثر مرض جلدي ،مفرطة الزينة تتدلى على صدرها حلية « بروش » تشبه الاناء — فانها كانت تجلس منفردة وكأنها تنتظر دورها . قدم راسكولنيكوف الرقعة لامين السر فنظر هذا اليها نظر سريعة ثم قال باقتضاب :

— انتظر ... وراح يتابـع الاهتمام بالسيدة ذات الملابس السوداء .

تنفس راسكولنيكوف الصعداء وهو يتمتم : « لاشك أن الأمر لاعلاقـة له بقصة البارحة ! » واستعاد شجاعته وروعه وصفاء ذهنه وحضور بديهيته . وتمتم محدثاً نفسه : « ان أية حماقة ، بل أن أية خطيئة مهما بلغت تفاهتها تقضي عليّ ... هم !.. من المؤسف أن لايكون هنـــا شيء من الهواء ... اكاد أختنق.والدوار يعاودني ... » .

شعر في أعماقه بانقلاب مريـع . . كان يخشى أن يفقد سيطرته على نفسه ! كان يحاول التمسك بشذرات أفكار قلقة تضيق بها رأسه ولكنه يخفق ! وكان اهتمامـه متجهاً إلى « أمين السر » ... كان يحاول أن يستخلص شيئاً إعتماداً على مظهره ، شيئاً يستهدي به ويرتكز اليه .

كان أمين السر شاباً في الثانية والعشرين من عمره ، ذا وجـــه أسمر يبدو أكبر سناً من حقيقته ، مرتدياً ثيـابه على أحدث طراز وبشيء من الأناقة ، ذا شعر مموج مضمخ مفروق في الوسط حتى مؤخرة الرأس « يلمع في أصابعه » عدد من الخواتم وله يدان نظيفتان دقيقتان ، وتتدلى من جيب صدارته سلسلة ذهبية . سمعه يتبادل مع أحد الأجانب كان يجلس بالقرب منه حديثاً باللغة الافرنسية ولاحظ

أنه يتكلم بطلاقة ! وفجأة قال أمين السر موجهاً حديثه للسيدة البدينة :
ــ هلا جلست يالويز ايفانوفنا !

فجلست وسط حفيف ثوبها الحريري ذي اللون الصارخ بعد أن كانت واقفة لاتحاول الاقتراب من « الكرسي » القريب منها . وانتشرت ذيول الثوب الموشاة « بالدانتيلا » في شبه دائرة كبيرة وصلت إلى منتصف الغرفة بينما تضوع عنه شذى عطر نفاذ . بدت السيدة مرتبكة بعض الشيء لاشغالها هذا الفراغ الكبير بثوبها الازرق السماوي وعبرت الابتسامة الباهتة التي ارتسمت على شفتيها تعبيراً واضحاً عما يعتلج في نفسها من انفعالات ... وفي تلك اللحظة انتهت السيدة ذات الثياب السوداء من عملها ونهضت تهم بالخروج فاذا بجلبة ترتفع وضابط في هيئته مايوحي بالشجاعة يدخل الغرفة وهو يمشي محركاً كتفيه بحركة وتيرة تتناسق مع خطاه . القى الداخل قبعته المزينـــة بالاشرطة على المكتب وجلس على « اريكة » . نهضت السيدة البدينة باحترام حينما شاهدت الضابط وانحنت أمامه انحناءة عميقــة محيية فلم يكترث لها ولم يعرها التفاتة ولم تجرأ هي بدورها على الجلوس في حضرته فظلت واقفة . كان ذلك الضابط معاون رئيس القسم ذا شاربين كبيرين أشهبين يبرزان أفقياً على جانبي وجهه وتقاطيع دقيقة تعبر عن شيء من الخشونة والتكبر . نظر الى راسكولنيكوف باحتقار ، وكان على حق إذا حكم على المظهر لأن راسكولنيكوف كان زري الملابس الى جانب الارتباك والخجل اللذين لاحا عليه فكان مظهره الخارجي لايتلاءم مع المستوى في تلك الغرفة . وشاء سوء حظ راسكولنيكوف أن ينظر بجرأة في عيني ذلك الضابط الذي شعر بنوع من الاهـانة لتلك النظرة وأدهشه وجود صعلوك في تلك الغرفة لايفكر في غض بصره أمام نظرته الصاعقة فصرخ يقول :

ــ ماذا تريد ياهذا ؟

فأجاب راسكولنيكوف بشكل ما :

ـــ لقد استدعيت بناء على طلب .

وبادر أمين السر الى القول متخلصاً من أوراقه .

ـــ انه هنا بصدد المطالبة بالمال : « إنه الطالب » !

ثم دفع نحو راسكولنيكوف دفتراً وأشار الى فقرة فيه وقال :

ـــ اقرأ هذا :

خفق قلب راسكولنيكوف فرحا وشعر براحة هائلة عميقة تفيض على نفسه . المال ؟ وأي مال ؟ اذاً ليست الدعوة بصدد « ذاك » .

كان هذا محور تفكير راسكولنيكوف . شعر بأن الحمل الذي كان يوقره قد ازيح عن كاهله . صاح به الضابط الذي استشاط غضباً دونما سبب وجيه :

ـــ واية ساعة حُددت لكم ياصاحب المعالي ؟ يطلب اليك ان تحضر في التاسعة وها نحن في العاشرة والربع .

لم يتمالك راسكولنيكوف نفسه فقد شعر بدوره بغضب مفاجئ يكتسحه ، غضب لم يترك مجالاً لاية رغبة اخرى فصاح بصوت مرتفع :

ـــ لم تمط إلي «الرقعة» إلا منذ ربع ساعة فقط . وإنه لمجهود مني ان احضر انا المريض المحموم .

ـــ لاتصرخ هكذا !

ـــ انا لا اصرخ ! انا اتكلم بهدوء اما انت ، فأنت الذي تصرخ ... وانا طالب ولا اسمح ان يُصرخ في وجهي .

ـــ اخرس ، إنك في محكمة وتلك سماجة بحضرة السيد .

ـــ وكذلك انت في محكمة مع ذلك فانك تصيح في وجهي وتدخن لفافتك وإذاً فأنت تحتقرنا جميعاً .

شعر راسكولنيكوف بسرور بالغ وهو يتفوه بتلك الكلمات وكان أمين السر ينظر اليها باسماً . أما الضابط فقد زاد غليانه حتى أنه لبث برهة مشدوهاً ولما أسعفه النطق هتف بصوت غير طبيعي :

ــ هذا ليس شأنك . تفضل بالادلاء بافادتك الـــتي تطلب منك . أره يا « الكسندر غريغوريفيتش » ! هناك شكايات ضدك . أنت لاتدفع ديونك مع ذلك فأنت تصيح وتحتج ...

ثم التفت الى أمين السر وقال :

ــ ماموضوع الشكوى ضده ؟..

فأجاب أمين السر مخاطباً راسكولنيكوف :

ــ إنه مال يطلب منك أن تدفعه سداداً لسفتجة وبناء على الطلب . فلك إما أن تدفع مع النفقات والغرامة الى آخره ، واما أن تصرح خطياً عن التاريخ الذي تستطيع الدفع فيه وبذات الوقت تتعهد بعدم مغادرة العاصمة وعـدم بيع أو إخفاء شيء من ممتلكاتك قبل التسديد .أما الدائن فانه مخير بل ومجاز في أن يبيع ماتملك وأن يتصرف ضدك وفقاً للانظمة المرعية .

ــ ولكنني لست مديناً لأحد .

ــ ذلك ليس من شأننا . لدينا سفتجة موقعة بمبلغ مائة وخمسة عشر روبلاً قدمتها السيدة « زارنيستين » أرملة أحد مساعدي الكلية وقـــد رفعت الأرملة « زارنيستين» تلك السفتجة إلى المستشار الحقوقي «تشيباروف» وهكذا استدعيناك لضبط أقوالك .

ــ ولكنها صاحبة مسكني ؟

ــ وماذا يهم أن تكون صاحبة مسكنك ؟..

كان أمين السر يتأمله وعلى وجهه ابتسامة مشفقة عطوف وقد التمعت في عينيه

نظرة انتصار وكأنه يقول : « هذا غر وقد أرتج عليه » . ظل راسكولنيكوف واقفاً يقرأ ويسمع ويجيب أحياناً ، كل ذلك بشكل آلي . فهو لم يستطع الصمود لرد الفعل الذي حدث في نفسه : « هل كان يجدر استدعاؤه وإقلاقه من أجل هذه التفاهة ؟. سفتجة ... هل تستحق مثل هذه العناية » . كان يشعر شعوراً غريباً بأنه أفلت من خطر مريع وأنه أنقذ عنقه من النطع .وكان هذا كل مايمثل في خاطره . نعم .. لقد نجا دون أن يعمد الى توقـــد ذهنه واللجوء الى تدابيره واحتياطاته التي صممها ودون أن تطرح عليه أية أسئلة . لكنه في تلك اللحظـــة انتزع من خواطره بفعل ارعاد الضابط وصياحه . كان في هذه المرة — وهو لازال يعاني من آثار تحدي راسكولنيكوف له — يبحث عن ناحيــة أخرى يفثأ غضبه فيها ولم يجد غير « المرأة البدينة المتبرجة » التي كانت لاتزال تنظر اليه بابتسامة بلهاء منذ أن احتقرها عند دخوله .

صاح بها يقول :

— آه .. هذا أنت ! أنت أيتها الـ ... الـ ... ماذا حصل عنـــدك في الليلة الفائتة ؟ هه ؟ لقد عدت مجدداً وصمة في جبين الحي الذي تقطنين فيه وعدت الى إثارة عراك في الشارع ؟ إذاً خصام جديد وثمل ، لسوف أرسلك الى إصلاحية ولقد أنذرتك من قبـــل ... أنذرتك عشر مرات وأفهمتك أنني لن أحتمل المرة الحادية عشرة وها أنت ذي قد عدت أيتها « الفاعلة التاركة » !

كادت الورقة التي في يد راسكولنيكوف أن تسقط على الأرض من الدهشة فنظر الى السيدة البدينة نظرة استغراب للمعاملة التي تلقاها دون أن تريم وأدرك فوراً أي نوع من النساء هي وبدت القصة له مسلية بعض الشيء فأصغى وفي نفسه رغبة في الضحك ... والانفجار مقهقهاً .فلقد كانت أعصابه كلها تهتزاستجابة لهذه الرغبة . وكان أمين السر يحاول تهدئة الضابط « إليابتروفيتش » وهو يعرف

سلفاً — لخبرته الطويلة به — أن تدخله لن يجدي وأن من العبث وضع حد لغضبة الملازم اذ انفجر مرجل ذلك الغضب . أما السيدة المتبرجة فقد بدأت ترتجف عندما بدأ الضابط الملازم يبرق ويرعد ولكنه — لعظيم دهشته واستغرابه — وجد أنها كانت تهدأ ويكسو وجهها الاطمئنان كلما ازدادت شتائم الضابط الملازم وسبابه قحة وعنفاً . بل انها ابتسمت له ابتسامة جذابة ولم تن تنحني أمامه منتظرة بفارغ صبر دورها في الكلام . ولما أراد الضابط أن يتنفس ليتابع حملته انتهزتها فرصة مواتية لتقاطعه بقولها :

— ياسيدي الرئيس (لاحظ كلمة الرئيس) لم يحدث عندي لاعراك ولامعارك ولا فضيحة . كل مافي الأمر نوع من الثمل وسأحدثك كيف وقع ذلك ياسيدي الرئيس ! انها ليست خطيئتي ... إن منزلي محترم ياسيدي الرئيس ! والرواد يتصرفون تصرفاً نبيلاً ياسيدي الرئيس ! ولم يحدث أبداً أبداً أن واقفت على حدوث فضيحة ... وقد جاءني ذلك الرجل ثملاً يترنح وطاب ثلاث زجاجات ثم رفع ساقيه في الهواء وراح يعزف بها على « البيان » فهل هذا تصرف نبيل في منزل شريف ؟ لقد أعطب « بياني » فقلت له ان تصرفه لايروق لي وعندئذ أخذ زجاجـــة وراح يضرب الموجودين بها على أقفيتهم ، فناديت الحارس « فورنيك » فجاء . وضرب الرجل « كارل » فخدش احدى عينيه وكذلك خدش عيناً لهنرييت وصفعني خمساً . وازاء هــــذا التصرف غير اللبق وخصوصاً في منزل محترم كمنزلي لم أتمالك أن استنجدت ياسيدي الرئيس ؟ فمضى الرجل الى النافذة المطلة على القنال وراح يزمجر كالخنزير الصغير حتى خجلت منه اذ كيف تجوز الزمجرة كالخنزير أمام النافذة ؟ في .. في .. في ..! جذبه كارل من معطفه ليرغمه على مغادرة النافذة وهنا — والحق يقال — مزق له ثوبه وعندئذ راح يصرخ ويحتج مطالباً بعطل وضرر قدره خمسة عشر روبلاً قيمة « فراكه » الممزق وأنا لم أدفع له ياسيدي الرئيس إلا خمسة روبلات ثمناً لذلك الثوب ، كل هذا جرى في منزل محترم أحدث فيه هو هذه الفضيحة . وقد

هددني بأنه سيكتب ضدكم هجاء كبيراً وينشره في الصحف مدعياً أنه على اتصال بهما جميعا .

— هيه !.. اذاً فهو كاتب ؟

— نعم ياسيدي انه انسان خشن وجريء فوق ذلك لأنه لم يخش وهو في منزل شريف ..

— هيا هيا هيا .. كفاني ماسمعت لقد قلت لك وكررت ...

وهنا تدخل أمين السر من جديد وهتف بالضابط « إليا بتروفيتش » معاتباً فنظر هذا اليه نظرة سريعة قابلها أمين السر بايماءة من رأسه وتابع :

— ... حسناً فيما يتعلق بك يالويز ايفانوفنا المحترمـــة فاليك كلمتي الأخيرة والمرة الأخيرة : اذا حدث أن وقعت فضيحة جديدة في بيتك المحترم فلسوف أصعدك بنفسي الى « سلة السلطة » (١) كما يقال باللغة الفصيحة . فهل سمعت ؟ اذاً انه أديب كاتب ذلك الذي قبل في « منزل محترم » خمسة روبلات لقـــاء ذيل « فراكه » .. مرحى لأولئك الكتبة ...

والقى على راسكولنيكوف نظرة احتقار وأردف :

— أول أمس في حانة ، وقعت حادثة مع واحد من أولئك الأدباء فقـد تناول الطعام ورفض الدفع وهدد صاحب المطعم بهجوه في الصحف . وكان آخر على باخرة منذ ثمانيـة أيام فسبّ وشتم بكل الكلمات عائلة من أرفع العائلات وأعرقها شرفاً : زوج وابنة مستشار في الدولة وكذلك طُرد واحد منهم منذ أيام من دكان حلويّ . هكذا هم هؤلاء الأدباء الكتاب الطلاب ... پوه !

وعاد الى السيدة يصيح بها :

— أما أنت فارحلي من هنا وسأراقبك بعين لاتغفل فحذار حـــذار ! هل سمعت ؟

---

١ — يقصد عربة السجن . المترجم

حيت لويز ايفانوفنا وانحنت للحاضرين جميعهم بحركة رشيقة ؛ ثم اتجهت نحو الباب وهي تتراجع وتنحني تحاول الخروج . غير أنها اصطدمت صدمة عنيفة بضابط ذي وجه مشرق وضاء يزين وجهه سالفان أشقران ... كان ذلك الضابط هو « نيكوديم فوميتش » بالذات رئيس القسم « قوميسير » . فبادرت لويز ايفانوفنا الى الانحناء أمامه حتى كادت أن تلمس الأرض ثم غادرت الغرفة . أما الضابط فقد راح يقول بصوت ناعم لطيف يحمل معنى الود موجهاً حديثـــه الى مساعده إليا بتروفيتش :

ـــ لقد أثاروك مجدداً ياعزيزي اليا بتروفيتش ! نعم كنت ثائراً وقد سمعت من السلم . فأجابه اليا بتروفيتش وهو ينتقل من طاولة الى أخرى حاملاً أوراقـه معه ومحركاً كتفيه على عادته :

ـــ ما العمل ؟ انظر هذا : ان حضرة السيد كاتب ، طالب أو بالأحرى طالب سابق غير أنه لايسدد ديونه ، ويوقع على سفاتج ويرفض اخلاء المسكن فتنهال علينا شكايات مستمرة ضده واذا به يحتج لأنني أدخن لفافتي في حضرته ومع ذلك تمعن فيه : هذا هو في أروع بهائه !

غير أن نيكوديم فوميتش قال مقاطعاً :

ـــ إن الفقر ليس عيباً ياصديقي لكننا نعلم أنك من البارود لاتحتمل الأذية .

ثم خاطب راسكولنيكوف قائلاً :

أرى أنك أثرت حفيظته ولم تسيطر على أعصابك وقد أخطأت ياصاح لأن اليا بتروفيتش من زبدة الرجال وخيرتهم أؤكد لك ذلك .. إلا أنه ناري المزاج كالبارود يشتعل ويثور ثم يخمد ولا يبقى من ثورته شيء ! ان له قلباً من ذهب وقد أطلق عليه في الفرقة لقب « الملازم البارود » .

هتف اليا بتروفيتش وقد سره ثناء رئيسه وأرضى غروره :

ـــ ويالها من « فرقة » تلك ...

شعر راسكولنيكوف باغراء ليقول شيئاً جميلاً مناسباً فوجد نفسه يقول بصوت واضح :

ـــ العفو ياسيدي الرئيس ... لكن ضع نفسك مكاني ! مع ذلك فأنا على استعداد للاعتذار اليه اذا كنت قد غمطته حقه من الاعتبار . أنا طالب فقير مريض أنوء بالفاقة (وقد استعمل عامداً كلمة أنوء) نعم ... أنا طالب سابق لأنني اليوم لا أملك وسائل المعيشة اللازمة للاستمرار في الدراسة . لكن أمي وأختي اللتين تسكنان مقاطعة « إيكس » ... سترسلان إلي مالاً قريباً ولسوف أدفع . أما صاحبة المسكن الذي أقطنه فهي سيدة نبيلة أزعجها أن أخسر دراستي وأن أنقطع عن دفع ماعلي منذ ستة أشهر فامتنعت خلال هذه المدة عن تقديم الطعام الي ولست أفهم سبب هـــذه المعاملة ! وها هي ذي تصر الآن على أن أدفع لها مستعينة بهذه السفتجة ، فاحكم بنفسك .

وتدخل أمين السر من جديد ليقول :

ـــ لكن هذا ليس من شأننا ...

لكن راسكولنيكوف تابع حديثه دون أن يعبأ بملاحظة أمين السر :

ـــ عفواً ، عفواً ، أنا من رأيك . ولكن دعوني من جانبي أشرح لكم : إنني أقطن عند السيدة « زارنيستين » منذ ثلاث سنوات وهو الوقت الذي مضى علي هنا منذ أن تركت المقاطعة الـــتي جئت منها . وفي البداية ... أقصد في بادئ الأمر ... ـــ ينبغي أن أعترف ـــ بأنني بدوري وعدتها بأن أتزوج من ابنتها . كان وعـداً شفهياً فحسب لأن الفتاة كانت تعجبني رغم أنني لم أكن أعشقها وبكلمة واحدة اقول انه الشباب ! هذا مادعا صاحبة المسكن أن تقرضني بسخاء وكنت أعيش حياة وديعة مسلية ...

كان راسكولنيكوف يتحدث غير مبال بأمين السر . كان يخاطب نيكوديم فوميتش وحده ولقد أراد حيناً أن يشرك الملازم اليابتروفيتش في الحديث غير ان هذا تشاغل بفحص اوراقه معرضاً عنه باحتقار . ولما بلغ هذا الحد من كلامه قاطعه اليا بتروفيتش بجفاء قائلاً :

ـــ لم نكن نطلب منك هذا التفاصيل الخاصة ايها السيد وليس لدينا الوقت للاستماع اليك .

فأوقفه راسكولنيكوف باشارة من يده وتابع قصته بحماس رغم ماشعر به فجأة من صعوبة في الاستمرار ...

ـــ لكن لو سمحت ، ينبغي ان اطلعكم على سير الأمور بالترتيب رغم عدم نفع التفاصيل واهتمامكم بها . منذ عام توفيت تلك الفتاة متأثرة « بالتيفوس » ولبثت انا مستأجراً عند السيدة التي احتلت منذ ذلك الحين الشقة التي تقطنها الآن وقالت لي بتودد إن لها ملء الثقة بي لكنها ترجوني أن أوقع لها تلك الورقة التي أوردت فيها حسب تقديرها مجموع الدين الذي لها بذمتي وأردفت ـــ بعد أن وقعت بناء على طلبها ـــ بأنها ستستمر على إقراضي الوقت الذي أشاء وإنه يستحيل ـــ نعم هذه هي الكلمة التي استعملتها ـــ يستحيل أن تستثمر توقيعي على تلك الورقة بل إنها تترك لي الحق في أن أدفع متى أشاء ... والآن وقد أضعت دروسي وغدوت لاأملك ما أتبلغ به تأتي هي وتشكوني فلماذا نطلق على هذا ؟

فقال له اليابتروفيتش بلهجة حاسمة مهينة :

ـــ ان كل هذه التفاصيل الدقيقة الشخصية لاتهمنا أيها السيد إننا نطلب منك أن توقع على التصريح والتعهد فحسب . أما وإنك كنت عاشقاً أو غير عاشق الى آخر تلك الملابسات المؤسية فليس لنا إلا ...

فقاطعه نيكوديم فوميتش مغمغماً وهو يجلس وراء مكتبه يكتب وكأنه خجل

من تصرف مساعده :

— هيه ! أنت تقسو قليلاً .

وقال أمين السر مخاطباً راسكولنيكوف :

— اكتب !..

فسأل هذا بلهجة خشنة :

— وماذا اكتب ؟

— سوف أملي عليك .

لاحظ راسكولنيكوف أن أمين السر يعامله بمزيد من الاحتقار والاشمئزاز بعد اعترافه ذاك ولكنه كان يشعر في أعماقه باستهتار لما قد يتخذه غيره ضده من الاجراءات ويستخلصه من الاستنتاجات . وقد طرأ عليه ذلك التحول في خلال لحظة خاطفة حتى أنه لو فكر قبـــل أن ينطق بما نطق لاستنكر على نفسه تصرفها ولأدهشه اشراكهم في عواطفه ودخائله ،.. تلك العواطف التي لا يدري من أين جاء بها . كان يشعر في تلك اللحظة أنه لو استبدل من في الغرفـــة من رجال الشرطـــة بأصدقاء أعزاء على نفسه لما وجد في مقدوره أن يتلفظ بكلمة انسانية واحدة يعرب بها عن إحساساته حيالهم ... لقد غـدا قلبه فارغاً تماماً وعأوده الاحساس القاتم بالوحدة .. الوحدة العميقة القاسية التي تنخر كيانه . لم يكن مرد ذلك الانقلاب النفسي دناءة الاعترافات العاطفية التي أوردها على مسامع اليابتروفيتش أو الانتصار البشع الذي سجله ذلك الملازم عليه ، فقد شعر بأن دناءته وغرائزه والضباط والألمان والسفاتج والدوائر وكل ماهناك لا يمكن أن يثير اهتمامه في شيء حتى أنـه ما كان ليطرف بعينه استغراباً أو استنكاراً لو سمع أنهم يحكمون عليه باحراقه حياً . بل إنه ما كان ليلقي بالاً إلى ذلك الحكم لو صدر ، كان مايشعر به جديداً كل الجدة ، عاملاً خفياً لم يسبق له أن شعر بمثله من قبـل .

عاملاً لم يفهمه بل شعر به فقط وأحس بتأثيره . إنه يدعوه بل يستصرخ إحساساته بأن لا ينبغي له أن يخاطب هؤلاء النـــاس ، هؤلاء الموظفين من الشرطة ليس في مشاكله وعواطفه كما فعل منذ حين فحسب بل في أي شيء حتى أنه لو استبدل هؤلاء الموظفون بأقرب وأعز أقربائه ، باخوانه وأخواته ، لما وجد في نفسه دافعاً الى مخاطبتهم .

وبينما كان فريسة لهذا الشعور المؤلم الذي لم يعهد بمثله كان أمين السر يملي عليه صيغة الاعتراف المعمول به في مثل تلك الحالات « لا أستطيع الدفـع وأعد بالتسديد بتاريخ كذا . لن أبرح هذه المدينة ولن أبيع أو أمنح ما أمتلك الخ ..» ولاحظ أمين السر بفضول أن القلم قد سقط من يد راسكولنيكوف فهتف به :

— أرى أنك لن تستطيع الكتابة ! فهل أنت مريض ؟

— نعم إن بي دواراً ... استمر

— هذا كل شيء ، وقع بامضائك

وسحب أمين السر الورقـــة الموقعة وانصرف إلى أعمال أخرى بينما أعاد راسكولنيكوف القلم ولكن بدلاً من أن ينصرف أسند مرفقيه الى الطاولة وضغط رأسه بين يديه . كان يشعر كأن مسماراً قـــد غرس في جمجمته وأحس برغبة غريبة تدفعه الى القيام فوراً والاقتراب من نيكوديم فوميتش والاعتراف له بالتفاصيل الدقيقة عما عمل البارحة ثم مرافقته حتى مسكنه ليطلعه على الأشياء التي أخفاها في تلك الثغرة وراء السجادة المهلهلة . كان الاغراء عنيفاً حتى أنه نهض من مكانه لينفذ ماجال في خاطره . وحدث نفسه خلال ذلك الذهول العظيم : « أولا يجدر بي ان أمعن النظر دقيقة أخرى ؟ ولكن كلا ! من الأفضل ان اعمل دون ان افكر فأزيح هذا العبء الثقيل ! » وتسمر في مكانه برهة :

كان نيكوديم فوميتش يتحـــدث بحرارة الى اليا بتروفيتش وبلغت مسامع

راسكولنيكوف العبارات التالية :

ـ ذلك لايمكن ان يحدث ، سوف نطلق سراحها معاً لأن القضية معقدة متناقضة ولك ان تحكم بنفسك . لمَ يستدعيان البواب لو انهما فعلا ذلك ؟ ألكي يشيان بنفسيهما ام اغراقاً منهما في الخداع ؟ كلا ، ذلك لايمكن ان يكون مكراً ! ثم إن ذلك الطالب « بيستر ياكوف » شوهد من قبل امرأة وبوابين قرب المدخل الرئيسي في اللحظة التي وصل بها وكان برفقة ثلاثة من اصدقائه ودعهم عند الباب طالباً اليهم الانتظار . ولقد استفسر عن العنوان بحضور اصدقائه فهل كان يعمل ذلك لو انه جاء ينفذ تلك الفعلة ؟ اما « كوخ » ذاك فقد امضى نصف ساعة عند بائع حلي في الشارع قبل ان يصعد إلى مسكن العجوز وكانت الساعة الثامنة الا ربعاً تماماً حين خرج من لدن الجوهري متجهاً اليها فاحكم الآن .

ـ لكن اسمح لي ، كيف يمكن ان تتناقض عباراتهما بهذا الشكل ؟ فهما يؤكدان انهما قرعا الباب فوجداه مغلقاً ثم بعد ثلاث دقائق عادا مع الحارس فوجدا الباب مفتوحاً .

ـ لاشك ان هنا نقطة السر ! فالقاتل بالتأكيد كان مختفياً داخل المسكن مغلقاً على نفسه الباب بالمزلاج لولا حماقة « كوخ » الذي انصرف من مكانه ليستدعي الحارس لاكتشفه حتماً . استطاع القاتل خلال هذه الفترة ان يهبط السلم وان يتسلل تحت انوفهم على شكل من الاشكال ثم ان « كوخ » كان يتول ملوحاً بيديه الاثنتين : لو انني لبثت هناك لخرج الي فجأة وقتلني بفأسه .

ـ مع ذلك لم يشاهد القاتل احد .

ـ وكيف يشاهدونه والبناء سفينة نوح حقيقية ؟..

كانت هذه الملاحظة صادرة عن امين السر الذي كان يصغي الى حديثهما بانتباه . واسترسل نيكوديم فوميتش بحرارة :

ـ ان القضية واضحة ، واضحة !

غير ان اليابتروفيتش اصر على قوله :

ـ كلا ! ان القضية ليست واضحة ابداً.

رفع راسكولنيكوف قبعته واتجه نحو الباب ولكنه لم يبلغه ... وعندما استرد وعيه رأى نفسه جالساً على « كرسي » والى جانبيه شخصان يمسكان به ليمنعاه عن السقوط وفي يد احدهما كأس فيها ماء اصفر اللون بينما كان نيكوديم فوميتش واقفاً امامه ينظر اليه بحـــدة . فنهض من مكانه وابتدره نيكوديم فوميتش بلهجة خشنة :

ـ مابالك ؟ أأنت مريض ؟

وأعقب أمين السر قائلاً وهو يعود الى اوراقه :

ـ كان لايكاد يضبط أعصابه حينما كان يكتب الاقرار حتى أن القلم كان يتحرك في يده بصعوبة .

وهتف اليابتروفيتش من مكانه وهو يرتب أوراقه :

ـ أأنت مريض منذ بعيد ؟

فغمغم راسكولنيكوف :

ـ منذ أمس .

ـ لكنك لم تكن أمس في مسكنك . هل خرجت منه ؟

ـ نعم لقد خرجت .

ـ وأنت مريض ؟

ـ نعم وأنا مريض ..

ـ وكم كانت الساعة ؟

ـ حوالي الثامنة مساء .

وأين ذهبت ؟ واسمح لي بسؤالك

ــ الى الشارع .

ــ يالها من اجابة قصيرة وواضحة

كان راسكولنيكوف شاحباً لا حيـــاة فيه وكان يجيب باقتضاب وبصوت مضطرب دون أن يغضي بطرفه أو أن يشيح بعينيه السوداوين الملتهبتين أمام نظرة اليا بتروفيتش الذي قال بلهجة غريبة :

ــ لا ... بأس ... عليك ...!

وأراد نيكوديم فوميتش أن يضيف شيئاً غير أن أمين السر نظر اليه نظرة حافلة بشتى المعاني فصمت وسكت الباقون مما أدهش راسكولنيكوف خصوصاً عندما سمع اليا بتروفيتش يقول :

ــ هيا لا بأس لن نستبقيك أكثر من ذلك .

انسحب راسكولنيكوف واستطاع وهو في طريقه الى الباب أن يسمع احتدام الحديث بين الضابطين وأمين السر وبلغه صوت نيكوديم فوميتش يطرح بعض الأسئلة ولما بلغ الشارع استعاد هدوءه فهتف قائلاً :

« تفتيش ! تفتيش ! » لسوف يفتشون مسكني ، اولئـــك الأشقياء إنهم يشتبهون بأمري » وعاد الرعب يستحوذ عليه من رأسه حتى اخمص قدميه .

الفَصْلُ الثّاني

كان يتساءل : « ماذا ؟ ماذا يكون لو أن التفتيش قد وقع بالفعل ؟ سوف أراهم حتما في غرفتي الآن »

لكنه بلغ غرفته فلم يجد فيها أحـــداً حتى ناستاسيا نفسها لم تكن قد مست شيئاً . هتف :

— رباه ! كيف تركت كل هذه الأشياء في مخبئها ؟

هرع الى المخبأ فأدخل يده وراء السجادة المعلقة وأخرجها حاملة المسروقات ثم حشرها في جيبه وهو يعدها : ثمانية ، بينها علبتان صغيرتان تحويان أقراطاً للأذن أو شيئاً من هذا القبيل لم يحاول التدقيق فيه ، ثم أربع علب أخرى مغطاة بقماش « الماروكان » وسلسلة ملفوفـــة في ورقة انتزعت من صحيفة يومية وأشياء اخرى مشابهة ولعلها أوسمة ذهبية ملفوفة كذلك بورق الصحف . وزع هـذه الأشياء على جيوب معطفه والجيب الوحيد الذي بقي له في سرواله ساعياً ان لا يظهر لها حجم واضح ثم اضاف اليها حافظة النقود وخرج من غرفته تاركاً بابها مفتوحاً على مصراعيه .

سار بخطى حثيثة متزنة رغم ضعفه وشعر بصفاء في ذهنه : كان يخشى تسللاً ، ويخاف ان يداهم او ان يُفتتح تحقيق معه خلال نصف ساعة او ربع ساعة وعلى ذلك فان عليه ان يخفي الأدلة الجرمية . نعم ، يجب ان ينتهي من كل هذا طالما انه يحتفظ ببعض القوة وصفاء الذهن ! ولكن الى اين يذهب ؟..

كانت هذه النقطة مبحوثة من قبل ومقررة : « سألقي بهذه الأشياء في القنال ولسوف تمضي هذه الأدلة الثبوتية الى المـــاء حاملة معها المسألة كلها » تلك كانت

فكرته في الليلة السابقة عندما كان في ذهوله وهذيانه يهتف خلال لحظات الاشراق التي كانت تتخللها : « ينبغي الخلاص من هـذا بالسرعة الكلية » وبدت له القضية الآن اسهل مما كانت عليه بالأمس .

امضى ربع ساعة وربما اكثر وهـــو يذرع ضفة قنال « كاترين » ويعاين السلالم التي تهبط الى المرافئ المنخفضة كلما اتى واحداً منها . لكنه لم يفكر في تنفيذ مشروعه خلال ذلك الوقت لأنه كان يلتقي تارة بزورق واخرى بنسوة يغسلن الملابس ، او كان يصادف مراكب مثبتة الى الرصيف ؛ وكانت الأرصفة تعج بالناس والمكان مكشوفاً يصعب فيه اجتناب نظرات الفضوليين . سيكون غريباً ان ينحدر انسان عمداً وان يتوقف ليلقي بأشياء الى الماء ... ثم هل يعقل ان تغوص تلك العلب المصنوعة من القماش في الماء ؟ واذا طفت ــ وهذا ماسيحدث ــ فلسوف يراها كل الناس . بل ان كل من صادفهم حتى الآن كانوا يمعنون النظر فيه كما لو لم يكن لديهم مايشغلهم الا هذا . خاطب نفسه قائلاً : اليس هذا بفعل الوهم ؟ أهو حقيقة ؟

واخيراً خطرت له فكرة جديدة : ان يلقي بتلك الأشياء في مكان ما من « النيفا » ؛ فهناك سيكون الازدحام اقل ولن يلاحظ فعلته احد وستكون العملية أسهل لأنها بعيدة عن مكان الحادث . ادهشه ان يكون قد امضى اكثر من نصف ساعة فريسة للقلق والاضطراب وهو يطوف في تلك الأمكنة الخطيرة : كيف يضيع مثل هـــذا الوقت الثمين محاولاً تنفيذ مشروع جنوني بدا له خلال فترة ذهوله وهذيانه امس ؟ لاشك انه اصبح ساهماً شديد النسيان وهو يشعر بذلك .

توجه نحو نهر « النيفا » مجتازاً شارع « ف » ... وفي الطريق خطرت له فكرة اخرى : « لماذا في « النيفا » ؟ لمَ القي بهذه الأشياء الى الماء ؟ اوليس من الأصوب ان امضي الى اي مكان آخر بعيداً عن هنا ولنقل الجزر مثلاً ؟ لسوف

ابحث هناك عن مكان قصي منعزل في حرش مثلاً أو تحت شجرة ، وسأدفن كل هذه الأشياء بعد أن أميز الشجرة التي أخفي كنزي تحتها ؟ » وعلى الرغم من ايمانه بأن حالته لا تسمح له بالحكم على الأشياء حكماً مدروساً قوياً ، إلا أن تلك الفكرة بدت له قوية ومعقولة .

بيد أنه لم يبلغ الجزر . ذلك انه بينما كان ينطلق من شارع (ف) ... نحو الميدان، لمح الى اليسار ساحة محاطة بجدار من كل جهاتها ، والى يمينها مباشرة بعد باب مدخلها الرئيسي ، يرتفع جدار من الحجر المجرد لبناء ذي أربع طبقات . أما في الجانب الأيسر قبالة ذلك الجدار اعتباراً من المدخل الرئيسي ، فقد قام حاجز من الخشب بطول عشرين خطوة ينعطف فجأة . كان المكان قاحلاً وقد ألقيت فيه أشياء كثيرة مهملة : وفي صدر الساحة برزت زاوية مرآب مشيد من الحجر المتسخ ، وخمن راسكولنيكوف أن هناك في مكان ما من تلك الفسحة تقوم دكان حداد أو قفال أو صانع عجلات بدلالة الغبار الأسود الذي ينجم عن الفحم والذي كانت الأرض مغطاة به ؛ فهتف يقول فجأة : « هذا هو المكان المناسب حيث ينبغي أن ألقي فيه بما معي وانصرف » .

لم يشاهد أحداً هناك ،فتخطى المدخل ولاحظ بالقرب من الباب ميزاباً كالذي يشاهد مثله في أبنية المصانع والمعامل . وفي أعلى الميزاب غرست لوحة كتب عليها بالحكك : « ممنوع الوقوف هنا » . قدر راسكولنيكوف أنه لن يتبادر الى ذهن أي مخلوق أنه جاء الى هنا . فخاطب نفسه قائلاً : « سوف أتخلص من هذه الأشياء دفعة واحدة هنا وسأمضي بعد ذلك »

القى نظرة أخيرة على ما حوله وهو يغيب يده في جيبه ،فلاحظ قرب الجدار الخارجي بين الباب والميزاب، حجراً كبيراً غير مصقول يزن عشرين رطلاً على أقل تقدير، مسنداً الى الجدار بمحاذاة الشارع .وكان الرصيف يأتي مباشرة وراء

الجدار، فتناهى الى أذنيه وقع خطوات. غير أنه لم ير احداً، وتأكد من أن احداً لن يستطيع رؤيته من الخارج الا اذا تخطى الباب ، وهـذا محتمل، لذلك فان السرعة واجبة .

انحنى على الحجر يحتضنه من أعلاه بكلتي يديه . واستنجد بكل قواه حتى أزاحه من مكانه فاذا به يخفي حفرة غير عميقة التي فيها بما في جيوبه ووضع الحافظة فوقها دون أن تمتلئ وأعاد الحجر الى مكانه بعد أن سوى الأرض حوله ومحا كل الآثار التي قد تشي بما فعل ، ثم ألقى نظرة أخيرة ليتأكد من حسن صنعه ، فرأى أن الحجر لا يكاد يبدو عليه تبدل مركزه،وتأكد أنه من المستحيل تخمين مافعل .

خرج من الساحه واتجه نحو الميدان وهو يشعر بمثل ذلك الفرح الطاغي الذي استولى عليه منذ حين لما كان في دائرة الشرطة . هتف يناجي نفسه «لقد دفنت الأدلة الجرميه فمن . . من ذا الذي يخطر له أن يبحث عنها تحت ذلك الحجر ؟انه في مكانه منذ أن بنيت تلك الدار وسيبقى طويلا حيث هو . ولو افترضنا أن تلك الأشياء سوف تكتشف فمن ذا الذي يفكر فيّ أنا ؟ نعم لقد انتهى كل شيء ولم تبق هناك أدلة » وراح يضحك وقد تذكر فيما بعد أنه ضحك بعصبية ضحكة طويلة مكتومة، وانه لبث يضحك طوال الوقت الذي استغرقه في اجتياز الميدان .
ولما بلغ الى شارع «ك » . . . حيث التقى أول أمس بتلك الفتاة المخمورة ، بترضحكته بل انها تلاشت وحل محلها تفكير من نوع آخر . خيل اليه فجأة أنه يشعر بدافع عنيف للمرور قرب ذلك المقعد الذي كان يجلس عليه لما انصرفت الفتاة ،وخشي أن يقابل رجل البوليس ذا الشاربين الكبيرين الذي أعطاه ذلك اليوم عشرين « كوبيكا » .وزمجر : الى الشيطان .

راح يمشي وهو يتلفت ساهما ذات اليمين وذات الشمال وتركزت أفكاره كلها في نقطة رئيسية أو على الأقل خيل اليه أنها رئيسية . رأى نفسه في تلك اللحظة

وحيداً أمام تلك الفكرة الرئيسية ، وحيداً لأول مرة منذ شهرين ، قال يحدث نفسه : « ليحمل الشيطان كل هذا . طالماأنني بلغت هــــذا الحد فلأبق حيث أنا وليحمل الشيطان الحيــاة الجديدة ، رباه كم هو سخيف كل هذا !.. كم كذبت وتوسلت اليوم ! كم تصرفت بدناءة أمام ذلك البغيض اليا بتروفيتش ! لكن ماذا يهم ؟ لست أبالي بهم ولا أبالي بالتذلل الذي بدا علي أمامهم . ليس هذا مايشغلني . طبعاً ليس هذا »

توقف فجأة وقفز أمام عينيه سؤال جديد كل الجدة ،غير منتظر ومــع ذلك بسيط غاية فيالبساطة،حيره وأربكه :

« لو ان كل ماوقع وحدث كان بدافــع حقيقي وليس بسخف وغباء ، لو انه كان لديك هدف واضح مسطر محدود ،فكيف لم تلق حتى الآن نظرة واحدة على مابداخل الحافظة ؟ كيف تجهل ما عادت به عليك فعلتك ؟ كيف سببت لنفسك كل هذه الآلام وارتكبت تلك الفعلة البغيضة شديدة النذالة ولأي سبب ؟ كيف تبادر الى ذهنك منذ قليل أن تلقي بتلك الحافظة والحلي الى الماء وانت لم تكد تمعن النظر فيها ؟ مامعنى هذا اذاً ؟ »

هذه هي النقطة الرئيسية التي تركز فيهــا السؤال المحير الأليم . كان يعرف سلفاً انه حق وأن السؤال لايحمل شيئاً جــديداً يجهله : قرر التخلص من تلك الأشياء في الليلة الفائتة بالقائها الى الماء وكان يود لو نفذ ذلك دون تردد ولا إمهال . ولكن كيف اذا وجب عمل ذلـــك — وانه لواجب — كيف اذن فعل مافعل ؟.

كان يعرف كل هذه الأشياء ويتذكرها ، انتلك الفكرة — فكرةالتخلص من هذه الأشياء — راودته في ذات اللحظة التي كانت يده تمتد فيها الى صندوق العجوز القتيل تفتشه ؟..

ناجى نفسه بقوله : « ان السبب في كل ذلك هو المرض ، انني اعذب نفسي واكثر من ايلامها ولست أدري ماذا أعمل ... كذلك كنت أمس وأمس الاول وكل الوقت الذي كنت اتعذب فيه ... أما عندما أشفى ، فسأتخلص من هذه الآلام ! لكن ماذا يحصل لو انني لم أشف ؟ رباه كم أرزح تحت كل هذه الأعباء ! »

كان يمشي دون توقف وكان مشوقاً الى الترفيه عن نفسه بأي شكل كان، لكنه ما كان يدري كيف السبيل الى ذلك . كان هناك شعور غامض يشق طريقه الى رأسه ، شعور بالاشمئزاز نحو كل مايحيطه وكل مايصادفه في طريقه ، شعور عميق وحشي حقود . كان المارة يبدون امامه بشعين بوجوههم وتصرفاتهم وحركاتهم يثيرون اشمئزازه . حتى لو ان احداً خاطبه لبصق في وجهه او لعضه باسنانه .

توقف فجأة عندما اشرف على رصيف نهر « النيفا » الصغير في جزيرة « سان بازيل » بالقرب من الجسر واذا به يحدث نفسه بقوله : « هنا يقطن في هذه الدار... لكن ما معنى هذا ؟ هاقد جئت الى حيث يقطن « رازوميخين » رغماً عني ... ان قصة امس تتكرر اليوم ... ان هذا غريب . اتراني جئت متعمداً ام هكذا صدفة ؟ مع ذلك لا بأس لقد كنت اقول منذ ثلاثة ايام انني سأزوره بعد « الصفقة » والآن وقد تمت فسأذهب اليه . أم هل تراني لا استطيع زيارة احد ! »

صعد الى الطبقة الخامسة حيث يقطن (رازوميخين) وكان هـذا في غرفته مشغولاً بالكتابة فجـاء يفتح له الباب بنفسه . والتقى الصديقان اللذان لم يلتقيا منذ اربعة شهور . كان رازوميخين مرتدياً معطفاً منزلياً بالياً تماماً وقد وضع قدميه العاريتين في حـــذاء خفيف وترك شعره مشعثاً : كانت لحيته مهملة ووجهه غير مغسول . ارتسمت آيات الدهشة على ذلك الوجه وهتف وهو يصعد صاحبه بنظرة من راسه حتى قدميه :

ـــ كيف ! هذا انت ؟..

ثم اطلق صفيراً من شفتيه وهتف :

ـ كيف حدث ان وقعت في مثل هذا العوز؟ لعمري ان « ناقتك » تفوق « ناقتي »

وراح ينظر الى اسمال راسكولنيكوف ويقول :

ـ ولكن هلا جلست ؟ انك تبدو تعباً .

تهالك راسكولنيكوف على « ديوان » تركي مغطى بقماش مشمع يفوق بالقدم ذلك الذي في حجرته بينما اقترب رازوميخين منه وهو يقول :

ـ اتدري انك مريض جداً ؟

راح يجس نبضه . فانتزع راسكولنيكوف يده منه بحركة عنيفة وصاح :

ـ لاتتعب نفسك . لقد جئت ... اليك السبب ... لم يعد عندي دروس ... فأردت .. مع ذلك لست في حاجة الى دروس .

هتف رازوميخين وهو يحدق في وجهه :

ـ لكن ... ماذا دهاك ؟ انك تهذي !..

استوى راسكولنيكوف واقفاً ! لم يكن قد فكر ـ عندما صعد الى مسكن رازوميخين ـ في أنه سيقابله وجهاً لوجه . أما وقد وقعت التجربة الآن ، فقد شعر بأنه لايستطيع بعد هذه اللحظة أن يلتقي بأي كان ، وأن لقاء الناس يؤلمه ويزعجه . وثارت في نفسه غضبة عنيفة وكاد أن يختنق من الانفعال لمجرد دخوله بيت رازوميخين ! وفجأة قال :

ـ الوداع .... وقصد الى الباب .

ـ لكن إبق ... ويحك إبق ... يالك من شاذ !

فأجاب راسكولنيكوف وهو يخلص يده من يد صديقه :

ـ ليس بي مايغريني بالبقاء !

ـ اذاً ؟ لم جئت .... هل أنت مجنون ؟.. هيا ... انك بذلك توجه إلي نوعاً

من الاهانة ! لن أدعك تخرج هكذا ...

— حسناً ... ! لقد جئت اليك لأنني لا أعرف احـــداً يستطيع مساعدتي سواك .هذا أولاً .. ولأنك أحسن من الباقين دون استثناء وأقصد أكثرهم ذكاء وأنك تستطيع أن تحكم .. أقصد ..! ولكنني الآن لست في حاجة الى شيء .لقد اكتشفت ذلك فجأة فهل تسمع ؟ لاشيء مطلقاً : لاخدمات ولا تودد من أحد ! أنا وحيد ويكفيني هذا فدعني هادئاً ...

— لكن تريث ! تريث دقيقة ! يالك من مغفل ! نعم هذا رأيي ولن تستطيع إبداله . استمع الي قليلاً : ليست لدي دروس ولا يهمني ذلك . انما لدي في « سوق البراغيث » كتبي يدعى « خيرو فيموف » وهو يساوي اكثر من درس ! ولن أبدله لقاء خمسة دروس تعطى الى عند التجار ! انه يهيء وينشر كتباً في العلوم الطبيعية يتخاطفها الناس كما يتخاطفون الخبز ! والعنوان وحده مسألة قائمة في حد ذاتها ! أنت تدعي دائماً بأنني سخيف . ولكني أؤكد لك أن هناك من هم أشد مني سخفاً ... ان الناشر الذي أتعامل معه قد تبع «موضة» هذا الوقت وهو شخصياً لايعرف ال « آ » من ال « ب » وأنا أشجعه في مسعاه بالطبع . خذ مثلاً هاتين الورقتين الى جانب عدد من الابحاث الالمانية . انها في رأيي لون من الهذر السخيف : انهم يبحثون هنا عما اذا كانت المرأة مخلوقاً انسانياً أم لا ! وبالطبع انهم يدللون أخيراً « وبكل فخر » على أنها انسان ككل انسان !.. ان خيروفيموف يهيء هذه الابحاث لنشر « المسألة النسائية » التي هي حديث الساعة ؟ وأنا الذي أترجم له وهو بدوره سيضخم هذه الوريقات حتى يضاعفها ويجعلها ستاً ، وعندئذ سنطلق عليها عنواناً مثيراً سيحتل نصف الصفحة الاولى وسنبيع النسخة الواحدة بخمسين « كوبيكا » ! ولسوف تكون تجارة رابحـة . انني اتقاضى ستة روبلات لقاء كل صفحة ترجمة وقد دفع لي ستة روبلات مقدماً ... وعندما نفرغ من هذا

العمل سوف نترجم موضوعاً آخر يتعلق بالحوت . وقد لاحظنا في الجزء الثاني من « الاعترافات » (١) مجموعة من الاقاصيص والروايات واسوف نترجمها كذلك رغم أنها لون من الازعاج المحسوس ! وقد صرح بعضهم لخيروفيموف ان «روسو» يشبه في عقليته وانتاجـــه « راديستشيف » ! وأنا بالطبع لا أناقشه ولا أناقضه وليذهب الى الشيطان .

هيا ... هل تريد أن تترجم الورقة الثانية التي تبحث في : « هل المرأة مخلوق انساني ؟ » اذا راق لك ذلك فخذها على الفور وخـذ بعض الاقلام والورق وكل هذا على حساب « السيد » واقبل مني هـذه الروبلات الثلاثة ! وبما أنني تقاضيت سلفة لترجمة الورقتين الاولى والثانية ،فيكون نصيبك ثلاثةروبلات لترجمة الورقة الثانية ومتى فرغت منها فستتقاضى ثلاثة روبلات اخرى . آه . أرجوك لاتتصور أنها خدمة أقدمها لك بل على العكس.لقد أدركت عنـــدما رأيتك تدخل أنك ستكون ذا نفع عميم لي ، فأنا أولاً سيء الخط وثانياً ضعيف في اللغة الالمانية لدرجة أنني أخترع اختراعاً بين الحين والحين ويعزيني أن ما اضيفه من عندي خير من المكتوب في الورقة ! لكن من يدري ؟ قد يكون ما « اخترعه » اسوأ مما اقدر بل قد يكون سيئاً للغاية . والآن هل تقبل ؟ نعم ام لا ؟

اخذ راسكولنيكوف اوراق الموضوع الالماني وخرج دون ان يفوه بكلمة و « رازوميخين » ينظر اليه حائراً لتصرفه . ولما بلغ زاوية الشارع الاول ، عاد فجأة من حيث أتي ، وصعد الى مسكن رازوميخين فوضع الاوراق والروبلات الثلاثة ثم خرج بصمت كالمرة السابقة !

صاح رازوميخين وقد بان عليه الغضب :

ــ ماهذا ؟ انها الحمى « الساخنة » ولا شك . هل تمثل دوراً ؟ انك تفقدني

(١) كونفيسيون : مجلة فرنسية Confessions مثيرة . المترجم

صوابي . يا للشيطان ! لمَ عدت ؟

فتمتم راسكولنيكوف وهو يهبط السلم :

ــ لست في حاجة الى ... ترجمات ..

ــ إذاً ماذا تبغي ؟

فلم يجبه راسكولنيكوف بل استمر يهبط بصمت ...

ــ اسمع !.. اين تقطن ؟

ولما لم يتلق جواباً هتف معقباً :

ــ حسناً ... اذهب الى الشيطان !

حينما بلغ راسكولنيكوف جسر « نيكولا » أتيح له مرة اخرى ان يستعيد شعوره . كان ذلك إثر حادث مزعج وقع له . ذلك ان سائقاً كان يقود عربة خاصة لسعه بسوطه لسعة قوية جعلته يقفز قفزة كبيرة نقلته حتى حاجز الجسر ! لقد نبهه الرجل ثلاثاً دون جدوى فعمد الى هذا التنبيه العملي ، لانه كان يسير في منتصف الجسر حيث لاينبغي ان تكون الا العجلات والبهائم . صرف على اسنانه حانقاً متألماً بينما تعالت حوله الضحكات والسخريات .

ــ لقد احسن صنعاً ...

ــ لابد وانه نشال مأفون !

ــ ياللخبيث ! انه يتصنع الثمل ويرمي بنفسه بين قوائم الخيـــول ليطالب بتعويضات !

ــ انها تجارة مثل غيرها !

وبينما هو بالقرب من الحاجز يصغي الى تلك الاقوال الساخرة ويتابع العربة بنظرة حانقة مخبولة ، اذ شعر بيد تلمس يده وتضع فيها نقوداً . ورأى سيدة متقدمة في السن قليلاً قدر أنها من طبقة التجار ، ملتفة بحرملة والى جانبها فتـاة تحمل

مظلة خضراء لاشك انها إبنتها . كانت السيدة تقول له :

— « اقبل مني هذا الاحسان باسم المسيح ! » .

فأخذ المال وتابعت السيدتان سيرهما . تأكد لديه ان مظهره الخارجي اوحى لها بانه واحد من اولئك المتسولين او محترفي التسول الذين يعمدون الى حيل لاستدرار شفقة الناس ... وها هو يملك عشرين كوبيكاً والفضل في ذلك يعود الى تلك الضربة الـــتي نالته من سوط سائق العربة ، تلك الضربة التي حركت الشفقة في نفس السيدة .

اطبق يده بشدة على النقود التي فيها وسار بضع خطوات ثم استدار في مواجهة النهر باتجاه القصر . كانت السماء صافية لاسحاب فيها والمياه زرقاء غير كدرة وهو امر نادر بالنسبة الى نهر « نيفا » ... وكانت قبة « الـكاتدرائية » — وهي لا تبدو واضحة المعالم اكثر منها من تلك البقعة فوق الجسر — تلتمع وتتألق في هذا الجو الصافي الرائق حتى ليستطيع الناظر اليهـــا تعداد كل خطوطها وزخرفتها . شعر راسكولنيكوف بهدوء في نفسه ناسياً الالم الذي خلفته لسعة السوط وراح ينظر الى تلك الاماكن التي كانت مألوفة لديه بشكل خاص . كيف لا وهـــو الذي وقف مئات المرات حيث هو — حينما كان يرجع من الجامعة في طريقه الى البيت — يتأمل تلك المناظر البهيجة البديعة يغمره شعور غريب . كان ذلك المشهد يثير في نفسه فكرة جامدة غير مفهومة اذ كان يخيل اليه ان كل هـــذه الابهة ومظاهر العظمة كانت محرومة من النشاط او على الاصح من الروح ! وكانت تلك الفكرة تدهشه فهي غامضة حزينة لم يجد لها تعليلاً . اما الآن فقد بدا له ان تلك الاسئلة التي كان يبحث عن اجوبة لهـــا وذلك الشعور الغريب الذي كان يعتوره قد اصبحت جميعها مفهومة واضحة الخطوط . وبدت له غرابة الصدف في وقوفه في تلك اللحظة بالذات في ذلك المكان بالذات ناظراً الى تلك المناظر بالذات الـــتي

كان يتأملها من قبل لما ان كان في الجامعـة وكأنه يرجو ان يشعر بمثل الشعور الذي كان يحس به من قبل . بدا له كل ذلك مضحكا وانتهى بأن احس بقوة غير منظورة تعتصر قلبه فيقطر ألماً . ادرك ان ماضيه وافكاره ومشاكله ، إحساساته ووجهات نظره التي كان يحس بها من قبل ، مفروشة تحت قدميه بل غارقـة في جرف سحيق ليس له قرار . والى ذلك الجرف السحيق انحدرت روعـة المناظر التي بدت لعينيه ثم تبعها بنفسه هابطاً ... شعر كأنه حلق الى ارتفاعات سامقة حتى اختفت كل المعالم عن ناظريه ! وتحركت يده حركة آلية فأحس بالنقود التي فيها تأملها برهة ثم طوح بها الى الماء ! وعندئذ دار على عقبيه وعاد الى البيت وهو يشعر بأنه في تلك اللحظة قد قطع آخر رباط يصله بالعالم الحي !

بلغ مسكنه مساء بعد ان انقضت ست ساعات منذ ان بارحه ! اما كيف وأي سبيل سلك فانه ما كان ليستطيع الجزم في معرفته ! خلع ملابسه وارتعـد كالحصان الحرون ثم استلقى على « الديوان » متدثراً بمعطفه وغط في نوم عميق !

استيقظ فجأة في الظلام الدامس إثر صرخة مريعة صكت سمعه . صرخة لم يكن قد رأى او سمع بمثلها من قبل ، صرخـــة رافقتها زمجرة ونحيب وضربات ولعنات فظيعة لم يعهد مثلها من قبل . لم يكن يفكر أو يتصور وجود مثل هـذه الوحشية والضراوة ، فرُوع وانتصب في « سريره » جالساً شاعراً بعذاب متزايد ينزل به ثانية فثانية . لكن الضربات والنحيب والشتائم كانت تتزايد تدريجياً ، وبالشدة ذهوله واستغرابه حينما تعرف وسط ذلك الضجيج على صوت صاحبـة مسكنه . كانت تزمجر وتزأر بصوت حاد متقطع سريع حتى أنه أخفق في فهم بعض ماتقوله . غير أنه خمن أنها تتوسل وتستعطف لكي يكف اولئك الذين يضربونها عن عدوانهم . وكان الصوت آتياً من السلم فسمع راسكولنيكوف هدير صوت المعتدي ، كان صوته يفيض غضباً وقد استحال الى صرخات مبحوحة حتى تعذر

عليه فهم شيء من حديثه اللاهث المختنق . وفجأة اقشعر جسم راسكولنيكوف : لقد تعرف على صوت الوحش الضارب ... كان اليا بتروفيتش : « ترى ماذا يفعل اليا بتروفيتش هنا ولمَ يضرب صاحبة الدار ؟ من الواضح أنه كان يركلها بقدميه ويضرب رأسها على درجات السلم ..! كان يمكن تخمين ذلك من بكاء المرأة وصوت الضربات فماذا حدث ياترى هل انقلبت الأوضاع في العالم ؟ »

هرع السكان الى السلم وارتفعت اصواتهم مستنكرة ثم ارتفع صوت أقدام صاعدة وابواب تصفق وخطى متلاحقة .. « ترى لمَ كل هذا ؟ لمَ ؟ كيف يمكن أن يحدث أمر كهذا ؟ »

كان راسكولنيكوف وهو يطرح على نفسه مثل هذه الأسئلة يعتقد مخلصاً انه قد جن لولا أنه كان يسمع بجلاء كل هذا الضجيج. وفجأة خيل اليه أنهم آتون الى غرفته فغمغم يحدث نفسه :

« رباه انهم صاعدون ! اذاً ان كل هذا بسبب مسألة البارحة » واراد ان يغلق الباب بالمزلاج لكن يده لم تطعه وشعر بعقم هذه المحاولة وبألم يعذب روحه ويسحق عظامه . انقضى الوقت بطيئاً قاتلاً ومضت عشر دقائق دون أن يحدث شيء وهدأت الأصوات بالتدريج وتناهى الى سمعه صوت صاحبة الدار تزمجر وتنتحب وصوت اليا بتروفيتش يهدد ويشتم ثم اختفت الأصوات نهائياً وران السكون فدمتم قائلاً : رباه ! هل ذهبوا حقيقة ؟ لاشك في ذلك وها إن صاحبة الدار تذهب الى شقتها باكية منتحبة ! ها إنها تغلق باب الشقة بعنف وصخب والناس يتفرقون ويخلون السلم ليدخل كل منهم الى مسكنه ، وهم يتناقشون ويتنادون بصيحات مرتفعة او يتحادثون بما يشبه الدمدمة . كان يبدو انهم عديدون كما لو ان كل السكان قد هرعوا الى مكان الحادث . فلبث يتساءل عبثا عن السبب .

خارت قوى راسكولنيكوف اخيراً وتهاوى من جديد ولكن النوم ابى ان

يداعب عيونه فبقي نصف ساعة ممداً فريسة الألم ، ألم عنيف لا يُحتمل والشعور بالرعب لم يحس بمثله من قبل ، وفجأة انبثق نور في حجرته ورأى ناستاسيا داخلة تحمل شمعة موقدة في إحدى يديها وآنية حساء في الأخرى . نظرت إليه بانتباه ولما رأته مستيقظاً وضعت « الشمعدان » على الطاولة وراحت ترتب الأشياء التي تحملها : الخبز والملح والطبق والملعقة وهي تقول :

— إنه لم يأكل شيئاً منذ الأمس، مع ذلك فقد راح يجر أسماله طول النهار وهو مصاب بهذه الحمى العنيفة..

— ناستاسيا ... لمَ ضربوا السيدة ؟

فنظرت إليه بدهشة وقالت :

— من الذي ضرب السيدة ؟

— منذ حين ، منذ نصف ساعة. إيليا بيتروفيتش، مساعد رئيس الشرطة ... على السلم . لمَ عاملها بهذه الخشونة ؟ بل ولمَ جاء إلى هنا ؟

حدقت ناستاسيا في وجهه طويلاً وقطبت حاجبيها ولزمت الصمت . شعرت بنوع من الارتباك بل ومن الخوف . بينما استمر راسكولنيكوف يقول بصوت ضعيف خائر :

— ناستاسيا لمَ لا تتكلمين ؟

فتمتمت وكأنها تحدث نفسها :

— هذا هو الدم .

فشحب لونه وتقهقر حتى التصق بالجدار وهتف :

— الدم ؟ ... أي دم ؟ ...

نظرت اليه ناستاسيا بصمت وأخيراً قالت بصوت ثابت وبلهجة خطيرة :

— لم يضرب السيدة أحد .

فنظر إليها وهو يكاد يختنق وقال :

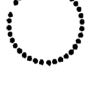
ــ لقد سمعت بنفسي ... لم أكن نائمـا ... كنت جالساً .. لقـــد سمعت طويلاً . ان مساعد مدير الشرطة كان هنا على السلم ... وكل السكان قدهرعوا وغادروا مساكنهم .

ــ لم يأت أحد إنما هو الدم يصرخ فيك ... إذ أنه عندما لا يجد مخرجاً يهاجم الكبد ويجعلك بذلك تتصور مثل هذه الأوهام . والآن سوف تأكل . أليس كذلك ؟...

لم يجب وظلت ناستاسيا بالقرب منه صامتة تحدق في وجهه متفحصة .

ــ ناستاسيا . . أريد أن أشرب ...

غادرت الحجرة وعادت اليه بعد دقيقتين تحمل ماء في إبريق من الفخار الأبيض لكنه لم يذكر ما وقع له بعد ذلك . تذكر فقط أنه ابتلع جرعـة من الماء البارد وصب محتويات الابريق على صدره ثم فقد الوعي .



الفصل الثالث

استمر مريضاً زمناً طويلاً لكنه لم يفقد خلاله حاسة التفكير تماماً فكانت حاله منقسمة بين هذيان الحمى والشرود الذهني . تذكر فيما بعد أنه كان يحس أحياناً بجمع غفير من الناس التفوا حوله يريدون انتزاعه وحمله الى مكان ما وهم يتناقشون بصدده ويتشاجرون ، وأحياناً أخرى يجد نفسه وحيداً في غرفته وقد بارحها الناس لأنهم خافوا منه، فكانوا من حين إلى آخر يواربون الباب قليلاً لينظروا إليه ويهددوه أو يستهزئوا به مستثيرين غضبه. وتذكر كذلك أن ناستاسيا كثيراً ما كانت تجلس قرب سريره كما لاحظ رجلاً غريباً لم يستطع معرفته ولا تحديد مهمة يشاطرها زياراتها الأمر الذي أحزنه حتى أن الدموع كادت أن تطفر من عينيه .

كان يخيل إليه أحياناً أنه أمضى أكثر من شهر في سريره ، وأحياناً أخرى أن كل شيء قد تم في بحر يوم واحد . لكن « ذلك الشيء » نعم ذلك الشيء كان قد نسيه تماماً، وإن كان يشعر في قرارة نفسه انه افتقد أمراً لا يجد في نفسه القدرة على استعادته ، فكان يتألم ويتعذب ويزفر ويثور لمجرد تفكيره في هذا العجز ثم يذهل ويغيب عن الوعي. وإذا استفاق بعدئذ كان ينهض محاولاً الفرار والابتعاد عن السرير فيشعر بأيد تعيده اليه بالقوة فيعود إلى غيبوبته .

أمضى زمناً طويلاً على هذا المنوال ولما صحا ذات يوم — وكان ذلك في الساعة العاشرة والطقس جميل والشمس تغمر الجدار الأيمن باشعاع ضوئي بديع فتنير الزاوية القريبة من الباب — رأى ناستاسيا جالسة بالقرب من سريره مع رجل لم يكن يعرفه كان يرقبه بفضول، وصاحبة المسكن تنظر إليه خلال الباب

الموارب . كان ذلك الغريب شاباً مرتدياً قفطاناً ، ذا لحية صغيرة مـدية يشبه الجباة في مظهره . تناهض راسكو لنيكوف وسأل مشيراً إلى الشاب :

من هذا يا ناستاسيا ؟

ـــهيه ؟ لقدعاد الى وعيه...

ــ شعرت صاحبة الدار أن المريض قد استعاد قواه فأغلقت الباب الموارب واختفت فوراً لأنها كانت امرأة شديدة الخجل ترهب المناقشات والاستفسارات. كان لها أربعون عامـــاً وكانت سمينة منتفخة ذات عينين سوداوين يعلوهما حاجبان بلونها ، طيبة في كل شيء : بكسلها وكرمهـا ، مضيافة ، مفرطه في الخجل ؟

عاد راسكولنيكوف يستفسر موجهاً حديثه إلى الغريب مباشرة :

ــ من ... أنت ..؟

وفي تلك اللحظة فتح الباب ودخل رازوميخين وهو يحني قامته قليلاً بسبب طولهـا . هتف وهو بالباب :

ــ ياله من كوخ ! ! إن رأسي يصطدم أبداً بالسقف ومع ذلك فهم يطلقون عليه اسم مسكن ... إذاً يا أخي فقد عدت إلى وعيك ... لقد علمت بذلك تواً من « باشنكا » .

قالت ناستاسيا :

ــ لقد استعادصوابه تواً...

وقال الغريب الذي يشبه الجباة في هيئته بصوت مجلجل وهو يبتسم :

ـــلقد عاد إليه وعيه.

تذكر راسكولنيكوف أن سؤاله الذي وجهـه إلى ذلك الغريب لم يحظ بجواب بعد ! وشعر رازوميخين برغبة صديقه فسأل :

ـــ ولكن أنت ... من أنت ؟ فأنا مثلاً اسمي رازوميخين وأنا طالب مفضال مهذب وهذا صديقي . أما أنت فمن تكون ؟

ـــ أنا مستخدم لدى التاجر « شيلوباييف » وقد جئت هنا لحاجة .

فقال رازوميخين :

ـــ حسناً . تفضل بالجلوس على هذا « الكرسي » . واستوى بنفسه جالساً على المقعد الآخر بجانب المائدة . وخاطب راسكولنيكوف بقوله :

ـــ يا صديقي العجوز أحسنت صنعاً إذ استعدت حواسك. فمنذ أربعة أيام ـــ كما قيل لي ـــ لم تأكل ولم تشرب شيئاً باستثناء ما كان يصب في فمك من قطرات الشاي بواسطة الملعقة . ولقد أتيتك مرتين بـ « زوسيموف » . أنت تذكر زوسيموف ؟ لقد عاينك بدقة وصرح أن الأمر ليس خطيراً وأن حالك تشبه بكل بساطة حال الذي تلقى ضربة من مطرقة . أي ـــ كما أكد ـــ إنك تشكو من ضعف عصبي نتيجة لسوء التغذية. أما المرض نفسه فبسيط يمكن الشفاء منه بسهولة . إن زوسيموف حجة لا يبارى وهو يعود عدداً من المرضى الخطرين . ثم استدار نحو المستخدم وقال :

ـــ لا أحب استبقاءك كثيراً ... فتفضل إذا أردت باطلاعنا على سبب زيارتك. لاحظ يارروديا أن هذه هي المرة الثانية التي يبعث صاحب ذلك المخزن برسل من لدنه .ففي المرة الأولى كان واحداً غير هذا ، فمن الذي جاء في المرة الأولى ؟

فأجاب المستخدم :

ـــ لعلك تقصد الذي جاء منذ ثلاثة أيام . إنه مستخدم مثلي واسمه :الكسيس سيميونوفيتش .

ـــ إن لسانه على الأقل أطول من لسانك فما رأيك ؟

ـــ نعم إنه رجل أكثر كفاءة مني .

— ليس لنا إلا أن نهنئك ... هيا استمر .

— حسناً . هذه هي الحكاية : إن لدينا حوالة من والدتك أرسلت بواسطة المدعو آثاناس إيفانوفيتش فاكروشين الذي أعتقد أنك سمعت عنه . وانني مكلف بان أقدم لك مبلغاً قدره خمسة وثلاثون روبلاً هي ما أخذه سيميون سيميونوفيتش من أمك وأعتقد أنك مطلع على مجرى الأمور .

كان هذا الكلام موجهاً إلى راسكولنيكوف جواباً على سؤال صديقه فتمتم هذا بصوت حلم :

— آه ... فاكروشين . نعم أذكر .

هتف رازوميخين قائلاً :

— هل تسمع ؟ إنه يعرف التاجر فاكروشين . وكيف لا يعرفه ؟ ثم انني ألاحظ أنك أنت الآخر ذو لسان طويل ... هيا لا تبتئس . إنه لذيذ دائماً أن يستمع الانسان الى محاضرات حكيمة . استمر ...

— حسناً . بالضبط إن هذا الـ « فاكروشين أثاناس إيفانوفيتش » هو الذي توسط في المرة الأولى بناء على رجاء والدتك في إرسال نقود إليك ولم يحجم هذه المرة بالمثل عن إبلاغ سيميون سيميونوفيتش بوجوب دفع خمسة وثلاثين روبلاً إليك بانتظار ما هو أحسن .

هتف رازوميخين :

— لعمري إن هذه الـ « بانتظار ما هو أحسن » هي أجمل ما خرج من فمك ولقد نطقتها بسهولة لا يماثلها في الجمال إلا قولك « بناء على رجاء والدتك » والآن ماذا تعتقد هل هو مالك قواه ؟ نعم أو لا ؟

— بالنسبة إلي إنه ككل أولئك الذين يوقعون لدينا عند القبض .

— إذاً سوف يحسن التوقيع « الشخبرة » هل معك الدفتر ؟

ـ الدفتر ؟ ها هو ذا .

ـ هاته . هيا ياروديا انهض قليلاً . سوف أسنـدك بنما ستكتب له هنا : راسكو لنيكوف . خذ القلم بيدك يا صديقي . إننـا في شديد الحاجة الى المال .

هتف راسكولنيكوف وهو يدفع القلم بعيداً :

ـ لا حاجة بي الى المال .

ـ إذاً ماذا يلزمك ؟

ـ لن أوقع هذا الايصال .

ـ لكن يجب أن تعطي إيصالاً .

ـ لست في حاجة إلى النقود .

ـ لست في حاجة الى النقود؟اسمع يا صديقي أنت تكذب وأنا شاهدعلى ذلك ! ثم استدار الى المستخدم وقال : لاتبتئس . إنه يهزر . ثم إن هذا مألوفاً لديه في حال اليقظة الكاملة وأنت رجل عاقل. اسوف نسير يده ليستطيع التوقيع فهيا بنا نتعاون.

ـ على كل حال إنني استطيع العودة مرة أخرى .

ـ كلا ! كلا ! لمَ تزعج نفسك ؟ أنت رجل معقول ... هيا ياروديا لا تؤخر هذا الزائر . ألا ترى ؟ إنه ينتظر ...

امسك بيد راسكولنيكوف ليساعده على التوقيع . فهتف هذا قائلاً :

ـ دعني سوف أوقع بنفسي . ثم أخذ القلم وكتب اسمـه في الدفتر فسلمه المستخدم المال وانسحب .

ـ مرحى ! ألا تأكل الآن ياصديقي ؟

فأجاب راسكو لنيكوف :

ـ بلى .

سأل رازوميخين الخادم قائلاً :

ــ هل لديكم حساء ؟

فأجابت ناستاسيا وقد حضرت المناقشة من أولها :

ــ نعم لدينا من بقايا البارحة .

ــ هل هو حساء بالأرز والبطاطا ؟

ــ نعم بالأرز والبطاطا .

ــ كنت أخشى أن لا يكون كذلك ... إيتنا بالحساء وأعطنا شاياً .

ــ ها أنا ذاهبة .

كان راسكو لنيكوف يرقب ما يجري بدهشة عميقة ورهبة متبلدة وقد استصوب الصمت وانتظار ما سيحدث . قال مخاطباً نفسه : « يخيل إلي انني لست واهماً بل ان هذا يبدو واقعياً ».

استغرقت مهمة ناستاسيا دقيقتين عادت بعدهما بالحساء والشاي . كانت تحمل ملعقتين وطبقين وما يلزم مائده الطعام من ملح وبهار وخردل مما لم ير راسكو لنيكوف ترتيباً مثله من قبل ، بل إنها كانت تحمل أيضاً غطاء مائدة نظيف .

قال رازوميخين :

ــ يحسن بـ « براسكوفي بافلوفنا » أن ترسل إلينا قدحين من الجعة وسنشربها باستمتاع ياناستاسيا .

فتمتمت الخادم :

ــ لعمري إنك تعني بنفسك ... ومضت تنفذ الأمر .

استمر راسكو لنيكوف يحدق فيما حوله بذهوله المعهود لكنه لم يخل هذه

المرة من اهتمام ملموس . بينما جلس رازوميخين إلى جانبه على «الديوان» وراح يرفع رأسه بحركة غير حاذقة فأسندها الى ذراعه ثم بدأت يده اليمنى بعد ذلك تسعى بين إناء الحساء وفم راسكو لنيكوف مرات وهو يستوقف الملعقة أمام فمه كل مرة لينفخ عليها خشية أن يكون الحساء ساخناً فينزعج المريض. وكان الحساء بارداً تقريباً ، غير أن ذلك لم يمنع راسكو لنيكوف من التهام ملء ملعقة وتكرار ذلك مرات . وفجأة توقف رازوميخين عن أداء مهمته وصرح بانه يجب استشارة زوسيموف الآن !

دخلت ناستاسيا في تلك اللحظة حاملة زجاجتين من الجعة وضعتها على الطاولة فسأل رازوميخين راسكو لنيكوف قائلاً .

— أترغب في شرب قليل من الشاي ؟

— نعم .

فصاح بناستاسا قائلاً :

— اجري فوراً واتي بالشاي ياناستاسيا . انني أعتقد أننا نستطيع الاستغناء عن رأي كلية الطب بصدد الشاي .. آه! ها هي الجعة أيضاً .

جلس رازوميخن على كرسيه وراح يفتك باللحم فتكاً ذريعاً وكأنه لم يقرب الطعام منذ ثلاثة أيام . وكان يحدث راسكو لنيكوف على قدر ما يسمح به فمه الممتلىء ويقول :

— ياصديقي العجوز روديا إنني أطعم عندك منذ ثلاثةايام على حساب السيدة باشانكا وهي تعني بي عناية خاصة !إنني لاأرى مانعاً من مصارحتك بأنني لا أحتج ولا أعترض على عنايتها بي .ولكن ها هي ناستاسيا وقد جاءت بالشاي إنها تحسن التدبر . حسناً هل ترغبين في قدح من الجعة ياناستاسيا ؟

— يالك من ماكر ممازح !

= إذاً من الشاي .

ـ أما هذا فنعم .

ـ حسناً قدمي لنفسك . بل انتظري سأقوم أنا على خدمتك . اجلسي إلى المائدة .

وقام فوراً بواجب رب الدار كأحسن ما يكون ، فملأ القدح الأول ثم قدحاً ثانياً وترك طعامه وعاد يجلس على « الديوان » قرب صديقه . والمرة الثانية مد ذراعه اليسرى الى رأس راسكو لنيكوف يرفعها ثم راح يسقيه الشاي بالملعقة وهو ينفخ عليها لتبرد ؛ وكأنه بذلك يساهم في شفاء المريض مساهمة فعلية .

أما راسكو لنيكوف فكان صامتاً لايبدي مقاومة رغم شعوره بقدرته على الحركة واستعمال يديه بما يكفي للامساك بملعقة وقدح بل لعله كان يستطيع المشي ، لكنه عمد بمكر حيواني إلى إخفاء طاقته وقواه متصنعاً البله والذهول مراقباً بنفس الوقت ما يحدث ومفكراً بامعان فيما يرى . وبعد أن جرع محتويات الملعقة العاشرة ، حرر رأسه من ذراع صديقه ودفع الملعقة بطيش ثم ترك رأسه تهوي على « الوسادة » وشعر بأنها وسادة حقيقية يكسوها غطاء نظيف مما ضاعف في حيرته .

تمتم رازوميخين وهو يعود الى مجلسه الأول فيأكل ويشرب الحمة :

ـ ينبغي أن ترسل باشانكا اليوم أيضاً مربى التوت لنهيء شراباً للمريض .

فسألت ناستاسيا .وهي تمسك قدحاً بأصابعها الخمس وتمتص الشاي على قطعة السكر التي في فمها :

= ومن أين تأتي بالتوت ؟

ــ إنه شائع وموجود في كل البقاليات ياعزيزتي . ألا ترى ياروديا ؟ لقد وقعت هنا حكاية لم تطلع على تفاصيلها بعد : عندما فررت كالنشال في ذلك اليوم من مسكني دون أن تطلعني على عنوانك ، غضبت غضباً شديداً وقررت أن أبحث عنك لأؤدبك . فشرعت أطاردك منذ ذلك اليوم وأنا أبحث هنا وهناك ناسياً أنك تقطن هنا . خصوصاً وأنى ما كنت أستطيع أن أذكر هذا لأنني ما كنت أعرفه . أما مسكنك الأسبق فكنت أعرف أنه في « الزوايا الخمس» « خارلاموف » . بحثت طويلاً عن هذا « الخارلاموف» وظهر لي فيما بعد أن اسمه هو « بوخ » وليس خارلاموف ولكن الأخطاء شائعة في أسماء الاعلام فاستأت استياء بليغاً وعدت في اليوم التالي إلى مكتب الاستعلامات. تصور انني خلال دقيقتين فقط استطعت أن أحصل على عنوانك لأن اسمك كان مسجلاً هناك .

ــ مسجل ؟

ــ وكيف ! مع ذلك لم يستطيعوا في ذلك المكتب أن يلهوا بعنوان الجنرال كوبيليف ليعطوه الى شخص كان يسأل عنه بحضوري ... لا أود اضاعة الوقت بالتفاصيل لذلك أقول بكلمة واحدة انني وصلت الى هنا وأحطت علماً بكل ما يتعلق بك ، نعم بكل شيء ياصديقي . أنا أعرف كل شيء وناستاسيا تشهد على ذلك وقد تعرفت الى نيكوديم فوميتش. كذلك رأيت ايليا بيتروفيتش واتصلت بالحارس « فورنيك » وبالسيد ساميوتوف الكسندر غريغوريفيتش أمين سر قسم شرطة الحي وأخيراً تعرفت الى باشانكا وهي فضلاً عن ذلك الباقة العطرة في هذه المجموعة وناستاسيا لا تجهل ذلك .

فغمغمت ناستاسيا وهي تضحك ساخرة :

ــ لقد عرفت كيف تفتنها .

ـ هيه !.. ياناستاسيا نيكيفوروفنا !. الا تصمتين ؟

فانفجرت ناستاسيا ضاحكة وهتفت :

ـ أيها الحيوان . لكني بيتروفنا وليس نيكيفوروفنا .

ـ أخذنا علماً بذلك . والآن ياصديقي أردت قبل كل شيء أن أدخل الكهرباء الى هنا لكي أبدل دفعة واحدة الأفكار والآراء الخاطئة المتكاثفة، لكن لكن باشانكا انتصرت ثق ياصديقي أنني ما كنت أعتقد أنها بمثل ... بمثل هذا الكرم . هيه . ماذا تقول ؟

كان راسكولنيكوف صامتاً لا يريم رغم أنه لم يغفل لحظة واحدة عن ملاحقة رازوميخين بنظرة ثقيلة ثابتة . واستمر رازوميخين قائلا :

ـ لا أود إضاعة الوقت بمحاضرات تافهة . لذلك أقول : إنها إنسان كأحسن ما يكون ومن كل وجهات النظر .

كان يبدو على رازوميخين أن صمت راسكولنيكوف لم يزعجه في شيء وانه يكتفي بما كانت تثيره ناستاسيا من ملاحظات على حديثه الذي بدا وكأنه يدخل على نفسها لوناً من السرور الغامض .

هتفت هذه من جديد :

ـ يا لك من حيوان .

بينما استرسل هو وكأنه لم يسمع :

ـ المؤلم يا صديقي أنك لم تدرك كيف تتصرف منذ البداية . لم يكن ينبغي لك أن تعاملها هكذا ! إن ذاك ـ ماذا أقول ـ إنه ... إنها عقلية غريبة بيد أننا سنبحث في هذا فيما بعد .

صمت قليلاً ثم أردف قائلاً :

ـ خذ مثلاً هذه الناحية الدقيقة : كيف جعلت الحال يصل بها الى درجة

إمساك الطعام عنك ؟ وأكثر من ذلك أيضاً تلك السفتجة !.. يخيل إلي أنك كنت فاقد الرشد عند ما وقعت عليها ، بينما كان مشروع زواجك من الفتاة ناتالي إيبكورفنا لا زال ماثلاً ! أرأيت كيف أني ملم بكل شيء ؟ إنني أرى هنا حبلاً حساساً وأنا حمار فاعذرني ! ولكن بما أننا نتكلم عن الحماقات فماذا تظن ؟ ألا ترى أن براسكوفي بافلوفنا أبعد من أن تكون حيواناً كما يلوح للمرء للوهلة الأولى ؟

غمغم راسكو لنيكوف وهو لا يدري أيها أفضل : أن يسكت صاحبه أم أن يدعه يستمر :

— نعم .

فهتف رازوميخين وقد بدا عليه السرور لسماعه صوت صديقه يجيبه :

— أليس كذلك ؟ لكنها ليست ذكية جداً . هم ؟ لقد قلت لك أن تلك عقلية غريبة وأنا من جانبي يا صديقي لا أستطيع فهم شيء : فهي تشرف على الأربعين من عمرها ولا تعترف إلا بست وثلاثين ولها كل الحق . ثم أقسم لك بأن حكمي افتراضي بحت لا يعتمد إلا على علم « الميتافيزيك » : إن ما يحدث بيننا هو بالنسبة إلي مسألة جبر لذلك فلست أفهم شيئاً ، وكل شيء معقد ! فهي — لما رأت أنك انقطعت عن الجامعة وخسرت الدروس والالبسة ، وأنها بعد وفاة ابنتها لم تعد تستطيع اعتبارك فرداً من الأسرة — شعرت فجأة بالرهبة ، أما أنت فانك بدلاً من أن تستمر في حياتك كما كانت عليه في الماضي، انقلبت فجأة. ففكرت في طردك وقد أمضت زمناً طويلاً تفكر في ذلك المشروع ولكنها كانت تخاف على مالها خصوصاً وانك أكدت لها بأن أمك ستدفع .

غمغم راسكو لنيكوف بصوت مرتفع واضح قائلاً :

— لقد كنت شديد النذالة حينما قلت ذلك . لقد أصبحت أمي أشبه بالمتسولات

وكنت أنا أكذب لكي أغريها على قبولي في المسكن واطعامي .

ــ لقد أحسنت صنعاً في هذا.انما المزعج أنهااستعانت بالسيد تشيباروف وهو رجل أعمال ومستشار في المحكمة العليا . ولولاه لما جرؤت « باشانكا » على تدبير شيء ضدك وهي تلك الامرأة الخجول . لكن ذلك المستشار لم يكن خجولاً مثلها فكان أول ما سعى الى معرفته هو : هل من أمل في أن تحصل صاحبة المسكن على مالها ، فجاءه الجواب : نعم لأن أمه رغم أنهـا لا تملك الا جرايـة قدرهـا مائة وعشرون روبلاً في السنة فانها ستستغني عن الطعام لتكفل ابنهـا روديا وان اخته على استعداد لبيع نفسها كالرقيق اذا اقتضى الأمر لتساعد أخاها. وهكذا قرر ملاحقتك . لكن ... ماذا بك ؟ أراك قـد اضطربت ! هل أدركت الآن أنني أفهمك تماماً ؟ انه لم يكن عبثاً ذاك الحديث الذي أفضيت به الى باشانكا عندما كانت تعدك واحداً من الأسرة وقد استقيت هـذه المعلومات من حـديثك ذاك ... وسأقص عليك الآن ماذا وقـع بالضبط .. حدث أنه بينما كان الرجل النبيل الحساس الذي هو أنت يدلي باعترافاته كان رجل الأعمـال يستعـد ليفوز بحصة الأسد وهذا هو السبب الذي من أجله أعطت باشانكا السفتجة برسم القبض الى تشيباروف هذا وهو بدوره طالب بالحاح أن يسدد المبلغ فلمـا اطلعت على سير سير الأمور أردت ارضاء لضميري أن أدلي بدلوي وهكـذا أصبحت أنعم بتفاهم تام مع باشانكا وأوقفت بل وقتلت المؤامرة في مهدها مؤكداً لها أنك ستدفـع دونما حاجة الى هذا التدبير . هل فهمت ما أعني يا صديقي ؟ لقد كفلتك فاستدعينا تشيباروف هذا وألقينا اليـه بعشرة روبلات ثم استعدنا منـه السفتجة التي لي الشرف بأن أقدمها اليك . والآن فان كلمتك هي وحدها موضع الاعتبار . خـذ . هذه هي السفتجة وقد مزقتها كما ترى بما يناسب المقام .

وضع رازو ميخين الورقة الممزقة على الطاولة فنظر اليها راسكو لنيكوف

وفجأة استدار نحو الجدار دون أن يهمس بكلمة حتى أن رازو ميخين نفسه شعر بصدمة في كرامته . قال :

ــ أرى ياصديقي أنني ارتكبت هنا نوعاً من الحماقة كما يبدو . بينما كنت أعتقد أنني أسري عنك بثرثرتي فاذا بي على العكس أثير سخطك .

قال راسكولنيكوف بعد صمت دون أن يستدير :

ــ أهو أنت الذي لم أعرفك في بحراني ؟

ــ نعم وحضوري كان يسبب لك نوبات وخصوصاً في المرة التي اصطحبت معي فيها زاميوتوف .

ــ زاميوتوف ؟ أمين سر قسم الشرطة ؟ لماذا ؟

واستدار فجأة بينما تعلقت أبصاره بوجه رازوميخين :

ــ لكن ماذا دهاك ؟ لمَ تثور ؟ كان يرغب في التعرف إليك وهو نفسه الذي عرض ذلك لأننا تحدثنا أنا وهو طويلاً عنك . ولولاه لما عرفت كل هذه الأمور. إنه غلام شجاع ، غريب من نوعه ، سريع الفهم ونحن الآن كأحسن الأصدقاء ، نلتقي كل يوم تقريباً حتى أنني غادرت مسكني ذاك وجئت اسكن هذا الحي ولقد ذهبنا مرتين عند لويز . أتذكر لويز ؟ .. لويز ايفانوفنا.

ــ هل كنت أهذي ؟

ــ وكيف ؟ كنت لا تملك نفسك .

ــ ماذا قلت ؟

ــ وماذا بعد ؟ ماذا قلت ؟ إن ما يقوله رجل يهذي معروف والآن لندع هذا ولنهتم بما هو أجدى . ثم نهض وأخذ قبعته وأراد الانصراف .

ــ سألتك ماذا قلت ؟

— لعمري إذا كنت تعمر ! هل أنت خائف من أن تكون كشفت سراً ؟
لا تخش : إنك لم تبح بشيء عن أميرتك . لكنك تحدثت كثيراً عن كلب « البولدوج » وعن أقراط للأذن وسلاسل للساعات وعن جزيرة « كريستوفسكي » ثم عن حارس معين . وقد بحثت أيضاً في : نيكوديم فوميتش وإيليا بيتروفتش مساعده وأظهرت اهتماماً كلياً بطرف حذائك فكنت أبداً تطلبه بأنين قائلاً : « أعطوني قطعة النعل » حتى أن زاميوتوف نفسه بحث عنها في كل الأركان ثم أعطاك تلك القذارة بنفسه بعد أن حملها بيديه النظيفتين البيضاوين المعطرتين المزينتين بالخواتم وعندئذ فقط خمدت حدتك ولبثت أربعاً وعشرين ساعة قابضاً على تلك القذارة بيديك مطبقاً عليها حتى تعذر سحبها منك ولعلها لا زالت في في مكان ما تحت غطائك . كذلك كنت تطلب باصرار قطع سروالك وكنت تبكي وأنت تطالب بها ورحنا نتساءل عن نوع تلك القطع التي تتحدث عنها، إنما لم نفهم غايتك . على كل حال انتهى هذا الآن والأهم أنك تملك في هذه اللحظة خمسة وثلاثين روبلاً سأحتفظ بعشرة منها وسترى بعد ساعتين ما سأكون قد عملت بها وخلال هذا الوقت سوف استشير زوسيموف الذي هو لاشك هنا منذ زمن طويل خصوصاً وان الساعة الآن قد جاوزت الحادية عشرة . أما أنت يا ناستاسيا فعليك بزيارته دائماً خلال غيبتي ولتهتمي بشأنه فتسقيه كلما طلب وتقدمي اليه مايريد، وسأذهب الى باشانكا لأتحدث اليها بما ينبغي ان يكون فالى اللقاء .

خرج رازوميخين بينما راحت ناستاسيا تقول :

— انه يناديها باشانكا ياله من مهرج !

ثم نهضت وأصاخت السمع ولم تستطع مقاومة فضولها فاندفعت تهبط السلم في

أثره لتنصت الى الحديث الذي سيدور بينه وبين سيدتها التي كانت ولا شك مفتونة به .

لم تكد ناستاسيا تخرج بدورها حتى ألقى المريض غطاءه فجأة وقفز كالمجنون مبارحاً السرير . لكن ما هي تلك المهمة ؟ ها هو ذا قد نسيها ! فراح يتمتم : « يا الهي ! وددت لو عرفت شيئاً ، شيئاً واحداً : هـــل يعرفون كل شيء أو لا يعرفون شيئاً ؟ لعلهم يعرفون ويتصنعون الجهل بالأمر لتشويش أفكاري خـلال مرضي ثم الانقضاض علي فجأة واطلاعي على أنهم يعرفون كل شيء منذ حـين ، وأن سلوكهم ما كان الا على سبيل الخدعـة ... فما العمل الآن وأنا الذي نسيت ما كنت أعتقد أنني أعرفه منذ نصف دقيقة ؟ » .

كان واقفاً في وسط الحجرة يدور بأنظاره حوله وهو فريسة هياج عصبي أليم . مضى الى الباب ففتحه وأنصت فلم يجد من يسترق السمع . وفي لحظة من صفاء الذهن اندفع الى الزاوية التي تحجب السجادة المهلهلة الثغرة التي فيهـــا ففحصها بعناية ثم أدخل يده في الثغرة باحثاً منقباً وسرعان ما أدرك أنه لم يكن يفكر في هـــذا بالضبط . تذكر أنه يسعى وراء قطع سرواله الممزقة وبطانة جيبـه التي انتزعها والتي ألقاها مع قطع السروال في مكان لم يعد يذكره . ولما فتح باب المدفأة وبحث بين الرماد وجدها هناك فتأكـد أنهم لم يبلغوا في البحث تلك المرحلة . بقيت قطعة النعل المتخلفة عن حذائه ! ارتمى على السرير يبحث عنهـا فوجدها . كانت خلقة متأثرة من الاحتكاك قذرة . ان زاميوتوف لا يمكـن أن يكون قد لاحظ عليهـا شيئاً . غمغم محدثاً نفسه : « هيـه زاميوتوف ! مكتب البوليس ! لكن لمَ استدعوني الى ذلك المكتب ؟ وأين رقعة الدعوة ؟ ؟ بهْ ! لا شك انني اخلط بين الامور فقد كان الاستدعاء امس البعيـد وليس اليوم وكنت أفحص طرف حذائي أما الآن فقد كنت مريضاً . فلمَ اذاً جاء زاميوتوف ؟

ماذا في الأمر ؟ هل يصور لي الخيال كل هذا أم انه حقيقة ؟ لا شك انه حقيقة ؟ آه . لقد تذكرت: ينبغي أن أفر . أفر بأسرع وقت .أفر تماماً ! لكن الى أين ؟ وأين ملابسي ؟ أين أحذيتي ؟ ها لقد أخذوها وأخفوها . فهمت ، ها هو معطفي لقد أفلت من انتباههم وها هو المال على الطاولة وها هي السفتجة . حمداً لله . سأحمل المال وأذهب، وسأستأجر مسكناً آخر . لن يجدونني بعد ذلك . لكن أين ذلك المكتب ؟ مكتب الاستعلامات . انهم سيكتشفونني كما اكتشفني رازوميخين . الأفضل أن افر تماماً . بعيداً الى أمريكا . وأن أسخر منهم . وينبغي أن أحمل معي السفتجة الممزقة . لعلها تنفعني هناك . وماذا أحمل ايضاً؟.. إنهم يظنونني مريضاً ولا يصدقون أنني قادر على المشي ... ها ها ها ... لقد قرأت في عيونهم أنهم يعرفون كل شيء فليس لي اذن الا ان اهبط السلم . لكن ما العمل اذا كان البيت مخفوراً ورأيتني وجهاً لوجه مع رجال البوليس ؟ ما هذا الذي هنا ؟ أهو شاي ! آه لقد بقي شيء من الجعة . نصف زجاجة منعشة » ...

أفرغ مافي الزجاجة فملأ كأسا كبيرة تجرعها دفعة واحدة بتلذذ وكأنه يطفئ النار المستعرة في صدره . ولم تمض دقيقة واحدة حتى أثرت الجعة في رأسه واعترته رعشة خفيفة لذيذة نوعاً .. فاستلقى وجذب الغطاء على نفسه وعادت أفكاره تزدحم محمومة معقدة حتى استولى عليه النعاس فدفن رأسه بغبطة في الوسادة النظيفة ، والتف بالغطاء النظيف الأنيق الذي استعيض به عن معطفه الممزق ونام نوم المحسنين .

استفاق على صوت شخص يدخل غرفته ففتح عينيه ليرى رازوميخين واقفاً على العتبة متردداً في الدخول . نهض راسكولنيكوف فجأة بقوة وراح ينظر في عيني صديقه وكأنه يحاول تذكر شيء معين فهتف رازوميخين قائلاً :

— كم انك مستيقظ ؟ حسناً . ها أنذا إذن . سوف أقدم لك علماً بنفقاتي

والتفت نحو السلم وصاح :

— ناستاسيا ! إلي بالرزمة .

سأل راسكو لنيكوف وهو يلقي حوله نظرة قلقة :

— كم الساعة ؟

— لقد نمت زمناً يقرب من ست ساعات ... لقد نمت ست ساعات طويلة وقد أقبل الليل ...

— رباه ! كيف استطعتُ النوم ؟

— وماذا بعد ؟ نم كما تشاء ! من ذا الذي يوقظك ؟ أتكون على موعد مع أحد ؟ ...

إن لدينا من الوقت ما يكفي . وأنا أنتظر يقظتك منذ ثلاث ساعات . وقد جئت مستطلعاً مرتين . فكنت في كلتيها نائماً . وذهبت مرتين الى دار زوسيموف فلم أجده كذلك . لكن سوف يحضر . وقد اضطررت للتغيب قليلاً لأعمالي الصغيرة الخاصة لأنني كما أعلمتك أبدلت مسكني اليوم مع عمي . ألا تعرف أن لي عماً الآن ؟ لكن الى الشيطان . هذا لا يهم . لنعد الى العمل . وها نحن ... فكيف تشعر الآن أيها المجوز ؟

— انا على خير حال . لم أعد مريضاً يا رازوميخين . هل أمضيت زمناً طويلاً هنا ؟

— طبعاً طالما انني أخبرتك بأنني أنتظرك منذ ثلاث ساعات ...

— كلا ! أعني قبل ذلك ؟

— كيف قبل ذلك ؟

— أقصد منذ كم من الوقت جئت هنا ؟

— غريب . لقد حدثتك بذلك البارحة مطولاً . ألا تذكر ؟

مضى راسكولنيكوف يفكر . كان يبدو له أن ما حدث لا يمكن أن يعدو الحلم . فلم يكن يذكر شيئاً . لذلك عاد ينظر الى رازوميخين مستفسراً فقال هذا :

ــ هم ... لقد نسيت إذاً ... لقد بدا لي منذ حين أنك لم تكن مالكاً قواك تماماً وأعتقد أن النوم قد أفادك وأرى أن وجهك يبدو مشرقاً . فمرحى اذاً . لسوف تعمل ولسوف تذكر كل شيء اللحظة . والآن انظر يا عزيزي انظر .

وراح يزيل رباط الحزمة التي بدا مهتماً بها . وقال :

ــ انظر يا صديقي لقد كنت شديد الاهتمام بهذه الناحية . لأنني أود الآن أن تعود رجلاً ! حسناً لنبدأ من الأعلى : أترى هــذه القبعة « كاسكيت » انهــا رغم جمالها لم تــكلفني مبلغــاً كبيراً فاسمح لي أن أضعهــا على رأسك لتجربتها .

فدفعه راسكولنيكوف بشيء من العنف وقال :

ليس الآن . فيما بعد .

ــ أما هذا فلا ! يا صديقي روديا . لا تلح ! سيكون « فيما بعد » متأخراً ؛ ولن أنام الليل لأنني اشتريت هــذه الأشياء دون معرفة مقــاساتك والآن . أرني ... هاه ... انها مطابقة تماماً كما لو كان رأسك معي ! أتدري أن غطاء الرأس هو القطعة المهمة في مجموع الملابس ؟ ان صديقي تولستيــا كوف يضطر الى رفع قبعته البالية اذا وجــد بين جمع من النــاس بينما يكون الجميــع محتفظين بقبعاتهم فيشكره الجميع ظناً منهم أنه شديد الاحترام ولا يعلمون أنــه يخجل من ابقاء قبعته الزرية على رأسه .

والتفت الى ناستاسيا وقال وهو يضع قبعة راسكولنيكوف العتيقة الى جانب الجديدة التي اشتراها :

ـ انظري يا ناستاسيا الى هاتين القبعتين الموجودتين هنـــا ، انه يطلق على هذه اسم قبعة . ولعلها تسمية مجازية . ولكن هل تعرفان كم دفعت ثمنـــاً لهذه القبعة الجديدة ؟

قالت الخادم :

ـ عشرين كوبيكاً على الاقل .

عشرون ؟ ويحك . ان عشرين كوبيكا اليوم لا تشتريك أنت فكيف تشتري قبعة !

لقد دفعت ثمانين كوبيكا ثمناً لها وما ذلك الا لأنها مستعملة بعض الشيء ... انما بشرط أن يعطوك بدلاً عنها في العام المقبل . قبعة دون مقـابل ! والآن لنقم بجولة في الأماكن « الواطئة » كما كنا نقول في الجامعة . أعلمـك قبل كل شيء أني فخور بهذه السراويل (ونشر أمامه سروالاً كان في الربطة) لن تجـد فيها ثقباً ولا لطخه وهي بلون « الصدارة » وهذه من متطلبات العصر . ولا عيب فيهـا غير أن تكون أنت الشخص الثاني الذي يلبسها . لكن لا تنسى أن الأشيـاء المستعملة أحسن من الأشياء الجديدة لأنها تكون أكثر مرونة وانسجـاماً ... اسمع يا روديا انني أعتقد أن الانسان الذي يريـد دعم مركزه في الأوسـاط الاجتماعية مرغم على ملاحظة متطلبات الفصول ولما كنا في فصل الصيف فقـد اشتريت لك ألبسة صيفية . وفي الخريف سوف يلزمك ثوب من قمـــاش يبعث الدفء لتستطيع نزع هذه الملابس وأنا واثق أنها بانتظار الخريف ستصبح أسمالاً بالية بفضل اهمالك . والآن كم تعتقد أنني دفعت ثمنـاً لهـذا ؟ مع العلم أن شرط الاستبدال مجاناً في السنة المقبلة قائم أبداً ؟.. روبلين وخمسة وعشرين كوبيكا ! أن فيديا ييف ـ وهو الذي اشتريت من مخزنه هذه الثياب ـ يتعامل دائماً مـع زبائنه على اساس استبدال العتيق بجديد مجانـــاً . ومعنى ذلك أنك ستدفع مرة

واحدة فقط . والآن لننتقل الى الأحذية كيف تراها ! صحيح أنها تبدو مستعملة لكنها ستخدمك شهرين كاملين وهي فوق ذلك بضاعة أجنبية كان يحتذيها أحد كبار الموظفين في السفارة البريطانية وقد باعها منذ اسبوع ولم يكن قد استعملها اكثر من اسبوع ايضاً وكان الدافع على البيع الحاجة الى المال . والثمن : روبل واحد وخمسين كوبيكا . فهل تراني أجدت ؟

قالت ناستاسيا ملاحظة :

لعلها لا تطابق حجم قدميه .

هتف رازوميخين وكأنه أهين في كرامته وقال وهو يخرج من جيبه حذاء راسكو لنيكوف القديم البالي :

لا تطابق حجم قدميه ؟ اذاً ما تسمين هذا (وأشار الى الحذاء العتيق) أنا أحتاط لكل شيء . لقد عاينوا وراعوا قياس هذه القاذورة التي كانت حذاء وبذلك أبرمت الصفقة بدقة تامة ثم التفت الى راسكو لنيكوف وقال مردفاً :

— أما فيما يتعلق بالألبسة الداخلية فلقد اتفقت حول موضوعها مع صاحبة مسكنك وها هي ذي ثلاثة قمصان من القماش مع ربطات عنق مناسبة . والآن لنجمع النفقات : ثمانون كوبيكا للقبعة ، روبلان وخمسة وعشرون للثوب فيكون المجموع ثلاثة روبلات وخمسة كوبيكات ، روبل وخمسون كوبيكا للأحذية لأنها في حالة جيدة فيصبح المجموع أربعة روبلات وخمسة وخمسون كوبيكا أما الألبسة الداخلية فقد اشتريتها بالجملة بخمسة روبلات فيبلغ المجموع تسعة روبلات وخمسة وخمسون كوبيكا وتفضل بقبول الخمسة والأربعين كوبيكا الباقية ... ها أنت الآن يا روديا قد عدت جديداً . أما معطفك فهو مناسب في الوقت الحاضر ويستطيع الاحتمال بعض الزمن . خصوصاً وانه يحمل علامة « شارمر » وقد تركت لك أمر العناية بالجوارب والأشياء الباقية ولتستطيع انتقاءها كيف شئت .

يبقى لديك خمسة وعشرون روبلا دون أن تنزعج من أجل ياشانكا أو أن تفكر في أجرة السكن لأنني كما قلت لك جعلت لك حسابا جارياً غير محدود . والآن اسمح لي بأن أرجوك باستبدال هذا القميص الذي ترتديه ولن أدهش اذا ما ثبت أن مرضك كله مختبئ فيه .

كان راسكو لنيكوف يسمع هذا الحديث بامتعاض وقد بدت على وجهه دلائل الاشمئزاز وكأن شراء تلك الملابس أساء اليه فقال وهو يلوح بيده :

دعني لا أريد الآن .

فهتف رازوميخين .

— هذا لن يكون ايها العجوز ! أتعتقد أنني اتلفت حذائي بالمشي لاتلقى هذا الجواب ؟ هيا ناستاسيا الشجاعة ساعديني ولسوف نتغلب على مقاومته وسنجعله يبدل ثيابه . وقد فعل !..

ارتمى راسكو لنيكوف بعدئذ مستلقياً وهو صامت يفكر منتظراً خروجها. وسأل بمرارة وانظاره نحو الجدار :

— بأي مال اشتريت هذه الحاجيات !

بأي مال ؟ اسمع هذا الهزر ! بمالك ! لقد جاء موظف منذ قليل يحمله اليك! ألا تذكر ان امك ارسلته بواسطة فاكروشين ؟

— نعم لقد بدأت اذكر الآن .

نطق راسكو لنيكوف بتلك العبارة بصورة يقطر ألماً . بينما كان رازوميخين يرقبه بشيء من القلق . وفي تلك اللحظة فتح الباب ودخل رجل طويل القامة عريض المنكبين كان يبدو انه يعرف راسكو لنيكوف معرفة سطحية فهتف رازوميخين بالقادم قائلا بلهجة مرحة :

— زوسيموف ها أنت ذا أخيراً .

الفَصْلُ الرابعُ

كان « زوسيموف » طويل القامة ضخم الجثة ذا وجه ممتلىء شاحب نظيف جداً وشعر أشقر مائل إلى البياض منتصب على رأسه يضع على عينيه نظارات انيقة ويلمع في أصبعه خاتم ذهبي ، في السابعة والعشرين من عمره يرتدي معطفاً من الجوخ الخفيف أودع فيه الخياط عنايته وفنه ، وسراويل صيفية فاتحة اللون حتى ليحكم الانسان للوهلة الأولى أنه شديد العناية بهندامه ومظهره . كان قميصه ناصع البياض وصدارته مزينة بسلسلة ذهبية تهبط حتى اسفل بطنه يبدو متثاقل الخطى ثقيل الظل رغم المجهود الذي يبديه ليظهر بمظهر المرح وكانت العناية التي يحيط بها نفسه واضحة في كل خطوة وكل لحظة حتى أن كل معارفه كانوا يشعرون بأنه انسان ثقيل ولكنهم يتفقون مع ذلك بانه خبير في مهنته .

هتف رازوميخين :

ـ ياعزيزي ! لقد ذهبت مرتين الى منزلك فلم أجدك ... ها ان المريض قد استعاد حواسه .

فسأل زوسيموف مغمغماً :

ـ أرى ذلك أرى ذلك .. والآن كيف حالك ياراسكولنيكوف ؟

ومضى دون أن ينتظر جواباً فجلس على طرف « السرير » باسترخاء وإهمال .

قال رازوميخين :

ـــ انه لا يزال ينظر بمنظار أسود الى الأشياء ولقد اضطررنا منذ لحظة على أن نبدل له ثيابه بالقوة فكاد أن يبكي .

ـــ كان يجب ارجاء ذلك الى ما بعد طالما أنه لم يرق له ... أرني نبضك أما زال رأسك يؤلمك ؟ هم ؟...

أجاب راسكولنيكوف بلهجة يشوبها الغضب وقد نهض فجأة ولمعت عيناه ببريق خاطف :

ـــ أنا في حالة جيدة ... جيدة تماماً . وتهاوى من جديد على الوسادة مستديراً نحو الجدار .

كان « زوسيموف » يرقبه باهتمام فقال :

ـــ حسناً جداً . انه يتقدم ... هل تناول طعاماً ؟

فراح رازوميخين يعدد له أنواع الطعام التي تناوله المريض ويسأله عن الألوان التي يجب تقديمها اليه في المستقبل . فقال :

ـــ فليطعم مايشاء ... حساء .. شاي باستثناء البصل والقثاء ولحم البقر... واقطعوا عنه الدواء والعلاج وسأعوده لأراه .

قال رازوميخين بلهجة الواثق :

ـــ سوف أجعله يتنزه مساء غد وسنمضي الى حديقة « يوسوبوف » ثم إلى «الباليه دو كريستال » .

ـــ حسناً لن أعوده غداً ولن تضيره جولة صغيرة وسنرى بعد ذلك ....

ـــ مما يؤسف له أنني اليوم أقيم حفلة على بعد خطوتين من هنا ... كم وددت لو استطاع أن يشاركني فيها حتى ولو كان مستلقياً على سريره ! هل تأتي أنت يازوسيموف ؟ لا تنس انك وعدتني !

ـــ طبعاً لكنني ساكون متأخراً قليلاً . ماذا ستقدم ؟

ـــ لا شيء اكثر من شاي وعرق وبعض السمك ثم الحلوى ايضاً . هـذا كل ما هناك لأن الحفل مقتصر على الاصدقاء .

ـــ ومن هم ضيوفك ؟

ـــ اشخاص من الحي . كلهم حـــديثو المعرفة بي باستثناء عم عجوز لي أرتبطت به مؤخراً بأسباب معينة لأنه جاء الى «بيترسبورغ» امس فقط . اننا لا نلتقي اكثر من مرة كل خمس سنوات .

ـــ وماذا يعمل عمك ؟

ـــ لقد كاد ان يتلف حياته كلها في احدى المقاطعات كرئيس مركزالبريد وهو الآن يتقاضى راتباً تقاعديا وله من العمر خمسة وستون عاما وهو معجب بي وسيكون في الحفله قاضي التحقيق المختص بالحي «بورفير سيميونوفيتش» وهو رجل قانوني هل تعرفه ؟

ـــ اهو من اقربائك ايضا ؟

ـــ قريب بعيد جداً . لكن لمَ امتعضت قليلا ؟ الأنك اختلفت معـه ذات يوم تكاد الآن ان تلتهمني بنظرتك الغاضبة ؟

ـــ انا لا اعلق اي اهتمام عليه .

ـــ ذلك اجدى اذن . وسيكون بين الموجودين طلاب واستاذ وموظف وموسيقي ثم الضابط «زاميوتوف»

ـــ قل لي اذا امرت ما هي العلاقة التي تربطك او تربطه (واشار باصبعه نحو راسكولنيكوف) بواحد مثل «زاميوتوف» ؟

ـــ اوه ! يالك من رجل منمص تهتم بالاسئلة المتعلقة بالمبدأ ! انك تعتمد في حياتك على مثل هذه النظريات وكأنك جبلت عليها . وبذلك لا يجرؤ المرء على ان يستغرق في السرور معك ! اما بالنسبة الي فانني ابحث قبل كل شيء عن

الرجل الطيب . تلك هي نظريتي . وزاميوتوف رجل طيب جداً .

ــ نعم ! ويأكل من المعالف ...

غضب رازوميخين وصاح فجأة .

ــ ليكن ! لا يهمني ذلك . هل امتدح نفسه أمامك بمثل هــــذا القول ؟ إن ما يهمني فيه هو أنه رجل طيب . ولو اضطر الانسان للتدقيق في كل النـاس لأخفق ــ ولأعجبه ــ في العثور على شخص ممتاز واحـد . أنا أراهن أن المدقق المتعمق لا يدفع ثمناً لشخصي بصلة واحدة ولو أضيف إليّ شخصك !

ــ هذا قليل ! أنا أدفع بصلتين ...

ــ أما أنا فواحدة فقط . قد يكون زاميوتوف خبيثاً أو سفيهاً ، غـير أنني أستطيع دائماً إيجاد الفرصة التي تمكنني من جذب شعره . إذ ينبغي أن يعمـــد المرء مع مثله الى المداراة واللطف وليس الى العنف ، لأنه يصعب إصلاح المرء بالشدة والتنكر له ، خصوصاً إذا كان خبيثاً . ينبغي أن يكون الانسان شديد الدهاء مع الخبيثين . وأنت أيها التقدمي الأحمق ، إنك لا تفهم شيئاً من هذا . أنت تحترم الطبيعة البشرية فقط ، بل وتنتقد نفسك أيضاً . مع ذلك لا بأس من أن أخبرك بأن بيننا نوعاً من العمل .

ــ يسرني أن أعرف ذلك العمل ...

ــ إنها لا زالت قضية الدهان ... أقصد دهان البيوت . لكننا سنجد طريقة لانقاذه من ورطته وأعتقد أن لا خطر عليه الآن فقد وضحت القضية وكل ما نعمله الآن إن هو الا ضرب عصفورين بحجر واحد .

ــ أي دهان بيوت تعني ؟

ــ كيف ؟ ألم أخبرك بالأمر ؟ كلا ؟ حسناً . أعتقد أنني سردت لك البداية

فقط !.. أنت تعرف حكاية العجوز المرابية أرملة الموظف ... حسناً . ان أحد الدهانين متهم بالقضية الآن .

— آه .. نعم . نعم . لقد سمعت شيئاً عن تلك الجريمة . وهي قضية استلفتت انتباهي الى حد ما وقد قرأت ما نشرته الصحف ... استمر ...

كانت ناستاسيا واقفة قرب الباب تتابع الحديث باهتمام فقالت موجهة حديثها الى راسكو لنيكوف :

— لقد قتلوا إليزابيت أيضاً . ..

فغمغم راسكو لنيكوف بصوت مختنق :

— اليزابيت ؟

— نعم اليزابيت . بائعة الثياب القديمة . أنت تعرفها جيداً . لقد كانت تتردد علينا وقد رتقت ذات مرة قميصك .

أدار راسكو لنيكوف وجهه نحو الجدار وراح يتأمل زهرة بيضاء منقوشة على سجادة الجدار الصفراء القذرة الممزقة ويعد بتلاتها والخطوط التي تحيط بها .

شعر أن أعضاءه قد تصلبت وكأنها لم تعد قطعة من جسمه فلم يحاول القيام بأية حركة بينما ظلت انظاره معلقة بالزهرة البيضاء . ونظر زوسيموف بامتعاض واضح الى ناستاسيا وقد أزعجه قولها وقال موجهاً حديثه الى رازوميخين :

— حسناً ، وماذا وقع لذلك الدهان ؟..

أدركت ناستاسيا أنه يطلب اليها السكوت فزفرت وصمتت بينما أجاب رازوميخين بلهجة المتفاخر :

— إن ذلك المسكين قد أتهم بالجريمة .

ـ هل أقيمت ضده الدلائل ؟ ما هي البراهين ؟

ـ مجرد شبهات وظنون . غير أن ما أخذ عليه لا يمكن أن يكون مهماً . ما كان هذا ينبغي شرحه . إنها ظنون كتلك التي أحاطت بالآخرين : كوخ وبيستريا كوف ، اللذين أوقفا في حينه . أما كيف وقع ذلك فان الانسان ليخجل من ذكره ... ومن المنتظر أن يزورني « بيستريا كوف » اليوم ! وعلى فكرة يا روديا أنت تعرف هذه القضية . فقد وقعت قبل مرضك أعني قبل أن يغمى عليك في مركز البوليس حينما كانوا يتحدثون عنها هناك !

نظر زوسيموف الى راسكولنيكوف بفضول لكن هذا لم يطرف .

ـ أتدري يا رازوميخين بأنك تبدو مولعاً في التدخل في كل الأمور ؟..

ـ المهم أن أستطيع تخليص الدهان المسكين من ورطته .

قال ذلك وهو يهوي بيده على المائدة التي كانت بجانبه وقد استبد به الحماس وصمت قليلاً ثم أردف :

ـ إنه ليس عاراً أن يخطىء المرء ... بل ان الخطأ مفيد لأنه يوصل الانسان الى الحقيقة ! لذلك فأنا لا أنقم على البوليس خطأه بل إن ما يزعجني في الموضوع هو استمساكهم بالخطأ . وأنا أميل الى بورفير رغم ذلك . والآن لننظر في الأسباب التي جعلت رجال « البوليس » يسلكون طريقاً خاطئاً : إنهم يعتمدون على تناقض يدعون وقوعه في أقوال كوخ وبيستريا كوف . فها قررا أنهما شاهدا الباب مغلقاً أول الامر ثم لما عادا ومعهما الحارس وجداه مفتوحاً . لذلك فقد وجب أن يتهما بالجريمة فتأمل هذا المنطق !

ـ هيا ... هيا . لا تندفع ! لم يكن لديهم غير ما عملوا . وعلى فكرة كوخ أعتقد أنني أعرف عنه شيئاً ... إنه كان يشتري من العجوز « الرهائن » التي يعجز أصحابها عن تسديد ما استلفوه عليها ،

— نعم إنه لص ! وهو يشتري أيضاً السندات المالية ! إنه فارس أعمال ! ليحمله الشيطان ! أنا لا يزعجني هذا ألا تفهم ! إن الوتيرة التي يسيرون عليها هي كل ما يثير أعصابي ... « الروتين » مع ما فيه من سخف وتضليل ... انني اعتقد أن في مقدورهم في هذة القضية على الاقل أن يتخلوا قليلاً عن أساليبهم البالية وأن يتبعوا نهجاً جديداً خاصاً . ان الملابسات « البسيكولوجية » في هذه القضية تتطلب نهجاً خاصاً غير عادي . انهم يدعون أن لديهم « حقائق » أو ما يسمونه بالوقائع الثابتة . لكن تلك الوقائع « الثابتة » ليست كل شئ في سياق التحقيق . بل ان نصف الحل يتوقف على الطريقة التي يفهمون بها تلك الوقائع !

— يبدو أنك تفهمها خيراً منهم !

— طبعاً ... طبعاً ... اسمع هذه المعجزة التي يتذرعون بها : في صبيحةاليوم التالي للجريمة ، كانوا يستجوبون كوخ ويستريا كوف رغم أنها أوردا أدلة لا تقبل الجدل ، تدعم أقوالها وتبين تصرفاتها في ذلك اليوم المشؤوم . فوقعحادث غير منتظر . إذ تقدم شخص يدعى « دوخكين » — وهو فلاح يدير حانة تقع مقابل البناء الذي وقعت فيه الجريمة — وقدم للرئيس علبة حلي تحوي على قرط للاذن وأدلى بالاقوال التالية :

قال : « انه أول أمس مساء ، بعد الساعة الثانية ، — لاحظ التاريخ والوقت — جاءه العامل الدهان نيكولا ، وهو من رواد حانته ، يحمل علبة صغيرة فيها قرط من الذهب باحجار لامعة صغيرة ورجاه أن يسلفه روبلين عليها . ولما سأله من أين له هذه الحلية ؟ أجابه بأنه عثر عليها على الرصيف ! فاقتنع بجوابه وأعطاه روبلاً واحداً لأنه قدر أنه اذا رفض تسليفه أي مبلغ فانه سيمضي الى سواه . وعلى ذلك فان من الافضل والحالة هذه أن يقرضه بعض المال خصوصاً

وانه سينفقه في حانته . وهكذا احتفظ بالحلية الذهبة وأعطاه الروبل وهوعازم على ابلاغ رجال الشرطة اذا اتضح انها كانت مسروقة ! » .

لا شك أنت ترى أن تلك الحكاية تجعلك تنام وأنت واقف على قـــدميك ! لأن « دوخكين » كاذب في روايته وأنا أعرفه فهو اذا كان قـد « لطش » من نيكولا حلية تساوي قيمتها ثلاثين روبلاً لقاء روبل واحـد فليس ذلك ليخبر رجال الشرطة فيما بعـد كما صرح ! ولم تقف قصته عند هـذا الحد بل انـــه تابع يقول :

« ان هذا الفلاح « نيكولا ديمـاتتيبيكس » معروف من قبلي ... فهو من مقاطعة « ريازان » التابعة لناحية « زارائيسك » وأنا شخصياً من هنـاك ولذلك أعرفه منذ أن كان طفلاً . فهو يحب الشراب رغم أنه ليس مدمناً . وأنا اعرف أنه يشتغل مع زميله « دميتري » الذي هو كذلك من بلدته . وقـد شهدته يجرع كأسين متتالين يدفع ثمنها من الروبل الذي اقترضه مني ثم يطبق على ما بقي له منه ويمضي . ولم يكن « دميتري » معه في تلك اللحظة . وفي اليوم التالي سمعنا أن آليونا ايفانوفنا وأختها اليزابيت قد قتلتا بضربات فـأس . وكنت أعرف العجوز وأختها فغمرني شك مفاجيء حول مصدر الحلية التي أتاني بها «نيكولا» وذهبت لأرى حيث يشتغل مع « دميتري » في ذلك البناء ورحت أسأل بدهاء وحذر لأعرف شيئاً عن مصدر الحلية وكان أول سؤال وجهته هو :

— هل نيكولا هنا ؟

فأجابني دميتري أن نيكولا يحتفل اليوم بالشراب لأنـه عاد مساء أمس عنـد الشفق ثملاً مترنحاً ولم يلبث معي أكثر من عشر دقائق في الدار ثم خرج من جديد ولم أره بعد ذلك فصممت على انهاء العمل وحدي .

ولما كان المسكن الذي يدهنون جدرانه في الطـابق الاول وكان يفضي الى

السلم الذي يقود الى حيث تقطن الضحيتان فقد أحتفظت بهـذه الملاحظة لنفسى عازماً على الافادة منها في ربط الحوادث واستقصيت كل المعلومات من الجريمـــة وعدت الى داري فريسة للشكوك وفي صبـاح اليوم التالي شاهـدت « نيكولا » داخلاً حانتي وقد خف ثمله وبدا أنه لم يأكل بعد شيئاً وقدرت أنـه يستطيع فهم الحديث الذي سأوجهه اليه فلما جلس على مقعد وحيداً ـــ ولم يكن في الحانة الا رجل آخر غريب مدمن كان نائماً في تلك اللحظة على مقعده باستثناء الفـلاحين اللذين يقومان بالخدمة ـــ اقتربت منه ودار بيننا الحديث التالي. قلت :

ـــ هل رأيت دميتري ؟

ـــ كلا لم أره !

ـــ ولم تذهب الى حيث يشتغل ؟

ـــ لم أذهب منذ أول أمس .

ـــ ولكن أين نمت ليلتك هذه ؟

ـــ في حي « الرمال » عند آل كولومنا .

ـــ ومن أين جئت بذلك القرط أمس ؟

فأجاب دون أن ينظر إلي :

ـــ عثرت عليه على الرصيف .

ـــ هل سمعت أن في ذلك المساء بالذات وفي تلك الساعة ايضا وقع كذا وكذا على السلم الذي تشتغل في مسكن يطل عليه ؟

ـــ كلا ! لا أعرف شيئا .

فلما قصصت عليه ما وقع كان يصغي الي وهو شاحب اللون متسع الحدقتين ، وغدا أقرب الى لون الحكك ورأيته يأخذ قبعته ويحـــاول النهوض فعملت على استبقائه وقلت :

ـــ انتظر يا نيكولا . ألا تشرب قدحاً ؟ ثم غمزت الى احدالفلاحين مشيراً الى الباب ليقف عنده وتركت بدوري الخوان الذي كنت اقف وراءه .وفجـــأة نهض نيكولا دون أن نستطيع اللحاق به وركض نحو البـاب وخرج مندفعاً ثم اختفى عنـد منعطف الطريق !.. فازدادت شكوكي وتأكد لي أنـه هو القاتل ! » .

فقال زوسّيموف بصوت خافت :

ـــ ذلك واضح .

ـــ انتظر واسمع النهاية : غني عن الذكر أن رجال الشرطة راحوا على قـدم وساق يبحثون عن نيكولا وانهم أوقفوا دوخكين وفتشوا منزله وحانته وكذلك فتشوا مسكن دميتري فجعلوا عاليه سافله ولم ينج منهم آل كولومنـا واستطاعوا أمس الأول القبض على نيكولا وسوقه الى السجن . وجدوه على ما يبـــدو في « خان » بالقرب من مكان نسيته ويبدو أنه لما بلغ ذلك « الخان » نزع صليبه الفضي من عنقه وطلب استبداله بقـــدح من العرق شربه . ولم تمض على وجوده بضع دقائق حتى شاهـــدت امرأة ـ كانت تقصد الاصطبل لتحلب البقرات ـ نطاق نيكولا معقوداً الى عمود في السقف على شكل عقده سيالة ورأتـه يصعد على مقعد محطم ويحاول إدخال عنقه خلال العقدة فاستطاعت أن تطلق صيحات مذعورة هرع على أثرها عدد من الناس ولما قيل له :

ـــ إذاً هذا ما كنت تريد عمله ؟

أجاب :

ـ خذوني الى دائرة البوليس لسوف أعترف بكل شيء .

وهكذا اقتادوه بموكب يليق به الى دائرة البوليس التي طلب أن يأخـذوه

اليها وهي التي في هذا الحي . وهناك راحوا يستجوبونه فعرفوا اسمه الكامل وان له من العمر اثنين وعشرين عاماً فسألوه .

ـ هل شهدت أحداً على السلم خلال الساعة كذا وكـذا بينما كنت تشتغل مع دميتري .

فأجاب :

ـ يجوز . لقد مر عدد من الناس . لكننا لم ننتبه اليهم .

س : هل سمعتما حركة ما أو ضجيجا ؟

ج : لم نسمع شيئا يلفت النظر .

س : لكن انت يا نيكولا هل قتلت وسلبت في ذلك اليوم وفي ساعـة كذا تلك العجوز واختها ؟

ج : لا علم لي بشيء من ذلك بل وما كنت اظن ان هـذا سيقع وقـد سمعت القصة من آتاناس يا فليتش للمرة الأولى . وكان ذلك في الحانة .

س : ومن اين جئت بذلك القرط الذهبي ؟

ج : لقد وجدته ملقى على الرصيف .

س : لمَ لم تذهب في اليوم التالي الى عملك كالمعتاد ؟

ج : لأنني كنت اسكر .

س : واين كنت تسكر ؟

ج : في امكنة كذا وكذا .

س : ولمَ فررت من لدن دوخكين ؟

ج : لانني كنت خائفاً .

س : وممَ كنت خائفاً ؟

ج : كنت خائفاً من المحاكمة .

س : ولمَ تخاف منها طالما أنك لست مجرما ؟ ... »

وهكـذا يا زوسيموف سواء صدقت أم لم تصدق ، ألقي عليه هـذا السؤال السطحي وبهذه العبارات بالذات . فما رأيك ؟

ـ ليس سخيفا إذا كانت القرائن موجودة واضحة .

ـ انا لا أتحدث الآن عن الأدلة بل عن السؤال . عن الطريقة التي يفهم بها هؤلاء الناس واجباتهم ! الى الشيطان كل هذا ! لقد اعتصروه بالأسئلةعصراً حتى اعترف وقال : «كلا لم أجد الحلية على الرصيف بل وجدت العلبة في المسكن الذي نشتغل فيه أنا ودميتري » ولما سألوه : وكيف حدث ذلك اجاب :

ــ كنا دميتري وأنا قد اشتغلنا طوال اليوم وكانت الساعة الثامنة حين هممنا بالانصراف وإذا بدميتري يأخذ فرشاة مغموسة بالدهان فيلطخ وجهي به على سبيل المزاح ويفر . فتبعته غاضباً وأنا أصرخ كالوحش الجريح ولم أكد أبلغ الباحة حتى اصطدمت بالبواب الذي كان يرافقه بعض السادة ولا أذكر عددهم. وهنا راح البواب يسمعني حماقات حتى جاء البواب الثاني هارعاً وخرجت زوجة الأول من كوخها وراحت تدعم زوجهـا وتساعده في سبابه وكذلك كان هناك رجل وبرفقته سيدة كانا ينتظران في تلك اللحظـة على البـــاب الخارجي فراحا يوبخاني أيضاً لا لشيء إلا لأننا دميتري وأنا أحدثنا ضجيجاً وسببنا في تأخيرهما عن متابعه السير. والحقيقة أنني كنت في تلك اللحظة قابضاً على فروة رأس دميتري طارحاً إياه أرضاً منهالاً عليه بالضرب وكان دميتري بالمثل قابضاً على شعري يضرب وجهي ويركلني بساقيه دون أن نكون حانقين بل كانت القضية مجرد مزاح فقط . وتخلص مني دميـتري وانطلق إلى الشارع فهرعت وراءه لكنني لم أبلغه فعدت إلى المسكن الذي كنا نشتغل فيه لآخـــذ أدواتي التي تركتها هناك عند لحاقي بدميتري ولأرتب العدة .وعندئذ شاهدت في المشى قرب الباب بمحاذاة الجـدار علبة صغـيرة تعثرت بها قدمي فلمـا

انحنيت عليهـا متفحصاً رأيت شيئاً ملفوفاً في ورقـــة بعناية وإذا هو قرط ذهبي »

صاح راسكولنيكوف فجأة وهو يلقي نظرة وجـلة شاردة مضطربة الى رازوميخين ويتناهض على يديه بمجهود عنيف :

ـــ وراء الباب ؟ كانت وراء الباب ؟ وراء الباب ؟

فأجاب رازوميخين وهو ينهض عن مقعده بدوره :

ـــ نعم ، وماذا في ذلك ؟ مابك ؟ ماذا أصابك ؟

فأجاب راسكولنيكوف بصوت خافت لم يبلغ مسامعه وهو يتهاوى على الوسادة مستديراً الى الجدار :

ـــ لا شيء

ران السكوت عليهم جميعاً لحظة طويلة حتى قطعه رازوميخين محدثاً زوسيموف بعد ان القى عليه نظرة استفهام :

ـــ لقد عاد يهذي ولا شك . انه يحلم .

فهز زوسيموف رأسه نفياً وقال :

ـــ تابع حديثك . لا تلق بالاً اليه ماذا بعد ؟

ـــ ماذا بعد ؟ إن الأمر واضح ، لم يكد نيكولا يرى الحلية حتى ترك كل شيء : العمل وذميتري ، وهرع إلى دوخكين يقدم له الحلية لقاء روبل يستلفه كما اسلفت . لكنه اكتفى بالادعاء بأنه لقيها على الرصيف وراح بعدئذ يحتفل بحظه « السعيد » . أما فيما يتعلق بالجريمة فهو لا زال متمسكاً بأقواله من أنه لم يسمع عنها مطلقاً الا في اليوم الثالث لوقوعها ، ولما اعيد استجوابه عن سبب اختفائه طيلة ذلك الوقت كان يجيب : ـــ كنت خائفاً .

وسئل عن سبب عزمه على الانتحار فقال :

ـــ كنت أرددفي نفسي شيئاً

ـــ ما هو ذلك الشيء ؟

ـــ هو أنني سأحاكم ...، وهكذا تعود الأسئلة التي لا تنتهي . والآن ما هي استنتاجاتك مما سمعت ؟

ـــ وماذا تريدني أن أستنتج ؟ هناك قرائن لا يمكن التغاضيعنها مها بلغت تفاهتها : هناك أمر واقع ! لا أعتقد أنك تريد أن يطلق سراح ذلك الدهان .

ـــ كلا ! لكنهم ألبسوه تلك الجريمة مقتنعين بصدق فراستهم .

ـــ إنك تنفعل وتثور . ولكن ذلك القرط ؟ انك ولا شك توافق معي على أن ذلك القرط الذي وقع في يده في ذلك اليوم بالذات وتلك الساعة بالذات والذي هو واحد من مجموعة من الحلي اختفت كلها من صندوق العجوز ، إنك توافقني على أن وجود القرط مع نيكولا أمر مثير وأن التحقيق في هذا الموضوع عادي جداً بل واجب .

هتف رازوميخين حانقاً :

ـــ كيف بلغ إليه القرط ؟ غريب الا ترى في هذه الاقوال ـــ وأنت الطبيب الذي تهتم قبل كل شيء بالطبيعة الانسانية ولك من عملك ما يتيح لك ذلك بسهولة ـــ صورة عن طبيعة نيكولا ؟ ألا تلمس بوضوح أن كل ما صرح به خلال استجوابه كان الحقيقة الناصعة المطلقة ؟ ثق أن القرط قد بلغ إليه بالطريقة التي أوردها : تعثرت قدمه بالعلبه فأخذها .

ـــ الحقيقة الناصعة المطلقة ؟ مع ذلك ألم يعترف بأنه كذب في المرة الأولى ؟

ـــ اصغ إلي بانتباه : إن البواب و « كوخ » و « بيستريا كوف » والبواب

الآخر وزوجة البواب الأول والبائعة التي كانت في الكوخ والمستشار القضائي « كريوكوف » الذي كان يترجل في تلك اللحظة من عربته ويجتاز عتبة المدخل مع سيدة ، كل هؤلاء وأعني ثمانية أو عشرة شهود يصرحون بصوت واحد أن « نيكولا » كان ملقياً « دميتري» الى الأرض مرتمياً عليه يعاركه ويضربه بينما كان الآخر يجذب شعره ويركله بشدة ، وانهما كانا مستلقين أمام الباب يعرقلان المرور وانهما استهدفا لسباب واستنكار من كل الجهات بينما ظلا « كطفلين » — كما قال الشهود تماماً — يتعاركان ويتضاربان ويتضاحكان ويتلاحقان كالأطفال الذين يلعبون في الشارع . فهل سمعت هذا ؟ والآن انتبه إلى هذه الملاحظة : كل هذا بينما وفي الطبقة الرابعة جثتان لا زالتا دافئتين لامرأتين يتهم في قتلهما وسلبهما نيكولا بالذات ، فلو أنه ارتكب أمراً كهذا ألا يقوم أمامنا سؤال بسيط وهو : كيف كانت تلك الضحكات والصيحات وذلك العبث الصبياني أمام الباب الرئيسي لذلك البناء تصدر عنه ؟ وهل تتفق مع الفأس والدم والحيله والوحشية والمكر البادية على الجريمة نفسها ؟ كيف يقتل امرؤ منذ خمس دقائق على الأكثر ثم يمضي تاركاً وراءه جثتين ساخنتين مهشمتي الرأس وهو يعلم أن الناس سوف يكتشفون الأمر بين لحظة وأخرى وبدلاً من التواري والاختفاء يلعب مع شريكه في الجريمة — ولا بد أن يكون دميتري شريكه على أساس ذلك الافتراض — كالطفل الذي لا يحمل وزراً على ضميره ويجتذب بذلك أنظار عشرة من الشهود ليتحققوا من شخصيته . ويجمعوا على رؤيته .

— لا شك أن ذلك غريب إنه غير معقول بالطبع . لكن ...

— لا يوجد « لكن » أيها العزيز ... فاذا كان القرط الذهبي الذي وجد في تلك الساعة وفي ذلك اليوم في حوزة نيكولا يشكل قرينة جدية استناداً الى

أقوال المتهم التي اعتبرت «موضع النقد والاعتراض» فانه ينبغي الأخذ بعين الاعتبار الوقائع المؤيدة والتي تقول « انه من العبث نقض الأقوال » مع ذلك هل ينتظر من القضاء عندنا ، وهو على ما نعهد به من اتجاه ، هل يمكن لهذا القضاء أن يعتبر هذا الدليل الذي يقوم على استحالة نفسانية «بسيكولوجية» وعلى «الاستعداد الفكري»، هل يمكن أن يعتبره أمراً مسلماً به تنهار أمامه الوقائع المادية مهما كان نوعها ؟ كلا ! لا أعتقد أن رجلاً سيشنق لمجرد عثورهم معه على حلية تخص امرأة قتيلاً . خصوصاً وانه ما كان ليعرض تلك الحلية لو أنه كان القاعل وهنا القضية الرئيسية في الموضوع وهذا هو سبب حماسي فهل تفهم ؟

— نعم .. أرى أنك متحمس . انتظر لحظة ، لقد سها عني سؤال أريد طرحه عليك : ماذا يثبت أن ذلك القرط جاء من صندوق العجوز ؟

بان الانزعاج على وجه رازوميخين وقال بشيء من الامتعاض :

— لقد برهن على ذلك. لأن « كوخ » الذي تعرف على القرط دل على صاحبه الذي استلف من العجوز وأكد هذا صدق قوله.

— ليكن . بقي سؤال : ألم يشاهد احد نيكولا في الوقت الذي كان فيه كوخ وبيستريا كوف يصعدان السلم ؟ وهل لا يمكن التدليل على ذلك بطريقة ما ؟

فأجاب رازوميخين بأسف :

— المؤسف ان احداً لم يره حتى ولا كوخ وبيستريا كوف . فهما لم يلاحظا العمال عندما صعدا الى مسكن العجوز رغم ان شهادتها لم تعد الآن ذات موضوع . لقد قالا : « شهدنا باب مسكن مفتوحاً ولا شك ان اعمالاً وترميمات كانت تجري

فيه ! فلم نعر ذلك التفاتاً ولسنا متأكدين تماماً ما إذا كان العمال موجودين فيه في تلك اللحظة ام لا ».

— هم ! وعلى ذلك فان كل ما يمكن الاستشهاد به لاظهار براءته هو ذلك العراك وتلك الضحكات التي كان يرددها وهو يصارع دميتري . ليكن . انه دليل قوي ولكن اسمح لي من جديد ان اطرح عليك سؤالاً :

— كيف تفسر الأمر بنفسك ؟ اقصد كيف تفسر وجود القرط في المسكن الخالى اذا كان ما قاله نيكولا بصدد عثوره عليه صحيحاً ؟

— كيف أفسر ؟ وما الذي يدعو للتفسير هنا ؟ ان الأمر واضح . أو على الاقل إن الطريق التي ينبغي على التحقيق أن يسير عليها واضحة تماماً . بل ويوضحها القرط نفسه : لقد ترك القاتل الحقيقي ذلك القرط يسقط منه . فقد كان في مسكن القتيل عندما قرع « كوخ وبيستريا كوف » الباب وكان قد أوصده من الداخل . وارتكب « كوخ » حماقة بمغادرته مكانه مما أتاح للقاتل فرصة التسلل من المسكن والهبوط على السلم خصوصاً وانه لم يكن أمامه طريق آخر للفرار . وعلى السلم اضطر أن يحتجب عن انظار كوخ وبيستريا كوف والبواب بالاختفاء في المسكن الخالي الذي كان دميتري ونيكولا قد تركاه منذ حين . ولا شك أنه توارى وراء الباب عندما كان البواب والزائرون يصعدون إلى الطبقة الرابعة وعندئذ نزل بهدوء في اللحظة التي كان دميتري ونيكولا يتتأبعان في الشارع والباب العمومي خالياً بعيداً عن الرقابة . ولا شك أن ذلك القرط قد سقط منه حينما كان متوارياً وراء الباب دون أن ينتبه له لأنه كان منصرفاً إلى نواحي أخرى . تلك هي القضية كلها .

— لعمري ياعزيزي إنه تصوير بارع ومناقشة وجيهة .

ـ ولكن لمَ إذاً ؟ لمَ إذاً ؟

ـ لأن ذلك كله مرتب ببراعة ودهاء حتى ليظن أنه قصة مسرحية موضوعة .

كان رازوميخين على وشك الرد على تلك الملاحظة حينما فتح الباب ودخل انسان جديد لم يكن يعرفه أحد من الثلاثة الموجودين في الغرفة .

الفَصلُ الخَامِسُ

كان الداخل رجلاً متصنعاً في حركاته ، متعجرفاً لا يمكن تحديد سنه على الضبط ذا سحنـــة متحفظة صارمة ... وقف على العتبة وسرح طرفه فيما حوله وبدت على وجهه امارات الدهشة العميقة المهينة وتمتم :

في أية بؤرة أري نفسي ؟

كان يتلفظ بتلك الـكلمات بنوع من الحذر المقترن بالخوف والغضب وراح يتأمل « الجحر » المنخفض الضيق الذي يأوي اليه راسكولنيكوف، ثم استدار دون أن تتبدل نظرة القلق والترفع المرتسمة في عينه ، ونظر الى راسكولنيكوف وهو مسجى دون حراك على ذلك « الديوان » الحقير وهو شبه عار من الثياب، أشعث الشعر ، قذر الوجه طويل اللحية ... وانتقل بعدئذ الى معاينة وجـــه « رازوميخين » المهمّل الشعر واللحية الذي راح يحملق فيه بدوره بفضول مثير دون أن يتحرك من مكانه ، وران السكون دقيقة أعقبه تبدل في المشهد : ذلك أن الغريب شعر من « حرارة اللقاء الذي استقبـل به في ذلك « الجحر » أنه لن يتقدم قيد أنملة في الغاية التي ينشدها اذا استمر على أسلوبه المترفع الشامخ المبـالغ فيه ، لذلك فقد عدّل خطته بما يتناسب و « المقام » وقال بلهجة مهـــذبة خاليـة من التصلب ، موجهاً حديثـه الى زوسيموف وهو يتمهل في نطق الكلمات .

ــ روديون رامونوفيتس راسكولنيكوف ، سيدٌ كان طالباً أو على الاصح طالباً سابقاً ؟

وتحرك زوسيموف يبطء وكاد أن يجيب لو لا أن تدخل رازوميخين فجأة — وهو الذي لم يوجه الغريب اليه الحديث — وقال :

— خذ، انه مستلق على « الديوان » ولكن أنت ماذا « ينبغي لك »؟

وإزاء عبارة « ماذا ينبغي لك » التي تدل على رفع الكلفة بين المتكلمين ، كاد السيد ذي المظهر المتكلف أن يفقد وقاره ويستدير نحو المتحدث زري الهيئة لولا ان تمالك نفسه آخر الامر فاستمر يوجه الحديث الى زوسيموف الذي قال وهو يشير إلى المريض :

— هذا راسكو لنيكوف !

ثم تثاءب فاغراً فاه حتى ظهرت آخر أضراسه وبحث في جيب « صدارته » عن ساعته المحدودبة فأخرجها وفتح غلافها ثم أعادها الى جيبه بعد أن نظر اليها وعاد يتثاءب بأشد مما كان يفعل من قبل .

أما راسكو لنيكوف فكان خلال هذا الوقت لا يزال مستلقياً في مكانه دون أن ينطق بحرف واحد . كانت نظراته معلقة بوجه الغريب رغم خلوها من أي معنى ! كان قد تخلى منذ حين عن النظر الى تلك الزهرة البيضاء على السجادة المهلهلة البالية فبدا وجهه شديد الشحوب تفضح إمارات وجهه عذاباً داخلياً أليماً حتى ليخيل للناظر اليه أنه اخرج تواً من غرفة العمليات حيث أجريت له عملية جراحية استنفذت الجانب الاكبر من دمه . غير أن الوافد الجديد بدأ تدريجياً يثير انتباهه ثم دهشته وأخيراً حذره بل خوفه . فلما نطق « زوسيموف » بعبارة: هذا راسكو لنيكوف ، نهض فجأة كمن يجذبه « رفاص » وجلس على الديوان وقال بصوت خافت متقطع عامر بالتحدي :

— نعم أنا راسكو لنيكوف ! ماذا تريد ؟

ـ أنا بيير بيتروفيتش لوجين وأميل الى الاعتقاد بأن اسمي ليس مجهولاً منك تماماً !

غير أن راسكو لنيكوف الذي كان ينتظر أمراً مختلفاً كل الاختلاف عما وقع ، نظر اليه ـ دون أن يجيب ـ نظرة ملؤها التبلد والشرود وكأنه لم يسمع بهذا الاسم إلا للمرة الأولى ... فأعقب بيير بيتروفيتش بشيء من القلق :

ـ كيف ؟ هل يعقل انك لم تتلق حتى الآن أي نبأ ؟ !

فكان جواب راسكو لنيكوف ... كل جوابه ، أن عاد الى الاستلقاء بتمهل جاعلاً يديه أسفل رأسه ومحدقاً في السقف ! فبدا على وجه « لوجين » شيء من الانزعاج والحزن بينما كان زوسيموف ورازوميخين يتأملانه بفضول متزايد حتى اشتدت حيرته وبدت واضحة ! غمغم قائلاً :

ـ كنت أعتقد وأتوقع أن تكون الرسالة التي وضعت في البريد منذ عشرة أيام بل خمسة عشر يوماً قد . . .

فقاطعه رازوميخين لجأة بقوله :

ـ اسمع ! لمَ تبقى واقفاً هكذا بالقرب من الباب ؟ اذا كان لديك شيئاً تفسره فاجلس ! . . . وأنت يا ناستاسيا إنك تقفين هكذا على العتبة الضيقة ! تنحي يا فتاة ودعي السيد يدخل ! تقدم ... هذا مقعد لك « فتسلل » لتصل اليه !

وأزاح مقعداً فأبعده عن المائدة تاركاً فراغا يسيراً بين المائدة وركبتيه وانتظر وهو في تلك الوضعية المربكة أن « يتسلل » الزائر في ذلك الفراغ القليل ليجلس على المقعد ! كان الموقف من الدقة بحيث تعذر عليه أن يرفض العرض فبادر الى المقعد وهو ينسل في ذلك الممر الضيق ويتعثر حتى إذا ما بلغ

المقعد جلس عليه بعد أن ألقى نظرة مستريبة على رازوميخين الذي قال بصوت أشبه بالنباح :

ــ لم ترتبك ؟ إن روديا مريض منذ خمسة أيام وقد كان يهذي خلال ثلاثة أيام كاملة أما الآن فقد استعاد وعيه بل وأكل بشهية . وهذا هو طبيب يعوده وأنا صديق روديا وطالب سابق كذلك ؛ وأنا اقوم الآن بدور المربية بالنسبة اليه فلا تلق بالاً إلينا ولا يزعجك وجودنا بل استمر وتحدث بما لديك !

فقال الزائر محدثا زوسيموف دائماً :

ــ أشكركم ! ولكن ألا أضجر مريضك بحضوري وحديثي ؟

ــ على العكس بل إنك قد تسليه وترفه عنه ! وعاد يتثاءب من جديد !

كان رازوميخين يتحدث بلهجة مؤنسة صريحة محببة حتى أن بيبربيتروفيتش أبدل أخيراً سلوكه وشعر بارتياح اليه بعد انقباض . ولعل ما أكدة ذلك « الصعلوك » من أن هو الآخر طالب سابق ، أحدث أثراً طيباً في نفس الضيف لذلك فقد استمع إليه حين قال :

ــ آه ... لقد استعاد شعوره وامتلك حواسه منذ صباح هذا اليوم !

فقال الضيف :

ــ إن أمك ...

وأفلتت حنجرة رازوميخين صوتاً « هم ! » صدرعنها بصخب حتى أن لوجين لم يتماسك أن نظر اليه متفحصا مستفسراً فقال هذا :

ــ إن ذلك صدر عني بشكل لا إرادي فاستمر !

فهز لوجين كتفيه وقال متابعاً :

ــ ان والدتك كانت قد بدأت في كتابة رسالة اليك عند ما كنت اقيم معها في المدينة هناك ، فلما وصلت الى هنا ، تعمدت التريث كل هذه الأيام

لاتأكد من أنك خلالها ستكون قد اطلعت على كل شئ ... وها إنني لدهشتي البالغة ...

فقاطعه راسكو لنيكوف فجأة وبلهجة مفعمة بروح التحدي :

— أنا اعرف ... اعرف ! إنك انت « المقبل » ! انا أعرف ذلك وهذا يكفي !

شعر بيير بيتروفيتش بالمهانة لهذا الجواب فصمت وحار في معرفة مسبباته فاستغرق في الصمت دقيقة طويلة .

كان راسكولنيكوف — الذي استدار نحو الزائر قليلاً ليجيب على سؤاله — قد عاد فجأة يتفحصه بعينيه بفضول بيّن كما لو أنه لم يُتَح له ذلك في المرة الأولى أو أن شيئاً جديداً في شخصية الضيف قد أثار انتباهه. لذلك فقد رفع رأسه عن الوسادة ليتسنى له القيام بمهمة التأمل والتفحص . والواقع أن مظهر بيير بيتروفيتش العام لم يكن فيه ما يؤخذ عليه أو يستوجب إطلاق كلمة « المقبل » التي نعته بها راسكو لنيكوف خلال تصرفه البعيد عن التهذيب . كان يبدو أن بيتروفيتش لم يدع أيامه في العاصمة تمضي دون أن يستفيد منها في تجميل نفسه وإصلاح شكله بانتظار خطيبته ، الأمر الذي لم يكن غريباً بل على العكس منطقياً ومنتظراً . ولعله « هو » اعتقد أن مظهره غير مبالغ فيه لولا أن موقفه « كخطيب » على وشك الزواج جعله هدفاً للنقد والتفحص . كانت ثيابه تبدو حديثة العهد بأيدي الخياط وقد انسجمت وبدت كاملة رغم أنها لم تكن جديدة كل الجدة فلم تكن والحالة هذه لتعني أو لتفضح الهدف الذي يرمي اليه صاحبها ، لكن القبعة الأنيقة المستديرة الجديدة كل الجدة كانت تفضح تلك الغاية ، اذ كان ممسكاً بها في يده بعناية ملحوظة وقد وضع فيها زوجاً من القفازات بدا أنه يستعملها للزينة لأنها من ذلك النوع الذي يُكتفى بحمله دون تغييب اليدين فيه .

أما الثوب فكانت الألوان الزاهية تغلب فيه وتجعل لابسه يبدو أصغر سناً مما هو عليه . « فالسترة » كانت ذات لون رمادي فاتح والسراويل الصيفية زاهية وكذلك « صدارته » . أما القميص فكان ثميناً وقد تدلت منه ربطة من « الباتيست » الفاخر. كانت تلك الألبسة تبدو متفقة مع وجه بيير بيتروفيتش وقامته ، إذ كان وجهه نضراً رغم سنواته الخمسة والاربعين يعطي صاحبه سناً أصغر وقد زينه سالفان كستناويان طويلان يتكاثفان عند أسفل الفكين ويبرزان ذقناً نظيفة محلوقة بعناية. وكان شعره مرجلاً ومجعداً بعناية ليس فيه ما يبعث على النقد على عكس ما يلاحظ عند ذوي الشعر الجعد عادة وكان يكسبه شكل العروس الألماني الصميم . أما اذا كان هناك شيء مزعج يؤذي البصر في ذلك الوجه الصارم الذي لا يخلو من جمال وخطورة فانه شيء آخر لا علاقة له بالقسمات . ولما انتهى راسكو لنيكوف من معاينة وجه السيد لوجين هوى برأسه على الوسادة من جديد بعد أن ارتسمت على شفتيه ابتسامة مريرة . لم يتراجع السيد لوجين ازاء هذا التصرف المهين، بل تمالك نفسه عازماً على التغاضي عن ذلك الشذوذ فقال يبدد السكون الذي غمر الحجرة :

— إنني شديد الأسف إذ أراك على هذه الحال ولو انني علمت أنك مريض لجئت قبل الآن ولكنك تدرك أن متطلبات العمل تشغل المرء : فلدي الآن قضية مهمة جداً أراني مضطراً بصفتي محامياً الى عرضها على مجلس الشيوخ. هذا بصرف النظر عن المشاغل الكثيرة التي تدركها وإنني أنتظر أسرتك وأقصد والدتك وأختك بين لحظة وأخرى ...

أبدى راسكو لنيكوف حركة تشير الى أنه يريد قول شيء لأن وجهه عبر عن انفعال معين فصمت بيير بيتروفيتش تاركاً له الفرصة للكلام ولما لم يتكلم أردف معقباً :

— ... من آن الى آخر . ولقد بحثت لهما عن مسكن .

فقال راسكو لنيكوف بصوت ضعيف :

— أين ؟

— غير بعيد من هنا ، في دار « باكالييف » .

فقاطعه رازوميخين قائلا :

— إنه في شارع « آسانسيون » « شارع الصعود » إن طبقتين منه مأجورتان لتاجر اسمه إيوستين ... لقد ذهبت الى هناك .

— نعم . وقد أخلاهما التاجر .

— إنما المزعج فيها والذي يثير الاشمئزاز أن حجراته قذرة كريهة تشبه الأكواخ وغير متناسقة وقد وقعت فيه أمور غريبة . والشيطان وحده يعرف من يسكن فيها . وقد ذهبت ذات مرة الى هناك إثر مغامرة مريبة والميزة الوحيدة هي أن الأجور فيه رخيصة .

— بالطبع . إنني لم أستطع الحصول على هذه المعلومات بسبب حداثة عهدي في المدينة غير أني استأجرت فيه غرفتين نظيفتين جداً . خصوصاً وان إشغالهما المكان لن يدوم طويلاً لأنني وجدت مسكننا ... أقصد مسكننا المقبل يا راسكولنيكوف ، والاستعدادات تجري الآن فيه لترميمه وإدخال التجديد عليه. فانني أقطن في الوقت الحاضر على شكل ما في غرفة مؤثثة على بعد خطوتين من هنا عند السيدة « ليبيويشسل » في مسكن صديق شاب ، اسمه آندريه سيميو نوفيتش ليبزيا تنيكوف وهو الذي دلني على بيت باكالييف .

نطق لوجين العبارات تبريراً للملاحظات التي ساقها رازوميخين في تعريضه بالمسكن الذي أعده لأم راسكو لنيكوف وأخته ، وشعر بامتعاض لتدخل

ذلك الشاب الماجن المستهتر . أما راسكو لنيكوف فانه لدى سماعه اسم صديق خطيب أخته غمغم وكأنه تذكر شيئاً :

— ليبزيا تنيكوف ؟

— نعم . آندريه سيميونوفيتش ليبزيا تنيكوف وهو موظف في احدى الوزارات . فهل تعرفه ؟

فأجاب راسكو لنيكوف :

— نعم ... لا ... !

— عفواً خيل إلي من سؤالك أنك تعرفه . لقد كنت ذات يوم وصياً عليه وهو شاب لطيف جداً ومنطلق في الحياة الاجتماعية ثم إنني أحب معاشرة الشباب لأن المرء يتعلم منهم أشياء جديدة .

وانتظر بيير بيتروفيتش موافقة الموجودين على ملاحظته الاخيرة فراح يجيل الطرف بينهم . سأله راسكو لنيكوف :

— ما هو الدافع على ما تقول ؟

— إنه من أكثر الدوافع أهمية . فأنا مثلاً لم أزر بيترسبورج منذ أكثر من عشر سنين لذلك فان كل التبديلات التي حصلت والتجديدات التي أدخلت وتلك الفكر النيرة الجديدة ، كل ذلك لم يبلغ المقاطعات الأخرى حتى الآن وفي رأيي أن الانسان الذي يريد أن يتعلم وأن يساير العصر يجب عليه الاحتكاك بالجيل الجديد وانه ليسرني أن أعترف بهذه الحقيقة .

بدا السرور على وجه بيير بيتروفيتش للسؤال الذي ألقاه عليه راسكو لنيكوف وظن أنه وفق لارضائه بالجواب . غير أن هذا عاد يقول :

— لا زلت أسأل عن الدافع والعلاقة الموجبة له .

— ان سؤالك غـــير محدود فاذا لم أكن مخطئاً أستطيع القول أنني أكتشف وجهات نظر أكثر وضوحـاً بل واتجاهات دقيقة وتفـاهم عملي أوسع .

فقال زوسيموف :

— هذا صحيح .

أما رازوميخين فصاح مكذباً :

— أنت تكذب ! لا يوجد هنا تفاهم عملي لأن مثل هذا التفاهم يكتسب بصعوبة ولا يسقط عفواً من السماء. اننا منذ مائتي عام تقريباً فقدنا عادة الأعمال. والافكار التي تروج في الشوارع والرغبة في العمل الصالح موجودة حقيقة ولكنها مازالت في طور التكوين .صحيح ان الانسان ليصادف بعض النبل رغم أن نظرية « إذا لم أرَ لا أكون قد أخذت » تعتبر قاعدة بين النشالين واللصوص ولكن لا يوجد تفـاهم عملي في كل الاحيان لأن هذه « المعرفة » لا تسير عارية القدمين بل يلزم لها زوج من الاحذية وأنت تفهم ما أعني .

فأجاب بيير بيتروفيتش بسرور واضح :

— أنا لست من رأيك أبداً . نعم لا أنكر وجود بعض الفوضى والتطرف في الآراء إنما ينبغي للمرء أن يكون عادلاً ... ان هذا التطرف يشهد بأن القضية أخذت بحماسة وان الظروف الخارجية ليست تمامـــاً كما ينبغي أن تكون . فاذا كنا لا نعمل إلا قليلاً فذلك لأننا لم نجد بعد الوقت الكافي وأنا طبعاً لا أتكلم عن الوسائل. انني أعتقد شخصياً بأن هناك بعض ما يمكن أن يقال عنه بأنـه صنع أو « كان » : ذلك أن الافكار الجديدة النافعة قـــد انتشرت كما انتشرت بعض المؤلفات الجديدة النافعة فحلت محل الاحلام والخيـــالات التي كنا نعيش فيهـا

ونضج الأدب وتبخر عـــدد كبير من الاعتقـادات السقيمة المضرة وبالاختصار فقد انفصلنا نهائياً عن المـــاضي وباعتقادي ان ذلك ليس بالشيء القليل !

فغمغم راسكو لنيكوف قائلا :

ـــ استمر ... تبجح ... استمر في تبجحك .

فقال بيير بيتروفيتش الذي لم يسمع قول راسكو لنيكوف :

ـــ ماذا قلت ؟

غير أن راسكو لنيكوف لم يجب . وبادر زوسيموف متدخلاً يقول :

ـــ ان ما قلته لعين الصواب .

فاسترسل بيير بيتروفيتش بعد أن ألقى نظرة ودية على زوسيموف :

ـــ أليس كذلك ؟

ثم استدار الى رازوميخين وأردف بلهجة انتصار :

ـــ وأنت نفسك ! ألا توافقني على أن هناك خطوات الى الامام أو كما يقـال « مجهوداً » حتى ولو اقتصر ذلك على العلم والحقائق الاقتصادية ؟

فأجاب رازوميخين :

ـــ انها أفكار مكرورة مبتذلة !

ـــ كلا ! انها ليست أشياء مبتذلة . خذ مثلاً : لقـــد قيل لي حتى اليوم : « أحبب مستقبلك » فأحببته . فماذا نجم عن ذلك ؟ لقـد نجم عنه حتى الآن أنني مزقت معطفي الى جزئين فأصبحنا كلانا عاريين عمـلا بالمثل الروسي القـائل : « عند ما يطارد المرء عدة أرانب معاً لا يصطاد واحداً منها ». أما العلم فانه يقول : « أحبب نفسك قبل الآخرين لان العالم كله مرتكز على النفعية الشخصية فعند ما لا تحبب الا نفسك فقط تقوم بأعمالك كما ينبغي ويبقى معطفك كاملاً » والاقتصاد .

السياسي يضيف أنه كلما أكثر المرء من ابتكار أعمال خاصة في المجتمع أو بمعنى أوضح : كلما ازدادت المعاطف الكاملة ، كلما كانت المنشآت أقوى والاعمال العامة أكثر ترتيباً ونظاماً . اذن عندما اقتني ممتلكات شخصية تماماً فانني أقتنيها في نفس الوقت للجميع وينتج عن ذلك أن يفوز مستقبلي بأكثر من معطف ممزق وليس ذلك بفضل السمة الخاصة الشخصية انما بنتيجة المجهود العام . فالفكرة اذاً سهلة ولكنها وللأسف استغرقت زمناً طويلا حتى وصلت رغم ما يبدو عليها من أنها لا تستوجب لفهمها وهضمها ذكاء خاصاً ...

فقاطعه رازوميخين قائلا بشيء من الجفوة :

ــ عفواً ... انه ينقصني الذكاء أنا أيضاً لذلك أفضل أن نتوقف عند هذا الحد . وقد كان لي هدف عند ما بدأت هذه المناقشة وبالتالي هذه الثرثرة التي تبعث على الغثيان . ان كل هذه الافكار المبتذلة الموضوعية تثير اشمئزازي منذ ثلاث سنين حتى انني أخجل ليس فقط من التحدث عنها بل ومن سماع الآخرين يتحدثون فيها . ولا شك أنك استصوبت اطلاعنا على مدى معرفتك وأنا لا ألومك على ذلك بل أجد لك العذر . انما الغاية كانت محاولة معرفة من تكون لان في هذه الايام الاخيرة أغري عدد كبير من فرسان المال والاعمال بهذه الفكرة ــ ولا شك انك تعلم ــ حتى انهم افسدوا كل ما مدوا اليه ايديهم لاستثماره فدنسوا بذلك كل شيء ! وفي هذا الكفاية ...

احتج السيد لوجين وقال مستنكراً وهو يتصنع الاصابة بجرح في كرامته :

ــ سيدي لعلك لا تريد التلميح بأنني ...

فقاطعه رازوميخين بلهجة حاسمة :

ـــ آه ... العفو ... العفو !... هل يمكن أن أكون فكرت في هـذا ؟ هيا كفى !...

وهكذا شعر بيير بيتروفتيتش ان من الخير له أن يتقبل هذا الرد على علاته وان يعمل بمغادرة الغرفة فقال محدثاً راسكو لنيكوف :

ـــ آمل ان يصبح التعارف الذي تم بيننا الآن اكثر توثقاً في المستقبل بعد ان تكون قد ابللت من مرضك واني أتمنى لك صحة جيدة لتكون متمتعاً بقواك استعداداً للمناسبة التي لا تجهلها .

ولما لم يلتفت راسكو لنيكوف اليه هم بالنهوض بينما كان زوسيموف يتحـدث الى رازوميخين وكأن بيير بيتروفيتش غير موجود في الغرفة :

ـــ أعتقد جازماً ان واحداً من زبائن العجوز قد قتلها .

فاجاب رازوميخين موافقا :

ـــ لا شك ! صحيح أن بورفير لا يصرح بآرائه غير أنه يستجوب كل من أودع العجوز رهينة .

فقال راسكو لنيكوف بصوت مرتفع :

ـــ يستجوبهم ؟

ـــ نعم وماذا في ذلك ؟

ـــ لا شيء .

واستتلى زوسيموف مستفسراً :

ـــ ولكن كيف يعرفهم ؟

ـــ لقد دل كوخ على بعضهم . اما الآخرون فان اسماءهم مكتوبة على الاوراق التي لفت فيهـا رهـائنهم . وهناك اشخاص جاؤوا من تلقـــاء انفسهم حينما بلغهم النبأ .

ـــ على هذا فان الذي قام بهذا العمل يكون ولا شك عديم التجربة سافلاً ! يالها من عملية !

ـــ أنا واثق أنه ليس كما تقول وأن هذه هي النقطة التي تخدعكم جميعاً ! إنني أعتقد رغم ما أنا عليه من جهل وقلة تجربة، بأنه ليس من الحاذقين ولا من العريقين في الاجرام وإن هذه الجريمة هي اولى جرائمه . فلو انه كان مجرماً عريقاً ماهراً لكانت هذه النتائج غير قابلة للتصديق . أما وان المجرم غير خبير ، فاننا لستنتج أن الصدفة وحدها هي التي أخرجته من ورطته ، والصدف شــــديدة التأثير في الحيــاة ! فكر بأنه لم يكن قد تصور وجود عوائق ثم لاحظ كيف أتم الأمر : لقد أخذ أشياء تتراوح قيمتهــا بين عشرين وثلاثين روبلاً حشا بها جيوبه بينما كان في الدرج العلوي من الخزانة علبة صغيرة تحوي على الف وخمسمائة روبل من النقد الفضي باستثناء الأوراق النقدية . فهو إذاً لم يحسن إلا القتـــل وأخفق في السرقة ، ومن ذلك يستدل على أنه مبتدىء فقد أعصابه ثم انسحب ، أي أن الأمر تم بمحض الصدفة وليس بناء على تصميم وحساب دقيق !

قال بيير بيتروفيش مخاطباً زوسيموف بقصد الاشتراك في الحديث :

ـــ إنكم تتحدثون على ما أعتقد عن مقتل العجوز أرملة الموظف. أليس كذلك؟

طرح هذا السؤال وهو واقف وقبعته وقفازاته في يده وكأنه أراد قبل أن يبارح الحجرة أن يلقي ببضع كلمات حكيمة ليخلف وراءه أثراً طيباً بعد أن تغلب فيه الغرور على العقل .. فأجابه :

ـــ نعم هل سمعت عنها شيئاً ؟

ـــ كيف لا ؟ لقد سمعت من الجيران .

ـــ هل تعرف التفاصيل؟

ـــ لا أعتقد . إنما يثير اهتمامي في هــذه القضية ما يعتريها من ملابسات وما

سيعقب عنها من نتائج وكذلك المعضلة التي تتمثل في الجريمة نفسها . إنني الاحظ ان الجرائم في السنوات الخمس الأخيرة قد ازدادت بين الاوساط الدنيا ، كما وأن السلب والحرائق تكاثرت في كل مكان وأصبحت تقع دون انقطاع ، ومما يزيدني دهشة أن الاجرام بين الطبقات العليا اخذ يزداد بنسبة مماثلة حتى لكأنه يسير مع ما يحدث في الاوساط الدنيا على خطين متوازيين . فهنا مثلا طالب سابق يداهم عربة بريد على الطريق العام ، وهناك أشخاص من النيرين الواعين البارزين في الهيئة الاجتماعية يزورون الاوراق النقدية . وقد أوقفوا في موسكو مؤخراً عصابة من المزورين كانوا يعملون في يانصيب القرض الأخير . حتى أن واحداً من المتهمين الرئيسيين يحتل كرسي التاريخ العام في الجامعة ، وفي أمكنة اخرى اغتيل أحد أمناء سر سفاراتنا في الخارج لسلبه ما معه من نقود ولأسباب اخرى أكثر سرية. فاذا كانت هذه المرابية قد قتلت بيد واحد من الطبقة العليا — لأنني أعتقد أن أبناء الطبقة الفقيرة لا يمتلكون أشياء ذهبية يرهنونها لديها — فكيف نفسر هذا الفساد الجامح الذي يسيطر من جزء كبير من محيطنا المثقف ؟

أجاب زوسيموف :

— أعتقد أن للانقلابات الاقتصادية تأثيراً كبيراً .

وقال رازوميخين معقباً :

— كيف نفسرها ؟ الواقع انها تفسر تماماً بانعدام التفاهم العملي ... ذلك الانعدام المزمن .

— ماذا تريد أن تقول ؟

— حسناً ، ماذا أجاب في موسكو استاذك الجامعي عندما سئل عن سبب إصداره نقداً مزوراً ؟ أعتقد أنه قال : « إن الناس كلهم يتهافتون على الثروة والغنى بكل الوسائل وأنني أنا كذلك أردت أن أثري بسرعة . » أنا لا أذكر كلماته على

الضبط لكن فكرة الثراء العاجل بأقل التكاليف وأقل العناء هي التي تدرع بها. فقد درجت العادة بل أقول لقد اعتاد الناس حتى اليوم على لون من الحياة يقتصر على الكفاف بل إن بعضهم يعيش عالة على غيره . فلما دقت الساعة أظهر كل منهم مايستطيع عمله وما يختزنه من إمكانيات ...

— ولكن هناك دائماً الأخلاق ؟.. القوانين ! و..

وهنا فقط تدخل راسكولنيكوف بشكل غير منتظر وقال :

— ولكن ماذا يزعجك ؟ إن ذلك إلا نظريتك في حالة التطبيق !

— كيف ؟ نظريتي ؟

— اشرح نتائج ماتحدثت عنه منذ حين كمبدأ وناقشه تجد أنه ينجم عنـــه جواز قتل الناس ..

فهتف لوجين :

— رحمـاك يارب !

بينما قال زوسيموف :

— كلا إن الأمر ليس كذلك .

أما راسكولنيكوف فقد كان شاحباً وقد راحت شفته العليـا ترتعش وهو يتنفس بصعوبة زائدة بينما تابع لوجين بلهجة متعالية قائلا :

— إن هناك حدوداً لكل شيء، فالفكرة الاقتصادية ليست دعوة للقتل حتى أنه لو افترض فقط ...

فقاطعه راسكولنيكوف بصوت يهزه الغضب ويشوبه لون من السرور الآثم :

ـ أصحيح إنك قلت لخطيبتك في اللحظة التي أعربت لك عن قبولها بك أنك سعيد لأنها فقيرة وإنه من الأفضل والأصوب أن يتزوج المرء امرأة لا تملك نقيراً ليحتفظ الزوج لنفسه بالغلبة والتفوق ؟ أي أنك بذلك تستطيع دائمـــاً

التغني بفضلك عليها ؟

فصاح لوجين بصوت مضطرب وقد أعماه الغضب :

ـــ سيدي ... سيدي ... أنت تشوه فكرتي . ولكن اسمح لي أن أقول بان الشائعات التي تناهت اليك ليس لها ظل من الحقيقة وإنني أخمن أن ... بكلمة واحدة أن هذا السهم ... بكلمة واحدة أنها أمك . والى جانب ذلك فقد بدت لي رغم صفاتها الممتازة صغيرة العقلية مبالغة وخيالية في أفكارها . رغم ذلك فانني ما كنت أنتظر أو اظن أن باستطاعتها النظر الى قولي ذاك خلال منظار كهذا .

فرمجز راسكولنيكوف وهو يتناهض بمجهود عنيف وفي عينيه نظرة متوعدة وقال :

ـــ هل تعلم ؟ هل تعلم ؟

ـــ ماذا ؟ ماذا ؟

كان في عيني لوجين وهو ينطق بهذه الكلمة معنى الاستنكار والتحدي وانتظر الجواب وهو واقف وران الصمت .

فاجابه راسكولنيكوف .

ـــ اعلم أنه اذا وجدت في نفسك مرة أخرى الجرأة على التلفظ بكلمة واحدة تمس بأمي فانني سألقيك أسفل السلم ورأسك في المقدمة !

وهتف رازوميخين :

ـــ ماذا دهاك ؟

بينما كان لوجين ممتقع الوجه يعض شفته حنقاً ويقول :

ـــ اذاً هكذا . اسمع ياسيدي. وتمالك نفسه برهة رغم أن الغضب كان يخنق صوته ـ اسمع : منذ حين لما دخلت لاحظت استقبالك البارد جلست عامداً

لاعرف الى أي مدى تبلغ بك القحة . وقد كنت مستعداً للصفح عن كثير مما يصدر عن مريض وقريب بنفس الوقت أما الآن فانني لن أصفح أبداً .

فصرخ راسكو لنيكوف محنقاً :

ـــ أنا لست مريضاً .

ـــ ذلك أسوأ .

ـــ اذهب الى الشيطان .

لكن لوجين كان قد خرج دون أن ينتظر هذا الوداع وقد خرج « متسللا» بين الطاولة والمقعد كما دخل بينما كان رازوميخين قد تراجع قليلاً ليسمح له قبل رحيله بمصافحة زوسيموف الذي كان يشير اليه بترك المريض دون إثـــارة ، وهكذا انسحب لوجين رافعاً بعناية قبعته الى ارتفاع كتفه في اللحظة التي كان ينحني فيها ليجتاز عتبة الغرفة وقد بدا عليه أنه محنق جداً .

قال رازوميخين وقد بدا الارتباك على وجهه :

ـــ كيف تصرفت على هذا الشكل ؟

فاجابه راسكو لنيكوف صارخاً :

ـــ دعوني ، دعوني جميعاً ... اخرجوا أيها السفاحون أنا لا أخاف منكم.. أنا لا أخاف أحداً ... أحداً ... اخرجوا من هنا ... أريد أن أبقى وحيداً ! وحيداً ! وحيداً ! .

فقال زوسيموف وهو يشير برأسه الى رازوميخين :

ـــ هيا بنا !

ـــ لكن ... هل يمكن أن ندعه هكذا .

فكرر زوسيموف بالحاح :

ــ هيا بنا ..!

ولم ينتظر بل خرج وبقي رازوميخين برهة يفكر ثم ركض يتبعه .

وبينما كان زوسيموف يهبط السلم قال لرازوميخين :

ــ لو أننا لم نخرج نزولاً عند رغبته لبلـغ به الأمر أسوأ من ذلك اذ ينبغي ان لانثيره .

ــ لكن ماذا دهاه ؟

ــ ينبغي أن يتلقى نبأ ساراً . هذا كل ما يلزمه . منـذ لحظة كان متمالـكاً قواه ولعلك لاحظت ان في رأسه فكرة معينة تعذبه وهـذا ما اخشاه . نعم انني اخشى ذلك .

ـ يبدو ان هذا السيد بيير بيتروفيتش سيتزوج اخت راسكو لنيكوف كما استنتجت من الحديث الذي دار بينهما وان روديا قـد أُطلع قبل مرضه على هـذا الأمر بواسطة رسالة .

ـ نعم . وهو الشيطان الذي اتى به ولا شك في هذه اللحظة . اخشى ان يكون قد افسد كل شيء . لكن ألم تلاحظ انه لم يكن يبالي بشيء باستثناء امر واحد كان يخرجه من ذهوله وهو هذه الجريمة ؟

ـ نعم ! نعم ! لقد لاحظت ذلك بوضوح ! انه يهتم بهذه الجريمة ويفكر فيها واعتقد ان السبب راجع الى انه في ذات اليوم الذي مرض فيه ارهبوه قليلاً في دائرة البوليس وقد أُغمي عليه هناك .

ـ سوف تقص علي ذلك بالتفصيل هذا المساء . وسأقول لك بعدئذ شيئاً . انه ليثير اهتمامي كثيراً ولسوف أعود لأستعلم عنه بعد ساعة . على كل حال لن يحدث ارتفاع في الحرارة .

ـ أشكرك وخلال هذا الوقت سأنتظرك عند باشانكا وسأراقبه بواسطة ناستاسيا .

ألقى راسكولنيكوف نظرة ملتهبة تفيض بالانزعاج على الخادم التي بقيت في الغرفة . وأدركت هذه أنه يرغب اليها ان ترحل فقالت تسأله :

ـ هل تأخذ جرعة من الشاي الآن ؟

ـ كلا ! دعيني الآن أريد أن أنام ...

وبحركة تشنجية استدار الى الجدار بينما انسحبت ناستاسيا من الحجرة .

الفَصْلُ السَّادِسُ

لم تكد تخرج ناستاسيا من الحجره حتى نهض واقفاً وهرع الى الباب يدفع المزلاج وراءه ثم عاد الى الرزمة التي أتى بها رازوميخين ففتحها وراح يرتدي الملابس التي كانت فيها . كان هادئاً جداً حتى ليخيل الى الناظر اليه أنه لم يكن منذ لحظات فريسة هذيان ورعب قاتلين لم يبارحاه طيلة الايام الاخيرة . شعر في تلك اللحظة بهدوء وراحة بال عجيبين فكانت حركاته دقيقة وثابتة وكأنه اتخذ فجأة قراراً حاسماً . كان يدمدم « اليوم ! اليوم بالذات... » وهو يعرف أنه ضعيف. لكن قوة روحية جبارة كانت تجعله في صحو فكري تام وتعطيه قوة وثقة .. كان يرجو أن يستطيع الصمود خوف السقوط !

ارتدى الملابس الجديدة التي أتاه بها صديقه وحدق برهة في المال الموضوع على الطاولة وهو يفكر ثم أودعه جيبه ! كان يملك خمسة وعشرين روبلا الى جانب « الكوبيكات » التي بقيت له من قيمة الملابس التي اشتراها رازوميخين . رفع المزلاج بهدوء وخرج من الحجرة وراح يهبط السلم حتى اذا ما بلغ باب المطبخ « العتيد » الذي كان أبداً مفتوحاً ألقى عليه نظرة سريعة . كانت ناستاسيا واقفة هناك محنية الظهر في « سماوَرْ » سيدتها فلم تسمع صوت خطاه خصوصاً وان فكرة فراره لم تكن لتخالج رأس أحد وهكذا لم تمض دقيقة ثانية حتى كان في الشارع .

كانت الساعة الثامنة مساء والشمس على وشك المغيب والجو خانق كأمس تماماً . لكنه راح يتنفس بشوق ولهفة وكأنه كان محروماً من الهواء ، راح

يتنفس ذلك الهواء العامر بالغبار والمرض الذي ترزح تحت وطئتها أجواء المدينة الكبرى . شعر بدوار خفيف في رأسه لكن لوناً من الحيوية الوحشية تجاوبت في أعماقه فالتمعت بها عيناه الملتهبتين وظهرت واضحة على وجهه الناحل المضيم . كان لا يعرف أين يتجه بل أنه لم يفكر في ذلك مطلقاً . كان كل ما يهمه في تلك اللحظة هو تنفيذ الرغبة التي تصطخب في رأسه : « الفرار والانتهاء » اليوم بالذات ودفعة واحدة ... فوراً وإلا فانه لن يعود الى مسكنه لأنه « ما كان يُريد أن يحيى على ذلك المنوال ! » . لكن كيف « ينتهي » وبأية وسيلة ؟ ذلك ما لم يكن لديه أية فكرة عنه بل أنه ما كان يفكر في ذلك أبداً ! كانت تلك الفكرة تعذبه لذلك فقد كان يبعدها دائماً كلما خطرت له . انما كان يحس بأن الأمور ينبغي لها أن تنتهي على شكل من الاشكال ، مها وقع ! كان يردد ذلك بيأس وتأكيد وثقة !

تبع الطريق التي كان يتبعها في نزهاته السابقة مدفوعاً بحكم العادة واتجه نحو « سوق العلف » ! وقبل أن يصل الى السوق ، شاهد على الرصيف أمام دكان بائع عاديات ، شاباً اسود الشعر يعزف على آلة موسيقية تنبعث منها الحاناً عاطفية شجية ترافقه فتاة صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها مرتدية ثياباً رشيقة : « تنوره » من قماش رخيص و « شال » خفيف ، وفي يديها زوج من القفازات وعلى رأسها قبعة كبيرة من القش تزينها ريشة بلون اللهب تبدو في مجموعها خلقة بالية . كانت تغني امام الدكان بصوت متصدع يشبه صرير المدأب ، منتظرة إحسانه الذي لا يتجاوز « الكوبيكين » بحال فتوقف راسكولنيكوف ينصت الى غنائها منضماً الى مستمعين أو ثلاثة مستمعين كانوا هناك ثم أخرج من جيبه قطعة من ذات الخمسة كوبيكات أودعها راحة الفتاة ... وفجأة قطعت هذه غناءها ـ وكانت قد بلغت طبقة مرتفعة جداً شديدة الحساسية مفعمة بالعاطفة ـ

وهتفت بالعازف قائلة : « كفى ! » . ثم مضت ترافقه بخطى متمايلة لتقف امـام الدكان التالية !

سأل راسكولنيكوف فجأة أحد المارة وكان واقفاً باقرب منه ينصت الى المغنية المتسولة وعليه سمات المتسكعين :

ـــ أتحب أغاني الشارع ؟

فبوغت الرجل لهذا السؤال بينما استرسل راسكولنيكوف يقول وكأن الامر لا يتعلق الا باغاني الشوارع وأثرها في النفوس :

ـــ أما أنا فأحبها ! إنني أحب الاستماع الى الغناء على نغم هذه الآلة الموسيقية التي يحملها هذا الموسيقي المتجول خصوصاً في ليالي الخريف المعتمة الرطبةالباردة حيث تكون وجه المارة مخضرة مريضة . كما أزداد حباً للاستمتاع بهذا الغنـاء عند ما تتساقط الثلوج دون أن يصحبها زفيف الرياح فتلتمع مشاعل النور خلال الثلج . اترى هل تتمثل الصورة التي أصفها ؟.

غمغم السيدمذعوراً وقدأزعجه السؤال والمظهر الغريب الذي كانراسكولنيكوف يبدو فيه وقال :

ـــ لست أدري ... عذراً ... ثم انسحب الى الجانب الآخر من الشارع .

استمر راسكولنيكوف ماشيـاً دون أن يلتفت حوله حتى وصل الى زاوية « شارع العلف » حيث كان البائع وزوجه يتحدثان مع اليزابيت منـــذ أيام . لكنه لم يشهدهما في تلك اللحظة . توقف برهة في المكان الذي كان البائع وزوجه يقفان فيه ذلك اليوم وراح ينظر حوله فاذا بفتى يلبس قميصاً أحمر يتثاءب أمام دكان تاجر حبوب فسأله :

ـــ أتعرف الرجل الذي يقف هنا وزوجه ويتعاطيان بيع الحاجيات المستعملة انه « بورجوازي » أليس كذلك ؟

فأجاب الفتى وهو يحدج راسكولنيكوف بنظرة استغراب :
ــ أن الوسط التجاري يضم عدداً كبيراً من الأشخاص .
ــ ماذا يسمونه ؟
ــ يتادونه باسمه !
ــ لكن أنت ! ألست من زارائيك ؟ من أية مقاطعة أنت ؟
فعاد الفتى ينظر الى راسكولنيكوف باستغراب وقال :
ــ إنني حيث أقيم يا صاحب السعادة نطلق على المنطقة اسم اقليم وليس مقاطعة ! وأخي يقيم فيه أما أنا فقد بارحته منذ زمن ولا أعرف عن أخباره شيئاً فارجو سعادتكم ان تتفضلو بقبول عذري !
ــ أهي دكان شواء هذه التي في الأعلى ؟
ــ بل إنها حانة وفيها منضدة « بليارد » وقــد يرى الانسان فيها بعض « الاميرات » .
اتجه راسكولنيكوف نحو القسم الآخر من الساحة فشاهــد بالقرب من منعطف هناك جماعة من « الموجيك » كبيرة العــدد ، فراح يحشر نفسه بين الصفوف يتفحص الوجوه . كان يشعر بدافع يحبب اليه تبادل الحديث مع الناس. لكن اولئك « الموجيك » ما كانوا يلقون بالاً اليه بل كانوا مجتمعين جماعات جماعات يتداولون في أعمالهم . توقف برهة ثم قرر المضي نحو شارع « ف ... » مخلفاً وراءه « سوق العلف » ماراً برقاق جانبي .
كان ذلك الاتجاه مألوفاً لديه فهو يعرف تماماً أن ذلك الزقاق الذي يجتازه ينعطف في نهايته ويؤدي الى شارع الحدائق ... وكان يشعر في الايام الاخيرة برغبة تجتذبه الى تلك الامكنة كلما امتلكه الاشمئزاز « ليزيد في اشمئزازه » كما كان يقول !

أما في تلك اللحظة فقد كان خالي الذهن تماماً . كان هناك بناء كبير يحوي على عدد كبير من الحانات والمطاعم ودكاكين الشواء ، وكان بعض النسوة يخرجن بين الحين والحين يغمرهن الهناء وهن في أبهى زينة يرفلن في الثياب الغالية . كن يجتمعن في أمكنة معينة على الرصيف جماعات جماعات قرب مداخل بيوتات مرحة تشغل بعض الاقبية ! وكان يتصاعد من واحد من تلك الأمكنة صخب لطيف كان يعم وينتشر في الشارع كله وكانت أصوات القيثارة تعلو ترافقها أنغام غناء جميل والجو منعم بالبهجة والمرح . شاهد هناك عدداً من النسوة يتهافتن على المدخل مسرعات حتى أن بعضهن كن جالسات على درجات السلم واقفات على الرصيف يتحدثن ... وعلى مقربة منهن كان جندي ثمل واضعاً سيجارته في فمه يمشي مترنحاً بخطوات متمايلة وهو يصرخ شاتماً وكأنه خرج من مكان ثم نسي طريق العودة اليه . وفي الزاوية الاخرى كان صعلوك يتبادل السباب القبيحة مع آخر من طرازه بينما كان رجل مستلقياً على أرض الشارع فاقد الرشد من شدة الثمل .

توقف راسكولنيكوف أمام الجمع الأكبر من النساء وكن يتحدثن بأصوات مرتفعة وهن مرتديات أثواباً من الحرير الهندي الفاخر وفي أقدامهن أحذية من جلد الماعز وكلهن عاريات الرؤوس ! كان لبعضهن أكثر من أربعين عاماً واخريات لا يتجاوزن السابعة عشرة لكنهن كن منتفخات العيون !

كان الغناء والصخب المنبعثان من ذلك المكان يجذبان لغير ماسبب واضح انتباه راسكولنيكوف . فانحنى على المدخل وهو في مكانه على الرصيف وراح يصغي حالماً متجهاً الى صوت يغني :

إن عملاقي الجميل الصغير

لا يضربني لغير ماسبب !

وكان هناك وسط الضحكات والصيحات المرحة ، وقع خطى موزون كذلك

الذي يصدر عن الراقصين والراقصات على الحلبة عندما يرقصون على إيقاع لحن مثير ... وكان صوت المغني لايزال يردد تلك الاغنية وراسكولنيكوف يحس في قرارة نفسه برغبة عنيفة لسماعها وكأنها كانت غايته التي يسعى وراءهـــا ! تمتم يخاطب نفسه : « ماذا لو دخلت ؟ انهم يصخبون ويضحكون وهم سكارى فلم لا أحذو حذوهم وأثمل كخنزير !

سمع صوت سيدة يقول له :

ـــ ألا تدخل ياسيدي العزيز ؟

كان الصوت موسيقياً عذباً وكانت المتكلمة شابةفتية تفوقصويحباتها جمالاً.. فصعدها بنظرة متفرسة وهتف مجيباً :

ـــ آه ما أجملك !

ابتسمت الفتاة وقد أطربها الاطراء وقالت :

ـــ وأنت شاب جميل !

وهتفت سيدة بصوت كريه معقبة :

ـــ جميل ؟ إنه لايملك إلا العظام والجلد كمن خرج من المستشفى اليـــوم ولعله صحيح !

وتدخل أحد الفلاحين « الموجيك » وقال وهو يقترب :

ـــ يبدو أنهن من بنات « الجنرالات » رغم ذلك فانهن لا يترفعن عن حشر أنوفهن في هذه البؤر !

وقالت الفتاة :

ـــ هيا ادخل طالما أنت هنا !

ـــ سأدخل يا جمياتي !

وهبط الدرجات الى مدخل المرقص بينماهتفت الفتاةبصوت يتجلىفيهالخجل :

ــ إسمع ! سأكون سعيدة ياسيدي اللطيف في قضاء بضع ساعات معك لكنني الآن أشعر بشيء من الارتباك في حضرتك فلو أعطيتني يافارسي الجميل ستة كوبيكات لشربت كأساً في صحتك .

مد راسكولنيكوف يده الى جيبه وأخرجها حاملة خمسة عشر كوبيكاً أعطاها للفتاة فقالت :

ــ يالك من رجل طيب !

ــ ما اسمك ؟

إنني أدعى دوكليدا :

وهتفت واحدة من النسوة قائلة :

ــ يالَه من اسلوب زري ! كيف تتسولين يادوكليدا بهـذا الشكل ؟ إنه ليملؤني خجلاً مميتاً .

رفع راسكولنيكوف عينيه بفضول وحدج المتكلمة بنظرة صارمة . كانت سيدة في الثلاثين من عمرها ذات وجه مشوه بالجدري تشوبه بقع زرقاء وشفتها العليا منتفخة . كان يبدو عليها الهدوء والجد وهي تتلفظ بتلك العبارة .

ابتعد راسكولنيكوف ومضى يفكر في موقفه وتصرفه ويغمغم :

ــ أين قرأت ياترى أن أحد المحكومين بالاعدام قال قبل تنفيذ الحكم فيه : « إذا اتيح لي ان اعيش في مكان ما على قمة صخرة دون ان يكون امامي اكثر من قدمين من المجال الحيوي الذي يفصلني عن الهاوية او على نتوء وسط محيط خضم وظلمات ابدية تهددني العواصف العاتية حتى انه يستحيل العيش إلا في مساحة لاتزيد على قدم مربعة واحدة ، ولو أن الحياة كانت مع ذلك الف عام او ابدية لاتنتهي فانني لأفضل ان اعيش بتلك الشروط القاسية على ان اموت فوراً ! الحياة ! ولا شيء إلا الحياة ! الحياة وعلى اية صورة كانت ! الحياة وحسب !؟ »

إنها حقيقة هائلة يا إلهي ! إن الانسان نذل ، ونذل أيضاً ذلك الذي يصمه بالنذالة من أجل هذا .

بلغ في مسيره باليه ده كريستال وراح يحدث نفسه قائلا :

ـــ هيه ! قصر البلور ! منذ حين كان رازوميخين يحدثني عنه . ولكن ماذا كنت أريد ؟ نعم ، صحيح ، القراءة! لقد قال زوسيموف أنه قرأ التفصيلات في الصحف .

دخل مشرباً وسأل :

ـــ هل لديكم صحف ؟ وسرح طرفه فيما حوله : كان المشرب أنيقاً جداً متسعاً مؤلفاً من خمس غرف تكاد تكون خالية من الزبائن وكان في أحد الاركان ثلاثة رجال يحتسون الشاي وفي غرفة ثانية أربعة أشخاص جالسين الى مائدة يحتسون « الشامبانيا » خيل لراسكولنيكوف أن أحدهم هو زاميوتوف لكنه لم يكن متأكداً نظراً لبعد المسافة مع ذلك فقد تمتم يشجع نفسه :

ـــ وماذا يهمني أن يكون ؟

سأله النذل :

ـــ أتريد عرقاً ؟

ـــ كلا ! بل كأساً من الشاي . ثم ائتني بالصحف القديمة . الصحف التي صدرت منذ خمسة أيام وسأعطيك مكافأة صغيرة .

ـــ ليكن ! ها هي ذي صحف اليوم ! أتريد كذلك قدحاً من العرق .

رفض راسكولنيكوف العرض واكتفى بالشاي والصحف وراح يبحث بينها هذه صحيفة: « إيزلر .. الآزنيك .. الآزتيك .. إيزلر .. بارتولا .. ماسيمو .. الآزتيك ... إيزلر ... يا لجهنم ! آه هذه أخيراً الاخبار المتفرقة : امرأة سقطت

من أعلى السلم ... تاجر اختنق بسبب الادمان على تعاطي الكحول، حريق في « شـــارع الزمال » ... حريق في حي بيترسبورغ ... حريق آخر في حي بيترسبورغ أيضاً ... إيزلر، ايزلر، ايزلر، ايزلر ... ماسيمو ... وأخـيراً ... آه :

وجد ما كان يبحث عنه فراح يقرأ بينما كانت السطور تتراقص أمام عينيـه واستطاع أن يقرأ الشرح حتى النهاية ثم أخذ يبحث كالمحموم عن الاخبار الاخيرة في العدد التالي . كانت حركاته توحي بالسرعة التي تتلهف اليها نفسه . وبينما هو يتصفح الصحف شعر بشخص يجلس بجانبه الى المائدة فلما نظر اليه وجـد أنـه زاميوتوف ! زاميوتوف بلحمه ودمه وبمظهره المعهود: الخواتم الذهبية، والسلاسل والشعر الاسود الجعـد المضمخ المفروق من الوسط و « صدارته » الانيقـــة و « الرودنجوت » المتناسق !..

كان وديعاً أو على الاقل باسماً بشيء كثير من الوداعـة . ملتمـع العينين من تأثير « الشامبانيا » هتف وكأنه دهش للقاء صديق قديم :

— كيف ؟ أنت هنا ؟ لقد أكد لي رازوميخين البارحة أيضاً أنك فاقـد الوعي ! غريب ! أتدري أني قد زرتك مرة في حجرتك ؟

كان راسكولنيكوف متأكداً من أن زاميوتوف سيتصل به . لذلك فقـد ترك الصحف واستدار نحوه وعلى ثغره ابتسامة هـادئة تحمل معنى من معاني التبرم وقال :

— لقد أبلغت أنك زرتني وأنك حملت إلي قطعة حذائي . ولعلك لا تـدري أن رازوميخين كلف بك منذ أن ترافقتما للذهـاب الى سكن لويز ايفانوفنا التي كنت تسعى للدفاع عنهـا ذلك اليوم . لقـــد كنت تغمز بعينك الى « الملازم

البارود » دون أن يفهم غايتك . هل تذكر ؟ كان الامر واضحاً ومفهوماً تماماً !
أليس كذلك ؟

— يا له من مسل !

— « البارود » ؟

— كلا بل صديقك رازوميخين .

— لكنك يا سيد زاميوتوف تعيش عيشة مرحة ولا يفوتك ارتياد مثل هذه الامكنة كثيرة النفقات . وعلى فكرة . من الذي دفع عنك ثمن الشامبانيا منذ حين .

— إنني أتمتع بالخيرات الكافية فلمَ تعتقد أن هناك من يدفع عني ثمن الشراب ؟

— إذن فهو يقدم اليك بدون مقابل ! إنك تستغل كل شيء ثم ضحك وأردف :

— لا بأس عليك أيها الفتى الشجاع ! لا بأس . أنا لم أقل ذلك لأثير حفيظتك إنه لمجرد « الدعابة فقط » كما كان يقول الدهان عند ما كان يتحف ميتكا أي « دميتري » بالكلمات . أتذكر ذلك ؟ انها حادثة العجوز .

— لكن أنت كيف عرفت هذا ؟

— قد أكون عارفاً باكثر مما تظن .

— يا لك من رجل تتصنع الغموض ! لا شك أنك لا زلت مريضاً . لقد أخطأت بالخروج من غرفتك .

— هل أبدو لك غريباً غامضاً ؟

— نعم ! ماذا كنت تبحث في الصحف ؟

— في الصحف ؟

ـ توجد حوادث حريق كثيرة .

ـ كلا ! أنا لا أهتم بحوادث الحريق !

نظر الى زاميوتوف نظرة غامضة وعادة الابتسامة الهازئة تقلص شفتيه ، ثم أضاف وهو يغمز له بعينه :

ـ كلا ! ليست الحرائق هي التي تهمني . لكن اعترف أيها الشاب الشجاع بانك تتمزق شوقاً لمعرفة ما كنت أقرأ .

ـ أبداً ! لم أفكر في هذا مطلقاً . ولقد سألتك ذلك لمجرد السؤال . ثم هل لا يحق لي أن أطرح عليك مثل هذا السؤال ؟ هل لازلت ذلك الـ . . .

ـ اسمع انت رجل مثقف متعلم . هيم ؟

ـ إنني أدرس لنيل الشهادة الثانية في المعهد .

نطق زاميوتوف بهذا الجواب في شيء من البلاهة .

ـ آه الشهادة الثانية . وانفجر راسكو لنيكوف ضاحكاً ضحكة مجنونه وهتف معقباً :

ـ الشهادة الثانية ومع ذلك لا يخلو من الخواتم والأبهة والشعر المعنى به . يالك من « شحرور » جميل !

ذهل زاميوتوف وشعر بشيء من المهانة فتراجع قليلا وقد سيطرت عليه دهشة بالغة وقال بصوت صارم :

ـ كم انت غريب ! أراهن على أنك لازلت تهذي !

ـ أنا ؟ أهذي ؟ أنت واهم أيها « الشحرور » الجميل ..إذاً فانا أبدو شاذاً هذه هي الكلمة التي يجب أن تقولها .

ـ شاذاً .

ـــ الخلاصة أنك تريد معرفة ما كنت أبحث عنه ! أنظر هذا العدد الكبير من الصحف التي طلبتها . انها تحمل الانسان على الشك . أليس كذلك ؟

ـــ حسناً ! لنقل ذلك .

ـــ وهذا ما يجعل اذنيك تنتصبان !

ـــ ينتصب ؟ ماذا ؟ كيف ؟

ـــ سأقول لك ذلك مستقبلاً . أما الآن يا عزيزي العزيز : أصرح أو بالاحرى « أعترف » . كلا ليست هذه الكلمة الفنية أيضاً لنقل « أفيـد » وأنت تسجل ! تلك هي العبارة الصحيحة وعلى هـــذا « أفيد » أنني قرأت أو أنني شعرت بفضول للقراءة بل إنني كنت أبحث وإنني وجـــدت . . . وإنني جئت خصيصا من أجل ذلك ... كنت أبحث عن التفاصيل المتعلقـــة بمقتل العجوز أرملة الموظف !

واقترب بوجهه حتى كاد أن يلمس وجه زاميوتوف وهو لا يفتأ ينظر اليـه تلك النظرة المجنونة ، اما زاميوتوف فقد راح يحدق في وجهه بدوره دون أن يتحرك او أن يبتعد بوجهه عنه وبدا كل ذلك غريبـا في نظره ودام الصمت بينهما دقيقة طويله لم يفتآ خلالها يتبادلان النظر ،وفجأة هتفـزاميوتوفـوقد نفذصبره وأعياه السكوت :

ـــ حسناً وماذا يجديني ان تكون قرأت ؟ ماذا في ذلك ؟

فأردف راسكولنيكوف بصوتـــه الهامس دون أن يتأثر بجواب زاميوتوف :

ـــ ذلك لأنني مهتم بهذه العجوز التي بسببها أغمي علي وأنا في دائرةالشرطة عند ما سمعتكم تتحدثون عنها . فهل فهمت الآن ؟

ــ وماذا بعد ؟ ماذا تريد بكلمة « هل فهمت » ؟

كان صوت زاميوتوف قد بدأ يتسم بطابع الغضب . اما راسكو لنيكوف فكان وجهه جامداً صارماً وفجأة انفجر ضاحكا ضحكة عصبية . وفي لمحة خاطفة تذكر بوضوح وجلاء الشعور الذي أحس به عند ما كان واقفا وراء ذلك الباب والفأس في يده والرتاج يهتز والزائران يصيحان ويحاولان فتح الباب وهما يشتمان . تذكر كيف أحس برغبته في شتمها وإهانتها بل وفي اخراج لسانه لهما استهزاء والرغبة التي استولت عليه بالضحك ... الضحك ... الضحك المقهقهة الساخر . كانت ضحكته في تلك اللحظة صورة عن تلك التي كان يرغب في إطلاقها لما كان وراء ذلك الباب . ولم يتمالك زاميوتوف نفسه فهتف :

ــ إما ان تكون مجنوناً وإما ...

ثم توقف عن متابعة الجملة وقد خطرت له فكرة ملأت رأسه :

ــ وإما ماذا ؟ وإما ... هيا ... قل ...

فأجاب زاميوتوف غاضبا :

ــ لا شيء إن كل هذا سخيف . ثم صمتا كلاهما . وعاد راسكو لنيكوف بعد تلك الضحكة المدوية ساهما مغموماً وانحنى على المائدة جاعلاً رأسه على يده وبدا كأنه نسي زاميوتوف فران الصمت فترة طويلة قطعه هذا قائلا :

ــ لمَ لا تشرب الشاي ؟ لقد برد .

ــ هم ؟ ماذا ؟ الشاي ؟ ليكن !

رفع راسكو لنيكوف القدح الى شفتيه وتناول قطعة من الخبز وبعد أن ألقى على زاميوتوف نظرة بدا كأنه عاد الى الحقيقة واستعاد هدوءه فعاد الى وجهه ذلك التعبير الساخر ومضى يجرع الشاي .

قال زاميوتوف :

ـــ إن الانحطاط الذي من هذا النوع أخذ يتزايد هـــذه الأيام وقد قرأت مؤخراً في « غازيت وموسكو » أن كل عصابة المزورين قد ألقي عليها القبض في موسكو . لقد كان أفرادها من علية الناس وكانوا يزورون الاوراق النقدية .

ـــ آه وقع ذلك منذ زمن قـديم وقد قرأت الحادثة منذ أكثر من شهر في الصحف وفي رأيك إذاً أن هؤلاء الناس هم لصوص محتالون أليس كذلك ؟

ـــ كيف ؟ أليسوا إذاً محتالين ؟

ـــ هُمْ ؟ بل إنهم أطفال مبتدئون وليسوا محتالين . تصور أن خمسين شخصاً يجتمعون لعمل من هذا النوع ! هل هذا منطقي ؟ إن ثـــلاثة أشخاص في قضية مثل هذه القضية لعدد كبير لأن طبيعة العملية تقتضى أن يكون كل منهم واثقاً وأميناً على مستقبله من نفسه . فكيف إذاً يـــأمن ألا يسترسل في الثرثرة بفعل الشراب ؟ إن كلمة واحدة تكفي عندئذ لاشعال النار في البارود . إنهم مبتدئون لأنهم عهدوا إلى اشخاص غير مأمونين بتصريف الأوراق النقدية المزورة فهل يعقل أن يكلف الانسان أول من يصادفه بمثل هذه المهمة ؟ هيا ! لنفرض أن هؤلاء المبتدئين قد نجحوا وأن كل واحد منهم قد توصل إلى تصريف مليون روبل ثم بعد ؟ هل سيستمر على ذلك مدى الحياة ؟ كلا ! ومع ذلك فان مستقبل كل واحد منهم مربوط بالآخرين .إن الانتحار أفضل من هذه النتيجة ! والأغرب من ذلك أن هؤلاء المزورين لم يستطيعوا إبدال ورقة واحدة لأن أول واحد منهم عندما استبدل الخمسة آلاف روبل كان يرتعد خوفاً . حتى أنه عد الأربعة آلاف الأولى فقط أما الألف الخامسة فقد تقبلها دون عد متلهفاً على الانسحاب وساعياً فقط الى حشرها في جيوبه وبذلك أيقظ الشبهات والشكوك فافتضحت القضية بسبب ذلك السخيف . فهل هذا مقبول ؟

فقال زاميتوف :

ـــ أما أن تكون يداه قد ارتجفتا فهو لعمري صحيح وهو يشاهَد كثيراً. هناك حالات يعجز المرء عن ضبط شعوره فيها .

ـــ ماذا تفهم من ذلك ؟

ـــ بل قل لي أنت هل كنت تستطيع السيطرة على أعصابك ؟ لو أنني كنت في هذا الموقف لما استطعت ذلك ! كيف يخاطر المرء مستهدفاً لكل تلك النتائج من أجل مائة روبل وان يتقدم بورقته المزورة إلى المصرف . تصور الى المصرف ليستبدلها ! كلا ! لو كنت في ذلك الموقف لأضعت رشدي . وأنت . أما كنت تشعر بمثل ذلك الشعور ؟

شعر راسكولينكوف من جديد برغبة عاتية تدفعه إلى السخرية من محدثه وأحس بقشعريرة باردة تكتسح ظهره . غير أنه تمالك نفسه وقال :

ـــ ما كنت لأتصرف على هذا النمط ! لو كنت في ذلك الموقف وكان على أن أبدل ورقة مزورة لتصرفت على النحو التالي : كنت أعد الألف الأولى أكثر من مرة وأنا أعاين العلامات المميزة فيها ثم كنت أبدأ بالألف الثانية فأعـــدها بعنايه وأسحب من وسط الرزمة ورقة من ذات العشرة روبلات لأعاينها على نور الشمس لأتأكد من أنها ليست مزورة ولكنت اقول معتذراً عن سلوكي : « إنني لا أثق بعد أن أضاعت إحدى قريباتي خمسة وعشرين روبلاً كانت عملة زائفة ولم تنتبه اليها » ولكنت لفقت قصة كاملة حول هذاالموضوع . وعندما أبلغ الألف الثالثة كنت أهتف : « انتظر لقد أخطأت في عد المائة السابعة من الرزمة وأعتقد أني وقعت بمثل هذا الخطأ في الألف الثانية » وعندئذ كنت أترك الالف الثالثة لأعود إلى الثانية فأعد المائة السابعة منها وكنت أسحب أول ورقة منها تقع في يدي فأعاينهـا ثم أعيدها إليه قائلاً : « أرجو أن تبدل لي هذه ! حتى أجعل أمين

الصندوق يسبح في عرق غزير ويحار كيف يتخلص مني . وبالطبع كنت آخر الأمر سأذهب بعد أن أفتح الباب وأستدير اليه لأعتذر ، ثم أنسحب ! » هكذا كنت أتصرف لو كنت في ذلك الوضع .

قال زاميوتوف وهو يضحك :

ــ ها ها ... ياله من أمر بغيض ! لكن هذه ليست سوى أقوال . أما عند التنفيذ فثق أنه كان حرياً بك أن تصطدم بعثرة! دعني أقول لك رأيي : « إن أي سفاح ، وليس أنت وأنا ، لا يمكن ان يضبط اعصابه . خذ مثلاً حادثة قريبة : لقد قتلت العجوز في حيّنا ويبدو ان القاتل وحش مخيف ارتكب جريمته في وضح النهار واستطاع الافلات بمعجزة مع ذلك فقد ارتعدت يداه حتى انه لم يحسن السرقة ولم يستطع الاستمرار حتى النهاية : ان الوقائع تدل عليه » .

بدا راسكولينكوف مزعوجاً بهذا القول وصاح وهو ينظر الى زاميوتوف نظرة خبيثه :

ــ تدل عليه : إذاً حاولوا القبض عليه إن استطعتم . طاردوه .

ــ لاتخف سوف يقبض عليه .

ــ من ؟ أنتم ؟ أنتم الذين ستلقون القبض عليه ؟ هم! لكم ان تخدعوا انفسكم إن شئتم ! إن ما يهمكم هو ان تعرفوا ما اذا كان القاتل ينفق الآن من المال الذي سرقه ام لا . وعندئذ تقولون لأنفسكم « كان فلان من قبل بائساً فكيف ينفق الآن عن سعة ؟ لابد وان يكون القاتل ! » وعلى ذلك فان اي طفل يستطيع ان يخدعكم إذا شاء .

فأجاب زاميوتوف :

ــ الواقع ان كل المجرمين يتصرفون على هذا الشكل . اما من حيث القتل فانهم ينجزونه بمهارة ثم يقعون في ايدينا عند دخولهم او مشرب ولا شك ان

الشرطة تقبض عليهم عندما يعثرون المال الذي سرقوه ! لا يمكن ان يكونوا جميعاً دهـــاة مثلك ! من الواضح أنـك لو كنت أنت لما ذهبت الى حانة أبداً .

قطب راسكو لنيكوف حاجبيه وحدق في وجـه زاميوتوف ثم سأل بوجه متجهم :

— يبدو أنك تتوق لمعرفة الأسلوب الذي كنت أتبعه في مثل هذه الحال .

فاجاب زاميوتوف بلهجة خطيرة وصوت ثابت حتى ليخيل للناظر اليه أن وجهه اتسم كذلك بميسم الخطورة المتزايدة :

— إني أود ذلك حقاً .

— وهل تعلق عليه أهمية كبرى ؟

— جداً .

— حسناً . اليك ما كنت أعمله !

ودنا راسكولنيكوف بوجهه ثانية من وجه زاميوتوف وراح يحـــدق فيه ويتكلم بهمس جعل الآخر يشعر برعدة تسري في أوصاله . قال :

— « كنت استولي على المال والحلي ثم أخرج من المـكان ودون أن أضيع دقيقة واحدة أو أن أضرب في الارض باحثاً ، كنت أقصد مكاناً منعزلاً كبستان يحيط به سور أو أي شيء من هذا القبيل بعـد أن أكون متـأكداً من وجود حجر ضخم يزن ثلاثين رطلاً مثلا في زاوية ما أو قرب الجـدار في ذلك البستان أو الباحة ، حجر يكون ملقى هناك منذ أن شيدت الدار أو الجـدران ، كنت أرفع ذلك الحجر الذي ينبغي أن تكون تحته حفرة صغيرة وأودع الحلي والمـال في تلك الحفرة ثم أطمرها وأعيد الحجر الى مكانه بعد أن أسوي الارض دفعـاً لـكل تغيير يحدث وأنصرف ! وكنت سأنتظر عاماً أو عامين أو ربما ثلاثـة أعوام

ممتنعاً عن الاقتراب من تلك الاشياء وبعدئذ تستطيع أن تبحث لأن العصفور يكون بذلك قد طار .

صاح زاميوتوف بصوت قريب من الهمس وهو يبتعد فجأة عن راسكو لنيكوف :

— أنت مجنون .

كانت عينا راسكو لنيكوف تلتمعان ووجهه شاحباً مخيفاً وشفته العليا ترقص بعنف وكان منحنياً انحناء شديداً نحو زاميوتوف وهو يحرك شفتيه دون أن يصدر عنها صوت ما . وهكذا انقضت نصف دقيقة وهو يعقل ما يعمل لكنه لا يستطيع الكف عن ذلك العمل . كانت الكلمة الرهيبة — كما كان الرتاج ، رتاج ذلك الباب من قبل — على وشك الافلات من شفتيه ، كانت تحاول الخروج . لكنه استطاع أخيراً أن يحولها بالشكل التالي حين قال :

— هذا لو كنت أنا الذي قتلت العجوز واليزابيت !

أما زاميوتوف فكان ينظر اليه نظرة مروعة وقد شحب وجهه حتى حاكى لون غطاء المائدة بينما كان شبح ابتسامة يلوح على شفتيه . قال بصوت لا يكاد يسمع :

— لكن هل هذا ممكن ؟

فألقى عليه راسكو لنيكوف نظرة شيطانية وقال بصوت بارد حازم بعد أن استعاد نشاطه الذهني :

— اعترف ، اعترف بأنك ظننت أنني القاتل . نعم . أليس كذلك ؟

فبادر زاميوتوف الى القول :

— أبداً . بل إنني الآن أبعد الناس عن الظن أو الشك .

ـــ ها قد ضبطتك الآن ! لقد اقتنص « الشحرور » ! إنـك إذاً ظننت ذلك من قبل طالما أنك تقول : « أنك الآن أبعد الناس عن الشك » .

فصاح زاميوتوف وقد بدا عليه الانزعاج لهذه الهفوة :

ـــ إطلاقاً ... أبداً ... إنـك انت الذي روعتني حتى جعلتني أتلفظ بهـذه الكلمات .

ـــ اذاً إنك لم تكن تشك في أمري ! لكن عن أي شيء اذاً كنت تتحـدث لما غادرت ـ أنا ـ دائرة البوليس ؟ ولمَ راح « الملازم البارود » يستجوبني بعد أن استفقت من إغمائي ؟

نهض واقفاً وصاح بالتدل قائلاً :

ـــ ما هو حسابك ؟

ـــ ثلاثون كوبيكاً بمجموعه ...

ـــ حسناً اليك عشرين كوبيكا مكافأة . ثم التفت الى زاميوتوف وقال وهو يمد له يداً مرتجفة ملأى بالاوراق المالية :

ـــ أترى كم عندي من النقود ؟ إن بينها أوراقاً حمراء وزرقاء مجموعها خمسة وعشرون روبلا . فمن أين أتتني ؟ ثم . ثوبي الجـــديد ؟ من أين جاء ؟ أنت تعرف مـــع ذلك أنني لا أملك دانقاً ! إنني أراهن على أنك قد استنطقت صاحبة الدار التي أسكنها . هيا ! هذا يكفي . لقـد تحدثنا كثيراً فالى اللقاء وبسرور .

خرج يهزه شعور غريب ، لون من « الهيستريا » الممزوجة باللذة العميقة كان وجهه مربداً شديد الهزال متشنجاً كأنه أصيب بنوبه حادة وازداد اعياؤه شدة فقد شعر عقب هذه الصدمة الاولى أن قواه التي عادت اليه مثارة جداً قـد وهنت فجأة بانتهاء الصدمة واصبحت أشد ما تكون خوراً .. ولما اصبح زاميوتوف

وحده لبث جالساً في مكانه فترة غارقا في التفكير . ذلك أن راسكولنيكوف — دون أن يعي — قلب له نظرياته رأساً على عقب وجعله يتخذ قراراً نهائيا ويقول متمتما : « إن إيليا بيترفيتش وحش سمج » .

ما كاد راسكو لنيكوف يفتح الباب المؤدي الى الشارع حتى التقى برازوميخين داخلا . فتوقف كل منهما على بعد خطوة من الآخر واخذا يتبادلان النظر . بدا على رازوميخين الذهول وأعقبه غضب عنيف اشتعل في وجهه والتمعت عيناه ببريق متوعد وصاح ملء فيه :

— أنت هنا اذاً ! ويحك لقد فررت من السرير ! أيها الخبيث . لقد جعلتني أبحث عنك تحت السرير وفي غرفة الغلال حتى أنني كدت أن أضرب ناستاسيا لاهمالها . ثم أين أجدك ! روديا ما معنى هذا ؟ قل لي الحقيقة ! اعترف . هل تسمع ؟

اجاب راسكو لنيكوف بهدوء .

— معنى ذلك أنكم تزعجوني إزعاجاً مميتاً وأريد أن اكون وحيداً . . .

— وحيداً ! وانت الذي لا تستطيع السير ؟ ووجهك أشد شحوباً من قطعة القماش ؟ وصدرك لا يستطيع التنفس ؟ ايها الغبي ! ماذا فعلت في « قصر البلور »؟ اعترف فوراً .

غير أن راسكو لنيكوف حاول الابتعاد وهو يقول :

— دعني أمر ...

جن جنون رازوميخين واطبق على كتف راسكو لنيكوف بعنف وصاح :

— ادعك ؟ ادعك ؟ انت تجرأ على قول « دعني أمر » بعد ما فعلته حتى

الآن ؟ أتعرف ماذا سأفعل بك فوراً ؟ سوف اضعك تحت إبطي واربطك كحزمة محترمة ثم احملك الى مسكنك وسأغلق عليك الباب بالمفتاح .

قال راسكولنيكوف بهدوء وبصوت ساكن :

ــ اسمع يا رازوميخين . ألا ترى أنني عازف عن خدماتك ؟ اي شيء اشد صعوبة على المرء من صنع المعروف مع من لا يبالي به مطلقاً ! مع من يزعجه أن يعمل من اجله ذلك المعروف ، هيا لماذا جئت تعنى بي منذ بدء مرضي ؟ مايدريك أنه كان يسعدني ان اموت ! ألم افهمك ما فيه الكفاية اليوم ؟ إنك تؤلمني وتزعجني وتعذبني ؟ ثق بان ذلك يؤخر شفائي . لأنه يجعلني في حال دائم من الثورة والغضب . فدعني اذاً بربك . بأي حق تستوقفني عنوة ؟ ألا ترى أنني محتفظ بكل قواي الفكرية وانا أتحدث معك ؟ كيف استطيع ان احصل منك على وعد بانك لن تفرض وجودك علي وانك ستكف عن العناية بي ؟ انا عاق . ليكن ! انا مخلوق خشن ، سمج ، فظ ، ولكن بربكم ، بربكم دعوني هادئاً، دعوني ، دعوني .

كان يتكلم بصوت هادئ وهو يخمن سلفاً نوع السم الذي كان ينثره باقواله ولم ينته من حديثه إلا وقد بلغ به الحال مبلغاً من الضعف كاد ان يكتم انفاسه تماماً كما وقع له من قبل مع لوجين . اما رازوميخين فقد فكر لحظة ثم افلت ذراع راسكولنيكوف وهو يقول بصوت حالم :

ــ حسناً . اذهب الى الشيطان .

وفجأة انتابه غضب عنيف فصاح :

ــ انتظر ، اسمع : اصرح لك : بانكم جميعاً ــ انت ومن هم على مذهبك ــ ثرثارون مساكين ادعياء حقــيرون حتى انكم اذا اصبتم بألم تصرفتم تصرف الدجاجة التي وضعت بيضة للتو ! انكم تسرقون الكتّاب الاجانب حتى في هذه

الامور لانكم لا تملكون في انفسكم شيئا من الحياة الخاصة المستقلة . إن لحمكم ابيض كلحم الحوت وما يجري في عروقكم إن هو إلا حليب وليس بدم ! انا لا اصدق احداً منكم لأن همكم الأول في كل المناسبات هو تحاشي الظهور بمظهر الرجال ! اسمع قبل ان ترتحل ، اسمع ما اقول حتى النهاية . انت تعرف أن لدي الليلة اصدقاء مجتمعين في حفلة سمر اقيمها بمناسبة انتقالي للمنزل الجديد ولعلهم وصلوا الآن الى داري وقد تركت عمي هناك ليستقبلهم . فاذا كنت لست سخيفا عريقا في السخف ، او ترجمة للغة اجنبية ما ، فان من الافضل لك ان تقضى امسيتك عندي بدلاً من ان تتشرد هكذا في الشوارع . اسمع يا روديا ! انا اعرف انك ذكي وذكاؤك لا يمنع ان تكون لطيفا وعليه اذا لم تكن سخيفا فخير ماتعمله ان تأتي الى مسكني الليلة ولسوف اجد لك مقعداً مريحا جداً بل وسأضعك في سرير فاخر اذا اقتضى الامر وسيكون هناك عدد من الاصدقاء على ذلك يرفه عنك ! وسيحضر زرسيموف كذلك . فهل تحضر ؟

— كلا .

فصاح رازوميخين وقد نفذ صبره :

— إنك مخطىء بذلك ! وما يدريك ؟ لا يمكن للمرء ان يعرف ماسيكون ؟ لقد وقع لي شخصياً ان كنت أبصق في وجه بعضهم ثم اسارع الاتصال بمن بصقت في وجهه . انك تصاب بالخجل ولكنك بذلك تعود الى حظيرة بني الانسان . لذلك لا تنسى يا روديا عنواني : دار بوتشينكوف ، الطبقة الثالثة .

— يخيل إلي يا سيد رازوميخين أنك على استعداد لتحمل كل إهانةفي سبيل خدمة شخص ومساعدته .

— انا ؟ مجنون ! لا تنسى منزل بولشينكوف رقم (٤٧) دار الموظف بابو خكين .

ـــ لن احضر يا رازوميخين .

ـــ بل اراهن على انك ستحضر . وإلا فانك تتنكر لنفسك .

وبينما كان راسكولنيكوف يهم بمغادرة المكان دون ان يجيب وقعت عينا رازوميخين على زاميوتوف فهتف :

ـ هيه ! ان زاميوتوف هنا .

ـ نعم .

ـ هل رآك ؟

ـ لقد رآني .

ـ وتحدث معك ؟

ـ وتحدث معي .

ـ عن اي شيء ؟ هيا لتذهب الى الشيطان . لا تقل اذا كان لا يرضيك ... تذكر منزل بولشنيكوف رقم (٤٧) مسكن بابوخكين .

خرج راسكولنيكوف الى الشارع فبلغ شارع « البساتين » ودار حوله . وكان رازوميخين يتابعه بنظرات قلقة . ثم لوح بيديه دلالة على عدم الاكتراث ودخل المشرب .غير انه توقف على السلم مفكراً وغمغم:

ـــ « ليحملني الشيطان » ! انه كان يتكلم دون وعي. لكنه كان يبدو مالكا قواه . كم انا سخيف . ألا يتكلم المجانين بلهجة مماثلة للهجة العقلاء؟ انزوسيموف نفسه يشك في ذلك على ما يبدو .

ثم ضرب جبهته بيده وقال :

ـــ ولكن ... كيف أدعه وحيداً في هذه اللحظة ؟ لا يبعد ان يلقي بنفسه الى النهر ليغرق ! لا شك أنني ارتكبت خطيئة حين تركته يذهب . وعاد

ادراجه يلحق براسكو لنيكوف . لكن هذا كان قد اختفى . فلما أعياه البحث عاد الى « قصر البلور » ليستفسر من زاميوتوف عما وقع له معه .

اتجه راسكولينكوف نحو جسر « ايكس » ... ووقف في منتصفه مستنداً الى الحاجز وراح ينظر الى الأفق البعيد . شعر بعد مبارحته لرازوميخين انه شديد الضعف وأنه استنفذ كل قواه حتى استطاع بلوغ هـذا المكان . أحس بحاجته الى الراحة . الى النوم في الشارع واخذ يرمق متأملاً دون وعي اشعاع الشمس الأحمر الأخير الذي يلتمع على صفحة الماء والبيوت الغارقـة في العتمة الداهمة . وهناك على الشاطئ الأيسر كان إشعاع الشمس الغاربة ينعكس على زجاج نافذة في اعلى منزل فيجعلها تبدو ملتهبة وكأنها قطعة من الجحيم . وكانت المياه في القنال تبد قاتمة اللون فبدا على وجهه اهتمام خاص بالمـاء وأخيراً شعر بحلقات حمراء تدور أمام عينيه وخيل اليه أن المنازل والمارة والرصيف وكل من عليه ومن حوله بدأوا يدورون وكأنهم يرقصون ثم انتفض فجأة وكأنه تخلص بصعوبة وبجهود من الاغماء الذي كاد ان يدهمـه وشعر بشخص يقترب منه ويقف الى يمينه . كانت سيدة طويلة القامة تحجب رأسها بشال ولها وجـه اصفر هزيل تلتمع في محجريها العميقين عينان حمراوان . كانت تحدق فيه دون ان تراه لأنها كانت في حالة لاتسمح لها بتمييز الاشخاص . اقتربت تلك الامرأة من الحاجز فجأة ووضعت مرفقها عليه ثم طوحت بساقها اليمنى اولاً وأعقبتها باليسرى والقت بنفسها الى الماء فانبعث من المـاء الكدر صدى ارتطام جسدها فيه وسرعان ما ابتلعت المياه الفريسة لتلفظها بعد قليل وتجتذبها مع التيار ورأسـها وساقاهـا مغموران وبدا ثوبها منتفخاً وكأنه فراش صغير . انبعثت في تلك اللحظة عشرات الأصوات صائحة :

«امرأة تختنق ، امرأة تختنق» وتهافت الناس فحشر راسكولينكوف نفسه بينهم

وسمع احدهم يقول :

ــ رباه انها آفروسينيوشكا !

وضاح بعضهم :

ــ الينا بزورق ... بزورق ...

وفي تلك اللحظة كان أحد الرتباء قد هبط السلم المؤدي الى شاطىء القنال ونزع معطفه وحذاءه ثم ارتمي في الماء ولحق بالأمرأة الغارقة فأطبق على ثوبها بيده اليمنى بينما تعلق باليسرى بالحبل الذي ألقاه اليه زميل له . وهكذا اخرجت اليائسة المنتحرة من القناة وألقيت على ارض الرصيف لتجرى لها الاسعافات . ولم يمض قليل حتى استعادت رشدها ففتحت عينيها وتناهضت ثم جلست واخذت تزيل عن ثيابها ما علق بها من الطمي بحركة لا ارادية دون أن تنبت بكلمة وتهافت الناس حولها وهتفت امرأة تقول :

ــ لقد ركبها ألف شيطان ! نعم ألف شيطان .

وراحت المتحدثة تفسر ما حدث بقولها :

ــ لقد حاولت في المرة الأولى شنق نفسها لولا أن أنقذت في آخر لحظة . انها جارتنا ونحن نقطن في المنزل الثاني قريباً من هنا على هذه الناصية . وقد خرجت لشراء بعض الحاجيات من البقالية وطلبت من الخادم مراقبتها . ومع ذلك فقد وقع المحذور .

لم يلبث المجتمعون ان تصرفوا وبقي « الرقيبان » يعنيان باليائسة وكان بعضهم قد الح الى وجوب سوقها الى دائرة الشرطة .

راح راسكولينكوف ينظر الى هذا الصخب باحساس غريب من اللامبالاة والجمود . وشعر بالغثيان وتمتم يحدث نفسه قائلاً :

ــ كلا ! انه بغيض ! الماء ؟ انه لايستحق العناية . خصوصاً وانه لن يحدث

شيء فلمَ الانتظار ؟ ولكن على فكرة ، لمـــاذا بارح زاميوتوف عمله في دائرة الشرطة رغم ان الدوام يستمر حتى الساعة التاسعة ؟

أدار ظهره الى الحاجز بعد ان كانت فكرة الانتحار تراوده وألقى نظرة حوله ثم خاطب نفسه وكأنه اتخذ قراراً حاسماً :

ـــ هيا بنا ! لمَ لا ؟

ثم غادر الجسر واتجه نحو دائرة الشرطـة بقلب جامد لا احساس فيه . كان يمقت التفكير في تلك اللحظة حتى ليقال ان قلقه قد غادره وان تلك الانتفاضة التي خلقت فيه بعض النشاط فأخرجته من حجرته « لينهي كل شيء » قـد حل محلها فتور ووهن كاملان . استمر يحدث نفسه بقوله :

ـــ حسناً . ان ذلك أيضاً يعتبر مخرجاً . ثم إنني اريد الانتهاء لذلك فسأنتهي أليس ذلك بالمخرج المناسب ؟ ماذا يهم ! سيكون لي دائمـاً « قـدوم مربعة » من المساحة . مع ذلك يالها من نهاية ! هـــل يمكن أن تكون تلك هي « النهـاية » ياللشيطان ! إننى تعب وأود بجدع الأنف لو أنام أو أجلس والخجل في الموضوع ما فيه من سخف . مع ذلك ، لأنسَ كل هـــذا . إنني أحياناً أترك الحماقات تعصف في رأسى .

كان عليه كي يصل الى دائرة البوليس ان يسير بخط مستقيم ثم ينعطف الى اليسار عند بلوغه الشارع الثاني . لكنه قبل أن يصل الى المنعطف الأول توقف برهة وراح يفكر ثم ما لبث أن سار في زقاق وانعطف بعد أن قطع شارعين ثم توقف دون ان يشعر بما يعمل ولعله اراد بتوقفه استجماع آرائه واكتساب الوقت ! كان يمشي مطرقاً ببصره الى الارض . وفجأة شعر كأنما يهمس بعضهم في اذنه . ولما رفع رأسه وجد انه قد بلغ باب ذلك « البناء » ووقف تمامـــاً أمام الباب ! كان يتحاشى منذ تلك « الليلة العتيدة » المرور بذلك المكان غير أن رغبة

لاتقاوم يصعب تفسيرها استبدت به فدخل البناء بعد ان اجتاز المـــدخل ثم انحرف الى السلم الأول الى اليمين وراح يصعد الدرجات المعروفة لديه والتي تقود الى الطبقة الرابعـــة . كان الظلام حالكاً والسلم ضيقاً يصعب سلوكه فكان راسكولينكوف يتوقف على كل « بسطة » وينظر حوله بفضول . شاهــــد على « بسطة » الطبقة الأولى عارضة جديدة لم تكن موجودة من قبل بينما كان مسكن الطبقة الثانية مجدداً تماماً وقد طلي بابه الموصد بالدهان فاستنتج انه قد أجر وأشغل وأن نيكولا وديمتري قد فرغا من العمل فيه . ولما بلغ الطبقة الرابعة حدث نفسه قائلاً : « هنا » !

شعر بتردد ولون من الخوف : كان باب المسكن مفتوحاً على مصراعيــــه وكانت أصوات تنبعث من الداخل فتأكد من وجود أشخاص فيه ، الأمر الذي لم يكن يتوقعه : لم يتردد طويلاً بل دخل المسكن بقدم ثابتة .

كان بعض العمال يرممونه ويجددون ما تلف منه فأذهله ذلك لانه ـ على مايبدو ـ كان يتوقع أن يراه على حالة الذي تركه عليه آخر مرة بل لعله كان ينتظر ان تكون الجثتان مسجاتين في مكانهما المعهود فاذا به تطالعه الآن غرفة ذات جدران عارية خالية من الاثاث فبدا له المشهد غريباً . تقدم نحو النافـــذة فجلس على حافتهــا .

كان في المسكن عاملان يشتغلان . احدهما اكبر سناً من الآخر وكلاهما لم يتجاوز طور الشباب . كانا يلصقان على الجدران أوراقاً بيضاء مزينــة بأزهــار البنفسج وهما ينزعان الاوراق الصفراء القذرة الممزقــة التي كانت تكسوهــا من قبل . شعر راسكولنيكوف بغضب عنيف يستولي عليــه وراح ينظر الى تلك الاوراق الجديدة نظرة عدائية وكأنه يأسف لكل تلك التغييرات المحدثة .

وكان العاملان على وشك الانتهاء من عملهما فكانا يرتبــان معداتهما ويتأهبــان

لمغادرة البناء . لذلك لم يزعجها دخول راسكولينكوف بل استمرا يتحدثان. كان أحدهما يقول :

ـــ جاءت تزورني صباح ذات يوم تتصنع عطف الكبير على الصغير وكان الوقت مبكراً جداً وهي في ابهى زينتها فسألتها : ماذا بك ؟ لمَ تظهرين هكذا ؟ فأجابت :

ـــ يا « تيت فاسيليتش » أريدأن أكون اعتباراً من اليوم لك وحدك ! .. ولكي اصفها لك أكتفي بالقول : انها تشبه « جورنال » الموضة تماماً !

فأجابه الآخر :

ـــ « جورنالات الموضة » ! انها كما تعلم عبارة عن صور ملونة تصل كل يوم سبت بالبريد من الخارج . انها تصلح لتعليم النساء كيفية ارتداء الملابس وصنعها وكذلك الرجال. انها رسوم فالرجال يصورون فيها وعليهم أجمل الثياب أما فيما يتعلق « بجناح » النساء فحدث ! انهم يصورونها بشكل جذاب جميل اولئك الماكرون حتى أنك لو أردت التضحية بكل ماتملك لما أمكنك دفع أثمان ما هو مصور فيها .

فصاح الفتي الاصغر سناً وقد اعجبه الحديث :

ـــ ما هو الشيء الذي لاتراه في ذلك « الشيء » انه حاو على كل شيء .

ـــ نعم حتى والاشياء « الاخرى » . لاتخلو منها .

نهض راسكولنيكوف ومضي الى غرفة النوم التي كانت تضم صندوق العجوز والخزانة . فبدت له الغرفة صغيرة الحجم وهي فارغة ولم يكن العاملان قد نزعا بعد ما كان على جدرانها من أوراق وكانت هناك آثار في أحد أركانها تخلفت عن دولاب « الايقونات » . نظر حوله وعاد الى النافذة . فحدجه أكبر العاملين سناً بنظرة وسأله :

ـــ ماذا تبحث هنا ؟

لم يجب راسكو لنيكوف بل نهض واقفاً ومضى الى المدخل حيث حبل الجرس فأطبق بيده عليه وجذبه فدوى صوت الجرس ... الصوت « إياه » الذي سمعه ،صوت « التنك » . كرر القرع ثانية وثالثة ، وعادت الى مخيلته .صورة تلك اللحظة الرهيبة التي قضاها في هذا المكان فكان يرتعد كلما دوى صوت الجرس ويشعر بلون من السرور !

صرخ العامل في وجهه منفعلاً :

ـــ لكن ماذا تريد ؟ من أنت ؟

عاد راسكولنيكوف الى الغرفة الداخلية وهو يقول :

ـــ أنا أبحث عن مسكن أقطنه وقد جئت أعاين هذا !

ـــ لا يزور الناس المساكن الخالية ليلا ! ثم انه كان عليك أن تصحب معك البواب !

سأل راسكولنيكوف وهو يتجاهل ملاحظة العامل :

ـــ لقد نظفوا الارض كما يبدو . هل سيدهنونها ؟ ألا توجد آثار دماء ؟

ـــ أية دماء ؟

ـــ لكن العجوز وأختها قتلتا هنا وكانت هنا بحيره من الدم !

بان الانزعاج على وجه العامل وهتف :

ـــ أي نوع من الناس أنت ؟

ـــ أنا ؟

ـــ نعم !

ــ أتريد أن تعرف أي نوع من الرجال أنا ؟ لنذهب الى دائرة الشرطة وسأعلمك هناك !

نظر العاملان الى بعضها بخوف فقال الاكبر سناً :

ــ هيا ... لقد أزف وقت رحيلنا بل اننا قد تأخرنا . هيا يا « آليوشا » لنذهب وينبغي أن نغلق الباب .

فقال راسكولنيكوف بلا مبالاة :

ــ حسناً لنذهب .

وخرج أولاً وراح يهبط السلم ببطء فلما بلغ الباب الخارجي هتف منادياً البواب !

ــ هه ! « دفورفيك » !

كان عدد من الاشخاص بينهم البوابان واحدى الفلاحات وأحد الصناع بثوب منزلي ، واقفين أمام الباب يتأملون المارة . قصد راسكولنيكوف اليهم فسأله أحد البوابين :

ــ ماذا تريد ؟

ــ هل كنت في دائرة البوليس ؟

ــ لقد جئت للتو من هناك . ماذا تريد ؟

ــ هل هم هناك حتى الآن ؟

ــ نعم إنهم هناك .

ــ وهل مساعد رئيس البوليس هناك أيضاً !

ــ لقد كان هناك منذ لحظات . ماذا تريد ؟

لم يجد راسكولنيكوف بل لبث واقفاً بين الجماعة ساهم الفكر بينما قال أكبر العاملين سناً :

— لقد جاء يتفقد المسكن الذي يشتغل فيه !

— أي مسكن ؟

— ذلك الذي نشتغل فيه وكان يسأل : لمَ غسلوا الدم ؟ لقد وقعت جريمة قتل هنا وقد جئت أستأجر هذا المسكن ! ثم راح يقرع الجرس حتى كاد أن يقطع حبل الجرس . ثم طلب الينا أن نذهب معه الى دائرة البوليس ليتحدث بكل شيء !

شعر البواب بشيء من القلق وراح يصعد راسكو لنيكوف ببصره وقدقطب حاجبيه ثم قال وقد اكتسب صوته طابع التهديد :

— من أنت ؟

— أنا روديون رومانيتش راسكو لنيكوف ، طالب سابق وأقطن في دار « سشيل » بالقرب من هنا في الزقاق المجاور رقم ١٤ . اسألوا البواب إنه يعرفني !

نطق راسكو لنيكوف بتلك الاقوال وهو شاردالذهن ينظرالىالشارعالذي بدأت الظلمة تكتسحه نظرات ساهمه بلهاء .

— وماذا جئت تعمل في هذا المسكن ؟

— أردت أن أراه !

— وماذا فيه حتى تهتم برؤيته ؟

وهنا تدخل الصانع ذي الثوب المنزلي وقال :

— ماذا لو استقناه الى مركز البوليس ؟

نظر اليه راسكو لنيكوف نظرة متعالية وتأمله برهة باهتمام ثم قال بهدوء :

— هيا بنا !

بينما عاد الرجل يقول مؤكداً :

ـــ ينبغي أن نذهب به الى هناك طالما أنه جاء « لهذا السبب» ينبغي أن تكون في رأسه فكرة ما !

بينما غمغم العامل :

ـــ الله يعلم اذا كان ثملاً أم لا ؟

وعاد البواب يسأل وقد علا وجهه الغضب :

ـــ ماذا تريد على الضبط ؟ لماذا جئت تزعجنا ؟

فاجاب راسكو لنيكوف بسخرية :

ـــ إنك ترتعد خوفاً من الذهاب الى دائرة البوليس !

ـــ ولم أرتعد من الخوف ؟ لمَ جئت تزعجنا ؟

وصاحت القروية :

ـــ إنه نشال حقير !

بينما قال البواب الآخر وكان رجلا ضخم الجثة يحمل في يده حلقة مفاتيح كبيرة :

ـــ إنه متسكع حتماً فلمَ تتناقش معه ؟ هيا غادرنا ... « انقلع » !

وأمسك بكتف راسكو لنيكوف ثم دفعه الى الشارع فكاد أن يسقط على الارض لكنه تحامل على نفسه ونظر بامعان الى اولئك الذين كانوا مجتمعين وابتعد.

قال العامل بدهشة :

ـــ إنه مخلوق غريب !

فاجابت القروية :

ـــ صحيح ! لقد أصبح « العالم » في هذه الايام شديد الغرابة .

وقال الصانع :

ــ كان يجب سوقه الى « القسم » .

فأجاب البواب الضخم :

ــ وما فائدة ذلك ؟ إنه متسكع نشال كما بدا لنا فلو أخذناه لسقط في الفخ ولما استطاع الخروج ...

راح راسكو لنيكوف يناجي نفسه قائلا : « أأذهب أم لا أذهب ؟ » وكان واقفاً على الرصيف عند المنعطف ينظر حوله وكأنه ينتظر الجواب من أحد .غير أن الجواب ظل معلقاً ! كان كل شيء ميتاً لا يحس ولا يشعر بآلامه وعذابه ! كان كل شيء ميتاً بالنسبة اليه فقط ! وفجأة لمح على بعد مائتي خطوة من مكانه ، جمهرة من الناس ، يزداد عددها في ذلك الظلام الوافد وسمع صرخات وصيحات وأصوات متنافرة . وفي وسط الجمهرة وقفت عربة يشع منها ضوء باهت . أثار المنظر راسكولنيكوف فانعطف يميناً وراح يحث خطاه متجهاً نحو المتجمهرين . كان يبدو عليه أنه يريد الاتصال بأي كان لأنه كان اتخذ قراره النهائي: لسوف يذهب الى مركز البوليس بعد لحظات فلم لا يملأ عينيه من المشاهد « المبهجة » حتى ذلك الحين !

الفَصلُ السّابعُ

كانت عربة أنيقة واقعة وسط الشارع وقــد شد اليها حصانان أشملان حرونان ... وكانت العربة خالية والسائق واقفاً بجانبها وقـد تخلى عن مكانه . . . وكان بعضهم ممسكاً بمقاود الحصانين بينما تجمع نفر من الناس حولهـا فراحت شرذمة من رجال البوليس تمنعهم من الاقتراب ! ... وكان أحد رجال الشرطـة ممسكاً بمصباح في يده يلقي ضوءه على شيء ملقى على الرصيف قرب العجلات ؛ وبدا السائق مرتبكاً قلقاً اذ كان يهتف بين حين وآخر :

— ياللتعاسة ! رباه ياللتعاسة !

شق راسكولنيكوف طريقاً لنفسه وسط الازدحام حتى استطاع أن يبلغ مكاناً استطاع فية معرفة سبب هذا الحشد الصاخب المضطرب ، كان على الارض، رجل ملقى على الرصيف فاقد الصواب والدم يغمر كل جسمه وقد سحقته العجلات منذ حين . كانت ثيابه بالية قديمة ولكنها تدل برغم ذلك على أن صاحبهـا « سيد » أو أنه كان « سيداً » وليس صعلوكاً وكان الدم يتفجر من جمجمته ووجهه المهشمين حتى اختلطت معالمها . كان الحادث مؤلمـاً وكان مقدراً لضحيته الموت !

عاد السائق يصيح ذاهلاً :

— رباه ! كيف كان يمكنني معرفة ماذا سيحدث ؟ فلو أن خيولي كان تسير هدباً أو أنني لم أحذره صائحاً بكل قواي لكان الأمر ممكننا . لكني كنت اسير ببطء وتمهل وبسرعة عادية تماماً وقد شهد الناس كلهم ذلك هل اصدق ويكذب الآخرون ؟ لكن الرجل الثمل يرى « الدنيا » مشوشة في وضح النهار ! لقد رأيته

يجتاز الشارع مترنماً حتى انه كاد ان يستلقي في منتصف الطريق ، فهتفت بـــه محذراً ثلاث مرات وخففت سرعــة الجياد لكنه جاء يصطدم بهم بخط مستقيم ! إنني أعتقد أنه تعمد ذلك ، والجوادان فتيان نشيطان فكانت صيحاتي المحذرة تزيد في هياجها وهكذا وقع الحادث المؤلم .

وصاح شاهد عيان بين المتجمهرين يقول :

ـــ إنه يقول الحق !

وأيده ثان وثالث :

ـــ لعمري ان ما قاله هو الصدق ! لقد صرخ ينبهه ثلاث مرات متتالية !

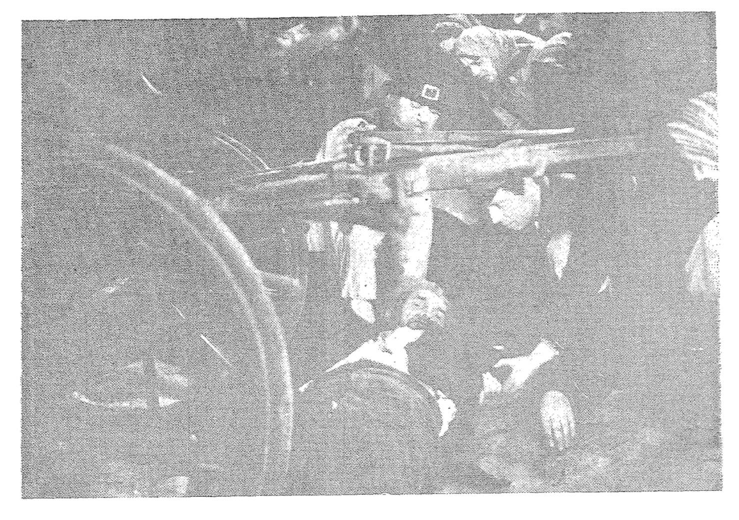
ـــ ثلاث مرات ، ثلاث مرات ، كلنا سمعنا ذلك !

وكان يبدو على السائق أنه غير وجل لما حـدث فقد كانت أعصابه هـادئة باستثناء تلك العبارات التي لاتخلو من قلق والتي كان يرددهـا بين الحين والآخر مشفقاً على مصير الضحية ، وقد بدا أن العربة تخص بعض الأغنياء وان صاحبها ينتظر قدومها في مكان معين وكان رجال الشرطة مدركين تلك الحقيقة وقـد أعاروها كل اهتمامهم . فلم يبق عليهم الا نقل المدهوس الى مركز البوليس ثم الى المستشفى دون ان يعرف اسمه . وكان راسكولنيكوف قـد تسلل خلال ذلك الوقت حتى بات في عداد اقرب الناس الى الضحية وفجأة أضاء مصباح الشرطي وجه التعس فعرفه وهتف وهو يزيح الناس عن طريقه ليصل الى الصف الأول :

ـــ أنا أعرفه ... أنا أعرفه ! إن موظف متقاعـد ، المستشار مارميلادوف وهو يقطن بالقرب من هنا في دار كوزل ! عليَّ بطبيب وأنا ادفع الأتعاب !

وأخرج نقوده من جيبه وعرضها على انظار رجـل البوليس وهو في اعلى درجات الانفعال والاضطراب ،

سُر رجال الشرطة لمعرفة اسم الضحية اما راسكولنيكوف فقد اعلن عن



راسكولنيكوف يهرع لنجدة مارميلادوف

اسمه وعنوانه مجهداً نفسه كما لو كان الرجل أخاه الاكبر ساعياً الى نقله بسرعة الى داره وهو فاقد الوعي . وكان يهتف :

— إنه يقطن هناك على بعد ثلاثة منازل من هنا وصاحب منزله ألماني غني : « كوزل » . لقد كان ثملا حتماً وكان قاصداً مسكنه . أنا أعرفه ... إنه مدمن وله عائله كبيرة العدد : زوجة وأولاد بين بنين وبنات . كم يلزم من الوقت لنقله الى المستشفى ؟ سأدفع للطبيب سأدفع ! يجب أن يلقى العنايه الكافية وإلا فانه سيموت قبل ان يبلغ المستشفى .

انتهز فرصة مواتية فدس في يد أحد رجال الشرطة قطعة من النقود ولما كانت تلك الاجراءات قانونية وليس فيها ما يستوجب اللوم فقد ووفق على نقل الجريح الى منزله . وهكذا سمح لبعض المتحمسين أن يساهموا في حمله وكان بناء « كوزل » على بعد ثلاثين خطوة من مكان الحادث فراحت الجماعة لشق طريقها اليه يتبعها راسكو لينكوف وهو رافع رأس الجريح بعناية دون أن يغفل عن القيام بدور الدليل .

— من هنا ... اصعدوا هذا السلم ... ينبغي أن يبقى رأسه مرفوعاً ... هكذا حسناً سادفع وسأشكركم بجميلكم !

كانت زوجة « مارميلادوف » على جري عادتها كلما أتيحت لها فترة راحة تذرع غرفتها جيئه وذهاباً من النافذة الى المدفأة ومن المدفأة الى النافذة وذراعاها معقودتان على صدرها وهي تحدث نفسها كلما سنحت لها الفرصة وتخلصت من نوبات السعال . وكانت منذ حين قد أصبحت تبحث مع ابنتها البكر بولايا أحاديث تزداد عمقاً مع الزمن . وعلى الرغم من سن الفتاة المبكرة وعدم فهمها عديداً من الاشياء فانها بدأت تفهم تماماً ما تريده أمها منها . لذلك فقد كانت تصغي الى احاديثها بعناية فائقة ، وتتابعها

بعينها الكبيرتين اللتين تشعان ذكاءاً ساعية الى فهم كل كلمة تتلفظ بها أمها وادراك كل تلميح اذا خانها التصريح !

وفي تلك الاثناء . كانت بوليا تخلع ثياب اخيها قبل ان تودعه سريره فقد كان ذلك الصغير مريضاً طيلة ذلك النهار. وكان في تلك اللحظة جالساً بهدوء على مقعد منتصب الجذع صامتاً منتظراً ان يخلع عنه قميصه الذي سيغسل اثناء الليل. وكانت قدماه متجهتين نحو الباب وعلى جانبه جورباه أحداهما الى يمينه والثانيــة الى يساره . كان يصغي الى حديث امه متسع العينين منتفخ الخدين ككل الاطفال الصغار الذين تنزع عنهم امهاتهم ثيابهم قبل النوم ، أما الفتاة الاخرى فكانت ترتدي أسمالاً ممزقة تماماً وكانت تقف قرب الستارة منتظرة دورها . كان الباب المؤدي الى السلم مفتوحاً لأن ذلك كان الوسيلة الوحيدة للتخلص من دخان اللفائف الذي ينبعث من الغرف الاخرى ويسبب لكاترين ايفانوفنا سعالاً قوياً طويلاً يتداعى له صدرها المريض . وكانت كاترين ايفانوفنا قد اصبحت منــذ اسبوع اكثر نحولاً من السابق وازدادت البقع الحمراء ظهوراً على خديها .

كانت تقول لابنتها بوليا وهي تروح وتجيء في الغرفة :

— لن تصدقي بل ولن تستطيعي التصور كم كانت حياتنا سعيدة ومرموقة لما كنا لدى « بابا » أما هذا المدمن فقد سبب لنا تعاسة لحقت بكم اكثر من سواكم لقد كان « بابا » يحمل لقباً يعادل رتبة « كولونيل » لقباً يشبه حاكم مقاطعة فلم يكن باقياً عليه الا ان يخطو خطوة اخرى حتى يصبح حاكماً حقيقياً حتى ان الناس كانوا يهرعون الى دارنا ويقولون : « اننا نعتبرك يا ايفان ميخائيليتش حاكماً لنا ! » وعندما كنت ... (وهنا انتابتها موجة سعال حادة فراحت تعاني منها حتى مرت بسلام وقالت متبرمة : ان هــذه لعنة أيامي ! ») ... عندما كنت في آخر حفلة راقصة اقيمت لدى ماريشال الاشراف لحقتني الأميرة « بزيسميلني »..

وهي التي باركتني فيما بعد عندما تزوجت اباك يابوليا ، قالت لي : « ألست انت تلك الشابة التي رقصت « بالشال » عند تخرجها من المدرسة ؟ » ...

وقطعت كاترين ايفانوفنا حديثها وقالت ملاحظة :

— ... ينبغي أن ترتقي هـــذا الخرق ... فلو أخذت ابرة وقمت بتجربة كما علمتك أمس ! انك اذا اهملتيه الآن ازداد اتساعاً غـداً ... وعادت تسعل سعالاً عنيفاً ثم رجعت بأفـكارها الى حديثها الاول وأردفت :

— وقد أمّ العاصمة أحـد الامراء وهو الأمير ستشيكولزكي وكان قـــد رقص معي مرة رقصة « مازوركا » فـأراد في اليوم التالي أن يتقدم الي بعروضه لكنني أفهمته بأجمل العبارات واكثرها نعومة بأن قلبي ملك رجل آخر منـــذ بعيد ! أما ذلك « الآخر » فكان أباك يابوليـا ! وقد غضب أبوك حتى احمر عنقه لما سمع النبأ ...

وتغيرت لهجتها قليلاً وهي تقول لابنتها الكبرى :

هيا ... هل أنت مستعدة ؟ اذاً اعطني القميص والجـــوارب . .. هيا أنت « ياليدا » — البنت الأصغر — لعمري سوف تنامين هذه الليلة دون قميص . . . ضمي جواربك جانباً سأغسلها ايضاً ... رباه هذا الرجل ... صعلوك الرجال ... إنه لن يعود الليلة كما يبدو ... السكير ؟ إن قميصه لم يتبدل منذ زمن ثم انه مزقها ايضاً ... وددت لو عاد ليخلعها حتى اغسل كل هذه الثياب دفعة واحدة ... انني لااستطيع ان أغسل ليلتين متتاليتين ! رباه ! (وعاد اليهـا السعال على اشد ما يكون) ... ما هذا ؟ ...

كان هذا السؤال الأخير مبعثه الازدحام الذي شهدتـه فجأة في الممشى أمام باب غرفتها ، ثم ما لبثت أن رأت جماعة يدخلون الغرفة بحملهم ! هتفت :

— ماذا حدثَ ؟ ماذا بشت تحملون ؟ ياإله السماء !

سأل أحد رجال الشرطة الذي كان يتقدم الحشد :

ــ أين نضعه ؟ وراح يتلفت حوله باحثاً ... بينما دخلت الجماعة التي تحمل الجثة ، جثة مارميلادوف وهي تقطر دماً ...

هتف راسكولينكوف بلهجة المروع الحزين :

ــ ضعوه هنا على هذا الديوان ! ترفقوا بالله !

وصاح بعضهم :

ــ لقد دُهس في الشارع ، وكان ثملاً ...

تسمرت كاترين ايفانوفنا في مكانها برهة وشحب لونها حتى حاكى وجوه الاموات وراحت تتنفس بصعوبة بالغة . اما ليداالصغيرة فقد صرخت صرخة مكتومة وهرعت الى إختها الكبرى بوليا تحيطها بساعديها الصغيرين مخفية رأسها وهي ترتجف واقترب راسكولنيكوف من كاترين ايفانوفنا وقال :

ــ ناشدتك الله أن تهدئي! ألايصعقنك الأمر ! لقد كان يجتازالشارع حينما دهمته عربة . لكن اطمئني فلسوف يعود الى وعيه ... لقد عنيت بنقله الى هنا وقد جئت معه قبل هذه المرة تذكري ... لسوف يستعيد قواه وسأدفع النفقات !

هتفت كاترين ايفانوفنا يائسة :

ــ كنت أتوقع شيئاً كهذا ! واندفعت نحو زوجها تعنى به !

لاحظ راسكولينكوف أن تلك المرأة لم تكن من أولئك النسوة اللواتي يفقدن الوعي ازاء المصائب . رآها ترفع رأس زوجها وتضع تحتها وسادة ــ الأمر الذي لم يخطر على بال أحد ــ وتحاول نزع ثيابه ! كانت تعمل دون أن تفقد جأشها أو تضيع الوقت بالالتفات والتحسر حتى ليقال أنها نسيت نفسها في تلك اللحظة كان كل همها محصوراً في زوجها التعس فكانت تعمل وقد عضت على

شفتها السفلى لتمنع الصرخات التي تحاول الافلات من فمها . أما راسكولنيكوف فقد استطاع انتداب أحدهم للاتيـان بطبيب ! ويشاء الحظ أن يكون في البناء ذاته طبيب عجوز يقطن في الطبقة السفلى ... فراح بانتظار وصوله يقوم للاستعدادات المبدئية قال يطمئن كاترين ايفانوفنا :

ـ لقد ارسلت استدعي طبيباً ... سأدفع اجوره ! هل لديك بعض الماء ؟.. حسناً ... اعطني كذلك فوطـة ... منديلاً ... أي شيء ... اسرعي ... لست أدري بعد اذا كانت جراحة خطيرة ... لكنه لم يمت ... تأكدي من ذلك ... سنرى ما سيقوله الطبيب !

هرعت كاترين ايفانوفنا الى النافذة وكان هناك على كرسي تحطمت قاعـدته وعاء من الفخار مملوء بالماء استعداداً للمهمة التي كانت ستقوم بهـا في تلك الليلة : غسيل الثياب ! كانت المهمة واجبة الأداء ليلاً تقوم بها كاترين ايفانوفنا بالذات اكثر من مرتين كل اسبوع لأن الثياب التي تلبسها هي وابناؤها حتى وزوجها هي كل يمتلكون فكان من الضروري اذاً غسلها كلما اتسخت ...واختيار الليل لتلك المهمة حتى تجف صباحاً وترتديها أصحابها ; ولما كانت كاترين ايفانوفنا شديـدة الميل للنظافة فانها كانت تقوم بذلك العمل المرهق ليلاً بعد نهار طويل من السعي والعمل الشاق . وكانت تلك الأعمال ترهق قواها وتدنيها بخطى سريعة من نهايتها المرتقبة فكانت تحتملها في سبيل الابقاء على نظافة افراد الاسرة !

عزمت على حمل الاناء الكبير استجابة لرغبة راسكو لنيكوف فكادت ان تنوء بثقله، غمس راسكولنيكوف في الماء قطعة قماش وجدها وراح يغسل وجه التعس ليزيل عنه آثار الدماء ... كانت المهمة شاقة عسيرة والدماء لاتنقطع وكانت كاترين ايفانوفنا تقف على مقربة منه تتنفس بصعوبة وتضغط صدرهـا بيديها ... كانت أشد حاجة الى الاسعاف والعلاج بدورها ! وفجأة هتفت :

ـــ بوليا ... اركضي الى حيث تقيم سونيا ... فاذا لم تجديها فاتركي لها خبراً كي تحضر سريعاً حال وصولها ! قولي « لها » ان أباها قد دهسته عربة وأن عليها أن تحضر الى هنا فوراً ... اسرعي ... خـذي هذا المنديل واستري به جسدك على قدر المستطاع !

وصاح أخوها الصغير ببراءة بلغته المتعثرة :

ـــ « لوحي مثل التيل التايل » (روحي مثل الطير الطائر !)

كان ذلك الغلام لا يزال جالساً على كرسيه وقد عبر عن عواطفه بتلك العبارة الساذجة ثم عاد الى سكونه وجموده وراح ينظر محدقاً في أصابع قدميه الممددتين !

وخلال هذا الوقت ، اكتظت الغرفة بالناس حتى أن تفاحة إذا ألقيت فوقهم ما كانت لتجد سبيلها الى الأرض . أما رجال الشرطة فقد انسحبوا باستثناء واحد منهم فقد ظل هناك ليمنع تدفق المتجمهرين الى الغرفة . غير أن هذا التدبير لم يمنع اشتداد الزحام حتى ليقال أن كل المقيمين في ذلك البناء قد حضروا في تلك اللحظة مستطلعين . وقفوا بادىء ذي بدء أمام المدخل في الممشى غير أنهم لم يلبثوا حـتى داهموا الحجرة الحقيرة ... فصرخت كاترين ايفانوفنا غاضبة :

ـــ دعوه على الأقل يموت بسلام ! أنتم تعتبرون المسألة مشهداً ينبغي التملي منه وقد احتفظ بعضـكم بلفافاتهم في « مناقيرهم » (... نوبة سعال ...) لم يبق عليكم الا أن تدخلوا الى هنا دون أن تنزعوا قبعاتـكم ... هه ... هذا واحـد قبعته على رأسه ! هيا اخرجوا ... لتحترموا الموت على الأقل !

عادت نوبة السعال تخنق صوت المسكينة بينما لبث « المتفرجون » حيث هم لم يؤثر فيهم « استقبال » السيدة لهم . صحيح انهم كانوا يرهبون بعض الشيء كاترين ايفانوفنا فانهم بسبب تلك الرهبة تراجعوا قليلا عن مدخل الغرفة لكنهم كانوا يشعرون جميعاً بذلك الاحساس الغريب : الاحساس بالسرور للنكبة الـتي

تصيب بعض الناس ! ذلك السرور العجيب الذي يغمر قلوب أقرب النـاس الى المنكوب والذي لاتخلو منه نفس بشرية مهما بلغ إخلاصها وشعور الأسف والأسى الذي يعتلج فيها ! وعلت أصوات من الجانب الآخر للباب تتحدث عن المستشفى وانه ليس من اللائق إقلاق السكان وتعكير صفو بناء كامل لغير ماسبب ! وبلغت تلك العبارات مسامع كاترين ايفانوفنا فهتفت محتدمة :

ــ ماذا ؟ أليس من اللائق أن يموت المرء !

وهرعت الى الباب لتصب جام غضبهـا على المتجمهرين حينما اصطدمت فجأة بالسيدة « ليبيويشسل » صاحبة البناء التي بلغها النبأ فجاءت تعيد النظام إلى نصابه. كانت تلك المرأة ألمانية مشاكسة محبة للعراك . هتفت بلغتهـا المحطمة وهي تضرب كفاً بكف :

ــ آه يا الهي ! إن « زوجك » كان ثملاً فدهس تحت حوافر الخيل ! فالى المستشفى ينبغي أن يذهب!أنا صاحبة البناء !

صاحت كاترين ايفانوفنا بلهجة الاحتقار تقول :

ــ آميلي لودفيكوفنا ... أرجو أن تفكري قبل الكلام !

كانت لهجة كاترين ايفانوفنا مشوبة دائماً بالاحتقار عندما تتحدث الى صاحبة البناء وقد نجحت باستعمالها تلك اللهجة على جعلها تقف غالباً عندحدودها فلاتحاول فرض سلطتها الخرقاء عليها . وكانت صاحبة البناء تكره أن يناديها انسان باسم أميلي لودفيكوفنا بينما كانت تلك التسمية تبهج كاترين ايفانوفنا التي لم يكن فييدها أي سلاح ينال من تلك المتغطرسة الا ذلك الاسم ! قالت صاحبة البناء :

ــ قلت لك ان اسمي ليس آميلي لودفيكوفنا وانما أميلي ايفانوفنا !

ــ أنت لست آميلي ايفانوفنا بل آميلي لودفيكوفنا . وبمـا أنني لست من المتقربين اليك مثل السيد ليبزياتنيكوف الذي أسمعه يضحك الآن وراء الباب

(والحقيقة أن هناك ضحكة علت في تلك اللحظة وراء الباب اثر هـــذا الحوار ضحكة من يتوقع أن تعود الامرأتان الى « تجاذب الشعر » !) أقول لما كنت لست من المتقربين منك فسأستمر على تسميتك بهذا الاسم رغم أنني لا أعرف سبب مقتك له ... انك ترين بنفسك ما أصاب « سيميون زاخاروفيتش » انه على وشك الموت فأرجوك أن تغلقي الباب وتمنعي هؤلاء المتطفلين من الدخـول ... اعملي على أن يموت بسلام ! والا فانني اقسم لك بأنني سأشكوك غداً تمامـــاً الى الحاكم العام . ان الامير يعرفني منذ طفولتي وهو يذكر سيميون زاخاروفيتش وكان يغمره دائماً بعنايته ! كل الناس يعرفون ان زوجي كان ينعم بعدد كبير من الاصدقاء الذين يستطيعون حمايته لكنه هو نفسه بكبريائه وصوناً لكرامته لما بلغت به الحال أن أصبح عبداً لتلك العادة المشؤومة ! خذي مثلاً هذا السيد — وأشارت الى راسكولنيكوف — انه تطوع لمساعدتنا من تلقاء نفسه وهـــو غني وكثير المعارف وكان سيميون زاخاروفيتش يعرفه منذ طفولته ... هل اقتنعت الآن يا آميلي لودفيكوفنا !

كانت كاترين ايفانوفنا تلقي هذا « الخطاب » بطلاقة متزايدة ، غـــير أن السعال فوت عليها غرضهـــا في الاستمرار ... وفي تلك اللحظة عاد المحتضر الى صوابه وأطلق غمغمة فهرعت اليه فاذا به قد فتح عينيه اللتين لم يكن للحياة ظل فيهما ورفعهما الى راسكولنيكوف الذي كان واقفاً بجانبه . كان يتنفس بصعوبة شديدة تنفساً متقطعاً صادراً من أعماق صدره ولما لم يتعرف على راسكولنيكوف بان في نظرته القلق بينما كانت كاترين ايفانوفنا تنظر اليه بحزن عميق لا يخلو من صرامة والدموع تنهمر من عينيها ! صاحت يائسة :

— رباه ! ان صدره مهشم ... يا للدم الغزير ... ان الدم يتدفق منه ! ينبغي ان نخلع عنه ثيابه الداخلية ! استدر قليلا يا سيميون زاخاروفيتش اذا كنت تستطيع !

عرفها مارميلادوف وغمغم بصوت خافت ضعيف :

— قسيس !

انسحبت كاترين ايفانوفنا الى النافذة وضغطت جبهتها على اطارهـــا الخشبي وهتفت في يأس مرير :

— أيتها الحياة المضاعفة اللعنة !

وعاد المحتضر يدمدم بعد لحظة سكون :

— قسيس !

فصاحت به كاترين إيفانوفنا :

— هلاّ تنتهي من هذا الكلام !..

فأطاع وصمت وفي عينيه نظرة قلقة خجلي راح يصعدها بها فعادت الى جانبه وامسكت بيده فهدأ قليلا غير ان عينيه صافحتا هيكل إبنته المفضلة « ليدي » التي كانت ترتجف مقروره في أحد الاركان وكأنها فريسة للحمى تنظر اليـه بعيني الطفل الساذج وقد أدهشته المفاجـأة ! غمغم يريد النطق ولكن لم يصدر عن شفتيه إلا صوتاً أجشاً :

— آ...آ...

كان يحاول الكلام ولكنه لا يستطيع فهتف بلوعة :

— ماذا بعد ؟

وعاد نظره الساهم يتعلق بابنته وغمغم باذلاً جهداً جباراً :

— عارية الاقدام ... عارية الاقدام !...

فاجابت كاترين ايفانوفنا بلهجة غاضبة :

— اصمت ! أنت ادرى من غيرك بسبب بقائها عارية القدمين !

وهتف راسكو لنيكوف متنفساً الصعداء :

ـــ حمداً لله ! لقد جاء الطبيب !

دخل الطبيب وكان عجوزاً ألمانياً دقيق الجسم بادي الوساوس ، ينظر حوله بحذر وحرص . اقترب من المريض وجس نبضه ثم عاين رأسه بعناية ورفع القميص الملوث بالدم بمساعدة كاترين ايفانوفنا عن صدره . كان صدره محطماً ببشاعة وقد سحق سحقاً ومزق تمزيقاً وكان عدد من اضلاعه قد تحطم وبدت لطخة كبيرة زرقاء أو سوداء مائلة للصفرة مترجرجة هي علامة خلفتها حوافر الجياد ! قطب الطبيب جبينه بينما كان رجل البوليس يقص عليه كيف وقع الحادث وكيف انتشلوه بعد ان التف ثوبه على محور الدولاب فجره معه مسافة ثلاثين خطوة . ولم يلبث أن قال بصوت منخفض موجهاً حديثه الى راسكو لنيكوف :

ـــ إن ما يدهشني هو استعادته الرشد بعد كل هذا !

ـــ مارأيك يا سيدي ؟

ـــ سوف يموت تواً !

ـــ أليس من أمل لانقاذه ؟

ـــ أي أمل ! إنه يجود بآخر أنفاسه ! ثم إن جراح رأسه خطيرة كذلك هم ! لستطيع مثلاً أن نقوم بعملية فصد مثلا لكنني واثق من عدم جدواها.سوف يموت حتماً خلال دقائق قليلة !

ـــ لنجرب مع ذلك عملية الفصد !

ـــ ليكن ! لكنني اعلمك سلفاً بعدم جدواها !

وارتفع صوت خطوات في تلك اللحظة بينما راح المجتمعون يفسحون المجال لدخول القادم ، وظهر على الباب قسيس عجوز أبيض الشعر يحمل قطعة

« المناولة(١) » رمز جسد السيد المسيح . كانَ احد رجال البوليس قد اصطحبه من الشارع فترك له الطبيب مكانه بعد أن تبادل معه نظرة فارغة . وراح راسكو لنيكوف يرجو الطبيب بالبقاء فترة اخرى فهز هذا كتفيه وانتظر .

انسحب « النظارة » كلهم ولم يستغرق الاعتراف وقتاً طويلا بل أنه كان من المشكوك فيه أن المحتضر قد فهم شيئاً مذكوراً إذ لم يكن يستطيع النطق إلا بصوت متقطع غير مفهوم. أما كاترين ايفانوفنا فقد حملت ابنتها « ليدي » وابنها الطفل وجثت معها في احد الاركان . كانت الطفلة لا تزال ترتعد والطفل عاري الجسد جاثياً على ركبتيه على الارض العارية يرفع يده اليمنى مقلداً امه وراسماً اشارة الصليب . وكانوا جميعاً يسجدون فتصطدم جباههم بالارض وكان الطفل يجد بهذه الحركة ما يسره ! وكانت كاترين ايفانوفنا تذرف دمعاً سخياً مسترسلة في صلاة حارة راحت تستر عري طفلها وطفلتها بشال وجدته في دولاب قريب دون أن تنقطع عن الصلاة . وخلال تلك اللحظة عاد الفضوليون يفتحون الباب المؤدي الى الغرفتين الاخريين اللتين يسكنها جماعة من الفقراء ! وبلغ من تزايد عددهم أن امتلأ بهم المشى وقد بدا أن سكان البناء كله قد اجتمعوا هناك . وكان يضيء المكان نور ضعيف خافت .

عادت بوليا ـ وقد كانت تستدعي اختها الكبرى ـ عادت بعد أن شقت لنفسها الطريق بصعوبة وسط الزحام . كانت شديدة التعب نظراً للسرعة التي أنجزت

---

(١) Saints Espèces ظاهرة الخمرة والخبز اللذين تحولا الى « جسد السيد المسيح » بحسب التعاليم الكاثوليكية . (المترجم)

بها مهمتها فازالت الشال الذي كانت تستر به جسمها وبحثت بعينيها عن امهـا حتى وجدتها فاتجهت نحوها وقالت :

ــ سوف تحضر فوراً ... لقد صادفتها في الشارع !

فدعتها الام الى الركوع والصلاة . وبعد برهة راحة فتاة شابة تسلل بخجل بين المتجمهرين فكان لظهورها في تلك الغرفة المفعمة بمظـاهر البؤس دهشة بالغة . صحيح إنها لم تكن شديدة الأناقـة كما يقتضي بذلك الوسط الذي تعيش فيه : وسط الرذيلة ،لكنها كانت إذاـ قورنت ـبتلك الاطمار والاسمال المهلهلة التي تبدو في كل مكان ..

توقفت سونيا عند المدخل قليلا دون أن تجرأ على تخطيه . كانت تنظر بعينين ساهمتين لا تبدو فيها مخايل الادراك. نسيت ثوبها الحريري ذي اللون الصارخ الذي إشترته مستعملا والذي كان طوله يسترسل وراءها منتفخـاً حتى ليملأ مدخل الباب ، وأحذيتها البيضاء ومظلتها التي لا نفع لوجودهـا في ذلك الليل وتلك القبعة المضحكة الكبيرة المصنوعة من القش المزينة بريشة بلون اللهب التي كانت تظلل وجها نحيلاً شاحباً مروعـاً وفماً مفتوحا وعينين اتسعتا من الرعب !

كانت سونيا في الثامنة عشرة من عمرها قصيرة القـامة هزيلة الجسم تمتاز بجمال الشقراوات ذوات العيون الزرق التي كانت منهن وكانت تنظر محدقـة في الفراش الذي أسجي أبوها عليه وفي القسيس الواقف بالقرب منه . كانت هي الأخرى منهوكة لكثرة ما جرت ...

لم تلبث أن علت همهمة بين المحتشدين وبلغ أذن سونيا بعضاً مما يقولون فاطرقت برأسها واجتازت المدخل مستجمعة شجاعتهـا ودخلت الغرفة دون ان تقترب من المحتضر . وانتهى الاعتراف و « التناول » فعادت كاترين ايفانوفنا الى

قرب زوجها . فاراد القسيس قبل أن يخرج أن يلقي بكلمات من الزاد الديني على سبيل تعزية كاترين ايفانوفنا . غير ان هـــذه قاطعته باحتداد وهي تشير الى اطفالها الصغار وقالت بجفاء :

— وهؤلاء ؟ ماذا سأعمل بهم ؟

فقال القس :

— إن الله رحيم ... فتأملي بعون العلي الأعلى ..

— إه إه ... إنه رحيم ولكن ليس بالنسبة الينا !

— سيدتي ! هذه خطيئة قاتلة !

فصرخت كاترين ايفانوفنا وهي تشير الى المحتضر :

— وهذا ... أليس خطيئة ؟

— لعل اولئك الذين تسببوا بهذا البلاء غير عامدين يعوضونك شيئاً عن فقدانك معيلك !

فصاحت كاترين ايفانوفنا بصوت خشن وهي تلوح بيدها :

— إنك لم تفهم قصدي ! لمَ يعطونني تعويضاً ؟ إنــه هو الذي ألقى بنفسه الى العجلات ... هو السكير ! نعم ... معيلي ! إنه لم يسبب لي إلا الآم والعنــاء ... لقد كان يحول كل شيء الى شراب ... كان يعرينـــا ليشرب ! كان ينفق في الحانة المال اللازم لاعالته أطفالنا وإعالتنا ! وها هو يموت ! فحمداً لله لقـــد تخلصنـا !

— من الواجب يا سيدتي أن تغفري في مثل هذه اللحظة أمام الموت ! إن مثل هذه المشاعر التي تبدينها تعتبر خطيئة ، خطيئة كبرى !

استمرت كاترين ايفانوفنا تعنى بالمريض فتسقيــه وتمسح العرق المتصبب على جسده والدم المتدفق من جراحه الذي كان يغسل وجهه أو تسوي الوسائد تحت

رأسه ثم تتحدث مع القس خلال هذه الاعمال فلما سمعت عبارته الاخيرة قفزت من مكانها واتجهت نحوه وفي عينيها بريق الغضب وقالت :

ـ آه يا أبي ! إنها ليست إلا كلمات ! مجرد كلمات ! الغفران ! لو لم تدهسه العربة اليوم لعاد الى البيت مخموراً . ولما كان لا يملك الا القميص المتسخ القذر الذي يلبسه فان عليّ أن اغسل طوال الليل لتجف الملابس صباحاً بينما هو « يشخر » ناعماً بالنوم ! كان علي أن اغسل قميصه مع قمصان الاطفال والبستهم وكنت سأجفف تلك الملابس أمام النافذة لأنهض عند الفجر وأعمل على رتق هذا وإصلاح ذاك . كذلك أمضي الليالي ... فماذا ينفع الكلام عن الغفران ؟ مع ذلك لقد غفرت !

وقطع حديثها سعال فظيع ولما هدأت أزمة السعال بصقت في منديلها ودفعته أمام عيني القس بينما ظلت يدها اليسرى قابضة على صدرها تضغط عليه بشدة . كان المنديل ملوثاً بالدماء ! أما الراهب فقد أحنى رأسه وسكت !

كان مارميلادوف خلال احتضاره لا يرفع بصره عن وجه كاترين ايفانوفنا التي عادت من جديد تنحنى عليه مواسية مخففة . كان يبدو عليه أنه يريد التحدث بشيء فكان يبذل جهداً كبيراً ويحرك لسانه فيصدر عن شفتيه كلام غير مفهوم . فهمت كاترين ايفانوفنا أنه كان يطلب اليها الصفح فهتف بصوت لا يقبل الجدل :

ـ اصمت ... لا فائدة ! لقد أدركت ماذا تريد أن تقول .

فصمت المريض المحتضر ولكنه في تلك اللحظة وقع بصره على الباب حيث كانت تقف سونيا ! كان حتى تلك اللحظة لم يلتفت الى ذلك الركن لذلك فلم يكن قد رآها .

وكانت الفتاة لا تزال واقفة حيث هي . فغمغم بصوت مختنق وهو يشير بعينيه الى حيث وقفت سونيا وقد بان الذعر في نظراته وهو يحاول النهوض !

ـــ من هذه ؟ من هذه ؟..

فصاحت كاترين ايفانوفنا :

ـــ ابق مستلقياً ... استلق مكانك !

لكنه بذل جهداً خارقاً وتوصل الى الاعتماد على ذراعه والتناهض قليلاً وظل لحظات يحدق في وجه ابنته بنظرة غريبة ثابتة كما لو كان لا يعرفها خصوصاً وإنه لم يكن قد شاهدها من قبل في مثل تلك الملابس . وفجأة بدا على وجهه أنه فهم وعرف أما هي ، فقد اعتراها الخجل والوهن وهي في ملابسها اللامعة البهيجة اللون . كان تنتظر باشفاق بالغ وحنان أن يحل دورها لوداع أبيها المحتضر . وانبعثت من صدر مارميلادوف أنة عميقة وعلا وجهه ألم شديد وهتف باعجوبة :

ـــ سونيا ... ابنتي ... اغفري لي !

واراد أن يمد لها يده لكنه تخاذل وهوى على « الديوان » واحدثت تلك الحركة الفجائية هزة كان من تأثيرها أن تدحرج المسكين على الارض منكفئاً على وجهه . وهرع المجتمعون فاحتملوه واعادوه الى الفراش لكنه كان قد مات !

اطلقت سونيا صرخة ضعيفة وارتمت على أبيها وراحت تضمه الى صدرها بحنان فكانت آخر لحظاته بين ذراعيها . بينما راحت كاترين ايفانوفنا تقول :

ـــ لقد انتهى هو ! ولكن ما العمل الآن ؟ كيف سأواريه التراب؟ واطفالي كيف سأطعمهم غداً ؟

فاقترب راسكولنيكوف وقال :

ـ أيا كاترين ايفانوفنا ، لقد قص على المرحوم في الاسبوع المنصرم تفصيلات عن حياته . ثقي أنه كان يتحدث عنك باحترام بالغ . وقد علمت منذ ذلك المساء كم كان متفانياً في حبكم جميعاً وكم كان يحبك أنت يا كاترين ايفانوفنا رغم عادته التعيسة ولقد أمسينا أصدقاء منذ تلك الليلة . فاسمحي لي الآن أن أساهم ... أن أقدم واجباتي الاخيرة نحو صديق راحل . هذه عشرون روبلاً وأعتقد اذا كان الامر لن يزعجك ... انني ... سأمر ... سأمر غداً حتماً فالوداع !

وخرج من الحجرة بخطى مسرعة وهو يشق لنفسه طريقاً حتى وصل الى السلم . وهنا اصطدم بـ : نيكوديم فوميتش الذي بلغه الحادث فاراد أن يقوم بالتحقيق بنفسه . وكان راسكولنيكوف منذ حادثة البوليس لم يلتق به غير أن نيكوديم فوميتش عرفه الوهلة الاولى ! فهتف :

ـ ماذا ؟ أهذا أنت ؟

فاجاب راسكولنيكوف :

ـ لقد مات وقد جاء الطبيب والقس وانتهى الامر ! لا تعذب المرأة المسكينة فهي مصدورة . طيب خاطرها اذا امكن ... وأنت ـ بعد كل هذا ـ رجل طيب .

نطق بتلك الجمله الاخيرة بلهجة ساخرة وهو ينظر في عيني رئيس البوليس! فقال هذا ملاحظاً !

ـ لكن كم أنت ملطخ بالدماء ؟

فاجاب هذا بلهجة غريبة :

ـ نعم لقد اتسخت ! أنني مغطى بالدماء !

ثم تابع طريقه وراح يهبط السلم بحركات محمومة غير مبال بحاله وقد امتلأت نفسه بإحساس استمد منه قوة غامضة ... إن ذلك الاحساس يمكن أن يكون مشابهاً لذلك الذي يعتمر عادة في نفس المحكوم عليه بالاعدام الذي يبلغه فجأة نبأ العفو عنه ! وقد التقى عند منتصف السلم بالقس الذي كان عائداً الى واجباته . فتنحى راسكولينكوف ليفسح له مجال تخطيه وتبادل معه تحية صامتة. ولم يلبث أن سمع وراءه صوت خطوات متلاحقة سريعة ، فالتفت مسرعاً ليجد الصغيرة بوليا تركض على آثاره تصيح :

— إصغ ! إصغ !

توقف منتظراً وصول الطفلة التي وقفت تلهث تفصلها عنه درجة واحدة من درجات السلم ، وكان ضوء خافت شاحب يتسلل من الباحة الى حيث وقفا . راح راسكولنيكوف يتأمل وجه الطفلة الجميل النحيل فكانت تبتسم له وهي تنظر في وجهه بمرح بريء ساذج . جاءت على ما يبدو لتنجز مهمة كانت ولا بد تحدث في نفسه أثراً بليغاً .

قالت الفتاة اللاهثة بصوت مختنق :

— اسمع يا سيد ! ما اسمك وأين تقطن ؟

فوضع راسكولينكوف ذراعيه على كتفي الطفلة وراح يتأملها معجباً بها دون أن يدرك السبب وقال :

— من أرسلك ؟

فاجابت الفتاة وهي تبتسم ابتسامة ملائكية :

— أختي الكبيرة سونيا .

— كنت أعرف أنها هي التي أرسلتك ! .

ـــ لقد أرسلتني أمي أيضاً . إذ عند ما طلبت إلي أختي أن أتبعـك قالت أمي وهي تقترب منا : إسرعي يا بوليا !

ـــ هل تحبين أختك سونيا كثيراً ؟

فقالت الطفلة بصوت يشوبه انفعـال ملحوظ وقـد أصبحت ابتسامتهـا ذات طابع جدي :

ـــ أحبها أكثر من كل شيء في الحياة !

ـــ وأنا هل ستحبينني ؟

فقربت الفتاة وجهها البريء من وجهه ومدت له شفتيها المكتنزتين بقبـلة ساذجة ثم ضمته بذراعيهـا الناحلين بشدة بينما أسندت رأسهـا الى كتف راسكولنيكوف وراحت تبكي بهدوء وهي تضغط وجهها على كتفه ضغطاً متزايداً ! وراحت تغمغم :

ـــ يالأبي المسكين !

ثم رفعت رأسها بعد برهة وراحت تمسح دموعها بظهر يدها وأضافت :

ـــ ياللبلاء الذي وقع اليوم !

كانت تتحدث بتلك اللهجة الخاصة التي يعمد اليها الأطفال لما يرغبون في تقليد الكبار ، فقال راسكولنيكوف :

ـــ هل كان أبوك يحبك ؟

فأجابت بتلك اللهجة الجدية دون أن تبتسم تماماً كما يتحدث الكبار :

ـــ إنه كان يحب اختي الصغرى « ليدي » أكثر منا جميعاً . كان يحبها لأنهـا صغيرة ولأنها مريضة فكان يأتيها بالهدايا ، أما نحن فكان يعلمنا القراءة وكان يعلمني « القراعد » و « الديانة » وكانت ماما لا تقول شيئاً لكننا كنا نعرف أنهـا مسرورة لذلك وبابا الصغير كان يعرف ذلك بالمثل . إن امي تريد أن تعلمني الفرنسية

لأن الوقت قد أزف بالنسبة إلي لأبدأ ثقافتي !

— وهل تعرفين الصلاة ؟

— طبعاً ... كيف لا ؟ أعرف الصلاة منذ بعيد ، وبما أنني لست صغيرة فانني أصلي لوحدي . أما لوكيا وليدي فها يصليان بصوت عال مع أمي ويستظهرون « أحبيك ياماري » وصلاة اخرى : « رباه بارك اختنا سونيا » وثالثة : « رباه اصفح عن أبينا الآخر وباركه » ... لأن أبانا الأول قد مات وكان هذا أبونا الثاني لذلك فنحن لصلي كذلك من أجل الأول !

— يابوليا الصغيرة ، ان اسمي هو روديون فصلي أحياناً من أجلي وقولي « من أجل روديون المسكين » وليس أكثر !

فعادت الطفلة تقول بحماس وهي تعانقه بشدة بذراعيها وتضحك بحبور :

— سأصلي من أجلك طيلة عمري !

أعطاها راسكولنيكوف اسمه وعنوانه ووعد بزيارتهم غداً دون تأخير فعادت الطفلة متحمسة قريرة العين ، ولما بلغ الشارع كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة فلم تمض خمس دقائق حتى كان واقفاً على الجسر في المكان الذي ألقت به العجوز بنفسها الى الماء بالذات ! غمغم منتصراً :

— كفى ! كفى !... الى الوراء أيها السراب ، الى الوراء أيتهـا المخاوف الخرقاء ! الى الوراء أيتها التصورات والخيالات ! إن الحياة موجودة ! ألست حياً في هذه اللحظة ؟ ان حياتي لم تمت بموت العجوز ... لقد أصبحت – هي – في العالم الآخر ، يكفيك أيتها العجوز ! دعي الآخرين بسلام ! لقد اكتسبت الآن العقل والنور ! الارادة ! القوة !... ولسوف نرى ! لنا نحن الاثنين الآن : ألم أقرر الابقاء على حياتي في فراغ مساحته قدمان ؟

ضحك برهة ثم أردف بلهجة متعالية كما لو أن قوة خفية كانت تتحداه :

— اني الآن ضعيف جداً لكنني أعتقد بان الارتباك قد انقضى ! كنت أعرف أنه سوف يذهب عني منذ أن خرجت هذه الليلة من حجرتي. وعلى فكرة : ان بيت بوتشينكوف على قيد خطوتين من هنا وأني ما كنت لأتردد عن الذهاب الى منزل رازوميخين لما أن كان يقطن بعيداً من هنـا ... فليربح رهانه ! ليضحك قليلا وليهزأ مني ! ان القوة ضرورية وبدونها لايصل المرء الى أي شيء! ولا يمكن اكتساب القوه الا بالقوة ! ذلك مايجهله الناس !

كان يحدث نفسه بكبرياء وثقة ! ولم يلبث ان اجتـاز الجسر بخطى حثيثة. كانت الكبرياء والثقة تنميان في نفسه باطراد دقيقة فدقيقة حتى أن كل دقيقة كانت كفيلة بأن تجعل منه انساناً آخر ! كان يجهل السبب الذي أدخل هذا التبديل الكلي على نفسه ؟ كان يرى أنه يستطيع أن يعيش وأن الحياة لازالت ممكنة بالنسبة اليه – شأن الغريق الذي يتعلق بالقشة مؤملا بالنجاة – كان يرى أن حيـاته لم تمت بموت العجوز ! فهل كان يتوق الى اتخاذ مثل هذا القرار ؟ يجوز ولكنه لم يفكر في ذلك !

تابع يقول بعد قليل :

— ومع ذلك لقد طلبت الى الطفلة أن تصلي من أجلي ! هه ! أنها الصـدفة وحدها ! ولما تذكر تلك الطفلة ابتسم رغم ارادته وشعر بصفاء ذهن عميق !

عثر على منزل رازوميخين بسهولة في بناء « بوتشنكوف » اذ كان السكان هناك يعرفون جميعهم المستأجر الجديد وتطوع البواب بارشاده الى المسكن وكانت الضجة تنبعث فتبلغ منتصف السلم مما يدل على أن النقاش كان حامي الوطيس بين عدد كبير من الاشخاص . وكان المفضي الى « بسطه » السلم مفتوحاً على مصراعيه فكانت الاصوات تسمع بوضوح كلما زاد المرء دنواً .

كانت غرفة رازوميخين واسعة كبيرة اجتمع فيها عدد من الأشخاص يناهز

الخمسة عشر . فلما بلغ راسكولنيكوف المدخل توقف قليلا وراح يراقب خادمتين منصرفتين الى « سماورين » كبيرين وعدد من الزجاجات والأطباق المملوءة بالحلوى والمقبلات ! كانت تلك الأواني كلها مقدمة من قبل صاحبة البنـاء امعاناً منها في اكرام النزيل الجديد ...

استقدم راسكولنيكوف رازوميخين فأقبل هذا مسرعاً . كان يبـدو عليه أنه أسرف في الشراب وأنه ـ على الرغم من شهرته في مقاومة تأثير الشراب ـ كان في تلك اللحظة واقعاً تحت تأثيره ! قال له راسكولنيكوف موجزاً :

ـــ اسمع ! لقد جئت لأقول لك أنك ربحت الرهان وأن المرء لا يعرف في الحقيقة ماسيقع له . أما الدخول فلن أستطيعه لأنني ضعيف جـــداً وأكاد أن أسقط على الأرض لذلك أقول لك مرحباً والى اللقاء بآن واحد زرني غداً .

ـــ سوف أقودك بنفسي بعد اعترافك بأنك ضعيف خائر القوى !

ـــ وضيوفك ؟ من هو هذا الرجل ذو الشعر الأجعد الذي ينظر نحونا ؟

ـــ من ؟ ذاك ؟ علمه عند الشيطان ! لعله صديق لعمي أو لعـــله دعى نفسه بنفسه . هيا سأترك عمي مع الضيوف ... إنه رجل ثمين جداً ... ويؤسفني ألا تستطيع التعرف اليه اليوم . ثم ليأخذهم الشيطان جميعاً لقد لبثت حتى الآن أعنى بهم ويلزمني الآن بعض الهواء ! لقد جئت في حينك لأنى كنت سأتعارك معهم بعد دقيقتين ! إنهم لاينطقون الا بالحمـــاقات لن تستطيع أن تتصور مدى قدرة كل منهم على حشو رؤوس سامعيه بالأكاذيب ! بل أعتقـــد أنك تستطيع أن تتصور ذلك . لأننا جميعاً نكذب أحيانا . وبما أننا نكذب نحن فليكذبوا هم أيضاً ! خصوصاً وأننا لن نكذب « بعدئذ » !.. إجلس قليـلا سأستدعي لك زوسيموف !

هرع زوسيموف الى راسكولنيكوف بنوع من اللهفة تفضح مافي نفسه

من الفضول الخاص غير أن وجهه مالبث أن عاد طبيعياً مشرقا . وبعــــد أن فحصه قال له :

ــ ينبغي أن تنام فوراً ... ومن الأنسب أن تأخذ شيئا هــذا المساء ، شيئا هيأته منذ قليل ... « برشامة »

فقال راسكولنيكوف :

ــ أعطني اثنتين اذا كانتا لازمتين !

وشرب المريض العلاج على الفور بينما قال زوسيموف لرازوميخين :

ــ من الخير أن تصحبه الى حجرته . وسنرى ماذا يكون غداً أما اليوم فالأمر مشجع لاباس به . لقد حدث تغيير كلي ! كلما عاش الانسان كلمــا ازداد علما !...

قال رازوميخين لصديقه وهما يخرجان :

أتدري ماذا قال زوسيموف عندما استدعيته منــذ حين ؟ لسوف أقوله لك بحذافيره لأنهم كلهم سخفاء ! كان زوسيموف يوصيني بالتحدث اليك خــــلال الطريق لاطلق لسانك وأحمــــل له كل ماتنطق به من عبارات لأنه يعتقد ... انه يعتقد انك مجنون أو على الاقل أنك على وشك الجنون ! فهل تتصور هذا ؟ اولاً انني أعتقد انك اكثر ذكاءً منه بثلاث مرات على الاقل ! وثانياً اذا لم تكن مجنوناً فلبس عليك الا أن تستهزىء بالنزوات التي تعصف في رأسه . ثالثاً : إن هذه « الكتلة من اللحم » مختص بالتشريح والجراحــة وهو مأفون بالامراض العقلية حتى ان الحديث الذي دار بينك وبين زاميوتوف قــــد قلبه رأساً على عقب !

ــ هل قص عليك زاميوتوف الحديث كله ؟

ــ كله ! وقد أحسن صنعاً فقد فهمت كل الاسباب والدوافــــع في القضية

وكذلك فهم زاميوتوف ... والخلاصة ياروديا ... الواقع هو انني في هذه اللحظة ثمل بعض الشيء لكن لا بأس ! الواقع هو أن هذه الفكرة ... انت تفهم ! ان تلك الفكرة كانت مغروسة في نفوسهم ... أتفهم ؟ اي أن أحداً ما كان ليجرأ على التصريح بها علانية لأن الحماقة فيها شديدة جداً وخصوصاً منذ أن أوقفوا ذلك الدهان ... فقد تبخر ذلك كفقاعة الصابون وتبدد نهائياً . لكن لمَ هم على مثل هذه الحماقة جميعهم ؟ لقد اغلظت القول قليلاً لزاميوتوف — وهذا بيننا ايها الصديق ارجو أن لا تتظاهر بمعرفته — ! فقد لاحظت ان زاميموف سريـــع التأثر والانفعال وقد دار بيننا الحديث الذى نوهت به لك عند لويز ! والآن فقد وضح كل شيء ... ان السبب الرئيسي في هذه الظنون كان إيليا بيتروفيتش ! فقد التقط الكرة « على الطاير » كما يقولون إثر اغمـــائك في دائرة البوليس ثم عاد وخجل من نفسه بعد ذلك لتفكيره في ذلك الافتراض ؛ هذا ما علمته !

كان راسكولنيكوف يصغي بشوق لأن رازوميخين كان متأثراً بالشراب فراح يفضح ما في نفسه ، فقال مؤيداً اتجاه صديقه :

— لقد اغمي علي ذلك اليوم لأنني كدت ان اختنق بتأثير الحراره ورائحة الدهـــان !

— انهم يجدون حتى الآن صعوبة في تفسير تلك البادرة ! والحقيقة أنها لم تكن رائحة الدهان وحدها هي السبب ! كانت الحرارة مرتفعة لديك منذ اكثر من شهر كما أكد زوسيموف . آه لو علمت كم اصبح هذا الخبيث زاميتوف متصاغراً الآن .. تصور انه قال لي في معرض الحديث عنك . « إنني لا أبلغ نقطة في بحره ! » انه لا يقدم شعوراً طيباً تختلج به نفسه لكن الدرس ، نعم الذي القيته عليه اليوم في « قصر الكريستال » كان غاية في الكمال ! لقد اخفته بادئ ذي بدء ، أترى هذا ؟ لقد جعلته يرتعش ويرتعد في البداية ! فكر أنك جعلته من جديد يؤمن

بنظريته الاولى تلك النظرية الخرقاء البشمة ثم فاجأته دون مقدمات « بضربة من قدمك في أنفه » وأنت تقول « خذ هذه ايها العجوز ! » إنها كانت ضربة معلم ! سحقته وافنته ! لقد وجد أخيراً من يستطيع ان يساجله ويتحداه ! كم آسف لأنني لم اكن هناك ! كان ينتظرك عندي بقلق وتلهف ! وبورفير نفسه بشوق زائد للتعرف اليك !

ــ آه ... هذا ايضاً ؟ .. لكن لمَ يعتبروني مجنوناً ؟

ــ ليس كالمجنون تماماً ... اعتقد ياصديقي بأنني تحدثت اكثر مما ينبغي ان ما أذهله منـذ حين هو ان ذلك الامر وحده يهمك ! والآن فقد عُرف سبب اهتمامك بعد أن اوضحت كل الملابسات . آه كم كان ذلك يقلقك وبما أن القضية كانت مرتبطة بعد ذلك بمرضك ... انا ثمل قليلاً ياعزيزي . . . لكن أترى . . . ياللشيطان ... ان له رأيه ! وانا اكرر عليك بأن الامراض العقلية تشغل اهتمامه الـكلي وليس عليك أنت الا ان تهزأ بكل هذا ! ...

ــ اسمع يارازوميخين ! سأحدثك بصراحة ! لقد جئت تواً من دار ميت انه موظف مات وقد أعطيت اسرته كل ما أملك وعــلاوة على ذلك فقد عانقتني مخلوقة ... والخلاصة ان هناك مخلوق آخر ... فتاة تضع ريشه بلون اللهب . . . لكنني أهــذي ... أنا شديد الضعف .. دعني أستند اليك ! أليس هــذا هو السلم ؟ !

فسأل رازوميخين منزعجاً :

ــ ما بك ؟ ماذا بك ؟

ــ ان رأسي تدور قليلاً ... لكن هذا ليس كل ما في الأمر ! المسألة هي إنني حزين « حزين جداً كامرأة ... حقيقة ... انظر ما هــذا . . . انظر ! انظر !

ــ ماذا ؟

ــ ألا ترى ؟ هناك ضوء في غرفته يظهر خلال الخصاص !

كانا قد بلغا في تلك اللحظة الى « البسطة » التي تسبق المشى الذي يقود الى غرفة راسكولنيكوف قرب باب شقة صاحبة البناء وكان يمكن لهما أن يشاهدا من مكانهما النور الذي كان يشع من غرفته . فغمغم رازوميخين :

ــ غريب ! لعلها ناستاسيا !

ــ إنها لاتحضر الى غرفتي في مثل هـذه الساعـة ! وفوق ذلك إنها لاشك نائمة منذ زمن ! لكن ... سيان عندي ... الوداع !

ــ ماذا تقول ؟ سارافقك ، سندخل كلانا !

ــ انا اعرف اننا سندخل معا ولكنني اريد ان اصافحك هنا وان افترق عنك هنا .. هيا اعطني يدك .. الوداع !

ــ ما بك ياروديا ؟

ــ لاشيء .. هيا ستكون شاهداً بنفسك !

راحا يصعدان السلم ورازوميخين يتخيل ان زوسيموف على حق فيما ذهب اليه ! واعتقد انه « ازعجه بثرثرته » ولما بلغا باب الحجرة تناهى الى سمعهما صوت حديث آت من داخلها فصاح رازوميخين :

ــ من هنا ؟

دفع راسكولنيكوف الباب أولاً ففتحه على مصراعيه وتوقف على العتبـة وقد سحرته المفاجأة .

كانت امه واخته جالستين في حجرته على « الديوان » المعهود ينتظرانـه منذ ساعة ونصف . كانتا قد امضتا كل ذلك الوقت في الانتظار وطرح الاسئلة

على نستاسيا التي راحت بدورها تسرد عليها كل ما عرفته عن راسكولنيكوف! كانا يسألانها .

— لم لم يكن ينتظرنا ؟ هل كان يفكر فينا اقل من تفكيره في اي شيء آخر رغم ما بلغه ذلك اليوم عن مجيئهما ؟

فتعود ناستاسيا لتقص عليها طرفاً من معلوماتها التي جمعتها بفضل الصدف فاذا فرغت بدت المرأتان وقد أذهلها الخوف واستولى عليها الهلع خصوصاً بعد ان عرفتا نبأ فراره اليوم من غرفته دون ان يعرف أحد عن وجهته شيئاً . فكانتا تهتفان بين الحين والآخر :

— رباه ! ماذا وقع له ؟ !

بكتا طويلاً حزناً وألماً وقد اصيبتا بجرح بليغ في عواطفها فلما وقف على الباب في تلك اللحظة انبعثت من حناجر النسوة الثلاث صرخات رغم تفاوت الاسباب الموجبة ! واندفعت الأم والأخت نحو « الأمل » الوحيد لكنه لبث جامداً في مكانه وكأنه جثة لا روح فيها . لقد صعقته فكرة مفاجئة شديدة الوقع حتى أن ذراعيه اصبحت عاجزة عن الحركة . كانت أمه وأخته تعتصرانه الى صدريها وتقبلانه بنهم وشغف ، تبكيان وتضحكان . معاً ... فتقدم خطوة الى الامام ثم ترنح وسقط على الارض فاقداً الصواب !

تصاعدت الصيحات ونداءات النجدة والزمجرات ! واندفع رازوميخين — الذي كان واقفاً على المدخل — فأخذ المريض بين ذراعيه القويتين ومدده على السرير . وفجأة فتح هذا عينيه بينما قال رازوميخين مطمئناً الام والأخت !

— لا تبتئسا ... لا تخشيا ... انه اغماء بسيط ... انها حماقة ! لقد صرح الطبيب منذ قليل أن حاله قد تحسن كثيراً وأنه استعاد قواه تماماً !... اعطوني

قدح ماء ! هاه ... ها قد عاد الى وعيه ... نعم لقد أسترد الرشد !

وأخذ يد دونيا بقسوة كادت تحطم معصمها وراح يدعوهـا الى الانحنـاء لتري بنفسها أن أخاها قد « عاد اليه صوابه » . وقـد شعرت الام والاخت بفضل رازوميخين عليها فنظرتا اليه نظرات كلها شكر وامتنان وكأنه رسول القـدرة الالهية ! كانتا قد علمتا من قبل بواسطة ناستاسيا بمبلغ عناية هـذا الفتى بروديـا خلال مرضه ..

ــ « ذلك الرجل المبــــدع ! » كذلك راحت بولشيري الكسروفنـا راسكولينكوف تطلق على رازوميخين خـلال حديثها الودي مع ابنتها دونيا .

القسم الثالث

الفَصلُ الأوّل

استوى راسكولنيكوف جالساً على الديوان وأشار بيده الى رازوميخين ليكف عن الاسترسال في تعزية أمه وأخته والتخفيف عنها بذلك السيل من العبارات التي ما أنفك يوجهها اليها ومد الى كل منها يداً أطبق بها على يديها وراح خلال دقيقة كامله ينظر اليها بسكون ويتأملها دورياً .

روعت الام من نظرة ابنها لأنها قرأت فيها ذلك الاحساس المقبض الباعث على أشد الألم ، إحساساً برافقه شيء ثابت ، شيء أقرب الى الجنون ، فراحت تبكي بحرقة بينما كانت الاخت آفدوتيا رومانوفنا شاحبة ترتعد يدها في يد أخيها .

قال راسكو لنيكوف بصوت متقطع هامس وهو ينظر الى رازوميخين :

ـ عودا الى مسكنكما والى الغد ! غداً كل شيء ... هل وصلتما منذ زمن طويل ؟

فاجابت بولشيري الكسندروفنا :

ـ هذا المساء ... لقد حصل تأخير أعاق القطار ، لكن يا روديا ، لن أتركك الآن مهما كان السبب ... سأمضي الليلة هنا ... الى جانبك !

فلوح راسكو لنيكوف بيده بغضب وقال :

ـ لا تعذبيني !

وهتف رازوميخين :

ـ سأبقى بالقرب منه ، لن أتركه دقيقة واحدة وليحمل الشيطان ضيوفي !

ليصخبوا وليشتموا ما راق لهم إن عمي هناك برأس الحفل !

فقالت بولشيري الكسندروفنا وهي تضغط على يديه بامتنان :

— كيف أستطيع أن أشكرك ؟

غير أن راسكو لنيكوف قاطعها قائلا بشيء من الانفعال :

— لا أريد ... لا أريد ... لا تزعجوا أنفسكم ... كفى ! اخرجوا ! .. لن أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك .

غمغمت دونيا مروعة :

— هيا بنا يا أمي الصغيرة ! لنخرج من الحجرة الآن على الاقل ! إننا نقضي عليه إذا بقينا ، ذلك واضح !

فقالت بولشيري الكسندروفنا باكية :

— لكن هل لن يتـــاح لي أن ألقي عليه نظرة أطول بعــــد فراق ثلاث سنوات ؟

عاد راسكو لنيكوف يقول :

— انتظروا ... إنكما تقاطعانني بينما الافكار تتزاحم في رأسي ... هل رأيتما لوجين ؟

فأجابت بولشيري الكسندروفنا بصوت لم يخل من مسحة من الخجل !

— كلا ياروديا . لكنه يعرف أننا وصلنا... لقد علمنا ياروديا أن بيير بيتروفيتش قد تفضل بزيارتك اليوم !

— نعم ! لقد غمرني بهذا الفضل ! دونيا ... لقد صرحت للوجين منذ بضع ساعات بأني سألقي به الى أسفل السلم وطردته شر طردة !

هتفت بولشيري الكسندروفنا مرتاعة :

— روديا ... ماذا تقول ؟ هل حقيقة ... هل تقول جدياً ؟..

ثم توقفت عن متابعة الحديث بعد أن ألقت نظرة الى دونيا !

كانت آفدوتيا رومانوفنا تنظر الى أخيها محدقة في وجهه تنتظر نتيجة كلامه! فقد علمت هي كما علمت أمها كذلك من ناستاسيا بعضاً مما داربين راسكولنيكوف ولوجين بقدر ما سمحت به معلومات هذه الاخيرة فكانتا غير مصدقتين وأمضتا الوقت متلهفتين لسماع التفاصيل وهما تشعران بانفعال عنيف .

تابع راسكولنيكوف حديثه بجهد واضح قائلاً :

ـــ دونيا ! لا إريد هذا الزواج ! ولهذا عليك أن تنتهي من لوجين غداً ولننسى اسمه نهائياً بعد ذلك !

هتفت بولشيري الكسندروفنا :

ـــ رباه !

بينما قالت آفدوتيا رومانوفنا بصوت منفعل :

ـــ أخي ! فكر فيما تقول ،..

بيد أنها تمالكت نفسها بعدئذ واسترسلت بصوت حان تقول :

ـــ إنك لست في وضع مناسب الآن ... إنك متعب !

ـــ تعتقدين بأنني أهذي أليس كذلك ؟ إعلمي أنك مخطئة ! .. إنك تتزوجين وجين من أجلي ... « بسببي أنا » وأنا لا أقبل هـذه التضحية الرهيبة ... لذلك فلسوف تكتبين اليه غداً تعلمينه بفسخ الخطوبة ... سوف تقرأين لي تلك الرسالة صباحاً وسينتهي كل شيء !

صاحت الفتاة وقد شعرت بجرح في كرامتها :

ـــ لا أستطيع عمل ذلك ! ثم بأي حق !

غير أن أمها استدارت نحوها مقاطعة وقد بان الرعب في عيونها :

ـــ دونيا ، أنت أيضاً تنفعلين ! آه ... لنذهب ذلك أجدى !

وهتف رازوميخين قائلاً بصوت المخمور :

ــ إنه يهذي وإلا لما كان سمح لنفسه ... غداً ستنتهي هذه الأزمة ... أما اليوم ... ففي الحقيقة إنه طرده تماماً كما قال ! ولا شك أن الآخر انزعج لهذا التصرف . لقد كان « يخطب » هنا وينشر معلوماته مع ذلك فقد مضى وذنبه بين ساقيه !

فصاحت بولشيري الكسندروفنا :

ــ إذاً ... إنه صحيح تماماً ...

بينما هتفت صونيا بصوت يذوب حناناً :

ــ الى الغد يا أخي ... هيا يا أماه ... الوداع ياروديا !

فكرر هذا قائلاً بجهد عنيف :

ــ أتسمعين يا أختاه ! أنا لا أهذي ... أن هذا الزواج فضيحة ورذيلة ! وإذا كنت نذلاً أنا فلا ينبغي لك على الأقل أن تكونيه ... يكفي نذل واحد ! لكن مهما بلغت نذالتي فانني سأكف عن اعتبارك أختاً لي .. إما أنا وإما لوجين.. إسمعي !

فزمجر رازوميخين :

ــ لكنك فقدت صوابك أيها الظالم !

لم يجب راسكولنيكوف ولعله لم يكن يملك القوة على الجواب واستلقى على « الديوان » مستديراً نحو الجدار منهوك القوى ! وراحت آفدونيا رومانوفا تتطلع الى رازوميخين بفضول وعيناها السوداوان تلتمعان حتى أن رازوميخين نفسه ارتعد تحت وطأة تلك النظرة أما بولشيري الكيسندروفنا فقد كانت شديدة الاضطراب فغمغمت تهمس الى رازوميخين قائلة بيأس :

ـ لن أستطيع مبارحة المكان لأي سبب في الدنيا ! سأبقى هنا في أي

مكان ... اصحب دونيا !

فاجابها بهمس كذلك وقد فقد السيطرة على أعصابه :

ـ نعم . . . بينما تفسدين أنت الأمر كله ! لنخرج على الأقل من الحجرة ...

أضيئي سبيلنا يا ناستاسيا ... ولما أصبحوا على السلم أضاف قائلاً بصوت منخفض :

ـ اقسم لك أنه كاد منذ حين أن يضربني ويضرب الطبيب فهل تفهمين معنى هذا ؟ الطبيب بالذات ! وقد خرج هذا لكي لا يسبب له انفعالاً عنيفاً . فلما خرجنا استطاع ـ هو ـ أن يرتدي ثيابه وأن يتسلل بينما كنت في شقة صاحبة الدار أراقب .. والآن ، لسوف يتسلل هارباً من جديد اذا أثرتماه ولعله سيحاول أن ينزل بنفسه مصيبه !

ـ آه ... ماذا تقول ؟

ـ طبعاً ... ثم لا تنسى أن أدفونيا رومانوفنا لا يمكنها أن تبقى وحيدة في بيت من ذلك النوع ! فكرا قليلا في المكان الذي نزلتما فيه ! هل لم يكن ذلك « القذر » مستطيعاً حقيقة أن يجد لكما مسكناً أفضل ... على كل حال إنكما تعرفان بأنني ثمل قليلاً ولهذا السبب تلفظت بكلمات نابية فلا تلقيا بالاً اليها !

فقالت بولشيري ألكسندروفنا بالحاح :

ـ سأذهب الى صاحبة المسكن. توسل اليها أن تعطيني انا ودونيا زاوية نمضي فيها ليلتنا هذه . لا أستطيع تركه على هذه الحال ... لا استطيع .

كانوا قد بلغوا شقة صاحب البناء وكانت ناستاسيا تنير لهم الدرجة التالية.. وكان رازوميخين منفعلاً جداً ... فقد كان منذ نصف ساعة ، ـ عندما كان يصحب راسكولنيكوف ـ يثرثر كثيراً كما شعر بذلك بنفسه لكنه كان مع ذلك

يشعر بطلاقة وبصفاء ذهن رغم كمية الكحول الهائلة التي استهلكها . اما الآن فقد كان يشعر بأنه غارق في لون من الذهول وكأن أبخرة الكحول راحت تصعد الى رأسه محدثة تأثيراً مضاعفاً . كان واقفاً بين السدتين مطبقاً على يد كل منها ساعياً لاقناعها بشتى الوسائل والحجج بلغة مدهشة فكان ـ بعد كل كلمة ـ يضغط على يديها بعنف لعله راجع إلى رغبته في مضاعفة إقناعها أو التأثير عليها . وكان بين الحين والآخر يكاد أن يفترس أفدوتيا رومانوفنا بنظراته دون أن يشعر بأي حرج . وكانت السيدتان تخلصان يديها أحياناً لشدة تألمها من إطباق تلك القبضة القوية الجبارة على أصابعها لكنه سرعان ما كان يستعيدها ليضغط عليها بشدة أكثر من ذي قبل . ولو أنها طلبتا اليه في تلك اللحظة أن يلقي بنفسه من أعلى السلم ورأسه الى الأمام لفعل على الفور دون أن تطرف له عين !

كانت بولشيري ألكسندروفنا شديدة القلق على ابنها لكنه لم يفتها برغم ذلك أن تلاحظ أن ذلك « الفتى » يقوم بأعمال مستهجنة ويضغط على يديها بقوة تشعرها بالألم ، غير أنها لبثت تتغاضى عن هفواته البسيطة تلك ولا تنفك تعتبره « الملاك » الحارس !

أما أفدوتيا رومانوفنا فعلى الرغم من أنها لم تكن ذات عقلية منطوية وجلة ، فانها كانت مندهشة لتصرف ذلك الشاب بل وخائفة منه كلما التمعت نظرات صديق أخيها هذا لتقف على وجهها ! ولولا الثقة العمياء التي زرعتها ناستاسيا في نفسها عندما تحدثت عنه وعن خدماته لأخيها ، لفرت مذعورة تجذب معها أمها لتنجوا منه ! وكانت تعرف أنه يتعذر عليها في تلك اللحظة الافلات منه . غير أنه لم تمض عشر دقائق حتى وجدت الفتاة نفسها مطمئنة تماماً الى هذا « الرجل الرهيب » .

كان رازوميخين يمياز بموهبة فذة في تعريف نفسه وإظهارها على حقيقتها منذ اللحظة الاولى وفي أي موقف كان ، فكان يقوم بذلك التعريف بشكل يجعل الآخرين يدركون فوراً نوع الرجل الذي يتعاملون معه . لذلك فقد راح يقول محاولاً اقناع بولشيرى الكسندروفنا :

ـ محال أن تتصلي بصاحبة البناء إنها ستكون حماقة كبرى ! صحيح إنك أمه ، وانك أم مثالية لكنك إذا بقيت فلسوف تستثير ن غضبه والله يعلم ما سيحدث إسمي ... سأحدثك عما سأعمل : « ستبقى ناستاسيافي الوقت الحاضر بالقرب منه بينما سأصحبكما الى مسكنكما لأنه من غير اللائق أن تبدوا وحدكما في الطريق هنا في بيترسبورج ... هيا ... ثم عندما أرجع من مسكنكما « سأقفز » الى هنا وأعد كما بأنني سابلغكما خلال ربع ساعة بالجديد من أنبائه . سأقول لكما كيف حاله وهو نائم أو مستيقظ الخ ... وبعدئذ ... إستمعا ... بعدئذ سأعود فوراًلى ا منزلي لأن لدي بعض المدعوين وكلهم مخمورون وسأصحب زوسيموف ـ وهو الطبيب الذي عني به ـ وهو الآن في منزلي وهو ليس ثملاً انه لم يثمل قط لأنه لايشرب ! سأعود به الى روبا ومن هناك سنحضر الى مسكنكما ! أي أنكما ستتلقيان خلال ساعة واحدة أخباراً عنه وستتلقيانها مني أولاً ثم من طبيب ، الأمر الذي يختلف تماماً عن رأي الشخصي . واني اقسم لكما أن أحملكما اليه فوراً اذا كانت حالته سيئة . أما اذا كانت حالته مرضية فلسوف تنامان ! وسأقضي الليل كله هنا في الممشي ولن أجعله يشعر بوجودي وسأجعل زوسيموف ينام عند صاحبة البناء ليكون في متناول يدي إذا احتجت اليه ! فمن يكون أكثر نفعاً بالنسبة إليه في هذه اللحظة : أنت أم الطبيب ؟ من رأيي إنه الطبيب ! إذاً ... عودا الى مسكنكما ... أما البقاء لدى صاحبة البناء فهو مستحيل انه ولن يكون كذلك بالنسبة إلي أما أنتما فلا ... وهي لن تقبل إيواءكما لأنها ... لأنها بلهاء ...

وهي غيور تغار من أدفوتيازونوفا اذا شئت معرفة ذلك ومنك أيضاً . . . ولكن من أدفوتيازومانوفا بشكل مؤكد . إنها مخلوق جامح عنيد كأشد ما يكون الانسان عناداً ... على كل حال إنني سخيف أنا الآخر ... فلندع كل هذا تعاليا ... هل تثقان بي ؟ قولا هل تثقان بي ؟ نعم أم لا ؟

فقالت أفدوليا رومانوفنا :

ـ لنذهب يا أماه ، لسوف يتصرف كما وعد . . . لا تنسي أنه أعاد أخي الى الحياة من قبل وإذا قبل الطبيب حقيقهفليقضي ليلة هنا فاننا ان نأمل خيراً من هذا ...

هتف رازوميخين منفعلاً من الحماس :

ـ هكذا ... أنت ... أنت تفهمينني لأنك ملك ... لنذهب . ناستيا إصعدي الى أعلى فوراً والبثي بالقرب منه مع الضوء ... سأعود في غضون ربع ساعة !

لم تمانع بولشيري الكسندروفنا رغم أنها لم تقتنع تماماً وهكذا أحاط رازوميخين كلاً من رفيقتيه بذراعه وراح يجرهما هابطاً بها . بينما كانت الأم تتساءل قلقة :

ـ لقد كان مدبراً وخدوماً حقاً ولكن هل هو في حال « تساعده على الاستمساك بوعوده ؟ لو حكمنا على المظهر !... »

وفجأة عاد رازوميخين يقول وكأنه قرأ أفكار الأم القلقة :

ـ أني أفهم ما في نفسك ! إنك تفكري بأنني أبدو ثملاً ...

كان يمشي بخطى سريعة واسعة حتى أن السيدتين كانتا تلاقيان صعوبة في مجاراته في المشي . غير أنه لم يلاحظ ذلك بل راح يتابع حديثه قائلا :

ــ نعم . . إنها حماقة ! أقصد إنني ثمل كالخنزير ... لكن ليس بفعل الكحول ! نعم ليست الكحول التي أسكرتني ... إنني منذ أن رأيتكما « ضرب » ذلك على رأسي . لكن هيا لا تباليا بأقوالي ... إنني أهذي ... فأنا لست جديراً بكما ... بل إنني في أحط درجات الجدارة بالنسبة اليكما !.. لكنني بعد أن أوصلكما الى مسكنكما سأذهب فوراً الى « القنال » وسأصب على رأسي دلوين كبيرين من الماء فيذهب كل هذا ! آه لو عرفتما كلا كما أحبكما ... لا تضحكا ولا تغضبا مني ! إغضبا من كل الناس إلا مني أنا ... فأنا صديقه وبالتالي صديقكما.. إنني أريد أن أكون صديقكما ... لقد شعرت بذلك شعوراً مسبقاً ... شعرت به في العام الفائت خلال زمن ما ... كلا ... لم أشعر بشيء شعوراً مسبقاً ... لقد هبطتما إلي من السماء ! من المؤكد أنني لن أنام هذه الليلة مطلقاً ... إن هذا « الزوسيموف » كان يخشى منذ قليل أن يكون روديا مجنوناً ... ولهذا السبب لا ينبغي إغضابه !

فصرخت الأم :

ــ ماذا تقول ؟

وهتفت أفدوتيا رومانوفنا وقد عصف بها القلق :

ــ هل يعقل أن يكون الطبيب نفسه قد قال ذلك ؟

ــ نعم لقد قاله ! ولكنه ليس صحيحاً مطلقاً . لقد أعطاه دواء ... مسحوقاً ... وقد رأيته وفي هذه الاثناء جئتما ! آه كان من الافضل لولم تصلا اليوم لقد أحسنا صنعاً بمغادرته ولسوف يطمئنكما زوسيموف في غضون ساعة واحدة. إنه ليس ثملاً مثلي ... وكذلك لن أكون ثملا بعد ساعة . ولكن لم حشرت أنفي بكل هذه الشدة ؟ لأنهم اجتذبوني بمناقشاتهم ! يا للاوغاد ! وأنا الذي كنت قد أقسمت على عدم الدخول في مناقشات ! نعم كانوا يسردون على بعضهم

الا أكاذيب ولو لا قليل لرحت ضربهم ... وقد تركت عمي هناك كرئيس !
هل تصدقان ؟ إنهم جميعاً عديمي الشخصية تماماً ! إنهم جميعاً كالأطفال هدفهم أن يكونوا هم « أنفسهم » وأن لا يشبهوا واقعهم على أضيق نطاق ممكن !
هذا ما يعتبرونه أقصى درجات « المجهود » وهكذا راح كل منهم يهذي على هواه ...

فقالت بولشيري الكسندروفنا وهي تقاطعه بخجل :

ــ إسمع !...

لكن تلك الملاحظة ضاعفت انفعاله فهتف بصوت عال :

ــ هم ! ماذا ؟ فيمَ تفكرين ؟ أتعتقدين انني أنفعل وأثور لأنهم يقصون على بعضهم أقوالاً سخيفة فارغة ؟ أبداً ... بل إنني أحب أن يفعلوا ذلك . ان السخافات الكاذبة هي كل ميزة الانسان على بقية الحيوانات لأن الانسان يصل الى الحقيقة عن طريق الكذب . فاذا كنت انساناً فذلك لأنني أكذب . لم يحدث أن اكتشفت حقيقة واحدة دون أن تكون قد سبقت بالكذب اربعة عشر مرة ! بل مائة واربعة عشر مرة ! وليس في ذلك بالذات ما يشرف لأننا لا نعرف أن نكذب حسب ذكائنا وعقليتنا ! الصقي لي كذبات شريطة أن تكون صادرة عنك تماماً فاقبلك ! لأن الكذب حسب طابع الانسان وأسلوبه أجمل من الحقيقة التي ينفخها فم أجنبي في رؤوسنا ! لأننا في الحالة الأولى نكون رجالاً أما في الحالة الثانية فنكون ببغاوات فحسب . إن الحقيقة لا تختفي بل الحياة هي التي تختفي ! ولقد رأينا وشاهدنا كيف يمكن طعن الحياة ! أين نحن الآن ؟ كلنا دون استثناء ! أين نحن جميعاً فيما يتعلق بالعلوم والثقافة والفكر والعقلية الابداعية والمثل العليا والرغبات التحررية ، والمنطق والتجربة وكل شيء آخر ... إننا لازلنا نتبع الدروس الاعدادية في المدرسة الابتدائية ! إننا نستأنس ونعجب بالمعارف التي تملأ بها

أفواهنا ممضوغة خالصة ! أليس كذلك ؟ أليس ما أقوله حقيقة ؟

كان يصيح منفعلا وهو يضغط بشدة على يدي السيدتين حتى أن بولشيري الكسندروفنا المسكينة قالت بحيرة :

ــ آه رباه ... لا أدري !

بينما قالت أفدوتيا رومانوفنا بلهجة جدية :

ــ نعم إنه لكذلك على الرغم من أنني لا أوافقك على كل النقاط دون استثناء !

وفجأة صرخت من الألم لشدة ما كان رازوميخين يضغط على يدها وهو يقول في ذهوله :

ــ نعم ؟ تقولين نعم ؟ لكنك أنت ... أنت ... أنت نبع الصلاح ! نبع النقاء والعقل والكمال ... إعطني يدك إعطنيها ... وأنت إعطني يدك كذلك ! أريد أن اقبل هاتين اليدين هنا وأنا راكع على ركبتي وفي هذه اللحظة !

ثم جثا في منتصف الرصيف الذي كان لحسن الحظ خالياً من الناس في تلك اللحظة .

صرخت بولشيري الكسندروفنا بانزعاج :

ــ ماذا تعمل ؟ أرجوك دع هذا !

واردفت دونيا التي تضحك ولكن دون انزعاج :

ــ إنهض ... إنهض !

ــ لن أنهض بأي ثمن إلا إذا أعطيتماني يديكما ... هكذا ... تماماً . والآن كفى ... لنذهب ؟ أنا سمج تعس غير جدير بكما وثمل ! إنني أحمر خجلاً إذ أنني لست جديراً بأن أحبكما . أما أن أنحني أمامكما خاضعاً فانه واجب على إلا إذا كنت وحشياً حقيقاً . ولذا فقد ركعت وانحنيت ! هذا هو مسكنكما وبسبب

هذا وحده ، أعترف بأن روديون كان على صواب تماماً حينما طرد صاحبكما بيير بيتروفيتش كيف سمح لنفسه أن يجلبكما لسكنان في منزل كهذا ؟ إنها فضيحة ! أتعرفان أي نوع من الناس يأوون الى هنا ؟ مع ذلك فأنت خطيبته ! لأنك خطيبته أليس كذلك ؟ إذن ساصرح لك رغم ذلك بأن زوجك المقبل ليس إلا « قذراً » !

فقالت بولشيري الكسندروفنا محتجة :

ــ اسمع يا سيد رازوميخين ... إنك تنسى نفسك ...

فتمالك رازوميخين نفسه وقال :

ــ نعم نعم ... إنك على حق ! لقد نسيت نفسي ولكنكما لن تلوماني على ماقلته منذ حين لأنني تحدثت اليكما بكل صراحة وليس لأنني ... هم ... إنها كانت تكون نذالة، وبالاختصار ليس لأنني ... هم ... ليكن ... لن يكون ذلك ولن أقوله لأنني لا أجرأ ، لكنه منذ حين ... لما دخل الى حجرة روديون فهمنا للوهلة الاولى أن هذا الرجل ليس من عالمنا ، ليس لأنه دخل علينا برأس خرجت تواً من بين يدي الحلاق وليس لأنه بادر الى نشر ما يعرف من معلومات بل لأنه جاسوس بكل معنى الكلمة ... لأنه مدقق ولأنه يهودي ومشعوذ دعي ، ذلك واضح عليه ، وأنتما تعتقدان أنه ذكي ، لكنه حيوان ، هيا هل حقيقة يمكن أن يكون « صفقة » جديرة بكما ؟ آه رباه ، أنظري يا سيدتي ... إن الاصدقاء المدعوين عندي سكارى لكنهم شرفاء ، ولقد تحدثنا بكل الترهات والسخافات لأنني أنا أيضاً أحسن التحدث بهذه الاشياء ، لسوف نتوصل يوماً الى معرفة الحقيقة لأننا في الطريق القويم ، الأمر الذي لا يبدو على بيير بيتروفيتش لأنه لا يتبع الطريق القويم ... إنني أحب أولئك الذين دعوتهم الليلة الى داري رغم أننا تناقشنا بحدة وأغلظت لهم القول بعد ذلك ... وزاميوتوف نفسه الذي أحبه دون

أن أميل اليه لانه حيوان فضولي ، نعم . حتى ذلك الوحش زاميوتوف فانني أحبه لأنه نزيه شريف يعرف مهنته .. لكن كفاني كلاماً وقد صفح عن كل شيء قيل.. أليس صحيحاً أنكما صفحتما عما قلت ؟ هيا ... لنمش ...

كانوا قد بلغوا المسكن المعد للسيدتين وراحوا يرقون السلم وهو يثرثر . ولما بلغوا أمام باب أحد المساكن هتف :

ــ هنا ... في رقم ثلاثة وقعت فضيحة !.. لقد جئت من قبل الى هذا المكان وأنا أعرفه حق المعرفة .. أين تنزلان ؟.. في المسكن الثامن ؟ حسناً ! إغلقا عليكما الباب بالمفتاح ولا تدعا أحداً يدخل عليكما ليلاً ... سأعود في غضون ربع ساعة لأحمل لكما الأنباء الجديدة... وبعد نصف ساعة على الأكثر سأعود مرة ثانية مع زوسيموف ..سوف تريان ! الوداع ..ينبغي أن أغادركما !

ولما أصبحتا وحيدتين هتفت پولشيري ألكسندروفنا بقلق واضح :

ــ ياإلهي يادونيا ... ماذا سيحدث ؟

فأجابت دونيا وهي تنزع قبعتها ورداءها :

ــ لا تقلقي يا أماه ! إن الله نفسه قيض لنا هذا السيد . ثقي بأنه يمكن الاعتماد عليه رغم أنه ثمل ! وكل ماقاله وعمله من أجل أخي ...

ــ آه يادونيا ! الله يعلم إذا كان سيعود !كيف قبلت مغادرة روديا ! رباه! وإنني ماكنت أنتظر أن أراه على هذا الشكل ... لقد بدا مخيفاً ... وكأنه غير راض عن مشاهدتنا ...

وانهمرت دموع المسكينة على خديها !

ــ كلا ! إن الأمر ليس كما تتوهمين يا أماه ! إنك لم تمعني النظر لأنك كنت تبكين ! لقد زعزعه مرض خطير وهذا هو السبب في كل ماحدث !

ــ آه ذلك المرض ! إن في الأمر شيئاً .. رباه كيف تحدث معك يادونيا !

كانت الأم تنطق بالعبارة الأخيرة وهي تحاول قراءة أفكار ابنتها في عينيها وقد سُرت بعض السرور لأن دونيا كانت تدافع عن أخيها مما يدل على أنها صفحت عما صدر عنه ! وأردفت معقبة وهي تحاول بحث الموضوع إلى النهاية :

ـ أنا واثقة من أنه سيبدل رأيه غداً ..

فقاطعتها ادفوتيا رومانوفنا بقولها :

ـ بل إنني واثقة من أنه غداً سيقول ماقاله اليوم ..

قطعت بهذه الجملة على پولشيري الكسندروفنا طريق الخوض في الموضوع الذي كانت تهيب من الخوض فيه ثم اتجهت نحوها فعانقتها بقوة وعادت تجلس على مقعد منتظرة بقلق عودة رازوميخين ! وكانت الام ترقب ابنتها بصمت وقدعقدت ذراعيها منتظرة الاخبار الجديدة . ولم تلبث هذه أن نهضت واقفة وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً مستغرقة في أفكارها . تلك كانت عادتها كلما كانت تتردد في اتخاذ قرار معين وكانت أمها في مثل تلك الظروف تتجنب إزعاجها وقطع حبل تفكيرها .

كان رازوميخين ولا شك مضحكاً في نزوته الطارئة التي استبدت به فراح يعبر عنها وهو في حالة السكر..تلك النزوة التي أحس بها حيال أفدوتيارومانوفنا. لكن من يتأمل في تلك الفتاة وخصوصاًفيتلك اللحظة وهي عاقدة ذراعيها تتجول حزينة ساهمة في فراغ حجرتها يجد له العذر حتى ولو لم يكن ثملاً . كانت ادفونيا شخصية جذابة حسنة التكوين طويلة القوام متينة البنية واثقة من نفسها كما كان يبدو من كل حركة من حركاتها الأمر الذي كان يزيدها رقة ووداعة . كانت تشبه أخاها في تقاطيع وجهها لكن ذلك ما كان ليمنع أن تكون ذات جمال خارق. كان شعرها كستنائياً كشعر أخيها مع اختلاف طفيف ، وعيناها سوداوان لامعتان مطبوعتان بالكبرياء تنبعث منها في كثير من الأحيان رقة

خارقة ، وكانت شاحبة بغير مرض يعكس وجهها آيات العافية والاشراق .
وكان فمها صغيراً وشفتها السفلى بلون أحمر صارخ تبرز قليلاً مع بروز ذقنها ،
وكان ذلك « البروز » الطفيف العيب الوحيد في ذلك الوجه البديع . لكنه كان
يضفي عليه لوناً من الصرامة والترفع ... وكانت أمارات وجهها تدل على الرزانة
والتفكير أكثر منها على البشاشة لكن الضحكة التي كانت ترتسم على ذلك الفم
الجميل كانت غاية في الجمال لأنه فم يليق به الابتسام فاذا ضحكت كانت ضحكة
هادئة مرحة طافحة بالحيوية ! فكان منتظراً اذاً أن يفقد رازومنخين المتقد
حيوية ، شديد الاخلاص ، رازوميخين البسيط ، النبيل القوي قوة الأبطال
القدماء . الذي كان ثملاً والذي لم يسبق له أن رأى مثل هذا الجمال ، كان منتظراً
أن يفقد رجل كهذا عقله ! ثم إن الصدفة شاءت ـ وكأن ذلك كان بحسب خطة
مرسومة ـ أن تريه دونيا في الوقت الذي كانت فيه تطفح بالحب والفرح للقيا
أخيها ولقد وجدها بعد ذلك مرتجفة الشفاه ثائرة لكرامتها إزاء اهانات أخيها فلم
يبدل ذلك من الأمر شيئاً .

وكان صادقاً عندما قال ـ بينما كانوا يهبطون من حجرة راسكولنيكوف ـ
إن صاحبة منزل ذلك الأخير براسكو في ايفانوفنا ستغار ليس فقط من أدفوتيا
روما نوفنا بل كذلك من بولشيري الكسندروفنا نفسها . اذ أن هذه رغم انها
كانت قد تجاوزت الثالثة والأربعين من عمرها إلا أنها كانت تبدو أصغر سناً كما
هو الحال عند النساء اللاتي يحتفظن حتى أرذل العمر بصفاء ذهنهن وباحساساتهن
وحرارة أجسادهن الطاهرة ! طبعاً ... إن المرأة لا يمكنها ان تحافظ على جمالها
حتى سن الشيخوخة اذا لم تكن محافظة على ذلك المبدأ الوحيد .

كان شعرها قد أصبح قليلاً يغزوه اللون الابيض وقد ارتسمت على اطراف
عينيها تجعدات خفيفة وضمر خداها ونحلا تحت وطأة الاحزان والآلام أما فيما عدا

ذلك فان وجهها ابث جميلاً . إنه صورة دونيا مضافاً اليها عشرون عاماً باستثناء بروز الشفة السفلى الذي لم يكن موجوداً فيها .

كانت بولشيري الكسندروفنا سيدة حساسة الى حدما خجول شديد التسامح حتى في حالات النيل من معتقداتها وآرائها ، لكنها كانت أبداً تعرف الحد الذي يجعل شرفها أو واجبها أو معتقداتها الخاصة التي تؤمن بها بشدة في منجاة من كل اجتراء مها كانت الظروف والمناسبات .

لم تنقض عشرون دقيقة على ذهاب رازوميخين حتى سمعتا طرقتين خفيفتين على بابها ... ولما فتحتا الباب وجدتا أنه قد عاد ، ابتدرها قائلاً بعجلة :

— لن أدخل لأن لاوقت لدي . إنه ينام كأسعد السعداء . نوماً هادئاً وديعاً وان شاء الله سينام على هذه الصورة طيلة عشر ساعات ! إن ناستاسيا بالقرب منه وقد أفهمتها بأن لاتبارحه حتى عودتي سأذهب الآن لاقود زوسيموف وسيحدثكما بنفسه عند عودته وبعد ذلك سوف تستلقيان لتأخذا قسطكما من الراحة لأنكما مرهقتين بالتعب . انه باد عليكما !

ثم غادرهما مسرعاً بينما هتفت بولشيري الكسندروفنا بحبور :

يالـه من فتى نبيل ! حاذق !

فاجابت افدوتيا رومانوفنا بشيء من اللهفة وهي تعود الى تجوالهـا وسط الغرفـة :

— يبدو عليه أنه من طينة ممتازة !

لم تمض ساعـة على مجيء رازوميخين حتى علت أصوات خطوات في الممشى وقرع الباب من جـديد . كانت السيدتان تنتظران لأنهما بدأتا تثقان بوعود رازوميخين وقدجدتاه في هذه المرة قد نجح في اصطحاب زوسيموف معه وبدا أن هذا الأخير قد وافق بكل طيبة خاطر على ترك الحفلة ليعود راسكولنيكوف

لكنه لم يحضر إلى مسكن السيدتين بمثل هـــذه السهولة لولا إلحاح رازوميخين وخشية الطبيب منة وهو على تلك الحال . على أنه سرعان ما بد الارتياح على وجهه بعد أن لمس بنفسه مبلغ اللهفة التي اعتلجت في نفس السيدتين الفاضلتين وهما بانتظاره . وقد امضى لديها عشر دقائق بالضبط استطاع خلالها ان يقنع بولشيري الكسندروفنا ويطيب خاطرها . كانت كلماته تشهد بحسن حال المريض لكنهـا لم تكن خالية من بعض الحيطة متسمة بطابع الأهمية الواجب إخفاؤها على أقوال طبيب في السابعه والعشرين من عمره يُسأل في حالة خطيرة . لم يلفظ خـــلال حديثه أية كلمة خارجة عن الموضوع ولم يبدو أية رغبة في تدعيم علاقات شخصية وثيقة مع السيدتين وعلى الرغم من أنه لاحظ منذ دخوله حسن أدفونياروما نوفنا الباهر فقد عمل فـوراً على أن لايلقي أية عناية إليها لذلك فانه راح يوجه الحديث ـ كل الوقت الذي استغرقته الزيارة ـ الى بولشيري الكسندروفنا وحدها . وكان ذلك التصرف يشعره بارتياح داخلي بالغ ،

صرح ـ بان المريض كان ـ في تلك الأثناء بحالة مُرضية وان مايعانيـــه ـ حسب تشخيصه للمرض ـ ليس فقط من العوامـــل المرضية المادية التي رافقت جسده خلال الاشهر الأخيرة بـل أيضاً بسبب عقلي خاص يمكن ايجازه بالقلق الذي ينجم عن أفكار معينة . ولما لاحظ أن أدفونياروما نوفنا كانت تستمع اليه باهتمام خاص راح يشرح بتبسط نظريته. ولماسألته بولشيري الكسندروفنابصوتها القلق الخجول عما اذا كان ولدها يعاني من حالة معينة من حالات الجنون أجاب بضحكة هادئة صريحة بأن ذلك يعتبر مبالغاً فيه وان المريض تسيطر عليه فكرة خاصة ثابتة تسبب له نوعاً من الجنون المتصل بسبب واحـد حتى أنه راح يدرس هذا الفرع المهم من الطب دراسة خاصة وأضاف بأنه ينبغي الا يُغفلَ عن أن المريض كان حتى ذلك اليوم في بحران من الذهول وإن وصول أسرته سيخلق

في نفسه قوة ويجلب له تسرية تسبب شفاءه شريطة أن يجنب اضطرابات جديدة من نوع معين . ثم نهض بعد ذلك وحيا بشكل جمع بين الخطورة والدعة ثم خرج معرباً عن سروره بتلك الزيارة ترافقه الدعوات الصالحة التي غمرته بها السيدتان اعترافاً منها بجميله وقبل أن يغادرها قال رازوميخين وهو يتأبط ذراع زوسيموف .

ـ لسوف نتحدث غداً حديثاً أطول . أما الآن فيجب أن تناما دون تأخير ولسوف أمر بكما باكراً لأقدم لكما تقريراً جديداً .

وفي الطريق قال زوسيموف بلهجة بعيدة عن الاطراء الرخيص :

ـ يالها من فتاة ساحرة تلك الـ « آفدونيا رومانوفنا » .

فزمجر رازوميخين بانفعال وقبض على عنق زوسيموف بشدة وقال :

ـ ساحرة ؟ تقول ساحرة ؟ لو سمحت لنفسك مرة أخرى أن تعيد هذا القول مرة اخرى ... أتفهم ؟ أتفهم ؟ وراح يهزه بقوة وانفعال فهتف زوسيموف يحاول التخلص من يده :

ـ دعني أيها الشيطان الثمل !

وللتخلص منه راح يحدق في عينيه برهة ثم انفجر ضاحكاً ضحكة جنونية ذلك أن رازوميخين كان لا يزال واقفاً أمامه منفرج الذراعين غارقاً في أفكاره السوداء وفجأة ادرك حماقة عمله فقال بلهجة كئيبة .

ـ إنني حمار بالتأكيد . ولكنك أنت أيضاً تبدو حماراً ! ...

ـ لعمري ! كلا ياصديقي أنا لست حماراً ـ لأنني لا أحلم بالحماقات ! .

وراحا يمشيان دون ان يتفوها بكلمة حتى بلغا مدخل منزل راسكولنيكوف وعندئذ قطع رازوميخين الصمت وقال :

ـ إنك رجل ممتاز ولكنك ـ إضافة الى خطيئاتك الكثيرة ـ زير نساء بل

ومن اكثرهم نذالة . إنك تفكر في قراره نفسك « بقذارة » تهدهدها وتنميها لانك لاتستطيع أن ترفض لنفسك رغبة وإنني أدعو هذ التصرف بالقذارة لأنه اصدق وصف له . لقد بلغت من التخنث وحب الجنس مبلغاً لاأفهم بعده كيف تستطيع على الرغم منه أن تكون طبيباً ممتازاً مخلصا. إن كلمة طبيب تسطر بالقلم فتبدو مستلقية على الورق لكنها تنهض ليلاً لتعود مريضاً ... وأرى أنك بعد ثـــلاث سنوات لن تنهض مطلقاً لعيادة مريض. على كل حال أن الأمر ليس هذا لقد أردت أن أقول : سوف تمضي ليلتك في مسكن صاحبة البناء ولقد أقنعتها بعد لأي بقبول إيوائك . وبذلك يتاح لك فرصة جديدة لعقد صداقات أمتن ! أليس هذا ما تفكر فيه ؟ كلا يا صديقي لا يوجد ظل من هذا . أليس كذلك ؟

ـــ لكنني لم أفكر مطلقاً في ذلك .

ـــ ستجد هنا ياصديقي تظاهراً بالحشمة ورصانة وخجلاً وتعففاً مصطنعاً ترافقه تنهدات وحسرات ولوعة ! أنقذني منها أتوسل إليك ! استحلفك بكل شياطين العالم . إنها مضياف بشكل عجيب وإنك لتؤدي لي خدمة جلى لن أنساها لك .

ازداد اغراق زوسيموف بالضحك وقال :

ـــ حسناً إنك لست ثملاً !.. لكن ماذا أعمل ؟!

ـــ ثق أنك لست في حاجة إلى إعطائها شيئاً كثيراً من نفسك ، يكفي أن تقذف في وجهها ببعض الكلمات ، أية كلمات تخطر ببالك ، يكفي أن تجلس بالقرب منها وأن تتحدث ! ثم لا تنسى أنك طبيب . فابدأ معها مثلا بأن تصف لها علاجاً معيناً وأقسم لك على أنك لن تندم . إن لديها معزفاً صغيراً وأنت تعرف أنني أغني قليلا وقد غنيت لها أغنية روسية تاريخية تلك التي مطلعها : « إنني أبكي بدموع حارة ..» ثم إنها تعبد الأغاني التاريخية ولقد بدأنا من هذه النقطة . أما أنت فانك عازف بارع ، أستاذ شبيه « روبستن » هيا ثق بانك لن تندم .

ـــ لكن ألا تكون قد وعدتها بعض الوعود ؟ وعدا خطياً مثلا ؟ الم تعدها بالزواج منك؟

ـــ كلا ! أبداً ، أبداً ، لا شيء مطلقاً من كل ذلك . إنها ليست كما تظن. لقد ظن لشيباروف ...

ـــ في هذه الحالة عليك أن تتركها .

ـــ ولكن ليس من سبيل إلى تركها هكذا .

ـــ ولمَ لا ؟

ـــ لأنه ليس من سبيل ، هذا كل ما في الأمر . إن فيها يا عزيزي لوناً من الجاذبية .

ـــ إذاً لمَ استهويتها ؟

ـــ إنني لم أقصد استهواءها . بل لعلني وقعت فريسة لها بحماقة . أما هي فلا فرق لديها أن أكون أنا أو ان تكون أنت طالما أنها تستطيع أن تنعم برفيق بالقرب منها . لست أدري كيف أشرح لك ذلك يا صديقي ! على فكره أنت قوي في الرياضيات ولا زلت مهتماً بهذا العلم في الوقت الحاضر . فابدأ إذا شئت بتعليمها قواعد الحساب المتممة. أنا لا أمزح أؤكد لك بأن ذلك سيان لديها ولسوف تراها تتأملك وتتأوه بحسرة . خذ مثلا : إنني استبقيتها يومين متتاليين في « مخدع » الامراء البروسيين ! لأنني كنت مرغماً على التحدث بأي شيء . أتدري ماذا كانت تعمل خلال هذا الوقت ؟ لقد كانت تذوب وتتحسر ! إنما تجنب التحدث اليها عن الحب لأنها متعففة لدرجة التطرف . يكفي أن تبدو أمامها بمظهر الذي لا يطيق الابتعاد عنها وسيكون في ذلك ما يكفي ! إن مسكنها حاوٍ على شروط الراحة حتى لتظن أنك في بيتك تماماً : تقرأ أو تجلس أو تستلقي أو تكتب بل وتستطيع أن تعانقها إذا شئت على أن تبدأ بحكمة .

ـــ ولكن ماذا أعمل بها ؟

ـــ الحقيقة أنني لا أعرف كيف أفسر لك الموضوع لكنك سترى بنفسك أنكما صنعتما الواحد للاخر . وقد كنت فكرت فيك من قبل لأنني أعرف أنـك تحب الانتهاء من علاقتك بانتهاء زيارتك ولا يزعجك أن تكون هـــذه النتيجة متأخرة أو متقدمة . وهنا يا عزيزي سينطبق مبدأ فراش الريش عليك ! هـا إن مصيرك يناديك . إن نهاية العالم بالنسبة اليك ، المرساة ، مرفـأ الأمان ، قواعـد العالم واستقراره ! انـك ستجـد الطيور المحمرة والأفاوية و « السماور » مسـاءً والخدمة وأنت في السرير . ستكون كالميت رغم انـــك حي ! وبذلك ستضرب عصفورين بحجر ...! اف ! يا صديقي كم أثرثر ! لقد آن أن تنام أما أنا فقد وقع لي من قبل أن أمضيت الليل ساهراً لذلك فسأذهب لالقاء نظرة عليه فـــلا تبتئس ولا تقلق مما كنت أقول لقد كانت حماقات فحسب ! ولك إن أردت أن تصمد معي أو أن تصمد بعدي لتلقي نظرة عليه شريطة أن توقظني حالاً إذا لاح لك أنه يعاني من الهذيان أو الحمى .



الفَصْلُ الثّاني

استيقظ رازوميخين بعيد الساعة السابعة قلقاً كثيباً فقد شعر ذلك الصباح بأسباب عديدة تجعله يكتئب دون أن يدرك علة ذلك . لم يكن يتصور أبداً أن يستيقظ يوماً على ذلك النحو ! تذكر يوم أمس بكل تفاصيله وفهم أنه قد وقع له فيه شيء غير طبيعي وأنه أحس بشعور كان يجهله حتى تلك اللحظة ، شعور لم يكن له مثيل من قبل . كذلك فقد تأكد لديه أن الحلم الذي التمع في خيـاله لم يكن ممكن التحقيق بل انه كان على أقصى درجة من الاستحالة حتى أن مجرد التفكير فيه كان يبعث الخجل في نفسه لذلك فقد اتجه بفكره وعقله الى الاعمال العادية التي يزاولها كل يوم لينسى ذلك الامس « مضاعف اللعنات » .

كانت تعذبه ذكريات أمس وبصورة خاصة تلك الذكرى التي تتعلق بتصرفه حيال تينك السيدتين فاطلق على ذلك التصرف اسم « تصرف الرجل الخشن القذر » ولم تكن سبب تلك التسمية حالة السكر التي كان عليها بل لأنه أهان بحماقة وعنف خطيب الفتاة أمامها منتهزاً الحاجة التي كانت فيها دون أن يعرف طبيعة العلاقات التي تربط بينها وبين ذلك الرجل . وقد سمح لنفسه أن يحكم عليه بذلك الشكل السريع الأحمق دون أن يسأله أحد رأيه فهل يمكن لفتاة مثل آدفوتيا رومانوفنا أن تربط مصيرها بمصير رجل غير جدير لمجرد حب الكسب والربح ؟ لا شك أنه ليس محروماً من المواهب ! أما قضية المسكن المؤثث فانه لم يكن ولا شك يعرف نوعه خصوصاً وإنه كان يبحث عن مسكن للسيدتين دون سابق معرفة فحكمه إذاً كان بشعاً أما حجته التي أراد أن يبرر بها تصرفه

والتي تصب اللوم كله على الشمل فانها تزيد موقفه بشاعة ولا سك . لان الحقيقة كلها كانت كامنة في الخمر هذه الحقيقة سطعت أمامه في تلك اللحظة واضحة جلية لقد أوضحت الخمرة حقيقته وبمعنى أدق « عن قذارة قلبه الغليظ الحسود » .

هل يجوز له أن يفكر بمثل ذلـــك الحلم ، هو ، رازوميخين ؟ من هو إذا قورن بتلك الفتاة الشابة ؟ أو لا يكون ذلك السكير العربيدالمتبجح؟ هل يمكن التفكير في إيجاد تقارب أكثر شذوذاً ووقاحة من هذا ؟

كان رازوميخين يحمر خجلا ويأساً من تلك الفكرة . وتذكر فجأة أنـه عند ما هبط أمس مع السيدتين من حجرة راسكولينكوف قال لهما إن صاحبة المسكن تحبه وتغار من آفدوتيا رومانوفنا ! فكان مجرد تفكيره بهـــذه العبارة يقضي عليه قضاء مبرماً لذلك فقد راح يضرب بقبضته موقـــد المطبخ ضربات عنيفة حتى ادمي يديه وحطم قرميدة . راح يغمغم وهو فريسة شعور بالخجل :

ــ طبعاً . طبعاً ليس من وسيلة لمحو هذه الحماقات ولا للتبرؤ منها وعلى ذلك فانه لم يبق لدي مجال للتفكير ... ولسوف أمثل بين يديها دون أن أتفوه بكلمة وسأتقبل كل شيء دون منة وبسكون ولن أعتـــذر بالطبع لأن كل شيء قد ضاع !

مع ذلك فانه لما أخذ يرتدي ملابسه صرف جل عنايته اليها . لم يكن لديـه أكثر من ثوب واحد حتى ولو أنه كان يملك ثوباً آخر لما ارتداه عامداً . مع ذلك فانه إزاء حالة ثوبه الراهنة لم يكن يستسيغ جرح شعور الآخرين بمظهره الزري خصوصاً وان اولئك « الآخرين » كانوا في حاجة اليه وانهم دعوه من تلقاء أنفسهم لزيارتهم لذلك فقد مر بالفرشاة على ثيابه بعناية أما القميص فكان غاية في النظافة لأن طبيعة رازوميخين كانت تأبى قذارة الجسد .

نهض ذلك الصباح وهو مرتبك وأخذ يغسل شعره وعنقه ويديه بقطعة من

الصابون انتزعها من ناستاسيا ولما مر بيده على لحيته وأحس بها نامية تذكر أن براسكوفي بافلوفنا (صاحبة المنزل) تملك أمواس حلاقة ممتازة احتفظت بها منذ وفاة المرحوم زوجها زارنيستين وأنه يستطيع استعمال واحد منها . غير أنه سرعان ما استبعد الفكرة بوحشية وهو يغمغم :

ـ ستبقى لحيتي كما هي لأنهما ستفكران بأنني ما أزلتها إلا ... طبعاً ذلك ما سوف تفكران فيه وعلى ذلك فلن أزيلها لأي سبب في الوجود ! خصوصاً وانني أنا ذلك القذر الخشن الذي تفوح مني رائحة الحانات ولنفترض ... ـ لأنني في الواقع أعترف بنبلي كرجل ـ لنفترض أن ذلك النبل هو ما أتغنى به فانه في الحقيقة ليس جديراً بمثل هذا التفاخر لأن كل امرىء يجب أن يكون نبيلاً بل يجب أن يكون أكثر من ذلك . ثم ... ألست أنا كذلك مصاباً بعدد من الخطيئات لا أقول الخطيئات القذرة ولكنها خطيئات وكفى . إذاً لا يمكن أن أعاود البحث في الآمال خصوصاً وإنني لا أملك شيئاً أضعه في الكفة الأخرى لأساوي به آدفوتيا رومانوفنا ... فيا للشيطان إن الواقع هو انني سأبقى كما أنا قذراً خنزيراً عربيداً ولن أبالي بل لسوف أتصرف تصرفاً أسوأ ...

بمثل هذه الأقوال أمضى رازوميخين الوقت حتى التقى بزوسيموف الذي كان قد أمضى ليلته في مسكن براسكوفي بافلوفنا . لقد جاء هذا يلقي نظرة أخيرة على المريض فأنبأه رازوميخين بأنه نائم كحيوان « اللوار » فأوصى زوسيموف أن يترك في نومه ووعد أن يعود عند الساعة الحادية عشرة تقريباً وأضاف :

ـ المهم أن أراه في حجرته عند ما أعود . إنه مؤلم أن لا يكون للطبيب

حرية التصرف بالمريض لان شفاءه يصبح معجزة . فترى هل تعرف إذا كان عليه أن يذهب إليها أو أنها سأتيان اليه ؟

فاجاب رازوميخين وقد فهم الغاية من هذا السؤال :

— لسوف تحضران على ما أظن لأنها ستتحدثان معه عن شؤونهم العائلية ولسوف أنسحب أنا أما أنت فبوصفك طبيباً فان لك ولا شك حقوقاً أكثر .

— إنني لست طبيب الضمائر لذلك فسأحضر وأنصرف لأنني أكتفي بالعناية بالجسد .

قال رازوميخين متجهماً :

— هناك قضية تزعجني : لقد ذكرت البارحة وأنا في حالة الثمل ... لقد تحدثت بعدد كبير من الحماقات من بينها أنك تخاف أن يكون راسكولينكوف متجهاً نحو الجنون .

— لقد قلت ذلك أيضاً للسيدتين مساء البارحة .

— أنا أعرف أنني ارتكبت حماقة كبيرة فاضربني إذا شئت ولكن قل لي هل هذه الفكرة ثابتة في ذهنك ؟

— فكرة ثابتة ؟ ويحك ! إنك أنت بنفسك صورته لي بصورة المتشائم بل بصورة المهووس عند ما استدعيتني لعيادته أول مرة . والبارحة عملنا على تعكير مزاجه بل لأقل أنك أنت الذي سبب ذلك باحاديثك وقصصك المتعلقة بذاك الدهان الذي ألقي عليه القبض متهماً بقتل العجوز ... ياله من موضوع مناسب للحديث مع شخص فقد الرشد بسبب مثله ... لو أنني كنت أعرف تماماً ما وقع له في دائرة البوليس في ذلك الحين وإن أحد السفلة وجه اليه إهانة الاشتباه به . م ... لما تلفظت البارحة بحديث كالذي سمعته . إن هؤلاء المهووسين يجعلون من النقطة بحراً حتى أن كل الخيالات تبدو لهم حقائق وعلى قدر ما أذكر فقد

اتضحت لي نصف القضية من الحديث الذي قصه علي زاميوتوف البارحة ..،
إنني أذكر حالة أحد المصابين بهذا المرض وهو رجل في الاربعين في عمره كان
لا يستطيع احتمال السخريه التي كان يتفوه فيها طفل في الثامنة من عمره كان
معه على المائدة ، فذبحه ! ولدينا هنا تعس باسمال بالية ينهش المرض جسمه يصاب
باهانة من قبل شرطي فظ ثم يصبح هدفاً لشكوك مريعة . لذلك فان هوساً من
هذا النوع كان مصدره كرامته المجروحة المهدوره وهـــذا هو ولا شك محور
الألم . وعلى فكرة . إنك على حق في أن زاميوتوف شاب لطيف لكنه ، ماذا
أقول ؟ لكنه أخطأ في التحدث بمثل ذلـــك الحديث البارحة . إنها ثرثرة
مروعة .

ــ ولكن لمن تحدث بها ؟ أليس لي ولك ؟

ــ بل لبورفير أيضاً .

ــ وماذا في الامر إذا تحدث به لبورفير ؟

ــ على فكرة هل لك بعض التأثير على الام والأخت ؟ إنني أفضل أن
تكونا متحفظتين في الحديث معه اليوم ؟

فاجاب رازوميخين بشيء من التردد :

ــ سيكون كل شيء على ما يرام .

ــ لست أدري ما الذي يحفظه ضد لوجين ، السيد ذي الغنى! يبدو أنه يروق
في عيني الفتاة . خصوصاً وانها لا تمتلكان نقيراً أم لا ؟ أليس كذلك ؟

هتف رازوميخين بصوت غاضب منفعل :

ـ هل يهمك هذا الامر ؟ كيف أعرف اذا كانت تملكان نقيراً أم لا ؟ سلها
إذا شئت معرفة ذلك ...

ـ كم تبدو سخيفاً أحياناً !.. لا شك أنك متألم في عواطفك . الى اللقاء .
اشكرْ عني راسكوفي بافلونا لحسن وفادتها ، لأنني ألقيت عليها تحية الصباح

من وراء باب حجرتها إذ أنها كانت متحجبة فيها رغم أنهـا كانت مستيقظة منـذ الساعة السابعة لكنها لم « تتنازل » بالظهور !..

كانت الساعة التاسعة تماماً حين دخـل رازوميخين بنـاء باكالييف وكانت السيدتان بانتظاره على أحر من الجمر فقد نهضتا قبل الساعة السابعة ولبثتابانتظاره قلقتين . دخل عليها مربد الوجه وحياهما بارتباك . الأمر الذي جعله بعد لحظات يلوم نفسه ويتهمها بألف حماقة لأنه ما كان ينتظر اللقـاء الذي حصـل : فقد هرعت اليه بولشيري الكسندروفنا وأمسكت بيديه الاثنتين في يديها ولولا قليل لأكبت عليها تقبلها بينما لظار ـ هو ـ الى آدفونيا رومانوفنا بخجل وخوف فرأى على ذلك الوجه المعتز علامات من الصداقة والاعتراف بالجميل والاحترام العميق حتى أنه ذهل تماماً وفوجيء بمالم يكن يتوقعه . كان ينتظر أن يكون هـدفاً لنظرات السخرية والاشمئزاز الواضحة والتي كان قد أعد نفسه لاحتمالهـــا نظراً لشدة خجله ، غير أن مواضيع الحديث كانت كثيرة حتى أنه نسي خجله وحنـــقه على نفسه وعاد على سجيته .

علمت بولشيري الكسندروفنا من رازوميخين بأن ابنها لم ينهض من نومه بعد وان كل شيء كان على مايرام . فأعربت عن ارتياحها للنبأ لأنها كانت في حاجـــة قصوى ، حاجة ملحة للبحث مع رازوميخين حول هذا الموضوع . وفجأة أثيرت مسألة الافطار وعرف من ذلك أن تينك السيدتين قد انتظرتاه حتى تلك الساعة ليشاركها الطعام ، ولما قرعت آفدونيا رومانوفنا الجرس مثل أمامها خادم قـذر فأوصته بتحضير الشاي . وكما قدمه كان من القذارة بحيث يثير التقزز حتى أن السيدتين اشمأزتا منـــه وأثار ذلك حفيظة رازوميخين فراح يحتج بشدة على تلك المعاملة في ذلك المسكن المؤنث غير أنه لما تذكر لوجـــين صمت مكرهاً وشعر بارتباك حتى أنه تنفس الصعداء حينما هاجمتـــه بولشيري الكشندروفنا بسيل

لاجارف من اسئلة .

لبث رازوميخين يتحدث ثلاثة أرباع الساعـــة مجيباً على أســـئلة السيدة واستفساراتها ووفق ـ استناداً إلى المعلومات التي يعرفها ـ في أن يسرد على أمـه وأخته الوقائع الرئيسية المهمة التي تتعلق بحياة روديون منذ عام مضـى . ثم أنهى حديثه بسرد تفاصيل مرضه الاخير وغني عن الذكر أنه أغفل عامداً عـدداً من الوقائع التي أعتبرها غير ذات موضـوع ومنها حادثة دائرة البوليس وأســـباب الاستدعاء وماتم بعدئذ . وكانت السيدتان مصغيتين اليه باقبـال وتلهف حتى أنه عندما انتهى من حديثه أخطأ عندما ظن أنها قـد أروي غليلها لأنه بدا عليها أن استجوابها له لمّا يبدأ بعد !

قالت بولشيري الكسندروفنا بلهفة :

ـــ قل لي ... قل لي ، ماذا تفكر يا ... آه عفـــواً فلست أعرف اسمك حتى الآن !

ـــ دميتري بروكوفيتش !

ـــ حسناً يادميتري بروكوفيتش أريد أن أعرف كيف ينظر الآن إلى الامور بصورة عامة ؛ أقصـد وأرجو أن تفهمني ماالعمل لأفسر لك السؤال أو لأحسن التعبير ... أقصد ماذا يحب وماذا يكره ؛ هـل هو دائماً ســـريع الغضب ؛ ماهي رغائبه بل إذا أردت القول ماهي أحلامه إذا أمكنني طرح مثـل هذا السؤال.ماهو العامل الذي يؤثرعليه تأثيراًخاصاً؟وباختصار أريد أن أعرف ..

نقاطعتها دونيا ملاحظة :

ـــ آه ياأمي الصغيرة ، كيف يمكن الجواب على هذه الأسئلة دفعةواحدة ؟

ـــ رباه ! ذلك لأنني ما كنت أنتظر أن أراه على هذه الصورة ... كلا أبداً ما كنت أنتظر ذلك يادميتري بروكوفيتش .

فأجاب رازوميخين :

ـــ إن ذلك طبيعي ولا شك ! أنا شخصياً لم تعد لي أم بل عم يأتي لزيارتي كل عام وفي كل مرة لايتوصل إلى معرفتي حتى ولا معرفة ظواهري ، مع ذلك فهو رجل ذكي . وأنب قد فارقت روديون منذ ثلاث سنوات وقد مرت خلالها مياه كثيرة تحت الجسور ! ماذا أقول لك ! إنني أعرف روديون منذ ثمانية عشر شهراً . إنه كئيب شرس متعجرف متكبر . ومنذ هذه الأيام الاخيرة ـ ولعله من قبل أيضاً ـ أصبح كثير الظنون كثير الهواجس . إنه كبير النفس طيب القلب . إنه لايحب التصريح بعواطفه واحساساته بل قد يرتكب أية حماقة أو أي عمل خبيث إذا كان ينجيه الافضاء بمشاعره . مع ذلك فانه ليس دائماً مهووساً لكنه بارد الطبع عديم الاحساس أحياناً لدرجة التجرد عن انسانيته حتى ليقال أن في جسده عقليتين متناقضتين تظهران على التوالي فهو أحياناً شديد الصمت والانطواء فتزينه يبرم بأي شيء يزعج خلوته رغم أنه يكون خلال تلك الخلوة مستلقياً فقط ولا شيء غير ذلك ! وهو لا يميل الدعابة ليس بسبب افتقاره الى البديهة بل يبدو عليه أن وقته لايتسع لمثل هذه « الحماقات » وهو لايصغي أبداً إلى مايقال له حتى النهاية . إنه أحياناً يعزف عن أشياء تبدو شديدة الاهمية بل وتثير اهتمام كل الناس . إنه شديد الاعتداد بنفسه وأعتقد أنه على حق في ذلك الاعتداد . ثم ماذا بعد ؟.. أعتقد أن مجيئكما سوف يكون ذا تأثير ايجابي ينهل شفاءه !

هتفت بولشيري الكسندروفنا التي كانت تشعر بإيلام عنيف إثر تلك المعلومات التي راح رازوميخين يسردها على مسامعها .

ـــ يا إلهي ... إن شاء الله سيشفيه وجودنا !

وأخيراً وجد رازوميخين في نفسه الشجاعة لينظر بصراحة إلى وجه

افدوتيارومانوفنا . كان ينظر اليها خلال حديثه نظرات سريعة خاطفة ثم يرتد طرفه اليه . كانت تجلس حيناً الى المائدة مصغية اليه بانتباه ثم تعود حيناً آخر الى ذرع الغرفة على جري عادتها وهي عاقدة ذراعيها متقلصة الشفتين ، ملقية بين فينة وفينة سؤالاً دون أن تتوقف أو أن تنقطع عن التفكير كان من عادتها هي الاخرى أن تصغي الى ما يقال لها حتى النهاية ! ...

كانت مرتدية ثوباً خفيفاً وقد عقدت حول عنقها منديلاً أبيض من قماش شفاف . وقـــد أتيح لرازوميخين أن يلحظ أن تينك السيدتين تعيشان في فقر مدقع بدلالة عديد من الشواهد ! ولو أن أفدونيارومانوفنا كانت رافلة بثياب الملكات لما أقلقه ذلك او أفزعه أما الآن فقد داهم قلبه خوف حقيقي لعل سببه راجع الى أنها كانت مكتسبة ثياباً تدل على فقرها الشديد وأنـــه قد فهم حقيقة حالها . لذلك فقد كان يخاف أتفه عباراته ويهاب أصغر حركاته الأمر الذي زاده ارتباكاً وهو الذي لم يكن واثقاً من نفسه .

قالت أفدونيارومانوفنا باسمة :

ــ لقد أطلعتنا على عدد من التفاصيل المثيرة المتعلقة بعقلية أخي ولقد تحدثت بنزاهة . حسناً ... كنت أظن أنك حائر في فهمه !.

ثم أضافت بعد شيء من التردد :

ــ أعتقد أن ينبغي أن تكون حوله إمرأة ما ! ...

ــ أنا لم أقل ذلك لكن ليس من المستبعد أن تكوني على صواب لولا ...

ــ لولا ماذا ؟

فأجاب رازوميخين بلهجة حاسمة :

ــ لولا أنه لا يحب احداً ولعله لن يحب أحداً أبداً .

ــ أيكون عاجزاً عن الشعور بالحب ؟

فأجابها فجأة دون ترو :

— هل تعرفين ياأفدونيارومانوفنا أنك تشبهين أخاك شبهاً مخيفاً في كل شيء ؟

غير أنه تذكر فجأة ما قاله عن أخيها واحمر وجهه واضطرب بينما لم تتمالك أفدونيارومانوفنا عن الضحك وهي تنظر اليه . وقالت بولشيري الكسندروفنا منزعجة بعض الشيء .

— قد تكونا كلاكما مخطئين في حق روديا . أنا لا أتكلم عن الحاضر يادونيا ... إنما كتب بيربيتروفيتش فيهذهالرسالة وما اعتبرنا ـ أنت وأنا ـ أنه قد لايكون حقيقياً لن تستطيع ان تتصوريا « دميتري بروكوفيتش » كم هو غريب أو ماذا أقول : مفرط في الشطط ! إنني لم أستطيع أبداًأناطمئن الىعقليته منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره ولا زلت أعتقد أنه قادر على المغامرة بما لايخطر على بال أي آخر من الناس . لن أذهب بعيداً في البحث ... أتدري أنه منذ منذ ثمانية عشر شهراً سبب لي عذاباً وألماً كادا أن يوديا لي عندما قرر الزواج من تلك الامرأة ما اسمها ؟ ... إبنة تلك الـ : زارنيستين صاحبة البناء الذي يقطن فيه ؟

وسألته أفدنيارومانوفنا :

— هل لديك تفاصيل عن هذه القضية ؟

بينما تابعت بولشيري ألكسندروفنا تقول :

— أتعتقد أنه كان سيجد من دموعي وتوسلاتي ومرضي بل ولعل من فولي جافزاً يرجعة عن عزمه ؟ وأن بؤسنا كان سيؤثر فيه ؟ كان قميناً بتخطي كل العقبات كأهدأ ما يكون يكون المرء . لكن هل من الممكن أن يكون لايحبنا ؟

فأجاب رازوميخين بتحفظ :

— لم يحدثني أبداً بشيء عن هذه القضية . غير أنني سمعت نتفاً من مدام

زارنيستين نفسها التي تعتبر كذلك ميالة للصمت وما علمته في الحقيقة من اعتبار الأمر على شيء من الغرابة !

فسألتنا معاً :

— حسناً ... ماذا علمت ؟

— إن ما علمته ليس مهماً . أنا أعرف ان السيدة « زارنيستين » كانت غير راضية عن هذا الزواج الذي كان أمراً مفروغاً منه لولا أن موت الخطيبة وحده وقف دون تنفيذه ومن جهة اخرى كان يقال أن العروس المنتظرة لم تكن على شيء من الجمال بل أنها كانت كما يؤكدون قبيحة وعليله ومضحكة غريبة لكنها لم تكن عديمة المزايا محرومة من المواهب وإلا فان ذلك العزم يكون غير مفهوم خصوصاً وإنها لم تكن تملك بائنة رغم أن « زوريون » ليس ممن يعلقون أهميـة على البائنة . أما كيف تم الاتفاق على ذلك الزواج فان من العسير الحكم عليه...

فقالت « افدونياروماتوفنا » ملاحظة :

— أنا قانعة بان تلك الفتاة كانت ذات أهلية وميزات !

واعقبت بولشيري الكسندروفنا مقررة :

— ليغفر لي الله . لكنني سررت لموتها دون أن أعرف أيها كان سيكون أكثر إيلاماً للآخر لو تم ذلك الزواج !

ثم راحت تسأل رازوميخين عن الحادث الذي وقع بين روديا ولوجين أمس وكانت لاتفتأ تصوب الى دونيا نظرات خفية ولا تخلو من تحفظ الأمر الذي أزعج هذه ازعاجاً واضحاً .

كان يبدو أن تلك الحادثة تشغل بالها أكثر من كل شيء حتى أنها كانت ترعبها وتجعلها تقشعر لهولها . فعاد رازوميخين يسرد عليها القصة بحذافيرها ولكنه أضاف اليها رأيه الشخصي فاتهم راسكولنيكوف بصراحة بأنه أهان بيتروفيتش

اهانة مبيتة ولم يلح كثيراً على تبرير فعلته بواقع المرض وقال :

ـــ لقد هيأ الأمر قبل أن يسقط فريسة المرض !

فقالت بولشيري الكسندروفنا بصوت خافت وقد أدهشها أن يعبر رازوميخين هذه عن رأيه حيال بيير بيتروفيتش بمثل تلك العبارات المتزنه التي يشوبها لون من الاحترام كما أدهش أفدونيارومانوفنا نفسها :

ـــ وأنا أظن ذلك أيضاً .

ثم أردفت دون أن تستطيع كتم دهشتها :

ـــ ذلك إذاً هو رأيك عن بيير بيترفيتش !

ـــ فأجاب رازوميخين بلهجة قوية متحمسة :

ـــ لاأستطيع أن أكون رأياً آخر عن الزواج المقبل لابنتك . ألا إنني لاأتحدث بمثل هذا الكلام عن تأدب رخيص بل لأنني . . . لأن . . . ماذا أقول ؟ ... يكفي أن أفدونيارومانوفنا قد وقع اختيارها على هـذا الرجل . . . اذا كنت قـــد حططت من قيمته أمس فلأنني كنت ثملاً بشكل كريه وكنت كذلك فاقد العقل ... نعم كنت فاقد العقل ... كنت مجنوناً تماماً واليوم أنا في خجل شديد !

واحمر وجهه خجلاً وصمت وكذلك كان شأن أفدونيارومانوفنا ولكنها لم تقطع حبل الصمت . فقد لبثت صامتة لاتنطق بكلمة واحدة منذ أن بحث في أمر لوجين !

وكانت بولشيري الكسندروفنا في حالة من التردد الظـاهر بعد إن فقدت سندهـا حيال قضية لوجين . وأخيراً صرحت بعد تردد دون أن تنقطع عن ارسال نظرات مستفسرة الى ابنتها ، بأنها في تلك اللحظة مشغولة الفكر بحادثة هامة جداً وشرعت تقول :..

ـــ اصغ يا دميتري بروكوفيتش ... سأكون صريحة تمامـــاً مع دميتري بروكوفيتش أليس كذلك يا دونيا ؟

فقالت أفدوتيا رومانوفنا بلهجة القانعة :

ـــ طبعاً يا أماه !

فبادرت بولشيري الكسندروفنا تقول وكأن حملاً ثقيلا سيزاح عن صدرها بعد اطلاع رازوميخين على احزانها :

ـــ هذا هو موجز الأمر : لقد تلقينا اليوم في ساعة مبكرة كلمة من بيير بيتروفيتش جواباً على إخطارنا إياه بوصولنا . إعلم أنـــه كان عليه أن يحضر الى المحطة ليستقبلنا كما وعد . لكنه بدلاً من حضوره بالذات أرسل لنا خادمـاً ومعه عنوان هذا المسكن ليدلنـا على الطريق أما هو ـ بيير بيتروفيتش ـ فقد أبلغنـا على لسان الخادم أنه سيزورنا اليوم صباحاً . وبدلاً من مجيئه ، وصلتنـا كلمة منه منه هذا الصباح ... خذ ... من الافضل أن تقرأها بنفسك . إن فيهـــا نقطة تشغل بالي كثيراً وأسوف ترى بنفسك تلك النقطة و ... قل لي بصراحة يادميتري بروكوفيتش ، إنك تعرف عقلية روديا أكثر من أي كان وتستطيع على ذلك أن تسدينا النصح أكثر من أي كان . إنني أخطرك بان دونيا قـد اتخذت قراراتهـا منذ اللحظـة الاولى لكنني لست أدري إلى أي صف يجب أن أنحـاز وقد كنت أنتظرك !

فض رازوميخين الرسالة المؤرخة في اليوم السابق وقرأ فيها ما يأتي :

« حضرة السيدة بولشيري الكسندروفنـا العزيزة ، لي الشرف بأن أعلم حضرتكم بأنه على أثر موانع غير متوقعة ، استحال علي الذهـــاب للقياكم عند هبوطكم المدينة لذلك فقد أرسلت لهذه الغايـة رجلاً حاذقـاً وأراني كذلك محروماً من شرف زيارتكم غداً صباحاً بسبب أعمال مستعجلة تستوجب وجودي

في مجلس الشيوخ ولكي لاأقلق خاوتكم العائلية مع إبنكم وخلوة افدوتيار ومانوفنا مع أخيها . وسيكون لي غداً مساء في تمام الساعة الثامنة شرف زيارتكم والمثول لتقديم احترامي وتمنياتي لكم في مسكنكم . وبهذه المناسبة أسمح لنفسي أن أتوجه إليكم برجاء بل وأقول برجاء حار وهو أن لا يكون روديون رومانوفيتش حاضراً اجتماعنا المشترك نظراً لأنه أهانني بشكل خشن ودون مسببات خلال الزيارة التي قمت بها اليه أثناء مرضه وأنه عندي ــ علاوة على ذلك ــ ما أتباحث به معكم حول موضوع معين أرغب معرفة تفسيركم الشخصي له . ولي الشرف بان أخطركم سلفاً بانه إذا حصل ــ رغم طلبي ــ وقابلت روديون رومانوفيتش فانني سأجــــد نفسي مضطراً للانسحاب فوراً وسيكون لكم شأنكم ! إنني اكتب هذا تلافياً لاحتمال وجوده لأن رديون رومانوفيتش الذي كاد يبــدو مريضاً عند زيارتي له والذي استعاد صحته بعد ساعتين من ذلك ، يمكنه والحـالة هذه ــ طالمـا أنه خرج من حجرته ــ أن يأتي لزيارتكم . ولقد تأكد لي خروجــه شخصياً فقــد شهدته في مسكن أحد السكارى الذي دهسته خيول عربة فمات على أثر ذلك وقد أعطى إبنة ذلك الثمل ــ وهي فتاة مشهود لها بسوء الاخلاق في كل الاوساط ــ خمسة وعشرين روبلاً بحجة دفع تكاليف المأتم الأمر الذي أدهشني جداً لعلمي بما كابدتم من عناء حتى جمعت ذاك المبلغ ... وعلى هـذا ، ومع اعرابي عن ميلي الخـاص نحو المحترمة أفدوتيا رومانوفنا ، ارجوكم أن تتقبلوا توكيدات اخلاصي واحترامي العميق .

خادمكم المتواضع

« ب . لوجين »

ولما فرغ من تلاوتها سألته بولشيري الكسندروفنا وهي على وشك البكاء :

ــ ماذا أعمل الآن يا دميتري بروكوفيتش ؟ ما العمل ؟ كيف أستطيع أن

أطلب الى روديا التخلف عن الحضور ؟ لقد كان البارحة يلح بقوة على فسخ الخطوبة وها أنه يُطلب إليّ اليوم أن لا أستقبل ابني ! ولسوف يحضر عامداً اذا بلغه الامر ... فماذا سيحدث عندئذ ؟

فاجاب رازوميخين بهدوء :

— إعملي بما قررته أفدوتيا رومانوفنا !

— رباه ! إنها تقول ... الله أعلم بكل ما تقوله دون أن تفسر لي نواياها ... بحسب قولها إنه أجدى ، كلا ليس أنه أجدى بل انه ينبغي حتماً أن يأتي روديا هذا المساء في الساعة الثامنة وأن يلتقيا كلاهما !.. أما أنا فلم أرغب في اطلاعه على هذه الرسالة ، كنت أفضل أن أستعمل اللباقة والاستعانة بك لمنعه عن الحضور . لأنه سريع الغضب ... ثم أنني لست أفهم مـاذا يعني بذلك « السكير الميت » ولا أدري عن أية فتاة يبحث ولا كيف أعطى تلك الفتاة كل ماله الذي ...

فاضافت أفدوتيا رومانوفنا متمتمةً !

— الذي سبب لك تدبيره منتهى العناء يا أماه !

فاجاب رازوميخين بصوت حالم !

— لم يكن البارحة متمالكاً نفسه ! لو أنك علمت « اللعبة » التي شرع فيها البارحة في أحد المشارب رغم أنه انتهى منها على خير ما يرام ... هم !... لقد حدثني مساء البارحة بينما كنا عائدين الى داره عن ثمل ميت وعن فتاة ... لكنني لم افهم شيئاً من حديثه . والحقيقة أنني كنت البارحة ...

— الأفضل يا أماه أن تذهبي بنفسك اليه ! وهناك أؤكد لك سنرى على الفور ماذا ينبغي أن نعمل .

ثم ألقت نظرة على ساعة ذهبية جميلة ذات ميناء لامع معلقة الى سلسلة دقيقة من الذهب من صنع « فينا » تحيط بعنقها ، وهتفت :

ــ رباه ! لقد أزف الوقت ... انها قد تجاوزت العاشرة .

قدر رازوميخين في سره أن تلك الساعة قد تكون « هدية الخطوبة » لانها كانت على تناقض فظيع مع الثياب والزينة !

وهتفت بولشيري الكسندروفنا بروع :

ــ آه ... لقد أزف الوقت ... لقد أزف الوقت ! سوف يظن أننا غاضبتان منذ أمس ! اذا وجد أننا لم نصل بعد ! آه يا الهي !

كانت قد أخذت « لفحتها » الطويلة فألقتها على كتفيهـا ووضعت قبعتها على رأسها متعجلة بينما كانت دونيا تعد نفسها كذلك . كانت قفازاتها القديمة مثقوبة ولاحظ رازوميخين ذلك . غير أن الفقر البين الذي كان يبدو على ثيابها كان يعطيها طابعاً خاصاً من الكرامة كما يحدث غالباً لأولئك الذين يعرفون كيف يلبسون الثياب الرخيصة . كان رازوميخين يشمل دونيا بنظرة إعجـاب ويحس بالكبرياء لمجرد تفكيره في مرافقة تلك الفتاة . كان يفكر : « ان هذه الملكة التي اضطرت الى رتق جوربها في سجنها لا تبدو أقل روعة وعظمة منها في أجمل أيام مجدها وتتويجها ! » .

هتفت بولشيري الكسندروفنا :

ــ رباه ... هل كان يخطر لي ببال أبداً أن أتهيب لقاء ولدي وعزيزي الأعز روديا كما اتهيب في هذه اللحظة ؟ إنني خائفة يادميتري بروكوفيتش !

فقالت الفتاة وهي تعانقها :

ــ لا تخشي شيئاً يا أماه ! أتكلي عليه ! إنني أثق به أنا !

فصاحت المسكينة ملتاعة :

ــ رباه ! وأنا أيضاً اثق به مع ذلك فانني لم أنم الليل كله !

وخرج ثلاثتهم من المنزل ! وتابعت الأم :

ـــ اتعرفين يا دونيا أنني ما كدت أغمض عيني هذا الصباح حتى حلمت فجأة « بمارت بيتروفنا » ! كانت مرتدية ثياباً بيضاء من رأسها الى قدميها وقـد اقتربت مني وأخذت بيدي وراحت تهز رأسها وهي ترمقني بنظرات صارمة كما لو كانت توجه إلي لوماً ... هل هو فـأل خير ؟ آه يا الهي يا دميتري بروكوفيتش إنك لا تعرف بعد أن « مارت بيتروفنا » قد ماتت !

ــ كلا ... لم أكن أعرف ذلك ! من هي مارت بيتروفنا ؟

ــ لقد ماتت فجأة ... وتصور أن ...

فقاطعتها دونيا قائلة :

ــ فيما بعد يا أماه ! إنه لا يعرف من هي تلك الـ : مارت بيتروفنا !

ــ آه ! انك لا تعرفها ... كنت أظن أنك على علم بسياق الأمر .. اعذرني يا دميتري بروكوفيتش إن عقلي في هذين اليومين مضطرب تماماً ! حقيقة إنني أعتبرك ملكاً سماوياً أرسل لمساعدتنا ! ولهذا السبب عملت على أن تطلع على كل مشاكلنا ... إنني أعتبرك كواحد من الاسرة فلا تنزعج اذا كنت أتكلم هكذا. رباه ! ماذا أصاب يدك اليمنى ؟ انها مجروحة !

فاجاب رازوميخين وهي يشعر بالسعادة تغمره :

ــ نعم ... لقد تسببت لها بهذا الألم !

ــ إنني أتحدث بصراحة أكثر من المعتاد حتى أن دونيا تنبهني أحياناً ... لكن يا إلهي ... أي حجر هذا يقطن فيه ! هل مستيقظ الآن ؟ وهذه الامرأة ، صاحبة مسكنه تعتبر ذلك حجرة ! إسمع ... إنـك تقول بأنـه لا يحب الافصاح عن مشاعره ولعلني أزعجه بضعفي وتلهفي . ألا تبين لي يا دميتري بروكوفيتش السبيل الذي أسلكه حياله ؟ كيف أعامله ؟ أنت تدري بأنني أسير كالضائعة !

ــ لا تكثري عليه بالاسئلة اذ رأيته يقطب حاجبيه ! وعلى الاخص لاتسأليه كثيراً عن صحته إن ذلك يؤذيه !

ــ آه يا دميتري بروكوفيتش ! ان مركز الام عسير جداً ! ها وقد وصلنا الى هذا السلم ... السلم الرهيب !

فقالت دونيا وهي تلاطف أمها وفي عينيها بريق يضيء وجهها !

ــ أماه انك شاحبه ، هدئي نفسك يا عزيزتي ... إنها لسعادة بالنسبة اليه أن يراك مع ذلك فانك تعذبين نفسك !

وقال رازوميخين :

ــ سأرى أولاً اذا كان قد استيقظ !

راحت السيدتان تصعدان بهدوء ورازوميخين في المقدمة حتى اذا بلغوا المشى الذي تطل عليه شقة صاحبة البناء لاحظتا أن بابها موارب وأن عينين سوداوين لامعتين ترقبانها في الظلام . فلما التقت النظرات ، اغلق الباب بعنف شديد حتى أن بولشيري الكسندروفنا كادت أن تلقي صيحة رعب !

الفصل الثالث

هتف زوسيموف بمرح وهو يرى السيدتين :

— إنه على ما يرام ... على ما يرام !

كان زوسيموف جالساً في المكان الذي جلس فيه أمس : على ركن الديوان، بينما كان راسكولنيكوف جالساً على الركن الآخر قبالته ، في كامل ثيابه وقد اغتسل ورجل شعره بعناية الأمر الذي لم يشرع بمثله منذ زمن بعيد ! وامتلأت الحجرة فجأة فاستطوعت ناستاسيا أن تتسلل في أثر السيدتين فلبثت هناك لتصغي الى الحديث . كان راسكولنيكوف في حالة حسنة إذا قورنت بحالته أمس - لكنه كان شاحباً جداً تكسو وجهه مسحة من العبوس والشرود حتى يخيل الى من يراه لأول وهلة أنه جريح عاني منذ حين ألماً جسمانياً عنيفاً . كان شعره منتصباً وشفتاه متقلصتين ونظراته ملتهبة . وبدا قليل الكلام عبوساً وكأنه يعتزم مرغماً أداء دوراً أسند اليه ... وكان لون من الاكتئاب يرافق أحياناً حركاته فلم يكن ينقصه في حالته تلك إلا عصابة تحيط بذراعه أو رباط من « التافتا » على اصبعه ليتم له التشابه مع رجل مصاب « بدحاس » مؤلم جداً أو بجرح في يده أو أي شيء من هذا القبيل .

أضاء وجه العبوس الشاحب لحظة لدى دخول أمه وأخته فاضاف ذلك الضياء على وجهه مسحة من الألم تركزت في الشرور الكئيب الذي كان يلاحظ بوضوح على محياه ! لكن البريق ما لبث ان خبا فوراً وبقي الألم وحده حيث كان . ولاحظ زوسيموف الذي كان يسهر على مريضه بانتباه عظيم لايستطيعه الا الطبيب الشاب،

ان لوناً من العزم الخفي الشاق ارتسم في عيني المريض لدى دخول أمـــه وأخته وكأنه مقدم على احتمال عذاب جديد ، بدلاً من الابتهاج الذي كان ينبغي أن يشعر به عادة في مثل تلك الحال .

كذلك لاحظ أثناء الحديث الذي تبودل بين المريض وذويه أن كل كلمـــة كانت كفيلة باثارته ونكء جراحـه . لكنه دهش بذات الوقت لرؤيـه مريضه مسيطراً على اعصابه ضابطاً عواطفه بينما كان بالأمس - وهو المريض بالهوس - على استعداد طيب للانفعال والغضب لأتفه كلمة !

قال راسكولنيكوف وهو يعانق أمه وأخته بود - الأمر الذي تهللت له أسارير بولشيري الكسندروفيا - :

— نعم ... إنني اشعر الآن بأنني شفيت تقريباً ولست أقول هذا « كأمس » .

ونظر الى رازوميخين وحياه بأن ضغط على يده بحرارة قلبية !

شرع زوسيموف يقول وقـــد أرضاه وصول الزائرين لأنه خـلال الدقائق العشرة الفائتة استنفذ كل الموضوعات التي يمكنه أن يتحدث بهـا الى المريض :

— لقد دهشت بنفسي عندما وجدته على هذا الحال واذا استمر الامر كذلك أربعة أيام أخرى فسيعود تماماً الى سابق عهده كما كان منذ شهر أو أثنين أو ثلاثة أشهر أيضاً . لأن هذا المرض الذي يعاني منه، كان كامناً فيه منذ زمن بعيد !

ثم اضاف مبتسماً ابتسامة متحفظة كما لو كان يخشى اثارة المريض :

— ألا توافقني على أنك ساهمت في زيادة مرضك بخطئك ؟

فأجاب راسكولنيكوف ببرود :

— يجوز أن يكون كذلك !

وتابع زوسيموف حديثه فقال :

— أقول ذلك لأن شفاءك حالياً بات الجانب الاوفى منـه متوقفاً على تصرفك الشخصي . وبما ان الحديث قد اصبح ممكناً معك الآن فاني أود ان الفت نظرك الى ضرورة معاينة الاسباب المبدئية أو على الاصح الاسباب الموجبـة التي سببت حالتك المرضية وعندئذ ستشفي وإلا فان المرض سيكون باطراد وازدياد! أماما هي تلك الاسباب الأولية فذالك ما أجهله لكنك تعرفها تمامـــاً . ولا أشك ـ وأنت الذكي ـ في أنك لاحظت نفسك ودرست حالتك . واني أظن بأن بداية مرضك تتفق مع خروجك من الجامعة لذلك لايجب أن تظل دون عمل يشغلك وسيكون للعمل الذي يهدف الى غاية معينة موضوعة شأن بعيد في شفائك .

— نعم ... نعم ... إنك على حق تماماً ... ولسوف أعود بأسرع ما يمكن الى الجامعة وعندئذ يسير كل شيء على ما يرام تماماً كما لو كان على عجلات ...!

كان زوسيموف يهدف من وراء القاء ذلك النصح الحكيم الى احداث بعض الأثر في نفس السيدتين . لذلك فانه دهش حينما لاحظ على وجـــه محدثه عندما رفـــع بصره اليه لوناً من السخرية الواضحة لم يدم الا لحظة ! . أما بولشيري الكسندروفنا فقد راحت تشكر زوسيموف بصورة خاصة على زيارته التي قام بها الى مسكنها مساء أمس ، فسأل راسكولنيكوف مكتئباً .

هل ذهبت اليكما البارحة ؟ انكما اذاً لم تناما رغم سفركما الطويل !

— آه ياروديا ... لقد وقع كل ذلك قبل الساعـة الثانية وانـنا ـ دونيا وأنا ـ لاننام قبل هذه الساعة من كل ليلة .

فأردف راسكولنيكوف وقد عاد فجأة الى عبوسه واطرق برأسه الى الارض:

— وانا ايضاً لست ادري كيف اشكرك . لأننا اذا اسقطنا من حسابنـا قضية الأجر ـ واسمح لي ان المح الى هذا ـ فانني اسيت ادري كيف استحق كل

هذه العناية من جانبك ... في الحقيقة إنني لا افهم بل وانه ليؤلمني ان اجهل سبب هذه العناية لذلك تراني احدثك بصراحة !

فاجاب زوسيموف بابتسامة مغتصبة :

ـ هيا ... لا تثر نفسك ! لك أن تفترض أنك أول عميل من عملائي ! ثم إن الطبيب لما يكون في بدء حياته العملية فانه « يدلل » زبائنه الاول وكأنهم أبناؤه بل أنه قد يعجب أحياناً بأحدهم وأنا كما تعلم لم تفسدني كثرة الزبائن !

ـ كذلك أتحدث عن هذا ـ وأشار برأسه الى رازوميخين ـ رغم أنه لم يلق مني إلا المشاكل والسباب !

فهتف رازوميخين قائلا :

ـ لعمري إنها حماقات جديدة ! أرى أنك اليوم ترزح تحت عبء الاحساسات العاطفية !

ولو أن رازوميخين كان أكثر دقة وحذقاً لعرف أن صديقه لم يكن أبداً تحت تأثير الاحاسيس العاطفية بل على العكس . غير أن هذه الملاحظة التي غابت عنه لم تفلت من « أفدوتيا رومانوفنا » التي كانت ترقب أخاها بقلق !

أردف راسكولنيكوف وكأنه يستظهر درساً حفظه ذلك الصباح :

ـ إنني لا أكاد أجرأ على التحدث عنك يا أماه ! لقد فهمت اليوم مبلغ العذاب الذي سببته لك بانتظار عودتي .

ومد يده فجأة الى اخته بسكون دون أن ينطق بحرف واحد . وكانت ابتسامته في تلك اللحظة معبرة عن شعور مخلص . فبادرت دونيا الى يد أخيها الممدودة وضغطت عليها بحرارة وسرور واعتراف بالجميل . كانت تلك المرة الاولى

التي توجه بها الى اخته بالحديث منذ تنافرهما امس . فطفح وجه الام بالسعادةوهي ترى ذلك الوفاق الصامت النهائي بين الاخت وأخيها .

وهمس رازوميخين وهو يتحرك بعنف على مقعده وكله استمداد للاسترسال :

ــ آه ! هذا ما أحبه فيه ! إن لديه من هذه الحركات المؤنسة ...!

بينما كانت الأم تناجي نفسها قائلة :

ــ ويالها من حركة موفقة جميلة ! ياله من تصرف نبيل ! إنه بذلك قد وضع بلباقة حداً لسوء التفاهم الذي نشب بينه وبين اخته بتلك اليد التي مدها إليها في هذه اللحظة ! ولقد نظر اليها محدقاً ... يا لها من عينين جميلتين ... بل كم أن وجهه جميل ! إنه أفضل من دونيا في مجموع شخصه ! لكن يا الهي ... يا له من ثوب ذلك الذي يرتديه ! إنه بشع ... إن أجير أتاناس ايفانوفيتش أحسن ثيابا منه ! آه ... كم أتوق الى الارتماء على عنقه وتقبيله والبكاء من الفرح ! لكنني أخاف ... إنه مختلف تماماً عما عهدته ... رباه ! مع ذلك فهو يتكلم بحنان لكنني خائفة ! رباه لم أنا خائفة !

وفجأة هتفت تجيب على ملاحظة ابنها :

ــ آه يا روديا ! لا يمكن أن تتصور حالنا أنا ودونيا ! كنا تعيستين ! أما الآن وقد انتهى كل شيء وانتهى تماماً وعدنا سعداء من جديد فانني استطيع أن أحدثك بالخبر ! تصور أننا فور مبارحتنا للحافلة هرعنا الى هنا لنعانقك فاذا بتلك المرأة تخبرنا ــ آه ... هذا أنت ... يا مرحباً يا ناستاسيا ــ أقول فاذا بهذه المرأة تخبرنا بانك كنت مريضاً بالحمى الساخنة وإنك قد فررت من عناية الطبيب وأنت في بحرانك وانهم يبحثون عنك في الشارع وفي كل مكان !.. ان تستطيع تصور ما سبب لنا هذا الخبر ! لقد تصورت فوراً موت الملازم الاول بوتانتشيكوف

وهو من معارفنا القدماء وعلى أصدقاء أبيك . إنـك لا تذكره يا روديا ! إن ذلك الملازم المسكين كان كذلك مصاباً بالحمى الساخنة وكان قد خرج الى الباحة حيث سقط في الجب ولم ينتشل منه إلا غداة اليوم التالي . لاشك أننا نبالغ في تصوير خطورة حالتك ! ولقد فكرنا في استدعاء بيربيتروفيتش باسرع ما يمكن لينجدنا لأنك تعرف بأننا وحيدتان ... وحيدتان تماماً ! ..

لفظت الام هذه الاقوال بصوت منتحب ضعيف . غير أنهـا تذكرت فجأة أن موضوع بيير بيتروفيتش كان موضوعاً خطراً لا يجدر الإسترسـال فيه رغم انهم كانوا « جميعاً في تلك اللحظة بسعادة تامة » لذلك فقـد توقفت فجأة عن متابعة حديثها . بينما غمغم راسكولنيكوف مجيباً وقد علا وجهه الشرود والذهول حتى ان دونيا نظرت اليه بحيرة بالغة .

قال :

ــ نعم ... نعم ... إن ذلك كله لا يدعو للاسف ولا شك ! آه ! ماذا كنت اريد ان اقول كذلك ؟

وابدى مجهوداً كبيراً لجمع شتات ذكرياته ثم اضاف :

ــ آه ... نعم ... ارجو يا أماه وأنت يا دونيا ان لا يـذهب بكما الظن الى أنني لم اكن مصمماً على زيارتكما اليوم قبل الآخرين فتعتقـدان بانني كنت انتظر مجيئكما اولاً ..

فهتفت بولشيريي الكسندروفنا دهشة :

ــ لكن يا روديا ! لم تقول ذلك ؟

بينما راحت دونيا تفكر وتناجي نفسها بقولها : « هل يعتقد أنـه مرغم على الاجابة على اسئلتنا ؟ إنـه يتصنع السلام ويطلب الصفح وكأنه يقوم بسخرة او يستذكر درساً » !

وعاد راسكولنيكوف يقول :

ـ انني لم اكد استيقظ حتى عزمت على الذهاب اليكما لكن موضوع الثياب أعاقني . لأنني كنت قد نسيت أن اطلب الى ناستاسيا البارحة ان تغسل هذا الدم ... ولقد غسلته اليوم ولما اكد انتهي من ارتداء ملابسي !

سألت بولشيري الكسندروفنا مذعورة :

ـ الدم ؟ اي دم ؟

ـ لا شيء يا اماه فلا تقلقي ! إن هذا الدم جاءني البارحة بينما كنت اسير شارد الفكر وانا في بحراني اذ اصطدمت بشخص جريح .. إنه موظف !

فقاطعه رازوميخين قائلاً :

ـ في بحرانك ؟ ولكنك تتذكر كل شيء !

فاجابه راسكولنيكوف بصوت يتضح فيه القلق :

ـ صحيح إنني اذكر كل شيء بأدق تفاصيله . ولكن لم عملت هـذا ؟ لم ذهبت الى هناك ؟ لم قلت كذا ؟ إنني لا استطيع تفسير السبب بوضوح !

فتدخل زوسيموف وقال :

ـ إن هذه الحالة معروفة تماماً . إن هـذه التصرفات تنجز عادة بشكل شخصي وببراعة مدهشة اما عن سببها واما عن مبدئها فانه يبدو غريبا ويتوقف على عدد من الاحاسيس المرضية تشبه الحلم !

بينما كان راسكولنيكوف يحدث نفسه قائلاً : « إنني لجدود إذ يعتبرونني مجنوناً او على وشك الجنون » !

وألحت دونيا وهي تنظر الى الطبيب بشيء من الكآبة :

ـ ألا تكون الحال كذلك بالنسبة للاشخاص المالكين قواهم وصحتهم ؟

فأجابها :

ـ إن ملاحظتك لا تخلو من الدقة لأننا جميعنا تقريبا نكون غالباً مرضى بعقلنا مع الفارق الباقي بأن المرضى هم اشد مرضاً منا وهذا مالا يمكن التغاضي عن ملاحظته في هذا الموضوع . ولا يمكن ايجاد رجل واحد موزون تماماً الا بين عشرات او مئات الالوف من الرجال . مع ذلك ليس هذا الواحد موجوداً دائماً .

وازاء كلمة « منحرف العقل » التي تلفظ بها زوسيموف وهو يثرثر في موضوعه المفضل ، ـ وقد أفلتت منه دون روية ـ اكفهرت الوجوه . وكان راسكولنيكوف جالساً وغارقاً في تفكير عميق حتى ليبدو أنه لا يلقي بالاً الى ما حوله وقد علت شفتيه ابتسامة غريبة باهتة . كان مستغرقاً في مناجاة نفسه !

وهتف رازوميخين مبادراً :

ـ لقد قاطعتك في حديثك ... ماذا وقع لذلك الرجل المدهوس ؟

فأجاب راسكولنيكوف وكأنه استفاق من حلم :

ـ ماذا ؟ آه نعم ! لقد ساعدت على نقله الى مسكنه فتلوثت بالدم . وعلى فكرة يا أماه ! لقد عملت البارحة أمراً لا يُغتفر والحقيقة أنني لم اكن مالكاً لقواي العقلية ! لقد أعطيت البارحة كل المال الذي ارسلتيه إلي الى زوجته لتنفق على دفنه . إن المرأة المسكينة قد ترملت وهي مصدورة ولها ثلاثة أولاد صغار جياع ولا شيء في منزلهم . ولها أيضاً ابنة ... لعلك أنت بنفسك كنت ستعطين ذلك المال اليهم لو علمت بالأمر ... على كل حال لم يكن لي أي حق في أن أعمل ما عملت واني أعترف بذلك خصوصاً واني أعرف مبلغ ما احتملت من عناء لتدبير ذلك المبلغ ! إذ أنه لكي يساعد المرء آخر ينبغي قبل كل شيء أن يكون له الحق

والا : « موتوا أيها الكلاب اذا كنتم غير راضين ! »(١)

ثم ابتسم وأضاف :

ـــ أليس كذلك يادونيا ؟

فأجابت هذه بلهجة جدية :

ـــ كلا إنه ليس كذلك !

فتمتم وهو ينظر اليها بشيء من الضغينة تقريباً وقد ابتسم ابتسامة هادئة :

ـــ باه ... هاها ! أنت أيضاً ... لديك بعض النوايا ... كان يجب أن أتوقع ذلك .. حسناً ... إن ذلك يرفع من شأنك وذلك أفضل . . . وعلى هـــذا انك ستمضين في عزمك الى حد ما .. : إذا لم تتخطيه فانت تعيسة واذا تخطيتيه لعلك لتصبحين بالمثل تعيسة !

ثم ثار وقد أسف أن استسلم لانفعاله وعواطفه وقال بلهجة جافة مضطربة :

ـــ كنت أريد أن أقول فقط بأنني أطلب صفحك ياأماه ...

فقالت الام تغمرها السعادة :

ـــ دعك من هـــذا ياروديا أنا واثقة من أن كل ما تعمله إن هؤلاء أفضل ما يعمل !

فأجابها وهو يبتسم ابتسامة باهتة :

ـــ لاتكوني مطلقه الثقة بهذا الصدد !

واعقب ذلك صمت ... كانت المحادثة كلها واضحة الهدف كذلك الحال في ذلك التفاهم الصامت وطلب الصفح . كان الموجودون يشعرون بأن المحادثة لم تبلغ هدفها . وكان راسكولنيكوف يخاطب نفسه بقوله : « يعتقد أنهم يخـــافونني حقيقة » وينظر الى امـــه واخته نظرات مختلسة . والحقيقة أن بولشيري

---

(١) إن هذا النص موجود باللغة الفرنسية في النص الروسي .

الكسندروفنا كلما أمعنت في الصمت كلما كانت تبدو أشد خوفاً وهلعاً وخطرت له فكرة فغمغم يناجي نفسه قائلاً : « يمكن القول انني كنت أحبهم غيابياً » !

صاحت بولشيري الكسندروفنا وهي تنهض من مكانها بانفعال :

— هل تعرف ياروديا ؟ لقد ماتت مارت بيتروفنا !

— أية مارت بيتروفنا ؟

— آه يا الهي مارت بيتروفنا السيدة سفيدريكايلوف، لقد حدثتك عنها مطولا في رسالتي الاخيرة !

— آه ... آه ... نعم لقد تذكرت ... إذن لقد ماتت !

ثم اضاف بعد ان انتفض فجأة وكأنه استيقظ من غفلته :

— صحيح هل يعقل أن تكون ماتت ؟ مم ماتت ؟

وشجع فضوله بولشيري الكسندروفنا فقالت مسترسلة :

— تصور انها ماتت ميتة مفاجئة ! تماماً في ذلك اليوم الذي ارسلت لك فيه رسالتي الأخيرة ... تصور ذلك الرجل المخيف ، إنه على ما يبدو كان سبب موتها! يقال أنه كان يضربها بوحشية !

فسأل أخته قائلاً :

ـ هل كانا يعيشان هكذا ؟

— كلا على العكس كان يظهر ازاءها بمظهر الصبوو المهذب وأحياناً كان كثير التسامح حيال عقلية زوجته . ولقد استمر هذا الحال سبع سنين ! لعله أخيراً فقد الصبر !

ـ إنه اذن لم يكن مخيفاً بهذه الصورة طالما أن الأمر دام سبع سنين ؟ يبدو يادونيا أنك تعذرينه !

ـ كلا انه شخص كريه بغيض حتى انني لاأستطيع ان أتصور مخلوقاً اكثر بغضاً منه !

نطقت دونيا بهذه الجملة وهي مضطربة ولم تلبث ان قطبت حاجبيها واستغرقت في تفكير عميق ! بينما بادرت بولشيري الكسندروفنا تتمم حديثها قائلة :

ـ لقد وقع لها ذلك في صبيحة ذلك اليوم وبعده أمرت أن تجهز عربتها لتذهب الى المدينة بعد الطعام كما كانت عادتها في مثل تلك الاحوال . ثم تناولت طعامها بشهية زائدة كما قيل !

ـ شهية زائدة بعد « علقة » ساخنة !

إنها عادة عندها ! وبعد أن انتهت من طعامها ذهبت فوراً لتأخذ حماماً كي لاتؤخر رحلتها . انك تلاحظ أنها كانت تعنى بنفسها كثيراً بالاغتسال. ان لديهم نبعاً من الماء البارد كانوا يغتسلون فيه يومياً . لكنها في ذلك اليوم لم تكد تدخل في الماء حتى صعقت بالسكتة القلبية !

فقال زوسيموف :

ـ إن ذلك لايدهش مطلقاً !

ـ وهل ضربها بعنف ؟

فقالت دونيا :

ان هذا عديم الاهمية !

وفجأة قال راسكولنيكوف بعد أن تنحنح قليلاً وبدا الانفعال على صوته :

ـ هم ! ... مافائدة نقل مثل هذه الاقاصيص ؟ ...

فأجابته المسكينة يبساطة :

ـ ذلك لأنني ياعزيزي ما كنت أعرف عم أتحدث !

فقال بابتسامة عريضة :

ـ ماذا ؟ هل تخافون مني كلكم ؟ حتى أنتم !

فقالت دونيا وهي تنظر في عينيه بصرامة :

ـــ الواقع أنه كذلك . إن أمي كانت وهي تصعد السلم لاتفتأ ترسم إشارة الصليب لشدة رعبها !

فتقلص وجه الشاب كما لو كان فريسة للتشنجات العصبيـــة بينما تمتمت بولشيري الكسندروفنا باضطراب :

ـــ آه.. ماذا تقولين يادونيا ؟ لاتغضب أرجوك ياروديا ! لم قلت هذا يادونيا ؟ آه ياروديا إنني وأنا في القطار في طريقي إلى هنا كنت أحدث نفسي بأننا سنجد أشياء كثيرة نتحـــدث بها الى بعضنـــا عندما نلتقي . وكنت شديدة السعـــادة حتى أنني لم أشعر بمسافـــة الطريق ... إننى سعيدة الآن أيضاً ... است على حق يادونيا ... إنني سعيدة ياروديا ومجرد رؤيتك تكفي لكي أكون سعيدة !

فتمتم مضطرباً :

ـــ كفى يا أماه !

ودون أن ينظر اليها ضغط على يدها وقال :

ـــ سيكون لنا الوقت لنتحدث !

لم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى شحب لونه واضطرب وشعر من جـــديد بذلك الاحساس المريع تلك البرودة القاتلة تكتسح نفسه . وقد شعر من جديد بأنه نطق منذ حين بكذبة بشعة مخيفة ! ليس لأنه لن يجد مستقبلا مجالا للتحدث بصراحة كما قال لأنه لن يستطيع أبداً أن « يتكلم » عن أي شيء ومع أي كان ! وكان لتأثير هذه الفكرة الأليمة أثراً عنيفاً حتى أنه كاد أن ينسى نفسه تمـاماً . فنهض من مكانه ومضى نحو الباب دون أن ينظر إلى أحد ! فهتف رازوميخين وهو يقبض على ذراعه :

ـــ ماذا تعمل ؟

فعاد إلى مكانه وراح ينظر حوله بسكون ! كان الجميع ينظرون إليه مأخوذين ! هتف فجأة :

ـ آه ... إنكم مملون جميعكم ...قولوا لي شيئاً ! لمَ تلبثون هكذا ؟ هيا تحدثوا سوف نتحدث ... لقد اجتمعنا ومع ذلك فلا نقول شيئاً ... هيا قولوا شيئاً على الأقل ...

فقالت بولشيري الكسندروفنا وهي ترسم إشارة الصليب على صدرها :

ـ حمداً لله ؟ لقد ظننت أن ماحدث البارحة سيتكرر اليوم !

وسألت آفدونيا رومانوفنا بشيء من التحفظ :

ـ ماذا بك ياروديا ؟

فأجاب :

ـ لاشيء ... لقد تذكرت حماقة ! ثم انفجر ضاحكاً فجأة !

غمغم زوسيموف بعد أن نهض واقفاً :

ـ حسناً إذا كانت حماقة فانها أفضل لأنني كنت على وشك الافتراض ... وعليه ... إنني يجب أن أذهب ولعلني أعود إذا وجدتك !

ثم حيا وخرج فقالت بولشيري الكسندروفنا ملاحظة :

ـ ياله من رجل ممتاز !

فأمن راسكولنيكوف على قولها فجأة بلهجة حماسية لم تكن معهودة فيه :

ـ نعم إنه رجل كريم ممتاز مثقف مهذب ذكي ! لم أعد أذكر أين قابلته قبل مرضي ... أعتقد بأنني قابلته في مكان ما ...

ثم أشار إلى رازوميخين وأضاف وهو يوجه الحديث إلى أخته مبتسماً :

ـ وهذا أيضاً رجل ممتاز ! هل يروق لك يادونيا ؟

فأجابت هذه :

ــ جــداً .

فاحمر وجه رازوميخين من الخجل وهتف وهو ينهض من مكانه بانفعال :

ــ يواه !... يالا ...

فضحكت بولشيري الكسندروفنا بهدوء بينما انفجر راسكولنيكوف بضحكة صاخبة !

ــ إلى أين تذهب يارازوميخين ؟..

ــ إنني مشغول أنا الآخر !..

ــ بل إنك غير مشغول فابق ! ألآن زوسيموف قد ذهب صار ينبغي لك أن تذهب ؟ كلا لاتذهب ! لكن كم الساعة الآن ؟ أهو الظهر ؟ .. آه ما أجمل هذه الساعة يادونيا ! لكن لم أنتم صامتون ؟ إنني وحدي أتكلم بينكم !

فقالت دونيا مشيرة إلى الساعة :

ــ إنها هدية من مارت بيتروفنا !

وأضافت بولشيري الكسندروفنا :

ــ إنها ثمينة جداً !

ــ آه ! آه ! إنها أكبر حجماً مما ينبغي أن تكون عليه ساعة سيده !

فصرخت دونيا قائله :

ــ إنني أحب هذا الشكل !

بينما راح رازوميخين يحدث نفسه وقد استبد به سرور لايعرف له سبباً :

ــ « إنها ليست إذن هدية من خطيبها ! »

وألمح راسكولنيكوف قائلا :

ــ كنت أعتقد أنها هدية من لوجين !

ــ كلا ... إنه لم يقدم بعد أية هدية إلى دونيا !

وقال لأمه فجأة بصوت ينم عن الألم والعذاب حتى أنها تأثرت للهجته تأثيراً كبيراً :

ـ آه أتذكرين يا أماه أنني كنت عاشقاً أنا الآخر وانني كنت سأتزوج !

فقالت بولشيري الكسندروفنا وهي تتبادل نظرة مع دونيا ورازوميخين :

ـ آه ياصديقي ! نعم اذكر !

ـ م ! ... نعم لكن ماذا كنت أقص عليكم ؟ إنني لا أذكر حتى هذا ... ثم استعاد لهجته الحالمة وتابع وهو مطرق الرأس بعينيه المتألمتين :

ـ كانت فتاة فريسة المرض تحب الاحسان الى المعوزين ولا تفكر الا في الدير ! وذات يوم انخرطت في البكاء وهي تتحدث عن هذه الاشياء ! نعم . نعم... انني اذكر ذلك انني اذكر تماماً ... لقد كانت تميل في شكلها الى القباحة . ولست أدري حقيقة لم تعلقت بها في ذلك الحين وأظن أن بسبب مرضها الدائم . حتى انني اعتقد بأنني كنت سأزداد حباً لها ولو أنها كانت عرجاء أو محدودبة الظهر ... ثم ابتسم ابتسامة ساهمة وأردف :

ـ ان هذا يشبه هذيان الربيع ...

فقالت دونيا بانفعال :

كلا ... ان ذلك لم يكن يشبه هذيان الربيع فحسب ...

فنظر بانتباه الى اخته متضايقاً ... لكنه لم يسمع كلماتها أو أنه لم يفهمها ... ثم نهض وهو في أعمق الشرود واقترب من امه فعانقها وعاد الى جلسته !

قالت بولشيري الكسندروفنا بحنان ! .

ـ انك لازلت تحبها إلى الآن !

ـ من ؟ الآن ؟ آه نعم ... انك تتحدثين عنها ! كلا ! كل شيء قد غدا الآن في العالم الآخر بالنسبة الي ... إنه شيء عريق في القدم ! وكل ما يحيط بي يبدو

وكأنه يقع في مكان آخر غير هـــذا المكان !

ونظر اليهم بانتباه شديد وقال مسترسلاً :

ـ خذي مثلاً ... أنت ! انني انظر اليك كما لو كنت على بعد ألف مرحلة ! لكن الشيطان يعرف لم نتحدث عن كل هذا ! ...

ثم أضاف بشيء من التحدي :

ـ لكن لم تسألينني ؟ ...

وصمت فجأة وراح يقرض أظافره باسنانه وقد استغرق في تأملاته من جديد!

قالت بولشيري الكسندروفنا لتقطع الصمت الذي ران عليهم :

ـ ياله من مسكن لعين ياروديا ! قبر حقيق ! أنا واثقة من أن نظيرك يدين بنصف مسبباته الى هذا المسكن !

فعاد يقول بشرود :

ـ مسكني ؟ آه نعم إنه لذو أثر بعيد فيما تذكرين ! ولقد فكرت بذلك بنفسي لكنك لو تعلمين قد أعربت عن فكرة غريبة جداً ياأماه !

قال ذلك وهو يتصنع ضحكة غريبة . كاد لو لا قليل أن يشعر بأن هذا الاجتماع وهاتين القريبتين اللتين يراهما بعد فراق ثلاث سنوات واللهجة البنوية التي تصطبغ بها هذه المحادثة لعدم وجود حديث عام يتلهون به ، كاد أن يشعر بأن هذا كله بات لا يحتمل . لكنه كان يعرف أن هناك أمراً مستعجلاً ينبغي أن ينتهي منه بشكل من الاشكال ! لقد فكر في الأمر واتخذ أهبته منذ الصباح عندما استيقظ وقد ابتهج لأن تلك « القضية » قـد خطرت على باله فبدت وكأنها وسيلة صالحة للافلات من هذا الجو الثقيل !

قال مبتدئاً حديثه بلهجة خافتة صارمة :

ـ اليك الامر الذي افكر فيه يادونيا ! بالطبع انني اعتذر اليك عما وقـــع

البارحة لكنني اعتقد أن من واجبي ان اذكرك بأنني لن أبدل خطة مسيري في صددها . فأما انا وأما لوجين . انني قد أكون انساناً مكروهاً بغيضاً لكنك لاينبغي ان تكوني كذلك . يكفي انسان واحد من هذا القبيل ! فاذا تزوجت من لوجين فانني سأكف على الفور عن اعتبارك اختاً لي !

هتفت بولشيري الكسندروفنا بصوت يائس كئيب :

ـ روديا ! روديا ! هـا قد عـدنا الى فصل البـارحة بالذات ! لم تصف نفسك دائماً بالشخص البغيض الكريه ؟ لا أستطيع احتمال ذلك ... البـارحة أيضاً تصرفت على هذا النحو !..

وقالت دونيـا بلهجة ثابتة رصينة وصوت ليس أقل جفـاءً من صوت أخيها :

ـ أخي ! إن كل هذا مرده خطيئة من قبلك ! وقـد فكرت في الأمر البارحة واكتشفت موضع الخطأ ! ان كل ذلك مبعثه أنك تعتقد ـ على ما يبدو لي ـ بأنني أضحي بنفسي في سبيل شخص ما . والأمر على عكس ذلك تماماً فانـا اتزوج بكل بساطة لأنني لا أستطيع العيش وحيدة دون عنـاء كبير وانه من البديهي أن أكون سعيدة اذا استطعت أن اكون بعد ذلك مفيـدة لذوي لكن قراري لم يكن قائماً على هذا السبب ومن أجله !

غمغم راسكو لنيكوف يحدث نفسه : «انها تكذب ! يا للمتكبرة ! انهالاتريد الاعتراف بأنهـا تقوم بدور المحسنة في هـذه القضية ! آه من العقليـات المنحطـة انهـا تحب كما لو كانت تكره ! كم أشمئز من هذه العقليـات وأمقتها ! »

واسترسلت دونيا تقول :

ـ وبالاختصار إنني أتزوج بيير بيتروفيتش لأنني افضل أخف الضررين !

وأنا على استعداد لتنفيذ كل ما ينتظره مني بكل أمانة لذلك فانني لا أخدعه ! لم تضحك ؟

كان وجه دونيا قد اصطبغ بلون الاقحوان وكانت عيناها تلتمعان من الغضب .

سأل راسكو لنيكوف وهو يضحك ضحكة مسمومة :

ـ اذن ، ستنفذين كل شيء !

ـ الى حد ما ! إن الطريقة والاسلوب الذي تبعها بيير بيتروفيتش لخطوبته دلتاني على ما يريد ! صحيح انه يقدر نفسه تقديراً كبيراً لكنني أعتقد بأنه سوف يقدرني كذلك ... لماذا تضحك أيضاً ؟

ـ وأنت لماذا تتلونين من جديد ؟ أنت تكذبين يا أختاه ، انك تكذبين حسب خطة مرسومة ولمجرد عناد نسائي ! انك ترتبين الأشياء أمامي على طريقتك . انك لن تستطيعي الميل الى لوجين . لقد رأيته وتحدثت اليه وعلى ذلك فانك تبيعين نفسك لقاء بعض المال وإذن فانك تتصرفين تصرفاً مرذولاً وانه ليسعدني أن تكوني على الاقل لا زلت تحسنين الاحمرار من الخجل .

صاحت دونيا بانفعال غاضبة :

ـ إن هذا غير صحيح ، إنني لا أكذب ! لن اتزوجه قبل ان اقتنع بأنه يقدرني ويتمسك بي . لن اتزوجه قبل أن أتأكد بجلاء بأنني أستطيع أن أميل اليه ولحسن الحظ لسوف استطيع قطع الشك باليقين اليوم بالذات . ان هذا الزواج ليس فضيحة كما تدعي ولكن لنفرض جدلاً انك على صواب وانني كنت مصممة على ارتكاب مثل هذه الفضيحة ألا تكون قسوة من قبلك اذ تحدثني بهذا الشكل ؟ لم تتطلب مني بطولة ، لعلك أنت لا تستطيع القيام بمثلها ان هذا

لاستبداد إنه لقسوة . وإنني اذا كنت اسبب تعاسة لكائن ما فانني سأكون أنا ذلك الكائن . إنني لم أقتل انساناً بعد ... مابك تنظر إلي ؟ لماذا اشتد شحوبك الى هذا الحد ؟ روديا ماذا بك ؟ روديا عزيزي ؟..

صرخت بولشيري الكسندروفنا :

— رباه ! لقد دفعت به الى اقصى الاحتمال ... إلى الاغماء .

— كلا كلا ... يا للحماقة ... انه لا شيء ... لقد شعرت بدوار بسيط في رأسي انه ليس إغماء . إنكم لا تفكرون إلا في الاغماءات ... هم ! نعم ... ماذا كنت أريد أن أقول ؟ نعم : كيف تستطيعين قطع الشك اليوم ومعرفة ما إذا كنت ستحبنيه وكان ... سيحبك . أليس هذا ما كنت تتحدثين به ؟ لقد قلت على ما أظن اليوم أم تراني اسأت السمع ؟.

فقالت دونيا :

— أعطيه كتاب بيير بيتروفيتش يا أماه .

مدت بولشيري الكسندروفنا الرسالة الى ابنها بيد مرتعشة فأخذها بفضول زائد لكنه قبل أن يفضها حلق في وجه دونيا بدهشة وقال ببطء كمن خطرت بباله فكرة جديدة :

— غريب انني أتساءل لم انفعل ! لم كل هذا الاحتجاج ! تزوجي بمن تشائي .

نطق بهذه الكلمات وكأنه يخاطب نفسه غير انه تفوه بها بصوت مرتفع حتى انه استمر لحظة طويلة ينظر الى اخته مرتبكاً . واخيراً فض الرسالة وعلى وجهه مسحة من الدهشة والاستغراب وراح يقرأها بعناية ويعيد تلاوتها وكانت بولشيري الكسندروفنا في قلق مقيم حتى أن جميع الحاضرين كانوا يتوقعون

انفجاراً مفاجئاً . وبعـــد لحظة تأمل شرع راسكو لنيكوف يقول وهو يعيد الرسالة الى أمه :

ـ إنه مدهش ! إنه محام وله عملاؤه وحديثه نفسه على شيء من التصنع مع ذلك فانه يكتب كالأميين !

فسرت همهمة عامة .واستغراب لأن أحداً لم يكن يتوقع هـذا منه . واعترض رازوميخين بلهجة حاسمة يقول :

ـ إنهم جميعاً يكتبون على هذا المنوال !

ـ هل قرأت الرسالة ؟

ـ نعم !

فقالت بولشيري الكسندروفنا مفسرة وقد علا وجهها الخجل :

ـ لقد أطلعناه عليها يا روديا ... اقد ... سألناه النصح منذ قليل ..

فقاطعها رازوميخين قائلاً :

ـ إنه إنشاء قضائي ! هكذا يحررون حتى الآن المعاملات القضائية !

ـ نعم قضائي ! قضائي بالضبط . انشاء رجال القانون ! إنـــه ليس إنشاء الاميين تماماً لكنه ليس كذلك انشاء أدبياً ، إنه كتابة رجل أعمال !

فقالت أفدونيا رومانوفنا ملاحظة قد آلمها لهجة أخيها في الحديث :

ـ إن بيير بيتروفيتش لا يخفي أنه تلقى ثقافة قليلة بل انه يفخر لأنـه شق طريقه لوحده .

ـ حسناً إنه اذا كان فخوراً فلا شك أن هناك ما يستحق الافتخار وأنا لا أقول العكس ! لقد غضبت على ما يبدو يا اختـاه لأنني لم استخلص من هـذه الرسالة كلها الا ملاحظة طائشة وتعتقدين بأنني أتعمد التحدث بهذه السخـافات لايلامك الا فأعلمي بأنه على العكس ! فقد بدت لي هذه الملاحظة المتعلقة بالاسلوب

واعتقد أن هذه الملاحظة ليست غير ذات موضوع في وضعنا الحاضر . لان هناك العبارة : « وسيكون لكم شأنكم » الواردة في هذا الكتاب والتي تعتبر غنية جداً بالمعاني والوضوح . ثم هناك التهديد بانسحابه فوراً اذا أنا جئت . إن هذا التهديد بالذهاب يعادل التهديد بهجركم فوراً رغم أنه هو الذي استدعاكما الى بيترسبورج . فماذا تقولين ؟ هل لهذه العبارة المهينة الصادرة عن لوجين وقع مماثل لو انها صدرت مثلا عن هذا (واشار الى رازوميخين) أوعن زوسيموف أو عن أي كان منا ؟

فاجابت دونيا بانفعال :

ـــ كلا . لقد فهمت تماماً بان تلك العبارة انما صدرت عن حسن نية وسذاجة فحسب . واعله ليس سيد قلمه ! لقد كان تحليلك لاسلوبه صحيحاً . بل وانني لم أكن أتوقع ...

ـــ ان التعبير راجع الى الاسلوب لأنه في الاسلوب القضائي لا يستطاع التعبير بشكل آخر . ولعله كان أكثر خشونة مما اراد أن يكون . مع ذلك أظن انني سأخيب أملك قليلاً : ان في هذا الرسالة تعبيراً آخر ، هجاء بحقي ، هجاء وضيعاً ! لقد أعطيت البارحة مالاً الى أرملة مسلولة رازحة تحت وفر الفاقة لنفقات الدفن وليس « بحجة نفقات الدفن » واعطيته الى الارملة وليس « في يد الفتاة » التي قال عنها انها « ذات سلوك شائن معروف » . لقد رأيت تلك الفتاة البارحة لأول مرة ! إنني أرى في كل هذا حاجة ملحة الى تشويه مركزي وغمري بالشوائب أمامكما . كل هذا معبر عنه بذلك الاسلوب القضائي أي أنه يفضح بصراحة نواياه ويؤيد لوناً من التهافت الساذج ! إنه رجل ذكي لكنه لا يكفي أن يكون المرء ذكياً ليتصرف بذكاء . ان ما أقول يرسم حقيقة الرجل !

ولا أعتقد أنه يقـدرك كثيراً انني أقول لك ذلك في مصلحتك فقط لأنني أتمنى لك كل خير !..

لم تحب دونيا ، فقد كانت متخذة قرارها منذ الصباح ولا تنتظر الا حلول المساء . أما بولشيري الكسندروفنا فقد سألت ابنها بلهجة زادت كآبتها . اللهجة « العملية » التي طغت على الحديث :

ـ اذن يا روديا ؟ ماذا قررت ؟

ـ ماذا تقصدين بكلمة « ماذا قررت » ؟!

ـ أنت ترى ان بيير بيتروفيتش يطلب أن لا تكون حاضراً عندنا هذا المساء وأنه قال بـانه سينسحب اذا جئت . وعلى هـــذا فهل ... ستحضر ؟

ـ لا شك أنـه ليس لي أن أقرر مثل هـــذا الأمر . ان القرار لكما في الدرجـــة الاولى فاذا كان مطلب بيير بيتروفيتش لا يسيء اليكما وبالدرجة الثانية لا يسيء الى دونيـا فلكما شأنكما . وأنا سأنصرف كما يروق لكما !

كانت لهجته مشوبة بالجفــــاء . لذلك بادرت بولشيري الكسندروفنا الى القول :

ـ لقد قررت دونيا وانا أؤيدها تماماً في قرارها ...

وقالت دونيا :

ـ لقد قررت أن أرجوك بالحاح أن تكون حاضراً عندنا هـــذا المساء في الموعد المحدد من قبله . فهل ستحضر ؟

ـ سأحضر !

ثم استدارت الى رازوميخين وقالت :

ـ وأنت أيضاً . انني ارجوك أن تحضر الينا في الساعة الثامنة ... أماه انني ادعوه بالمثل !

فاضافت بولشيري الكسندروفنا :

ـ بديع ! يا دونيا . هيا ليكن كما قررت ! وسيكون في ذلك راحة لي لأنني لا أحب الكذب والخداع . الخير لنا أن نقول الحقيقة كلها ... فاغضب اذا شئت الآن يا بيير بتروفيتش !

الفصل الرابع

في تلك اللحظة فتح الباب بهدوء ودخلت الحجرة فتاة راحت تجيل الطرف حولها بوجل . فالتفتوا جميعاً نحوها بدهشة وفضول . لم يعرفها راسكو لنيكوف أول الأمر . كانت تلك الفتاة هي صوفي سيميونوفنا مارميلادوف . كان قد رآها أمس للمرة الاولى ولكن في لحظة ووسط وثياب معينة حتى انطبعت في خاطره صورة عنها تختلف عما رآها عليه في تلك اللحظة . فقد رأي أمامه فتاة مرتدية ثياباً متواضعة بل فقيرة تبدو صغيرة السن تماماً وكأنها طفله ذات حركات متحفظة مناسبة ووجه بشوش تبدو عليه امارات فزع خفيف . كانت مرتدية ثوبا بسيطاً صغير يصلح لكل المناسبات ، وقبعة فات وقتها وفي يديها ـ كالأمس ـ مظلتها . ولما وجدت الغرفة مليئة بالناس زاد ارتباكها حتى بلغ مرتبة الخجل فاطرقت برأسها بل وحاولت كذلك أن تنسحب !

هتف راسكولنيكوف والدهشة البالغة مرتسمة على وجهه :

ـ آه ... أهذا أنت !

وفجأة ارتبك هو الآخر . راح يفكر في تلك اللحظة في أن أمه واخته ـ بسبب رسالة لوجين ـ كانتا تعرفان وجود فتاة معينة « سمعتها الفاسدة مرموقة علناً » وقد كان منذ حين يحتج على افتراءات لوجين ويصرح بأنه شاهد تلك الفتاة للمرة الاولى في ذلك المساء وها هي ذي قد وصلت الى مسكنه وحيدة ، وتذكر كذلك بانه لم يستنكر عبارة « ذات سلوك سيء مشهود » ! مرت كل هذه الافكار في رأسه كلمحة خاطفة وبشكل غامض. لكنه لما تأملها بانتباه وجد انها

فتاة مسكينة مذعورة لدرجة شعر معها بالاشفاق عليها رآها تحاول الانسحاب شعر فجأة بما يقلقه فهتف يقول بعد أن القى عليها نظرة أوقفتها :

ـ لم اكن انتظرك مطلقاً ... ارجو ان تتلطفي بالجلوس . إنك تأتين ولا شك من جانب كاترين ايفانوفنا ... العفو ... ليس هنا بل هنا ... اجلسي هنا .

كان رازوميخين عند ما دخلت سونيا يشغل قرب الباب واحداً من الكراسي الثلاثة الموجودة في حجرة راسكولنيكوف وكان قد نهض ليفسح لها مجالا للدخول . فلما دعاها راسكولنيكوف الى الدخول والجلوس أشار اليها أول الأمر بالجلوس على « الديوان » حيث اعتاد زوسيموف أن يجلس ثم تذكر فجأة أن « الديوان » كان شيئاً أليفاً بعيداً عن الكلفة خصوصاً وأنه يستخدمه بدلاً من السرير ، فعاد وأبدل رأيه وأشار إلى « كرسي » رازوميخين ودعاها إلى الجلوس عليه بينما أشار إلى رازوميخين بالجلوس في المكان الذي كان يحتله زوسيموف من قبل . فجلست حيث أشار مضطربة من الفزع ونظرت إلى السيدتين بارتباك . كان يُرى على وجهها بوضوح أنهما تستنكر وجودها إلى جوارهما . ولما فكرت في هذه الناحية امتلكها جزع عنيف حتى أنها نهضت فجأة وقالت بصوت مضطرب تحدث راسكولنيكوف مغمغمة :

ـ أنا ... إنني جئت من أجل دقيقة واحدة فاعذروني إذا كنت أزعجتكم. لقد جئت من قبل كاترين ايفانوفنا التي لم يكن لديها أحد ترسله إلاي . لقد كلفتني كاترين ايفانوفنا بأن أرجوك بالحاح للحضور غداً صباحاً للمساهمة في الجناز الذي سيقام بعد إقامة القداس في « سانت ميتروفان » ومن ثم أن تأتي إلى دارنا ... إلى دارها لتناول قطعة ...

إنها تأمل أن توليها هذا الشرف وقد كلفتني بأن أحمل اليك هذه الاقوال !

وصمتت أخيراً بعد أن ازداد ارتباكها . فنهض راسكولنيكوف بدوره ووقف مضطرباً كذلك لايحير جواباً وأخيراً أجاب :

— سأسعى بالطبع ... بالطبع ... أرجو أن تتفضلي بالجلوس ... إن لدي ما أقوله لك . أرجوك . قد تكونين على عجلة من أمرك ، لذلك أرجو أن تجلسي وأن تمنحيني دقيقتين .

وقدم إليها « كرسياً » فجلست وعادت من جديد تلقي نظراتها المفعمة بالخجل ، التائهة في التأمل على السيدتين وأخيراً خفضت بصرها فجأة ! أما راسكولنيكوف فقد غدا وجهه الشاحب أحمر اللون وقد التمعت عيناه ببريق مضيء ! بدا كأنه مضطرب تماماً مبلبل الأفكار . وأخيراً قال بلهجة حازمة :

— اماه ! هذه صوفي سيميونوفنا مارميلادوف ابنة ذلك التعس مارميلادوف الذي دهس مساء أمس أمام عيني والذي حدثتك عنه !

فنظرت بولشيري الكسندروفنا إلى سونيا ثم أغمضت عينيها قليلا ، لأنها لم تستطع أن تمتنع عن الاتيان بهذه الحركة التي ترضي كبرياءها رغم النظرة الملحة المتحدية التي كان يسلطها ابنها « روديا » عليها . أما دونيا فقد صوبت عينيها إلى وجه الفتاة المسكينة مباشرة وراحت تتأملها باستغراق وجدوعلى وجهها أمارات الاستفهام . وحاولت سونيا أن ترفع عينيها إلى السيدتين عند سماعها هذا التقديم لكن ذلك زادها حيرة واضطرابا .

واسترسل راسكولنيكوف موجهاً حديثه إلى سونيا :

— وددت أن أسألك كيف مر هذا اليوم عندكم ؟ عسى أن لايكون قد حصل لكم أي ازعاج من قبل رجال الشرطة مثلا !

— كلا ... لقد انتهى الأمر بسلام . خصوصاً وأن أسباب الوفاة كانت واضحة جداً لذلك فانهم لم يزعجونا غير أن المستأجرين غير راضين !

— لماذا ؟

— لأن الجثة باقية وقتاً طويلا والطقس حار الآن والرائحة ... حتى أننا اليوم في ساعة صلاة الغروب سننقلها إلى المدفن بانتظار الغد في الكنيسة ! وقد رفضت كاترين إيفانوفنا بادىء الأمر ولكنها بدأت ترى الآن انلاوسيلة غير هذه !

— إذن فان الدفن سيكون اليوم !

— إنها ترجوك أن تشرفها لحضور الطقوس غداً ثم العودة إلى البيت لتناول الطعام الجنائزي !

— أتقدم طعاماً أيضاً ؟

— نعم . طعام خفيف . وقد كلفتني بأن أشكرك جزيل الشكر على المساعدة التي قدمتها لنا البارحة . ولولاك لما كنا نستطيع إيجاد مايسد نفقات الدفن .

وفجأة راح ذقنها وشفتاها ترتجف لكنها بذلت جهداً كبيراً حتى تمالكت روعها وهي لما تزل شاخصة بأبصارها إلى الأرض !

راح راسكولنيكوف ينظر اليها أثناء الحديث بانتباه . كانت ذات وجه صغير بالس نحيل شاحب وقسمات غير متناسقة . كانت تقاطيع وجهها قريبة من شكل الزوايا في تدانيها بذلك الأنف المدبب الصغير وذقنها البارزة . ولم يكن يمكن اطلاق لقب جميلة عليها ولكنها بالمقابل كانت ذات عينين زرقاوين صافيتين اذا انفعلتا فان وجهها يكتسب طابعاً جميلا طيباً طهوراً حتى ليشعر المرء بانجذابه اليها رغم إرادته . ثم أن وجهها وكذلك شخصها كله ما كان محروماً من بعض الميزات وكانت على الرغم على بلوغها الثامنة عشرة تبدو طفلة أصغر سناً من حقيقتها حتى أن الطفولة كانت لتشاهد بوضوح خلال بعض حركاتها المضحكة !

هتف راسكولنيكوف وهو يتابع الحديث بالحاح واهتمام :

— لكن كيف استطاعت كاترين ايفانوفنا أن تقوم بكل هذا رغم قلة

الامـكانيات التي في يدها ؟ كيف تقدم مع ذلك وجبة طعام خفيفة ؟.

ــ ستكون الجنازة بسيطة وسيكون كل شيء بسيطاً وعلى هذا الشكل لن يكلف كل هذا شيئاً كثيراً . لقد عملنا حساباتنا منذ قليل أنا وكاترين ايفانوفنا وهي تتمسك كثيراً بهذه المسألة خصوصاً وأنه لا يمكن الاستغناء عن ذلك لأنه نوع من العزاء بالنسبة اليها . إنها هكذا ، وأنت تعرفها !

ــ إنني أفهم ... إنني أفهم! لاشك!.. ماذا بك تنظرين هكذا إلى غرفتي ؟ إن أمي كانت تقول منذ قليل بأنها تشبه القبر !

ــ لقد أعطيتنا البارحة كل ماتملك !

افلتت هذه العبارة من شفة الفتاة فجأة واطلقتها بصوت يشبه همساً مبحوحاً سريعاً وعادت تطرق برأسها الي الارض وعادت شفتاها وذقنها الى الارتجاف ... لقد شعرت منذ دخولها بالفقر الذي يخيم على مسكن راسكولنيكوف وقد أدهشتها هـــذه البادرة لذلك فان تلك الكلمات انطلقت من فمها دون وعي فصمتت . بينما التمعت عينا دونيا ونظرات بولشيري الكسندروفنا الى سونيا نظرة باشة ! واخــيراً قالت الام وهي تنهض :

ــ روديا ... لسوف نتناول الطعـام معاً حتماً ... لنذهب يادونيا اما انت ياروديا فانك تحسن صنعاً اذا قمت بجولة تستريح بعدها وتعال الى مسكننا باسرع ما يمكن اخش ان تتعبك !

فقال وهو ينهض بحركة متهافتة :

ــ نعم . نعم . ساذهب ! ثم عندي بعض العمل !

فهتك رازوميخين وهو ينظر الى راسكولنيكوف بدهشة :

ــ لكنكم لن تأ كلوا كل واحد على حده ! ماذا بـ ...

ــ سأحضر نعم سأحضر بالطبع . اما انت فابق ! فابق ! ابق دقيقة . انكما

لستما بحاجة اليه الآن اليس كذلك ياماه ؟ ام لعلي احرمكما منه ؟

ــ آه كلا كلا .. وانت يادميتري بروكوفيتش سوف تحضر لتناول الطعام معنا ! ارجوا ان تتفضل بالحضور !

والحقت دونيا تقول :

ــ تعال ارجوك !

فانحنى رازوميخين ووجهه طافحاً بالبشر ! وانقضت فترة شعر الموجودون خلالها بنوع من الارتباك الغريب . فقالت الام تقطع الصمت :

ــ الوداع ياروديا بل الى اللقاء ! لا احب كلمة الوداع ! الوداع ناستاسيا ! ياالهي لقد قلت الوداع مرة اخوي !

همت بولشيري الكسندروفنا بأن تحيي سونيا كذلك لكنها لم توفق لذلك فقد عجلت بالخروج من الحجرة وكانت سونيا تنتظر دورهاللخروج فمرت افدوتيا رومانوفنا من أمامها على اثرامها لكنها انحنت تحييها تحية مؤدبة ارتعدت لها سونيا وسلمت بدورها مذعورة مرتبكة بينما اكتست قسماتها بمسحة من الآلم غمرتها كلها كما لو ان التفاته افدوتياً رومانوفنا وتأدبها وقد احدثا في نفسها تعذيباً اليماً !

وخرج راسكولنيكوف الى المشى وهو يقول :

ــ الوداع يادونيا ... اعطني يدك !

فالتفتت دونيا نحوه وقالت بصوت عذب لم يخل من الاضطراب:

ــ لكنني اعطيتها لك فهل نسيت ؟ لقد صافحتك !

ــ حسناً صافحيني مرة ثانية !

وضغط على اصابعها بشدة بين يديه بينما ابتسمت لهواحمرت خجلاً ثم اسرعت تسحب يدها وهي تشعر بسعادة غامرة لاتعرف لها سبباً ! وعاد رسكولنيكوف الى

سونيا وقال لها بوجه مشرق :

ـــ هيا ... هذا حسن ! ليرحم الله الاموات وليدع الاحياء يعيشون أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ إنه لكذلك!

ودهشت سونيا للاشراقة المفاجئة التي سطعت على وجه راسكولنيكوف فنظرت اليه لحظات صامتة وتذكر ـ هو ـ خلال هذا الصمت كل ما حدثه به المرحوم ابوها عن هذه الفتاة بصورة مفاجئة !

لما بلغت بولشيري الكسندروفنا الشارع مع أبنتها هتفت :

ـــ رباه يادونيا ... انني الآن سعيدة جداً لأننا خرجنا حتى ليخيل الي ان حملا ثقيلاً قد ازيح عن صدري هل كنت أظن البارحة وانا في القطار أن امراً كهذا سيسرني ؟

ـــ اذكرك مرة اخرى ياأماه بأنه لايزال مريضاً . هل يعقل ان لاتكوني قد لاحظت ذلك ؟ لعل الحزن لفراقة عنا كل هذه المدة هو الذي ادى بـــه الى المرض ! ينبغي ان يكون المرء متسامحاً وانه ليستحق ان يصفح عن اشياء كثيرة تصدر عنه !

فأجابت بولشيري الكسندروفنا بلهجة غاضبة مقاطعة ابنتها :

ـــ ولكنك أنت لم تكوني متسامحـــة يادونيا ! لعلك لاتعرفين يادونيا بأنني كنت انظر اليكما كليكما ! انك صورة عن أخيك تماماً بل ولك مثل مزاجـــه انكما كلاكما سوداويان ، كلاكما شرسان سريعا التأثر والانفعال . شديدا الازدراء نبيلان ... كلاكما نعم ! لأنه لايمكن أن يكون أنانياً فـــاذا ترتائين يادونيا ؟ ما رأيك ؟ عندما افكر انه سيكون عندي مساء يكف قلبي عن الضرب !

ـــ لاتبتئسي ياأماه ولسوف يحدث مايجب أن يحدث !

فقالت بولشيري الكسندروفنا برعونة وسذاجة :

— دونيا فكري قليلاً في اي موقف نحن ؟ ماذا سيحدث اذا انسحب بيير بيتروفيتش ؟

فقالت دونيا بلهجة خافتة مشمئزة :

— سيكون عندئذ عديم الشرف !

وعادت بولشيري الكسندروفنا تقول متعجلة :

— لقد احسنا صنعاً بخروجنا في هذه اللحظة . ان عملاً مستعجلاً كان يستدعيه ! إنه على الأقل سيتحرك قليلاً وسيستنشق قليلاً من الهواء ... ان المرء ليختنق في حجرته لكثرة الحرارة ! لكن أين يستنشق الانسان في هذه المدينة؟ ان الشوارع تشبه غرفاً محرومة من نوافذ ياربأه ! يالها من مدينة ! انتظري ! احذري .. آه حقيقة اننا مبلبلتا الخواطر ... انني اخاف كذلك من تلك الفتاة !

— أية فتاة يا اماه ؟

— لكن رباه ... من هذه الـ : صوفي سيميونوفنا ... تلك التي حضرت اليه منذ لحظات !

— لم تخافين منها ؟

— انني اشعر شعوراً مسبقاً يادونيا ! الم تلاحظي ماذا حدث عند دخولها ؟ اكاد اعتقد ان النقطة الرئيسية كامنة فيها ! ولك ان تصدقيني أم لا !

فهتفت دونيا مستنكرة :

— ابداً انك دائماً تتبعين شعورك المسبق ! انه لايعرفها الا منذ البارحة ولم يستطيع التعرف عليها للوهلة الاولى منذ قليل عندما دخلت !

— حسناً سترين ! إنها تقلقني . سترين ! كم روعت منها ! لقد كانت تنظر الي بتينك العينتين حتى انني ما كنت استطيع التمالك الا بصعوبة . هل تذكرين كيف قدمها الينا ؟ ان الامر يبدو غريباً ذلك لأنه يقدمها لنا — لي ولك —

بعد ان كتب الينا بيير بتروفيتش عنها ما كتب . وعلى هذا فانه يحبها ! أو أنها غالية عليه !

ـ ان المرء يكتب أشياء كثيرة . لقد كتبعنا نحن و حكي عنا الشيء الكثير أم تراك قد نسيت ؟ انني متأكدة من جانبي بأنها فتاة مدهشة وان كل ما قيل عنها ان هو الا لغوا !

ـ ليتقبل الله !

فاضافت دونيا بلهجة حاسمة :

أما بيير بيترفيتش فانه تمام مرذول !

فاحنت بولشيري الكسندروفنا رأسها وتوقف الحديث عند هذا الحد !

وفي الحجرة قال راسكو لنيكوف وهو يقود رازوميخين الى النافذة :

ـ سأخبرك عن الأمر الذي أردت التحدث به اليك !

بينما بادرت صوفي سيميونوفنا تقول وهي تنحني محاولة الخروج :

ـ سأقول اذن لكاترين ايفانوفنا انك ستحضر !

ـ سنتكلم بعد قليل ياصوفي سيميونوفنا . ليس لدينا أسرار نخفيها . انك لاتزعجيننا أحب أن اقول لك كلمتين اخريين ...

ثم استدار الى رازوميخين وقال :

ـ اليك القضية : انك تعرفه أليس كذلك . . . ما اسمه ؟ بورفير بيتروفيتش .

فاجاب رازوميخين باهتمام بالغ :

ـ لا شك إنه أحد أقربائي . ماذا تريد منه ؟

ـ تلك القضية ... أنت تعرفها ... أقصد الجريمة ! كنت تقول البارحة انه يحقق فيها الآن !

فاجاب رازوميخين وهو يحملق بعينيه :

ــ نعم ... ماذا بعد ؟

ــ وانه استجوب الاشخاص الذين أودعوا لدى تلك العجوز بعض الرهائن ... حسناً ... انني شخصياً رهنت عندها بعض الحاجات . أشياء غير ذات قيمة في مجموعها : خاتم صغير قدمته إلي أختي عند ما غادرتها الى بيترسبورغ والساعة الفضية التي كانت لأبي . إن هاتين الحاجتين لا تساويان اكثر من خمسة أو ستة روبلات ولكنني أتمسك بها لأنها ذكريات . فماذا ينبغي أن أعمل الآن ؟ أنا لا أريد أن تضيع هذه الاشياء وخصوصاً الساعة . إنني كنت ارتعد منذ قليل خشية أن تسألني أمي عنها عند ما تحدثنا عن ساعة دونيا . انها الاثر الوحيد الباقي لأبي ولسوف تمرض أمي ان هي ضاعت ! إن النساء دائماً هكذا ... فعلمني ماذا أعمل ؟ أنا أعرف أنه يجب أن أقدم افادة ولكن أليس من الاحسن أن نعلم بورفير شخصياً بذلك ؟ هم ماذا تعتقد ؟ إنني أحب أن أنهي هذه القضية باسرع ما يمكن . ولسوف ترى أن أمي ستفكر في سؤالي عن اخبار الساعة قبل موعد الطعام ! ...

فهتف رازوميخين وقد اضحى فريسة اضطراب غير طبيعي :

ــ لا لزوم للجوء الى البوليس ان الذهاب الى بورفير هو الصواب . آه ! كم أنا سعيد ! ثم لم لا أكون سعيداً ؟ لنذهب فوراً إنه على قيد خطوتين من هنا ولسوف نجده حتماً .

ــ ليكن ... لنذهب .

ــ ولسوف يكون مسروراً جداً بالتعرف اليك ! لقد حدثته عنك كثيراً وفي مناسبات عديدة ، والبارحة كان آخر حديث لنا .. وعلى هذا فانك كنت

تعرف العجوز ؟ ها ها ... كم يرتبط الامر الآن بشكل مـدهش ! آه ! نعم ... صوفي ايفانوفنا ...

فصحح راسكولنيكوف قوله :

ـــ بل صوفي سيميونوفنا ... انه صديقي رازوميخين يا صوفي سيميونوفنـا ! انه شاب ممتاز !

فقالت صوفي دون أن تنظر الى رازوميخين لشدة خجلها :

ـــ اذا كنتما ستخرجان ...

فقال راسكو لنيكوف :

ـــ نعم لنذهب ! سأمر بدارك اليوم يا صوفي سيميونوفنا فقط خبريني أين تقطنين .

لم يكن يبدو عليه الارتباك تماماً لكنه كان يقول هـــذه الكلمات بلهجة محمومة وهو يختلس النظر الى وجه الفتاة . فاعطته سونيا عنوانهـا وهي تحمر من الخجل . ثم خرجوا ثلاثتهم معاً . سأل رازوميخين :

ـــ ألا تغلق بابك بالمفتاح ؟

فاجاب راسكولنيكوف :

ـــ أبداً ... مع العلم بانني منذ عامين وأنا أفكر أبداً في شراء قفل ! سعـداء هم الذين لا يملكون ما يخفونه بالمفتاح أليس كذلك ؟

كانت جملته الاخيرة هذه موجهة الى سونيا وكان وجهه هاشاً باشاً ، ولمـا بلغوا الباب الخارجي توقفوا برهة . فقال راسكولنيكوف مخاطباً سونيا بشكل يشعر منه بانه يريد أن يقول لها شيئاً آخر :

ـــ ستذهبين من اليمين أليس كذلك يا صوفي سيميونوفنـا ؟ ولكن كيف استطعت اكتشافي ؟

كان يحاول عبثاً أن ينظر في عينيها الصافيتين الهادئتين ... فاجابت :

— ولكنك أعطيت عنوانك أمس الى بوليا !

— بوليا ؟ آه نعم ! بوليا ... إنها تلك الصغيرة ... انها اختك ؟ وعلى هـذا فقد أعطيتها عنواني !

— هل نسيت ذلك ؟

— كلا إنني أتذكر جيداً !

— ثم إنني كنت قد سمعت أبي المرحوم يتحدث عنك ما كنت أعرف اسمك. وهو نفسه كان يجهله . والآن فقد جئت ... وعند ما علمت اسمك البـــارحة ... سألت اليوم : هل يقطن هنا السيد راسكولنيكوف ؟ لأنني ما كنت أعرف انك أنت كذلك تقطن في غرفة مؤثثة ! الوداع لسوف أقول ذلـــك لكاترين ايفانوفنا !

شعرت بسرور بالغ وهي تبتعد أخيراً ... فمضت مطرقـــة الرأس وهي تحث خطاها لتبلغ المنعطف القريب الذي يبعـد عشرين خطوة عن مكان وقوفها كي تختفي عن أبصارهما ولكي تصبح وحيـدة أيضاً ! وعنـد ما اتصل الى المنعطف ستسير مسرعة دون أن تبالي بأحـد أو أن تنظر حولهـا ... ولسوف تفكر وتتذكر وتستعيد في ذهنها كل كلمة قيلت ! كل مناسبة ! انها لم تشعر من قبل أبداً بشعور من هذا القبيل ! لقد شعرت بعالم جديد يخلق فجـــأة في روحها بشكل غامض غير واضح . وتذكرت فجأة أن راسكولنيكوف يود زيارتهـا هذا اليوم بالذات بل لعله يحضر تواً . فراحت تغمغم مغمغمـة القلب وكأنها تحـاول تهدئة طفل صغير !

— رباه ... المهم أن لا يحضر اليوم ! رباه ... غرفتي ... تلك الغرفة السوف... يراها ! آه يا رب !

لذلك ونظراً لحالة الاضطراب التي كانت تعانيها فانها لم تلاحظ طبعاً أن سيداً لم تكن تعرفه ، راح يتبعها خطوة فخطوة . لقد رافقها دون أن تشعر منذ أن رآها تخرج من الباب العام عندما كان رازوميخين وراسكولنيكوف واقفين معها يتبادلون بضع كلمات على الرصيف . وقد مر ذلك السيد في تلك اللحظة بهم وانتفض لجأة حينما سمع طرفاً من حديث سونيا وكانت تقول : « لقد سألت : هل يقطن هنا السيد راسكولنيكوف ؟ » فنظر بسرعة ولكن بانتباه الى الاشخاص الثلاثة وبصورة خاصة الى راسكولنيكوف الذي كانت تتحدث سونيا اليه . ولم تدم نظرته تلك الا لحظة خاطفة وقد وقفت دون أن يتوقف عن السير . فلما ابتعد راح يهدئ من خطاه ويبطئ في سيره كما ولو كان ينتظر أحداً . لقد كان ينتظر سونيا وقد شاهد الاشخاص الثلاثة يتبادلون كلمات الوداع ورأى سونيا تسير في اتجاهه لتعود الى منزلها . فهتف يغمغم محدثاً نفسه : « هه ! أين تسكن اذن ؟ لقد رأيت هذا الوجه من قبل في مكان ما » .

كان يحاول استنهاض ذاكرته لتسعفه بما نسيته . فلما وصل الى المنعطف مضى الى الجانب المقابل واستدار الى الخلف فرأى سونيا تتبعه في ذلك الطريق بالذات دون أن تلحظ شيئاً . ولما تجاوزته راح في اعقابهـا سائراً على الرصيف المقابل دون أن يدعها تغيب عن ناظريه ، واستمر بعيداً عنها حتى قطعا خمسين خطوة تقريباً وعندئذ عاد الى الرصيف الاول حيث كانت تسير فلحق بها وسار وراءها مباشرة مخلفاً بينهما مسافة خمس خطوات فقط .

كان رجلا في الخمسين من عمره ميالاً الى الطول متين البنية مرتدياً ثيابا أنيقة ثمينة ومناسبة، له مظهر « البورجوازي » المحترم ! وكان يحمل في يمناه عصا جميلة كان يقرع بها الرصيف مع كل خطوة ويلبس قفازات جديدة ولا يبدو على مظهره ولون بشرته أنه من بيتر سبورغ . ولم يكن المشيب قد خط بعد

سطورة طويلة على شعره الاشقر الكثيف . أما لحيته فكانت كثة ومشذبة ذات لون أشقر فاتح يشبه لون شعر الرأس ! وكانت له عينان زرقاوان ذات نظرة باردة ملحة حالمة وشفتان حمراوان . فكان بمجموعه رجلاً محتفظاً بشبابه احتفاظاً مدهشاً يبدو أصغر سناً من حقيقته .

اشرفت سونيا على القناة وكان الغريب على بعد متساو وعلى رصيف واحد ، فنظر اليها متأملاً ولاحظ أنها ساهمة مفكرة . فلما بلغ مسكنه دخلت سونيا من الباب العمومي فحذا حذوها وهو في دهشة من الامر . وبلغت سونيا الباحة فانعطفت الى اليمين حيث السلم الذي يؤدي الى مسكنها فغمغم السيد الغريب بكلمة تشعر بدهشته وراح يصعد السلم على أثرها فلما بلغت الطبقة الثالثة سارت في المشى وقرعت الباب التاسع وعليه لوحة نقش عليها هذا الاسم: كابرناؤوموف خياط ! دهش الغريب لتلك المصادفة العجيبة وراح يقرع بدوره الباب الثامن وكان البابان على بعد ست خطوات الواحد عن الآخر .

نظر اليها الغريب وقال مبتسماً :

ـــ انك تقطنين لدى كابرناؤوف ؟ لقد خاط لي البارحة « صداراً » ! انني أقطن هنا بجانبك عند السيدة رسليش ، جرترود كارلوفنا ! ما أدهش الصدف !

فنظرت اليه سونيا بانتباه بينما راح يتابع حديثه قائلاً بلهجة مرحة :

ـــ اننا جاران . لقد حللت في بيتر سبورغ منذ أمس الأول ... هيا ... يسرني لقاؤك !

لم تجب سونيا كان بابها قد فتح فتسللت الى حجرتها وقد شعرت بانها تخجل من شيء ما وترهب منه !

* * *

كان رازوميخين شديد الحمـــاس وهو في طريقه مع راسكولنيكوف الى مسكن بورفير ! وكان يهتف مكرراً :

ـ يا صديقي العجوز ! ان ذلك عين الكمال ! انني سعيد ... انني سعيد !

وبينما كان راسكو لنيكوف يفكر في نفسه قائلا : « ما الذي يسعدك ؟ » كان صديقه مستمراً في حديثه يقول :

ـ كنت اجهل انك أنت أيضاً قـد استلفت من تلك العجوز لقـاء أشيـاء رهنتها آه ... هل ذهبت اليها اقصد متى ذهبت اليها لآخرة مرة ؟

غمغم راسكولنيكوف في سره يقول : ياللك من ساذج سخيف ! ثم توقف برهة وكأنه يفكر في سؤال صديقه وقال :

ـ متى ؟ لقد ذهبت اليها قبل موتها بثلاثـــة أيام على ما أعتقد . ثم انني لا أريد أن أستعيد هذه الاشياء الآن لأنني لا أملك إلا روبلاً واحداً تبقى لي بسبب ذلك الهذيان الملعون الذي أصابني أمس !

كان يتحدث عن تلك الاشياء بلهجة تعبر عن عناية خاصة بهـا . وكذلك فقد نطق بكلمة « الهـذيان » بلهجـــة شديدة الاغراء ! فبـادر رازوميخين الى القول :

ـ هيا ... نعم ... نعم . اذن هو السبب في أنك ... لقـــد أدهشتني على الاكثر اقوالك أثناء هذيانك ... انك ما كنت تفتأ تتحدث عن سلاسل وخواتم ! نعم نعم ! لقد وضح كل شيء الآن !

راح راسكو لنيكوف يناجي نفسه بقوله : « أن تلك الفكـرة مغروسه إذن في عقولهم ! هذا الرجل مثلاً ... إنه على استعداد للتضحية بنفسه من أجلي وهو سعيد لأنه وجد تفسيراً معقولا للسبب الذي دفعني الى التحدث عن الخواتم

في الحلم ! إن الفكرة إذن قد رست في رؤوسهم جميعـــاً ! » ثم سأل صديقه بصوت مرتفع :

ــ لكن هل نجده في مسكنه ؟

فاسرع رازوميخين يجيب :

ــ سوف نجده ... سوف نجده . انه شاب ممتاز يا صديقي وسترى ! إنـــه أخرق بعض الشيء وأقصد أنه يسير مع الدنيا . ولكنني لم أنعتــه بالأخرق من أجل هذا ... إنه فتى ذكي بل أنه شديد الذكاء ولكن لديه اتجاهاً خاصاً في عقله. إنه حذر ماجن ومتشكك ... يروق له أن يسخر ولكن ليس لدرجة «التهريج» وأخيراً الاسلوب القديم وأقصد أسلوب الاعتماد على الواقع المادي ... لكنه يعرف عمله تماماً بل إنه ضليع فيه ... لقد حقق في العام الماضي في قضية قتل كانت كل الآثار فيها ضائعة . وهو يرغب في التعرف اليك بشوق زائد !

ــ ولمَ يرغب في ذلك الى هذا الحد ؟

ــ ليس...لأنه لكن ألا ترى السبب؟إنني فيهذه الايام الاخيرة ـ بينما كنت مريضاً ـ تحدثت اليه كثيراً عنك ولقد أصغى إلي بانتبـــاه ولما علم بانك طالب حقوق وأنك لم تتمكن من متابعة دروسك لاسباب خارجة عن طاقتك قـال : يا للأسف ! ومن ذلك استنتجت ... وأقصد من كل الأشياء مجتمعة وليس من هذا فحسب . البارحة زاميوتوف ... أفهمني يا روديا .. قـــد أكون ثرثرت البارحة كثيراً عنـــد ما كنت ثملا وكنت أرافقك الى الدار ... لذلك فانني اخشى أن تكون مغالياً ...

ــ ماذا تريد أن تقول ؟ أنهم يعتبرونني مجنوناً ؟ ولكن قد يكون ذلك صحيحاً !

واغتصب ضحكة صامتة .

ـــ نعم ... نعم ! أو بالأحرى لا ... بواه ! هيا ... ان كل ما قلته وما بعده كله كان سخيفاً وبتأثير الشراب !

فصاح راسكو لنيكوف يقول وقد همّ أن يندفع من الغضب :

ـــ لكن لمَ تعتذر ؟ ان كل ذلك يقتلني في النهاية !

ـــ انني اعرف ... انني أفهم ! ثق بانني افهم . حتى انـــه من المخجـل التحدث فيه !

ـــ اذن ! طالما أن التحدث فيه مخجل فلنكف !

وصمت الصديقان وكان رازوميخين يفيض حمـــاسة الامر الذي كان راسكولنيكوف يلاحظه باشمئزاز وكان كذلك مكتئباً مما سمعه للتو من رازوميخين عن بورفير ، فراح ينـاجي نفسه قائلاً وهو يشعر بشحوب وبخفقان شـديد في قلبه :

ـــ ينبغي أن ألقي الرماد في عيني هذا أيضاً ! إن ذلك طبيعي تماماً ، ولـكن « أن لا ألقي بشيء مطلقاً » سيكون طبيعياً أكثر ... نعم أن أرغم نفسي على عدم ألقاء شيء في عينيه ! كلا ! لأنني إذا أرغمت على ذلك فلن يكون الأمر طبيعياً تماماً حسناً سنرى كيف تسير الامور ... ترى هل أحسن صنعاً بالذهاب الى هناك أم لا ؟ ان الفراشة تطير من تلقاء نفسها نحو الشمعة ، انني أشعر باضطراب في قلبي وان ذلك لفأل سوء . »

قال رازوميخين :

ـــ انه في هذا المنزل الرمادي .

استمر راسكو لنيكوف في حديثه مع نفسه :

ـــ « هنـــا أمر حيوي جـداً : هل يعرف بورفير بزيارتي الى منزل تلـك الساحرة أمس أم لا ... وعن سؤالي عن الدم ! ينبغي أن أعرف ذلــــك بلمحة

خاطفة منـــــذ البداية ، نعم حال دخولي والا ... فلسوف أعرف اذا كنت سأخسر نفسي ! »

وخاطب رازوميخين فجأة وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة :

ــ على فكرة . لقد لاحظت يا صديقي انـك منذ هـذا الصباح في اضطراب غير عادي فهل هذا صحيح !

فقال رازوميخين منكراً :

ــ اي اضطراب ؟

ــ هيا ... يا عزيزي ان ذلك لا يمكن حجبه ! لقد كنت منـــــذ لحظات جالساً على مقعدك كما لم تفعل أبداً من قبل . كنت جالساً على حافـة المقعد تماماً وكنت تنتفض من ارتعادة تشنجية فلا تقر لك قرار وكنت تغضب حينـاً لتعود فجأة الى اتخاذ سحنة هادئة . كنت تحمر أحياناً خصوصاً لما دعوك الى تنـاول العشاء ... لقد احمر لونك حتى جذور شعرك !

ـ ان هذا غير صحيح ! انك تكذب ! لمَ تقول هذا ؟

ـ الحقيقة انك خجول كالتلميذ الصغير ! يا للشيطان هـــا انـك تعود الى الاحمرار !

ــ يا لك من قذر بعد ذلك !

ــ لكن لم كل هذا الخجل يا روميو ! انتظر ... لسوف أقوله في مـكان ما اليوم هاهاها ! لسوف اجعل ماما تضحك اليوم ، وشخصاً آخر !

فصاح رازوميخين وقد خرج عن طوره وشعر ببرودة الرعب :

ـ اسمع ... اسمع ! انني أتحدث جدياً الآن ! ماذا سيحدث بعد ذلك؟ياللشيطان هل قدرت ؟ ماذا ستذكر لهما ... أنا ؟ يا عزيزي ... اوف ... يالك من قذر !

ـ آه لقد أصبحت كوردة في الربيع تماماً ... كم يليق بك هذا ... لو كنت

تدري ! روميو بطول ستة أقدام ... حسناً لقد اغتسلت اليوم وقلمت أظافرك هم ؟ هذه الاشياء لم تشاهد فيك من قبل ! يا الهي العظيم ! وقد تطيبت... اخفض رأسك قليلاً !

ـ خنزير !

فانفجر راسكولنيكوف ضاحكاً بعنف كاد أن يفقده السيطرة على أعصابه. وهكذا تخطى عتبة مسكن بورفيربيتروفيتش وهو يضحك . وهذا ما أراده راسكولنيكوف : لقد كان يمكن استماع ضحكته من داخل المسكن وقدامتد ذلك الجذل والحبور الى داخل الممشى !

وغمغم رازوميخين وهو يقبض على كتف راسكولنيكوف :

ـ ولا كلمة هنا وإلا كسرت لك « بوزك » !

الفَصلُ الخَامِسُ



كان راسكولنيكوف قد دخل الشقة وعلى وجهه علامات من يبذل جهداً ليمتنع عن الانفجار من الضحك وجاء وراءه رازوميخين منقلب السحنة من الغضب ، احمر كالورد ، كالابله المقنع ، وكان وجهه وشكله يحملان طابعاً يثير السخرية في تلك اللحظة ، ويفسر تفسيراً معقولاً سبب تهلل رفيقه .

انحنى أمام صاحب المسكن قبل أن يقدّم اليه . ومـد يده اليه مبدياً جهداً واضحاً ليكبت عواطفه ويطرد عن نفسه ذلك المرح كي يستطيع على الأقل التلفظ بالكلمتين او الثلاث كلمات اللازمة في مثل هذه المقابلة . وكان صاحب البيت واقفاً وسط الحجرة يفحص زائريه بنظره ... ولم يكد راسكولنيكوف يتخذ شكلاً جدياً ويغمغم ببضع كلمات حتى وقعت عيناه فجأة على رازوميخين وعنـدئذ لم يعد باستطاعته الثبات . وهكذا انطلقت الضحكة الحبيسة بقوة تبررها شدة الكبت الذي كانت تعانيـــه . وكان للغضب العنيف الذي استقبل به رازوميخين تلك الضحكة أثراً بعيداً في اعطاء ذلك المشهد طابع المرح الطبيعي الحقيقي . ولقد ساهم رازوميخين في ذلك ــ وكأنه كان متعمداً ــ فزمجر وهو يلوح بيده :

ــ آه ... الى الشيطان ...

وارتطمت يده بمائدة صغيرة كان عليها قدح من الشاي فطوحت بها معاً الى الارض واحدث هـــذا الارتطام فرقعة عالية . فهتف بور فيريتروفيتش بلهجة وديعة :

ــ لكن لم تحطيم الكراسي ايها السادة انكم تسببون خسارة للدولة !

كان راسكولنيكوف يضحك ملء رئتيه ناسياً يده في يد صاحب الدار لكنه كان ينتظر الوقت الذي ينبغي له فيه ان يسحبها بسرعة وبشكل طبيعي للغاية. اما رازوميخين فقد اشتد جزهه اثر سقوط المائدة وتحطم القدح فراح يتأمل في اجزائه المتناثرة ثم انسحب مهزوماً حانقاً باتجاه النافذة حيث وقف مستديراً بوجهه اليها ينظر خلالها الى لاشيء وهو منقلب السحنة. وكان بورفير بيتروفيتش يضحك وهو يتلهف الى مزيد الضحك ولكنه كان ينتظر تفسيراً لهذه الحالة. وفي ركن من الغرفة كان زاميتوف يجلس على كرسي فلما دخل الزائران تناهض وانتظر فاغر الفم وقد حيره المشهد وجعله متحذراً يرقبه بفضول خاص. وكان لوجود زاميوتوف ـ وهو ما لم يكن يتوقعه ـ وقع مزعج في نفس راسكولنيكوف الذي فكر في نفسه قائلاً: « وهذه مسألة ينبغي اخذها بعين الاعتبار! »،

شرع راسكولنيكوف يفسر سبب هذا الموقف مبدياً خجله:

ــ ارجو ان تعذرني ... فان رازوميخين ...

فقاطعه بورفير قائلاً:

ــ العفو لقد ادخلتما السرور على نفسي! ولقد دخلتما بلطف زائد ...

ثم اشار الى رازوميخين وقال:

هه! هل يرفض حتى القاء التحية!

ــ عجيباً ... لست ادري لمَ غضب مني. لقد قلته له في الطريق أنه يشبه « روميو » ولقد اثبتت له ذلك ... واست اعتقد أن هناك شيئاً آخر! ...

فهتف رازوميخين محنقاً دون أن يستدير:

ــ خنزير!

فقال بورفير ضاحكاً:

ــ ينبغي ان تكون لديه المبررات الكافية حتى يغضب من كلمة صغيرة بسيطة!

فصرخ رازوميخين :

ــ هاأنتذا « تتنفذلك » ياقاضي التحقيق ! هيا ليحملكم الشيطان !

ثم استدار وهو يضحك وقد غمر البشر وجهه واقترف نحو بور فيربيتروفيتش وكأنه شيئاً لم يحدث ومد اليه يده وقال :

ــ احييك بسرور ! والآن الى العمل . هـــذا صديقي روديون رومانيتش راسكولنيكوف .

اولاً باعتباره سمع كثيراً بك فقد اراد ان يتعرف بك ثم ان لديه عملاً صغيراً يود انهاءه معك . هه ! زاميوتوف ! اية صدفة جاءت بك الى هنا ؟ انكما متعارفان اذن ؟ منذ متى وانتما على علاقات ...

وناجي راسكولنيكوف نفسه متسائلاً : « ما معنى هـذا » أما زاميوتوف فكان مرتبكاً قليلاً لكنه تغلب اخيراً على ارتباكه وقال بلهجة ودبعة :

ــ البارحة ... لقد تعارفنا عندك !

ــ اذن انها « العناية » التي هيأت كل شيء . لقد كان في الاسبوع الماضي يلح كثيراً ليقدم اليك يابورفير لكنكما لم تعودا بحاجـة الي لأجري ذلك بينكما ! ... أين سجايرك ؟

كان بورفير بيتروفيتش في ثيابه المنزلية : معطف منزلي ، قميص نظيف جداً ، وحذاء خفيف مثني الكعب ؛ وكان في الخامسة والثلاثين من عمره بقامـــة فوق الوسط ممتلىء الجسد منتفخ الكرش قليلاً حليق الشارب قصير السالفين ، قصير الشعر ، ذي رأس كبير مستدير ينتهي بنتوء غريب عند القفا ، منتفخ الوجـــه مدوره ، أفطس الأنف قليلاً ، اصفر اللون كالمرضى ممتلئاً حيوية ودعابة ، تقرأ على قسماته سلامة النفس لولا عينيه السماويتين اللون « كالماء الصافي » المغطاتين

بأهداب تكاد أن تكون بيضاء ، والابنة كانتا تطوفان باستمرار وكأنه يشير بهما اشارات معينة الى شخص ما . كانت نظرة عينيه تتناقض مع مجموع شخصيته التي كانت تختزن لوناً من الانوثة تقريباً فكانت تلك النظرة تعطيه مظهراً جدياً رزيناً غير ذلك الذي يصافح العين للوهلة الاولى .

ولما علم بأن الزائر يود انهاء قضيته معه رجاه بالحاح أن يجلس على الأريكة وجلس هو على الجانب الآخر منها مبدياً اهتماماً زائداً ومنتظراً أن يبدأ الضيف بعرض موضوع القضية . ولعل مثل هذا الاهتمام البالغ من قبل شخص مجهول يبدو مربكاً وفي غير موضعه خصوصاً إذا كان مايود المرء عرضه تافهاً لايستحق مثل هذا الاهتمام . غير أن راسكولنيكوف راح يضع كلمات موجزة ومسبوكة يوضح قضيته بدقة وجلاء أدخلا على نفسه السرور واستطاع خلالها أن يمعن النظر في بورفير . وكان بورفير بيتروفيتش بدوره لايرفع بصره عن محدثه بينما كان رازوميخين جالساً قبالتها أمام المائدة الصغيرة « اياها » يتابع بصبر نافذ وانفعال موضوع القضية فكانت أبصاره تنتقل على التناوب من وجه هذا إلى وجه ذاك وبالعكس بشكل يتمدى الحد الطبيعي. حتى أن راسكولنيكوف لم يتمالك نفسه أن قال في سره : « سخيف ! » .

قال بورفير مجيباً بلهجة ممهدة :

— ينبغي أن تتقدم بافادتك إلى الشرطة . ستقول أنك بعد أن علمت بكذا وكذا وأقصد جريمة القتل ، فانك ترغب بدورك باعلام قاضي التحقيق المواجه بهذه القضية بأن الأشياء كذا وكذا تخصك وأنك تود استعادتها . أو...

فعاد راسكولنيكوف يقول وهو يحاول جاهداً أن يبدو بمظهر شديد الخجل:

— الواقع أنني في هذه اللحظة لست غنياً وحتى هذه الأشياء التافهة فانني لن أستطيع ... أقصد ... أريد في الوقت الحاضر أن أثبت بأن هـذه تخصني

لكنني عندما سأحصل على مال ...

فأجابه بورفير بيتروفيتش مبدياً برودا إزاء التصريح المتعلق بالناحية المادية :

— لا بأس . ثم إنك تستطيع — إذا كنت تريد أن تكتب إلي مباشرة بهذا المعنى : بعد أن علمت بكذا وكذا وباعتبار أن الأشياء كذا وكذا تخصني فأرجو..

سأل راسكولنيكوف بلهجة متهافتة مظهراً بذلك عنايته المجددة بالناحية المالية :

— هل يمكن كتابة هذا الطلب على ورق عادي ؟

— آه ... على أي ورقة تريد !

ونظر بورفير بيتروفيتش اليه نظرة فيها سخرية واضحة وطرف بعينه كما لو كان يشير بذلك إلى أن يفهم القصد المستتر ! ولعل راسكولنيكوف أخطأ في التصور لأن تلك الحركة كانت سريعة كالبرق .. كان على استعداد ليقسم بأن بورفير غمز له بعينه لسبب يعلمه الشيطان ! كان في الأمر شيء ! فغمغم يخاطب نفسه : « أنه يعرف ! » ومرت هذه الفكرة في خاطره بسرعة الصاعقة! فأردف بشيء من الارتباك :

— أعذرني إذا أزعجتك بحماقات كهذه . إن هذه الأشياء تساوي خمسة روبلات في مجموعها لكنها غالية على نفسي بسبب الذكرى التي تحملها وإنني أعترف بأنني روعت عندما علمت ...

فقال رازوميخين بلهجة لا تدع مجالاً للشك في براءة نيته :

- هه !... انك من أجل هذا إذن أبديت تلك الدهشة لما تحدث اليك زوسيموف البارحة وهو يثرثر بأن بورفير يستجوب أصحاب الأشياء المرهونة !

كانت الملاحظة شديدة الوقع على راسكولنيكوف فنظر إلى رازوميخين نظرة تشتعل بالغضب لكنه تمالك أعصابه على الفور فقال مجيباً وقد سيطر على غضبه ببراعة :

ياعزيزي أعتقد أنك تسخر مني . إنني أعترف باهتمامي الزائد بهذه الأشياء التي تبدو لعينيك « قذارات » لكن لامحل في هذا لاعتبـاري أنانياً مهووســاً بالأشياء التافهة لأن هذه الأشياء لاتبدو أبداً في نظري « قذارات » . لقـد قلت منذ لحظة أن تلك الساعة الفضية التي لاتساوي أكثر من فلسين كانت الأثر الوحيد الذي بقي لي من أبي . إسخر مني كما تشاء ...

ثم خاطب بورفير معقباً :

– خصوصاً وأن أمي قدوصلت وأنها إذا علمت ـ وعادهنا يخاطب رازوميخين يحاول أن يظهر صوته مضطرباً ـ نعم إذا علمت بان تلك الساعة قد فقدت فانهـا ستنهار إلى أقصى درجات اليأس وأقسم لك ! هكذا النساء !

فقال رازوميخين بحرارة :

– لكن الأمر ليس كما تقول ! لقد ترجمت فكرتي ترجمة سيئة ... لقـد أردت أن أقول العكس تماماً .

وكان راسكولنيكوف يخاطب نفسه مغمغماً بقلق : « هـل بدوت طبيعياً ؟ هل كان ذلك موفقاً ؟ ألم أبالغ ؟ لماذا قلت « هكذا النساء ! »

سأله بورفير لسبب من الأسباب :

– وهكذا إذن فقد وصلت أمك !

– نعم !

– ومتى كان ذلك ؟

– البارحة مساء !

صمت بورفير وبدا كأنه يرتب أمراً ثم أضاف بلهجة هادئة باردة :

– إن أشياءك لايمكن أن تضيع بأي حال . أضف إلى ذلك أنني كنت أنتظرك منذ طويل .

ومد يده بمنفضة السجاير إلى رازوميخين الذي كان يلقي بزماد سيجارته على السجادة دون إشفاق ! وبدا كأنه لم يتلفظ بشيء مهم بينما شعر راسكولنيكوف بانتفاضة ... غير أن بورفير لم يبد عليه ان ينظر اليه بسبب انشغاله بسيجارة رازوميخين !

هتف رازوميخين :

— ماذا ؟ كنت تنتظره ؟ انك اذن كنت تعرف بأن له أشياء « هناك » .

وفجأة التفت بورفير بيتروفيش الى راسكولنيكوف وقال .

— ان اشياءك كلها : الساعة والخاتم ، وجدت « عندها » ملفوفة في الورقة وكان اسمك مكتوباً بوضوح عليها بالقلم وكذلك التاريخ الذي اودعت فيه تلك الاشياء لديها !

فتضاحك راسكولنيكوف بغباوة وقال وهو يجهد ان ينظر بثبات في عينيه :

— كيف تسنى لك ان تكون مدققاً بهذا القدر ؟

لكن لم يتمالك ان اردف معقباً :

— انني اذ ابدي مثل هذه الملاحظة فذلك لأنني ولا شك كنت واحداً بين عدد كبير من الراهنين مما يجعل تذكرهم جميعاً على شيء من الصعوبة واری انك على العكس تتذكرهم جميعاً في دقة متناهية و ... و ...

وناجى نفسه بقوله : « حيوان ! رعديد ! لم أضفت هذا ! » .

أجاب بورفير بشيء من السخرية :

— ذلك لأن كل الراهنين قد اصبحوا الآن معروفين من قبلي حتى انك الوحيد الذي لم تتقدم بعد بطلب استرداد .

— لم أكن متمالكاً صحتي تماماً !

— نعم ، لقد سمعتهم يقولون ذلك . بل وقد سمعت انك تعرضت لبعض

المضايقـات وانك تبدو الآن أيضاً شاحباً .

فقاطعه راسكولنيكوف بخشونة وغضب :

ــ أنا لست شاحباً أبداً على العكس إنني على خير ما يرام ...

كان يعصف بين جنبيه غضب عنيف لم يكن يستطيع له ضبطـــاً وكبتاً . وكان يفكر في سره : « ان هذا الغضب سوف يجعلني ابتلع الطعم ! لكن ماذا بين أيديهم حتى يعذبوني على هذا النحو ؟ »

وعاد رازوميخين يقول :

ــ است تماماً على خير ما يرام . انها طريقة للكلام فحسب . لقـد كان حتى أمس غائباً عن وعيه تقريباً . هل تصدق يا بورفير إنه كان أمس لا يكاد يستطيع الوقوف على قـــدميه فلم نكد ندير له ظهورنا ـ زوسيموف وأنا ـ حتى ارتدى ملابسه وتسلل دون ضجة ولا صخب ومضى تائهاً لست أدري إلى أين حتى منتصف الليل وهذا ـ وأكرر القول ـ في كامل الهذيان ! فهل تستطيع أن تتصور مثل هذا الأمر ؟ انه أمر يثير الفضول !

فقال بورفير وهو يهز رأسه بحركة نسوية :

ــ باه ! هل يكون قد عمل ذلك أثناء « الهذيان الكامل » !

فقال راسكو لنيكوف وهو فريسة لغضب متزايد :

ــ إن هذا فظيع ... لا تصدق كلة مما يقول ! ثم انك لا تصدق شيئاً .

لكن بورفير لم يبد عليه أن أصغي الى تلك التكلمات الغريبة .

وعاد رازوميخين يقول بحماس فجائي :

ــ كيف اذن استطعت الخروج لو لم تكن تهذي ؟ لم خرجت ؟ وماذا كانت غايتك ؟ ولم خرجت متسللاً ؟ هيا ... هل تزعم انـــك كنت حينئذ في كامل قواك ؟ انني أستطيع الآن أن أحدثك بصراحة بعد أن زال كل خطر !

خاطب راسكولنيكوف بورفير وقد ارتسمت على فمه ابتسامة هازئة فيها تحد وقح :

— لقد قتلني من الضجر البارحة ولقد فررت لافتش عن مسكن آخر استأجره كي لا يستطيع اكتشاف مكاني ولقد أخذت كل ما معي من نقود . ولقد رآها السيد زاميوتوف ! هيا ... يا سيد زاميوتوف هل كنت متمالكاً قواي البارحة أم انني كنت أهذي ؟ ان لك الآن الكلمة الفصل في هذا الموضوع .

كان يود من صميم قلبه لو فتك في تلك اللحظة بزاميوتوف لأن نظرته وسكوته كان يسببان له ازعاجاً كبيراً .

فاجاب زاميوتوف مصرحاً بجفاء :

— رأيي انك كنت تتكلم باسلوب رصين بل وفي منتهى الحذق مع ذلك فقد كنت سريع الغضب مفرطاً فيه !

ورد بورفير بيتروفيتش بلهجة من يفحم خصمه بالرأي فقال :

— لقد أبلغني اليوم بيكوديم فوميتش أنه صادفك البارحة في ساعة متأخرة جداً في مسكن موظف دهسته الجياد !

فهتف رازوميخين :

— حتى ولو لم تكن الا قضية هذا الموظف لكانت كافية ! هيا ... ألم تتصرف كالمجانين في مسكن ذلك الموظف ؟ لقد أعطيت آخر ما معك الى أرملته لتقوم بدفع نفقات المأتم . فلو كنت تريد مساعدتها بتعقل لأمكنك مثلاً اعطاؤها خمسة عشر أو عشرين روبلاً على الأكثر ولكنت احتفظت بثلاثة لنفسك لكنك قذفت بكل روبلاتك الخمسة والعشرين !

ـــ لعلني عثرت على كنز ما إذ ما يدريك إنني استسلمت لمثل هذا السخاء لهذا السبب ! خذ مثلاً . إن السيد زاميوتوف لا يجهل إنني عثرت على كنز !

ثم خاطب بورفير بيتروفيتش بشفتين مرتعدتين قائلاً :

ــ أرجو أن تعذرنا لأننا ضيعنا من وقتك لصف ساعة ونحن نحدثك باشياء على هذا القدر من التفاهة . اننا نزعجك أليس كذلك ؟

ــ عفواً أرجوك . بل العكس ! ليتك تعلم مبلغ ما تستأثره من اهتمامي ! إنه لمتع أن يرقبك المرء وأن يسمعك تتحدث وأعترف بأنني سررت جداً لأنك قررت آخر الامر أن تتقدم بطلب استرداد !

قال رازوميخين :

ــ لكنك تستطيع على الاقل أن تقدم لنا الشاي ! إن حلقي جاف !

ــ فكرة رائعة ! ولسوف نشرب الشاي كذلك. لكن ألا تتناول شيئاً آخر قبل الشاي ؟

ــ هيا اذهب ! ..

وخرج بورفير بيتروفيتش ليأمر باعداد الشاي بينما كانت الافكار تتزاحم في رأس راسكولنيكوف وتصطخب ! لقد كان في حالة هياج وانفعال هائلين ! كان يخاطب نفسه قائلا : « الأدهى في الموضوع إنهم لا يحاولون التستر أو الخداع ولا يرتبكون مطلقاً ! كيف يتحدث عني الى نيكوديم فوميتش وهو لا يعرفني ! أرى انهم لا يحاولون التستر على إنهم ماضون على أثري كالكلاب ! إنهم يقذفون في وجهي بما في رؤوسهم بصراحة !.. لكن ماذا دهاكم ؟ امضوا بصراحة مباشرة بدلاً من اللعب معي لعبة القط والفأر ! إنها قلة أدب يا بورفير بيتروفيتش ولعلني أستطيع كذلك أن لا أسمح لك بها !.لسوف أنهض وأصفعك بالحقيقة كلها وألقيها في « بوزك » وسترى كم احتقرك ! ثم تمالك بمجهود واسترسل : « ولكن ماذا

يكون لو انها كانت محض تصورات من قبلي ؟ ثم مجرد سراب ! ماذا يحدث لو إنني كنت مخدوعاً من الاول حتى الآخر وإنني أنفعل لافتقـاري الى التجربة وحاجتي الى أمكانية الاضطلاع بهذا الدور الكريـه ؟ لعله قال كل ذلك دون سوء نية ! إن كل مواضعيهم ليس فيها شيء غير عادي ! لكن لا شك إن هناك شيئاً وراء كل هذا ! نعم لا شك . نعم ! لمَ قال مثلاً بكل بساطة « عندهـا » . لماذا أضاف زاميوتوف قائلاً إنني كنت أتحدث « بدقة » ؟ ثم لمـا يحدثني بتلك اللهجة ؟ نعم ... إنها اللهجـة ! إن رازوميخين كان حاضراً معي فلمَ إذن لا يشك في شيء ؟ إنه لا يشك في شيء ذلك الأخرق !.. آه ... هـا هي ذي الحمى من جديد ... هل غمز لي بورفير بعينه منذ لحظات أم لا ؟ لقد كان ذلك ولا شك فظيعاً ... لمَ يغمز لي بعينه ؟ هل يريدون ارهـاق أعصابي والدفـع بي الى آخر درجات الاحتمال ؟ إما أن يكون وهمـاً وإما أن يكونوا عارفين كل شيء ! حتى زاميوتوف نفسه يبدو مهيناً في تصرفه ! لكن هل هو مهين حقـاً ؟ لعله أمضى الليل مفكراً ... كنت أعرف أنه سيفكر ! إنه هنـا كما ولو كان في منزله ! مع ذلك فهذه هي المرة الأولى يتقابلان فيها ! إن بورفير لا يعتبره كزائر إنه يـدير له ظهره وهو جالس . إنهما متفقان ! لقد اتفقا على « موضوعي » ! لا شـك إنهما كانا يتحدثان عني عنـد ما وصلت . لكن هل يعرفان إنني ذهبت الى ذلك المسكن مؤخراً ؟ آه ... سوف أعرف ذلك بسرعـة . عند ما قلت إنني فررت لأفتش عن مسكن جديد لم يعر هذه الجملة التفـاتا ... نعم ، لقـد تصرفت ببراعة إذ حشرت قضية المسكن الجديد لأن ذلك قـد يفيدني في المستقبل .. ! في حـالة هذيان ... فكر قليلاً هاهاها ! إنه لا يجهل شيئاً مما وقع أمسية البارحة ثم يجهل وصول أمي ! آه تلـك الساحرة ! لقد كتبت التـاريخ بالقلم ! إنك تكذب ! لن استسلم لأن هذه ليست بعد أدلة ... إنها سراب ، أهذا ما تسمونه « الوقائع »

والادلة ؟ إن زيارة المسكن نفسها ليست دليلا إنهـا تفسر بالهذيان ، انني اعرف ماذا يجب أن أقول لهم ... لكن هل يعرفون بما تم في ذلك المسكن ؟ لن أذهب قبل أن أتأكد من الأمر ، لكن لمَ جئت ؟ حسناً ... ها إنني على وشك الاسترسال في الغضب ، إن ذلك وحده يشكل دليلاً . بوه، كم أنا سريع الغضب، لكن لعل ذلك أفضل... سابق في دوري كالمريض !.. اسوف يرهقني.. ليجعلني أفقد السيطرة على أعصابي ... لم جئت ؟ »

مرت كل هذه الافكار في رأسه بسرعة البرق الخاطف... وفي تلك اللحظة عاد بورفير بيتروفيتش بادي الانشراح وقال مخاطباً رازوميخين ببشاشة :

ـ يا عزيزي ... لقد كان رأسي ... بعـــد حفلتك أمس ، ولا زلت حتى الآن مبلبلاً .

ـ طبعاً لأن الأمر كان يستحق الاهتمام . ولقد تركتكم مساء أمس في أدق المواقف، من منكم انتصرا خيراً ؟

ـ شخصي الضعيف بالطبع . لقد ركبوا جميعهم أراءهم السخيفـة وراحوا يركضون بها مسرعين .

فقال رازوميخين موجهاً حديثه الى راسكولنيكوف :

ـ تصور يا روديا انهم بدأوا النقاش حول هذه النقطة : « هل ثمة هنـاك جرائم أم لا . » لقد كانت فظيعة جداً تلك السخافات التي صدرت عنهم في ذلك النقاش .

فقال راسكولنيكوف بصوت حالم :

ـ انها مع ذلك مسألة اجتماعية من أكثر المسائل شيوعاً .

فاعترض بورفير قائلا :

ـ إن المسألة لم تكن محدودة على هذه الصورة .

فابدى رازوميخين موافقته وقد استسلم للتحمس على عادته وقال :

ـ لم تكن تماماً كما قلت ، صحيح ، انتبه يا روديا ... اسمع واعطني رأيك انني ألح على سماع رأيك ، وقد كنت أغلي في جلدي البارحة بانتظار حضورك ، وقد أخطرتهم بانك ستحضر ، إن وجهة نظرهم معروفة وهي :الجريمةهي استنكار ضد التنظيم الاجتماعي السيء . هذا فقط ولا عذر آخر يقبلونه .

فصاح بورفير بيتروفيتش :

ـ لقد كذبت !

وكان بادي التيقظ لا ينبي يضحك وهو يرقب رازوميخين الامر الذي زاد في اثارة هذا الاخير .

فقاطعه رازوميخين وهو يتقد كشعلة نار :

ـ أي عذر آخر غير مقبول ! ... انا لا اكذب ! لسوف أضع أمام عينك كل كتبهم انهم لا يعترفون الا على ان كل شيء يصدر عن « الوجـــود الفاسد الوسط » ولا شيء غير هذا ... تلك هي جملتهم المفضلة ومن ذلك يستنتجون أنه إذا عمد الى اعادة المجتمع فان الجرائم ستختفي ! خطوة واحـــدة فقط . . . لأنه ليس ينبغي عندئذ ما يحتج الانسان عليه ولسوف يجد الجميع انفسهم عادلين بمثل لمح البصر ! اما الطبيعة فليس لها حساب ! ان الطبيعة نفسها قد القي بها الى الباب ! لأنهم لا يتقبلونها ! انهم لا يعتقدون ان هذه الاشياء مردها الى الانسانية التي تتطور حسب الامتداد التاريخي « بشكل عنيف حي » بحيث سيمكنها اخيراً من تشكيل مجتمع خاضع للقـانون مجتمع طبيعي ! بل انهم يؤمنون بالعكس ... يؤمنون بلون أو نظام اجتماعي ينبعث من دماغ رياضي . يستطيع بلهجة واحـدة ان ينظم الجنس البشري كله وان يجعله عادلاً وغير قابل للخطأ وانه أفضل من أي نظرية لتطور حيوي وأفضل من كل النظريات التاريخية والحية . ومن أجل

هذا تراهم بغريزتهم يكرهون التاريخ لأنه : « ليس فيه الا تشويهات وحماقات » على حد قولهم ! ولهذا السبب أيضاً يكرهون أعظم الكراهية التطور « الحيوي» للحياة : غذاء الروح « الحية » ! ان الروح الحية لها متطلباتهـا ، ان الروح الحية لاتخضع بشكل آلي ، ان الروح الحية متشكلة بطبعها ، ان الروح الحية مبدعـــة فاذا ماتت فانه لايمكن ان نصنع واحدة من المطاط « كاتشوك » وهي بالطبع لن تكون حية لتكون وديعة تخدم ولا تتمرد ! كل هـــذا لكي نصل الى حيث قادونا لنؤمن بعدد من القرميد مقسم الى ممـــاشي وغرف يطلقون عليها اسم « الفالانستري (١) » ان هذا المأوى جاهزة عندهم ولم يبق الا الطبيعة التي لاتتفق واياه . فهي تريد الحياة : انها لم تنته بعد من سنة التطور الحيوي وترى انه لم يحسن الوقت بعد لتدفن ! ان من المستحيل ان يقوم المرء . بقفزة فوق الطبيعة مستعيناً بالمنطق فقط ، ان المنطق يكشف عن ثلاث نقاط بينما هناك الملايين ! فلنحذف اذن تلك الملايين من النقاط لنقصر على مسألة الرفاه وحدها ... انها اسهل الطرق لحل المعضلة ! انه امر عظيم . الوضوح حتى ليغري المرء بالاستسلام اليه !: لن تكون هناك حاجة الى التفكير ، طبعاً ان الأمر الرئيسي هو انه لم تعد هناك حاجة الى التفكير ! كل اسرار الطبيعة يمكن ان تحصر وتحشر في ورقتين مطبوعتين !

فقال بورفير ضاحكاً :

— هاها ! ... هاهو ذا قد انحل عقاله ! بالانفجار !اقبضوا على ذراعه ! .. تصور ياراسكولنيكوف انه كان على هذه الحال أمس وكان هـذا الانفجار يقع في غرفة وحيدة تدوي فيها خمسة او ستة اصوات معاً والا وهيء انه كان قبل ذلك قد اغرقنا في الشراب فتصور الموقف الآن ! كلا ياصديقي ... انك على خطأ .

---

(١) مسكن الوحدة الاشتراكية !

ان « الوسط » على جانب عظيم في الجرائم : انني أؤكد لك ذلك !

— وانا أعرف أيضاً أنه ذو تأثير كبير لكن قل لي بربك : ذلك الرجل الذي في الأربعين من عمره والذي ينتهك عرض فتاة في العاشرة من عمرها . هل هو الوسط الذي جعله يميل الى ذلك ؟

فأجاب بورفير بلهجة جدية مدهشة :

— بالمعنى الصحيح للكلمة ، يجوز أن نقول أنه الوسط . ان انتهاك عرض فتاة يمكن ان يفسر بوضوح تحت تأثير « الوسط » .

كاد رازوميخين ان يثور من الغضب فقال مزمجراً :

— حسناً ... اذا شئت « سأثبت » لك فوراً أنه اذا كانت اهدابك بيضاء فان ذلك سببه ان برج جرس « سان جان كليماك » يرتفع الى علو مائتين وثلاثين قدماً . ولسوف اثبت لك ذلك بوضوح ودقة والتدريج بل وبشكل متحرر من المذاهب الدينية . لسوف استطيع فهل تقبل الرهان ؟

— اقبل . انني في شوق الى معرفة الوسيلة التي ستستخدمها لتصل الى ذلك الاستنتاج .

فصرخ رازوميخين :

— هيا ... انك لاتحسن الا التلاعب بالالفاظ يا للشيطان ! ثم قفز من مكانه وقام بحركة فيها معنى التحدي وقال :

— هل يستأهل التحدث معك كل هذا العناء ؟ انه يلجأ الى هـذا بناء على خطة مرسومة ! انك لاتعرفه بعد يارروديا . لقد كان البارحة يؤيدهم لا لشيء الا ليزيد في هياجهم وجنونهم . والله يعلم ما هي النقاط التي استخلصها البارحة . أما هم فقد كانوا يهتزون طرباً لسماعه ... إنه قادر على السخرية خمسة عشر يوماً متتالية ! لقد اوهمنا في العام الماضي بأن في نيته ـ لسبب ما ـ ان يدخل في سلك

الكهنوت ولقد استمر شهرين يسخر منا على هذا الشكل . وحديثاً خطر بباله أن يوهمنا بأنه سيتزوج وإن كل شيء قد اعد للحفلة . حتى أنه أوصى على ثوب جـــديد . ولقد رحنا نهنئه ولم يكن ينقصه الا . . . الزوجة الموعودة. كان كل شيء سرابا .

ـــ ان هذا غير صحيح ! لقد أوصيت على الثوب أولاً . ولقد خطر لي أن أسخر منكم قليلاً عندئذ والفكرة نبتت في رأسي من الثوت الجديد .

فسأل راسكولنيكوف باهمال :

ـــ هل حقيقة انك محب للسخرية الى هذا الحد ؟

ـــ هل كنت تعتقد أنني لم أكن ساخراً ... حسناً انتظر لسوف اصطادك أنت الآخر . ها ها ها ...! كلا ... لسوف اقول لك الحقيقة وعلى فكره كل هذه المسائل : الجريمة والوسط والفتيات الصغيرات ، لقد تذكرت في هـذه اللحظة مقالاً كتبته أنت بعنوان « جريمة » أو أي عنوان آخر ممـاثل ، لااذكره ! ان هذا المقال اثار اهتمامي ولقد كنت مجـــدوداً اذ قرأته منذ شهرين في جريدة « البارول بيريوديك » (الكلمة الدورية) .

ـ مقالي ؟ في هـذه الجريدة ؟ آه صحيح لقد كتبت مقالاً منذ ستة أشهر عندما خرجت من الجـــامعة لكنني ارسلته الى « البارول هيبدومادير » . . . (الكلمة الاسبوعية) .

ـ حسناً ولكنه آل الى جريدة (الكلمة الدورية) :

ـ لكنهم لم ينشروها في ذلك الحين لأن تلك الجريدة قد توقفت عن الصدور ...

ـ صحيح لقد توقفت عن الصدور ولكنها انضمت الى الجريدة الاخرى ولهذا السبب ظهر مقالك منذ شهرين في الجريدة الاخيرة . ألم تكن تدري بذلك ؟

كان راسكولنيكوف يجهل هذا التفصيل فاسترسل بورفيربيتروفيتش :

ـ انك تستطيع استغلال مقالك مادياً ... يالعقلية الغريبة التي عندك ! أنك تعيش في وحدة عجيبة حتى انك لاتلاحظ الاشياء التي تهمك أهمية وثيقة ... ان هذه ملاحظة دقيقة !

فهتف رازوميخين :

ـ مرحى ياروديا ، وأنا أيضاً كنت أجهله ... لسوف أهرع اليوم بالذات الى مكتب القراءة لأطلب هذا المقال ! لقد مضى على ظهوره شهران ؟ أي تاريخ على على الضبط ؟ حسناً هـــذا لا يهم لسوف أبحث . . . تلك هي نكتة طيبة ! ولا يعترف بهـا !

ـ ولكن كيف استطعت ان تعرف بان المقال لي وانا لم أوقع علية الا بالاحرف الأولى ؟

ـ مجرد الصدفة ! كان ذلك منذ أيام وقد عرفته بواسطة المدير الذي لي به بعض الصلة . لقد اجتذب مقالك كل اهتمامي .

ـ اذكر انني كنت أحلل فيه الحالة النفسية لقاتل خلال كل مراحل جريمته .

ـ وكيف ! لقد كنت تبرهن على أن ارتكاب الجريمة ترافقه دائماً حالة مرضية ! إنها وجهة نظر مبتكرة ، جديدة تماماً ! لكن ليست هـذه الناحية من المقال هي التي استلفتت انتباهي ... هنالك فكرة ما أوردتها في نهاية المقال ولسوء الحظ إنك لم تعن بايضاحها عناية جيدة بل اقتصرت على التلميح اليها تلميحـــاً غامضاً . والخلاصة ـ اذا كنت تذكر ـ فانه بحسب فكرتك تلك فانه سيكون هناك بعض الأشخاص الذين يستطيعون أعني لا يستطيعون فحسب بل إن لهم كل الحق في أن يرتكبوا أي لون من الاعمال المخلة ومن الجرائم وأن القانون بالنسبة اليهم لا وجود له !

ابتسم راسكولنيكوف لذلك التفسير الاختياري الغادر لفكرته بينما هتف رازوميخين بشيء من الخوف :

ـ كيف ؟ ماذا ؟ الحق في ارتكاب الجريمة ؟ لعلك تقول أن ذلك أيضاً نتيجة « لتأثير الوسط » ؟

فقال بورفير بيتروفيتش :

ـ كلا كلا ... إنه ليس هذا تماماً . المسألة هي أنه في مقاله قسم الناس الى نوعين : مخلوق « عادي » ومخلوق « غير عادي » وفرض على « أولئك » أن يعيشوا مطيعين دون أن يعطيهم الحق في تجاوز القانون وخرقه لأنهم كما ترى مخلوقات عاديون أما الآخرون فان لهم الحق في ارتكاب كل الجرائم وخرق كل قانون لمجرد كونهم مخلوقات غير عاديين ! أليست هذه فكرتك أم تراني مخطئاً ؟

فغمغم رازوميخين :

ـ كيف ذلك ؟ لا يعقل أن تكون كذلك !

بينما عاد راسكولنيكوف من جديد الى ضحكته الساخرة . فهم للوهلة الاولى الهدف الذي يقصده بورفير وعرف ما يريد أن ينتزع منه ! كان يذكر مقاله لذلك فقد قبل التحدي . فشرع يقول ببساطة واعتدال :

ـ ليس الامر كذلك تماماً . غير انني أعترف على كل حال بانك فسرت فكرتي « بامانة » تقريباً بل لنقل إنك فسرتها بأمانة تامة ! (لقد كان يسره الاعتراف بان تلك الفكرة قد فسرت بأمانة) . إنما الفرق كل الفرق هو في أنني لا ألح أبداً على أن يكون الاشخاص غير العاديين مدعوين الى ارتكاب كل الاعمال المخلة وفي كل مناسبة كما فسرت الامر . لو كان ذلك صحيحاً لحذفت المراقبة المقال ولمنعته ! لقد برهنت أو أبرزت ببساطة أن الرجل غير العادي ولنقل المتفوق له الحق ـ ولا أقصد الحق الرسمي ـ بل أنه له الحق شخصياً أن يسمح لوجدانه

بتخطي ... بعض العقبات وبصورة خاصة في الحالات التي يقتضيها تنفيذ فكرته التي يتوقف عليها انقاذ الجنس البشري كله .

إنك تزعم ان مقالي كان ينقصه الوضوح وأنا على استعداد لتفسيره لك في حدود الممكن ! إنني لا أخطئ إذا افترضت ان تلك هي رغبتك كما يبدو ! حسناً ... انني رهن أوامرك :

« إنني أرى ان اكتشافات كيبلر(١) ونيوتن مثلاً إذا قدر لها لسبب من الاسباب أن لا تتم إلا بتضحية حياة رجل أو عشرة رجال أو أكثر من المائة رجل الذين أرادوا مثلاً أن يحولوا دون ظهورها أو أن يعترضوا سبيلها ، فان لنيوتن عندئذ الحق بل ان من واجبه أن « يزيح » هؤلاء العشرة أو المائة من الرجال لينهي اكتشافاته الى البشرية ! غير أن ذلك لا يعني بالمقابل ان لنيوتن - بموجب هذا - الحق في أن يفتك بكل من يريد أو أن يسرق كل يوم في الاسواق !

ثم انني أذكر انني شرحت هذه الفكرة في مقالي بما يلي :

ان كل - ولنسمهم - المنشئين ، البناة ، المشرعين لخير الانسانية ، ابتداءً من أقدم القدماء منهم من : ليكرك (٢) Lycurgue

---

(١) فلكي الماني ولد عام ١٥٧١ وتوفي عام ١٦٣٠ ، اخرج عدة مؤلفات هامة أهمها « قوانين كيبلر » التي استطاع نيوتن بفضلها استنباط نظرية الجاذبية . - المترجم - .

(٢) ليكرك : شخص اعتبر مشرع سبارتا ، طاف في بلاد كثيرة وعاد بتجاربه وملاحظاته فوضع قوانين وطنه . عاش - بحسب الاسطورة - في القرن التاسع قبل الميلاد . - المترجم -

وسولون(١) Solon ونابوليون الخ ... كلهم كانوا قتــلة رغم أنهم بدون ذلك ما كانوا ليستطيعوا ابداع قانون جديد . فقد عمدوا جميعهم الى فسخ القوانين القديمة التي كانت مقـدسة من قبل المجتمع وموروثـة عن الاقدمين . واضطروا لبلوغ غاياتهم أن يهدروا الدم فلم يتراجعوا عند ما أصبح ذلك الدم — رغم انـه كان دم بريء أحياناً يسفح فداءً للعقيدة السابقة — يسهل مهمتهم . وينبغي كذلك أن نلاحظ أن معظم هؤلاء المحسنين وبنـــات الانسانية كانوا وحوشاً دمويين بصورة خاصة . ومن هنا نستنتج إنهم جميعاً ـ ولا أقول الكبار منهم ـ كانوا مستعدين بطبيعتهم لأن يكونوا قتلة على شكل ما لمجرد انهم كانوا أعلى من الوسط أي لمجرد أن أتوا بشيء جديد ! كان عسيراً عليهم أن يرتفعوا عن الوسط بغير هذا الاسلوب ولم يكونوا ليرتضوا البقاء فيه وذلك نظراً لاستعـدادهم الطبيعي . واني أرى انه كان من واجبهم أن لا يبقوا في الوسط . والخلاصة انك ترى أنـه لا يوجد شيء جديد جداً حتى الآن في كل هذا !

أما فيما يتعلق بتقسيمهم الى اشخاص عاديين وغير عاديين فانني أوافقـك على انها فكرة غير مدروسة تماماً لكنني لم اذكر ارقامـاً دقيقة . وأنا لا أؤمن إلا بوجهة نظري الرئيسية . وهي تقوم على اساس ان المخلوقات بحسب قوانين الطبيعة ينقسمون « بصورة عامة » الى قسمين : القسم الاول وهم المرؤوسون ، اولئـك الذين لا يصلحون الا ليكونوا « مادة » تصلح فقط للتزاوج واكثار النسل ، أما القسم الثـــاني ، فهم الموهوبون الذين أعطوا ميزة النطق في وسطهم « بكلمة

---

(٣) مشرع أثينا وواحد من حكماء اليونان السبع ٦٤٠ ـ ٥٥٨ قبل الميلاد كان ذو فضل عميم على مواطنيه من الناحية التحريرية . ـ المترجم ـ

من جريدة » . هناك ولا شك تقسيمات ثانوية عـــديدة جداً ولكن الخطوط الايضاحية لهذين القسمين حاسمة تماماً . القسم الاول أي قسم « المادة » تضم في عدادها أولئك المحافظين بالفطرة ، المطيعين الخاضعين الذين يسرهم ان يحيوا في الطاعة ، فهم ـ على ما أرى ـ مدعوون الى الطاعـــة لان ذلك هو مصيرهم الذي لايجدون اية غضاضة فيه . أما القسم الثاني ، المنشئون ، فانهم جميعاً يخرقون القانون ، كلهم مدمرون أو أن لديهم استعداداً ليكونوا كذلك ، بحسب ميزاتهم واستعداداتهم . فجرائم هؤلاء الرجال هي ولا شك تابعة لارائهم واهـــدافهم ومتعددة الاشكال ، غير أن معظمهم يتطلبون بواسطة وسائل متفرقـة متعددة ، تهديم الحاضر باسم شيء افضل . فاذا اقتضى الأمر واحداً منهم ان يمر فوق جثة أو نهر من الدماء فانه ـ بحسب وجهة نظري ـ ان يقرر بكل راحة ضمير المرور فوق ذلك النهر من الدماء في سبيل فكرته وبموجبها فقط ـ ولاحظ هذا الشرط ـ

لقد قلت في أن مقالى ان الرجال لهم الحق في يقتلوا على هذا الاساس وفي هذا الاتجاه . انك تذكر باننا بدأنا بحثنا من نقطة قضائية (شرعية) . ثم انـه ليس هناك من الاسباب ما يدعو الى كثير من الاستفسار ! لأن سواد الشعب ـ غالباً ـ لا يعترف لهؤلاء بهذا الحق بل انه يعذبهم ويقتلهم ـ على شكل من الاشكال ـ وهو في هذا يعمل استناداً الى حقه لأن السواد الأعظم من الشعب ولنقل « المجموعة » تنجز بهذا العمل مهمتها كمجموعة محافظة رغم ان تلك المجموعة بالذات ترفع عادة في الاجيال المقبلة التماثيل لأولئك الذين عـذبتهم وقتلتهم ، وتحرق البخور أمام تماثيلهم باكية (على شكل من الاشكال أيضاً) . رغم هـذا كله فان القسم الأول هو القسم السيد ، سيد الحاضر دائمـــاً ، وأما القسم الثاني فانه سيد المستقبل ! فاولئك يحافظون على زيادة الكمية العددية في العالم وهؤلاء يحركون العالم ويوجهونه نحو الهدف . ولهؤلاء كل الحق في الحياة . وبكلمة موجزة فان لـكل

في نظرياتي حقا متساوياً وستبقى الحرب سجالاً ابداً ، حتى ايجاد أورشليم جديدة!
فهل تجد كلامي واضحاً ؟

ـــ هكذا اذن تؤمن باورشليم جديدة !

فاجاب راسكو لنيكوف بصوت حازم :

ـــ انني اؤمن ...

كان راسكولنيكوف خـــلال الوقت الذي استغرقه شرح نظريته مطرقاً بعينيه الى الارض شاخصاً ببصره الى نقطة ما على السجادة .

ـــ و ... هل تؤمن بالله ؟ اعذرني اذا سألتك هذا السؤال المتطفل ...

فكرر راسكولنيكوف قوله وهو يرفع عينيه الى بورفير :

ـــ اؤمن !

ـــ وهل تؤمن بقيام اليعازار ؟

ـــ انا ... انني اؤمن ! لمَ تطرح علي هذه الأسئلة !

ـــ هل تؤمن بذلك حرفياً ؟

ـــ حرفياً ...

ـــ اسمح لي ان أعود اذن مجدداً الى ما كنت تقوله ... انه لمجرد الفضول .
ألا تجـــد أن هناك بعضاً من السادة لايرسلون دائمـاً الى الموت والعذاب بل على العكس ....

ـــ تقصد انهم يشهدون نتيجة اعمالهم في حياتهم ؟ آه نعم ! ان بعضهم يبلغ هذا الظفر في حياته ! لكن في هذه الحالة ...

ـــ انهم هم أنفسهم الذين يرسلون الآخرين الى الموت ؟

ـ عندما يقتضي الأمر ذلك فان غالبيتهم تنهج على هذا الشكل . ان ملاحظتك لاتخلو من الدقة !

ـأشكرك . لكن قل لي كيف يمكن التمييز بين الرجل العادي والرجل غير العادي ؟ هل يبدون وفي أجسادهم علامات مميزه ؟ اريد أن اقول انه ينبغي هنا بعض التحديد أو على الآقل علامات خارجية مميزة ! ارجو ان تعذر هذا الاهتمام الطبيعي في الموضوع لدى رجل عملي حسن القصد . لكن أردت أن أقول : هل ينبغي هنا أن يُلبس مثلاً لون خاص من الثياب أو أن يُحمل طابع خاص مميز ؟ لأنه ـ واعتقد انك توافقني ـ اذا بقي الأمر مختلطاً فان أي رجل عادي من هذه الفصيلة سوف يعتقد انه يمت الى الفصيلة المفضلة وعندئذ لسوف يعمل « حذفاً » و « ازاحة » في العوائق كما شرحت بجلاء وصفاء منذ قليل . وعندئذ ...

ـ صحيح ! ان هذا يحدث غالباً ! ان هذه الملاحظة اكثر دقةمن الاولى.

ـ اشكرك .

ـ العفو ! لكن أرجو أن تلاحظ بأن الخطأ لا يمكن وقوعه في هذه الحالة الا من فصيلة الرجال العاديين كما أسميتهم اذ أنهم على الرغم من انحرافهم النظري نحو الطاعة فان عدداً منهم ـ بفعل ميل طبيعي لاتخلو منه حتى البقرة ـ قد يميل الى اعتبار نفسه من الرجال المتقدمين « الهدامين » ويستمرون في البحث عن « الكلمة الجديدة » الأمر الذي يؤدونه باخلاص عميق وإنه ليحدث بينهم غالباً أن لا يلاحظوا أولئك الذين يمكن تسميتهم « بالمبدعين » فيحتقرونهم وكأنهم أشخاص متأخرون ذو تفكير منحط . لكنني أرى أنه لن يكون في ذلك خطر شديد فلا تبتئس لأنهم غالباً لا يقطعون شوطاً بعيداً ! صحيح أنه يجوز في بعض الحالات أن يتعرضوا للجلد بسبب اندفاعهم ليعادوا الى أمكنتهم ، ولكن ليس اكثر من هذا خصوصاً وإنهم ليسو في حاجة إلى من يتكفل بجلدهم . فهم على استعداد لاعطاء أنفسهم السوط لأنهم اشخاص شديدوالتمسك بالاخلاق والمثل حتى أن بعضهم يؤدي تلك « الخدمة » الى البعض الآخر هذا إذا لم يقم بها بنفسه . ثم

إنهم يحتملون عدا عن هذا عقوبات علنية عديدة تجعلهم متحفظين حذرين والخلاصة لا أجد سبباً لقلقك ... ذلك هو القانون .

ـ حسناً . لقد طمأنتني من هذه الناحية على الاقل ولكن هناك بلاء آخر قل لي أرجوك . أهم عديدون أولئك الذين يحق لهم ذبح الآخرين أقصد أولئك «غير العاديين » ؟ إنني بالطبع على استعداد للانحناء أمامهم لكنك لاتستطيع إلا أن توافقني بأن كثرتهم تحدث رعباً في النفس وبرودة في الظهر .

فأجاب راسكولنيكوف بلهجة مماثلة :

ـ لاتكتئب من أجل هذا أيضاً إذ أنه على العموم لاتوجد كثرة من الرجال الذين لديهم « فكرة جديدة » أو الذين يستطيعون النطق بشيء « جديد » إنهم قلة بشكل غريب . إنما هناك شيء واحد واضح ذلك هو أن نظام ولادة الأشخاص في كل هذه الفصائل والاقسام ينبغي أن يكون موضحاً بشكل دقيق لايقبل الخطأ بواسطة قانون طبيعي وهـذا القانون ـ كما لاشك يعتقد ـ هو في الوقت الحاضر مجهول . لكنني أؤمن بوجوده وبأنه سيصبح معروفاً في المستقبل ! إن على هذه الارض كتلة هائلة من الناس لم تخلق إلا لتنجب للعالم رجلاً واحـــداً يملك شيئاً قليلا من الاستقلال . وهي ـ هذه الكتله ـ تجهد نفسهـا في سبيل ذلك بحسب نظام تطوري غامض حتى الآن وبواسطة اشتباك معين في الأصول والانواع . أما أولئك الرجال الذين هم على درجة عالية من الاستقـلال فانهم لا يخلقون إلا بمعدل واحد إلى عشرة آلاف والنسبة هنا فرضية ، أما الأرفع مكانة من هؤلاء فواحد إلى مائة ألف . والعباقرة موزعون بين ملايين من الرجال العـاديين أمـا أولئك العبـاقرة العظام الذين هم تاج الجنس الانساني فانهم واحـــد الى ألف مليون بل ولعل العالم ينتهي قبل أن يولد واحد من هـذا النوع . والخلاصة إنني لم أنظر في تلك البوتقة التي يصنع فيها كل هؤلاء . لكن هنـاك ولا شك

من هم على هذا القرار . وينبغي أن يكون هناك قانون محدود وعندئـذ لن يكون للصدفة وجود .

هتف رازوميخين :

ــ رباه ! لا شك أنكما تمزحان ! هل أنتما في سبيل الهزء على بعضكما ؟ هل تتحدث جدياً يا روديا ؟ . .

ران السكوت ورفع راسكو لنيكوف الى صديقه وجهاً شاحباً حزيناً ولم يجب والى جانب ذلك الوجه الهادىء المتألم بدا لرازوميخين أن لهجة بورفير كانت تحمل تحدياً صريحاً واستثارة غريبة و « قلة أدب » .

وعاد رازوميخين يقول :

ــ حسناً ياعزيزي . إذا كان كل هذا جدياً فانك على حق ولا شك إذ تقول أن ليس في هذا شيء جديد وإنه يشبه ما قرأناه وسمعناه ألف مرة بيد أن الجديد كل الجدة في هذا الموضوع والذي لا يمكن أن يكون لسواك والذي أنظر اليـــه برهبة هو تقريرك بأنه من الحق إهراق الدم بكل « راحة ضمير » . الأمر الذي تقرره ــ واسمح لي أن أقول ــ بكل تعصب إن في ذلك على ما أعتقـــد الفكرة الرئيسية لمقالك : ذلك السماح بسفك الدم « بكل راحة ضمير » ... يبدو لي أكثر فظاعة مما لو كان سماحاً رسمياً قانونياً .

فاجاب بورفير :

ــ صحيح تماماً . إنه أشد فظاعة .

وصرخ رازوميخين منفعلاً هائجاً :

ــ كلا لقد شططت كثيراً سوف أقرأ ... لقد شططت كثيراً لا يمكنك أن تفكر في هذا ... اسوف أقرأ المقال ..!

فاجاب راسكولنيكوف مهدئاً صديقه :

— لا يوجد شيء في المقال من هذا كله . إن ما فيه ليس إلا مجرد تورية .

فقال بورفير على الفور :

— نعم نعم . أستطيع الآن تقريباً . أن أرى بوضوح الطريقة التي تتصور بها جريمة ... أرجو أن تعذر إلحاحي فانني أرهقك كثيراً وإنني لجد آسف ... لكن أرى أنك منذ قليل طمأنتني كثيراً فيما يتعلق بالاختلاط الذي يمكن أن يقع بين الفئتين لكن هناك مع ذلك بعض الحـــالات التي تقلقني خشية أن تخرج هي الأخرى الى الخير العملي . لنفرض مثلاً أن رجلاً أو شاباً تصور أنـه ليكرك - مستقبلاً بالطبع - وأنـــه راح فوراً يزيل العقبـــات التي تعترض سبيل القيام بمهمته فيحدث نفسه بقوله : « يجب علي أن أنجز مهمة شاقة طويلة وعليه يجب أن تزود هذه المهمة بالمال » وعندئذ يأخذ في تدارك ذلك المـال وأنت ولا شك تتصور الآن بأي شكل . فاذا تقول في ذلك ؟

لم يكد بورفير يبلغ هذه النقطه من حديثه حتى صدرت عن زاميوتوف وهو في زاويته حركة تلفت النظر غير أن راسكولنيكوف لم يُمنّ حتى بالالتفات اليه بل أجاب بلهجة هادئة :

— ينبغي أن أعترف بأن حالات كهذه قابلةالوقوع . إن السخفاءوالمغرورين هم غالباً الذين يبتلعون هدا الطعم وبصورة خاصة الفتيان الشباب .

— أرى أنك قد فهمت الأمر . وعندئذ ؟

فتضاحك راسكو لنيكوف وقال :

— وعندئذ ؟ إنها ليست خطيئتي . إن ذلك واقع وسيقع دائماً .

ثم أشار الى رازوميخين وقال :

— انظر الى هذا لقد قال لي منذ قليل بانني سمحت باراقة الدم ولكن هل

المجتمع غير محمي بالنفي والسجون و « اللمانات » وقضاة التحقيق حماية كافية ؟ لمَ الاكتئاب إذاً ؟ « سيروا في أثر السارق » ...

— وإذا قبضنا عليه ؟

— يكون قد استحقها عندئذ .

— إنك منطقي على الأقل . ولكن ماذا بصدد وجدانه ؟

— وماذا يهمك من هذا ؟

— إنه سؤال أملاه شعور إنساني .

— على ذلك الذي يمتلك وجداناً أن يتعذب إذا كان يعترف بخطئه . إنه عقاب إضافة إلى عقاب الأشغال الشاقة .

فسأل رازوميخين وهو يقطب حاجبيه :

— لكن ... الرجال العباقرة . أولئك الذين أعطي لهم حق القتل لا ينبغي لهم أن يتألموا مطلقاً حتى ولو أراقوا الدم . أليس كذلك ؟

— لمَ هذه الكلمة « لا ينبغي لهم » ؟ ليس هناك سماح ولا منع . ليتألم ذلك الذي يشفق على ضحيته ! إن الألم إجباري بالنسبة لضمير كبير وقلب عميق . إن على الرجال العظام — على ما يبدو — أن يتألموا على الأرض ألماً شديداً .

نطق راسكولنيكوف بهذه العبارات الاخيرة وهو ساهم وبلهجة فريدة لم تصدر منه منذ بدء الحديث . ورفع عينيه ونظر إلى محدثيه وعلى وجهه مسحة من الاستغراق ثم أخذ قبعته في يده . كان هادئاً جداً بالنسبة للطريقة التي دخل بها أول مرة منذ قليل وكان يشعر بذلك شخصياً فنهض الحاضرون جميعاً وقال بورفير بيتروفيتش بلهجة من يختتم حديثاً :

— سواء شتمتني أم لم تشتمني وسواء غضبت أو لم تغضب فان ذلك كان

أقوى من أن أستطيع كبته . وإنني — إذا سمحت — لازلت أحتفظ بسؤال صغير رغم أنني أضايقك : أحب أن أعرض فكرة صغيرة خشية أن أنساها .

فاجاب راسكو لنيكوف بلهجة خطيرة وهو شاحب الوجه :

— حسناً ، قل فكرتك الصغيرة ... ووقف أمام قاضي التحقيق وقفـــة المنتظر .

— حسناً ... الحقيقة أنني لست أدري كيف أعـبر عن رأيي بالشـكل الأفضل ... إنها فكرة قريبة من المجون ... فكرة « بسيكولوجيـة » ... أردت أن أقول : عند ما كنت تدبج مقالك ، ألم يحدث مثلاً أن اعتبرت نفسك رجلا غير طبيعي تحمل « كلـــة جديدة » في المعنى الذي تفهمه ؟ ألم يحـدث ذلك ولو لفترة وجيزة ؟

فاجاب راسكولنيكوف باحتقار :

— محتمل جداً .

ولم يتمالك رازوميخين نفسه آنئذ من إظهـــار انفعاله بالحركة بينما أضاف بورفير بيتروفيتش :

— لئن كان كذلك . ألا يمكن أن تكون - بسبب إصلاح بعض العـثرات الشخصية أو التخلص من الارتباك أو مثلاً لزيادة سرعة سير الانسانية إلى الامام - أردت أن أقول ألم يحدث لك لهذه الاسباب أن تكون قد قررت تخطي العقبة ؟ مثلا القتل والسرقة ؟

وفجأة غمز بعينه اليسرى وضحك ضحكة مكتومة كما وقع منه منذ قليل تماماً. فاجاب راسكولنيكوف بلهجة احتقار متعالية وبتحد :

— لو أنني اجتزت العائق لما كنت أحدثك عن اجتيازي له بالطبع .

ـ طبعاً كلا ! إن شيئاً واحداً يثير اهتمامي في كل هذا وهو طريقـة تفسير مقالك من وجهة نظر أوربية بحته .

راح راسكو لنيكوف يخاطب نفسه بقوله : « بوه ! إن الغاية واضحة تماماً» ثم أجاب بصوت مرتفع قائلا :

ـ اسمـح لي أن ألفت نظرك إلى أنـني لا أعتقـــد في نفسي انـني نابليون حتى ولا أي شخص من هذا الطراز وعلى ذلك وبما أنني لست واحداً منهم فانني لا أستطيع إعطاءك جواباً مقنعاً عن الطريقة التي أسلكها .

فاجابه بورفير بلهجة أليفة جداً :

ـ هيا واسمح لي ! مَن منا في روسيا الان لا يعتقد نفسه نابليوناً ؟

كان في تلك الجملة شيء خاص واضح يمكن إدراكه من اللهجةالتي قيلت بها خصوصاً حينما قال زاميوتوف دون أن يبارح زاويته :

ـ أوليس نابليوناً « مستقبلاً » ذلك الذي ذبـح في الاسبوع الماضي آليونا إيفانوفنا ؟

صمت راسكولنيكوف وحدق في وجه زاميوتوف بنظره حازمـة ثابتة بينما اشتد انفعال رازوميخين ... لقـــد بدأ هذا يلاحظ منـذ لحظة قصيرة أن في الجو شيئاً لذلك فقد أخذ يجيل فيمن حوله نظرة غاضبة وقـد خامره الشك فيما ينتوون ومضت دقيقة من سكون مخيف استـدار راسكو لنيكوف بعدهـا يحاول الخروج .

هتف بورفير بوداعة وهو يمد يده بتودد عظيم :

ـ أتذهب إذن ! لقد كنت سعيداً جداً جداً بالتعرف إليك . أما فيما يتعلق بطلب الاسترداد فلا تشكن في أنه لن يكون ذا نتيجة مرضية . فقط اكتب في المبني الذي بينه لك أو من الافضل أن تأتي لزيارتي بنفسك يوماً ما ولنقل غـداً

مثلا وسأكون هنا في الساعة الحادية عشرة ولا شك أننا سنرتب كل هـــذا وستتحدث ... وباعتبارك واحداً من الذين كانوا آخر من ذهبوا الى « هناك » فعلك إذاً تستطيع أن تحدثنا بشيء ...

كان بورفير يتحدث ببراءة الطفل . لكن الغاية لم تفت على راسكولنيكوف فقال بجفاء :

ـ إنك تريد استجوابي رسمياً متخذاً كل الاجراءات المرعية ؟

ـ لمَ بالله ؟ أنا لا أرى داعياً لذلك في الوقت الحاضر . إنك لم تحسن فهمي ألا فاعلم انني لا أترك فرصة تسنح لي تفلت مني . وإني تحدثت حتى الآن مع جميع الذين أودعوا أشياء قيد الرهن ولقد استطعت اقتطاف بعض الدلالات من أقوال بعضهم وعلى ذلك فانك الاخير . وعلى فكرة لقد تذكرت . يا للرأس التي أحملها !

وانفجر ضاحكاً بسرور عميق واستدار نحو رازوميخين وأضاف :

ـ إنك تذكر ذلك الـ « نيكولاشكا » الذي صدعت أذني بشأنه . حسناً إنني أعرف شخصياً بل إنني متأكد (وهنا استدار الى راسكولنيكوف) أن هذا الفتى بريء لكن ما العمل ؟ لقد اضطررنا إلى ازعاج ميتكا أيضاً والآن هذا ما كنت أود أن أقوله : « عند ما صعدت السلم آنذاك ... اسمح لي ... ألم يكن ذلك حوالي الساعة الثامنة ؟

ـ حوالي الساعة الثامنة !..

لكن راسكولنيكوف شعر فجأة باستياء من نفسه لأنه كان يستطيع أن لا يجيب بتلك الاجابة .

ـ إذاً عند ما كنت تصعد السلم حوالي الساعة الثامنة ، ألم تر في الطبقة الثانية وفي مسكن مفتوح الباب ، أتذكر ؟ ألم تر عاملين أو على الاقل واحداً

منها ؟ لقد كانا في ذلك الحين يطليان الجدار ، فهل لاحظتها ؟ إن هـــذا عظيم الأهمية بالنسبة اليها !

فاجاب راسكولنيكوف بلهجة من يبحث في ذاكرته :

ــ عمال دهان ؟

كان يستجمع كل وجوده ويتألم عظيم الألم وهو يحـاول أن يكتشف مكان الفخ المنصوب في هذا السؤال . وفجأة افتضح الشرك فعرفه واسترسل يجيب :

ــ كلا ! إنني لم أر أحـداً كما إنني لم ألاحظ وجود مسكن مفتوح البـاب لكنني شاهدت في الطبقة الرابعة موظفاً يخلي مسكنـه . وكان مسكنه قبـالة مسكن آليونا إيفانوفنا . نعم إنني أذكر ذلك بشكل واضح جـداً . لأن بعض الجنود كانوا ينقلون الاثاث واضطروني الى الالتصاق بالجدار كي يتاح لهم المرور . أما العمال الذين تتحدث عنهم فانني لا أذكر وجودهم وأعتقد أنه لم يكن هنـاك مسكن مفتوح أبداً ، كلا ! لم يكن ...

وهتف رازوميخين كما لو أنه فهم الأمر فجأة :

ــ لكن ماذا دهاك ؟ إن العمال كانوا يدهنون في يوم الجريمة بالذات . أمـا هو فقد كان هناك قبل ذلك ! فما هو السؤال الذي تسأله ؟

هتف بورفير وهو يضرب جبهته بيده :

ــ هيه ! لقد اختلط علي الأمر ... ليحملني الشيطان ... إن هـذه القضية تفقدني العقل .

ثم استدار نحو راسكولنيكوف وقال وكأنه يعتذر :

ــ إننا نهتم جداً بمعرفة ما إذا كان أحد قد شاهد ذينك العـاملين حوالي الساعة الثامنة في ذلك المسكن . ولقد أجهدت نفسي في محادثتنا هذه حتى اختلط علي الأمر ولعلك تدرك ذلك .

فاجابه رازوميخين بلهجة ناقمة :

ـ كان ينبغي أن تكون أكثر انتباهاً .

نطق رازوميخين بهذه الكلمات بينما كان رصديقه وراء باب المسكن الخارجي ورافقهما بورفير بيتروفيتش اليه ببشاة فائقة غير أنهما كانا عابسين منفعلين حتى استمرا يمشيان في الشارع بضع خطوات قبل أن ينبث أحدهما بكلمة وبعدئذ فقد تنفس راسكولنيكوف الصعداء ...

الفَصْلُ السَّادِسُ

كان رازوميخين قلقاً مشتت الفكر يحاول بكل قواه أن ينقض استنتاجات راسكولنيكوف فكان يقول ويقرر : « لا أظن ذلك ، لا أظن ذلك » وكانا في تلك الأثناء قد بلغا منزل باكاليف المؤثث حيث كانت بولشيري الكسندروفنا تنتظرهما منذ زمن طويل . وكان رازوميخين يتوقف في حمى النقاش بين لحظة وأخرى وهو فريسة اضطراب وانفعال كبيرين سببها ذلك الحديث الصريح الذي سمعه منذ لحظات والذي لا يخلو من شك قريب من الاتهام. وكان راسكولنيكوف يجيبه بضحكة باردة حائرة :

ــ حسناً ! لا تصدق ! إنك حسب عادتك لا تلاحظ شيئاً أما أنا فانني كنت أزن كل كلمة .

ــ ذلك لأنك كثير الشك ولهذا السبب كنت تزن الكلمات . هم ! في الحقيقة ــ وأعترف لك ــ إن لهجــــة بورفير كانت غريبة وعلى الأخص ذلك الصعلوك «زاميوتوف» إنك على حق أما ما هو السبب فذلك ما لا أعلمه لكن لم ؟ لمَ ؟

ــ لعله غير رأيه أثناء الليل .

ــ لكن على العكس ، على العكس ، .. إذ لو أن هــذه العرجاء كانت تحوم في رؤوسهم لكانوا عملوا ما في وسعهم لاخفائها بكل الوسائل ... كانوا أخفوا لعبتهم بانتظار الوقوع على آثار أخرى ولكنهم الآن يمضون في طريقهم بصفاقة ودون أية حيطة !

ـــ لو كانت لديهم وقائع ، أقصد وقائع حقيقية أو على الأقل شكوك ترتكز على شيء من الصحة لعملوا ما في وسعهم على إخفاء لعبتهم مؤملين الاستزادة من الأدلة بل لعمدوا منذ أمد طويل الى اجراء تفتيش . لكن ليس لديهم دليل واحد إن كل هذا خيالي بحت لا رأس له ولا ذنب ولا يستند على شيء ولذلك فانهم يجهدون أنفسهم بالنيل مني بالصفاقة . ولعله هو نفسه ساخط لعدم وجود الأدلة لذلك لم يستطع كبت التحدي فأعلنه . ويجوز أيضاً أن تكون لديه بعض النوايا الخفية فهو رجل زكي كما يبدو واعله كذلك أراد أن يخيفني بتصنع المعرفة ... ان ذلك عنده مسألة نفسانية يا عزيزي . وإنني لأجد أن التماس التفاسير أمر مناف لذلك فلندع الأمر حيث هو ...

ـــ ولكن ذلك مهين ، مهين ، إنني أفهمك ... لكني سأعترف لك بوضوح طالما أننا نتحدث بصراحة ـ وإنني لسعيد إذ بلغنا هذه المرحلة ـ أعترف لك بانني منذ زمن طويل لاحظت هذه الفكرة عندهم ولكنها كانت بالطبع لا تقوم على أية قائمة . لقد كانت في دور التلميح . أما وإنها قد رسخت في فكرهم ـ حتى ولو كانت على تلك الصورة البدائية ـ فان ذلك أكثر مما يطاق ! كيف يجرؤون على السماح لأنفسهم بالأخذ بمثل هذه الفكرة ؟ وفي أي ركن مظلم كانت مختفية ؟ ليتك تعلم درجة الغضب التي بلغتها بسبب ذلك !... هوذا طالب فقير يثقله العوز والهوس على وشك الانهيار تحت وطأة مرض مؤلم بلغ حد الهذيان، أو لعله كان تحت وطأة المرض فعلاً ـ لاحظ هذا ـ وهو مع ذلك نفور من الناس مملوء بالكرامة ذو وجدان من هذا المستوى ، عاش خلال ستة أشهر منعزلاً في حجر لا يرى أحداً ، يتقدم هذا الطالب إلى دائرة البوليس ـ بناء على دعوة ـ مرتدياً أسماله وفي قدمية حذاء سقط نعله وهناك يعرض لاهانات أمام أولئك الرجال القذرين ويحشر تحت أنفه بغاة طلب استعادة مبلغ من المال عليه أن يدفعه الى المحامي

القضائي تشيباروف . وتكون رائحة الدهان الخانقة متصاعدة في الغرفة التي تبلغ حرارتها ثلاثين درجة بميزان ريئيمور والهواء خانق بسبب احتشاد الجمع المزدحم هناك ، فيسمعهم يتحدثون عن مصرع شخص كان البارحة عنده أضف الى ذلك الجوع الذي كان ينهش أحشاءه فكيف لا يغمى عليه بعد ذلك ؟ مع ذلك تراهم يبنون نظريتهم على أساس ذلك الاغماء . ألا ليحملهم الشيطان . إنني أعرف أن هذا مزعج مثير لكنني لو كنت في مكانك يا روديا لا نفجرت ضاحكاً رغم أنوفهم جميعاً بل ولعلمت خيراً من ذلك : كنت بصقت في أفواههم واستهزأت بهم لأنه يجب معاملتهم على هذا الشكل وبذلك أنتهي منهم ، لنبصق عليهم ولنتشجع ! إنه لخجل .

غمغم راسكولنيكوف يناجي نفسه قائلا : « إنه يحسن عرض القضية » . ثم قال بصوت مرتفع تشوبه المرارة :

— البصاق عليهم ؟ لكنني سوف أعرض غداً للاستجواب ! فهل يجب أن أصل لدرجة تقديم تفاسير اليهم ؟ إنني ناقم على نفسي لأنني أسففت البارحة إذ تحدثت الى زاميوتوف في ذلك المشرب .

— ليحملهم الشيطان . سأذهب بنفسي الى بورفير وثق أنني سأعامله تماماً كما أعامل قريباً . لسوف أجعله يفرغ ما في جعبته . أما زاميوتوف ...

قال راسكولنيكوف يخاطب نفسه حينما بلغ صديقه هذه المرحلة : « وأخيراً فهم ! » بينما استمر هذا مسترسلاً بانفعال وقد قبض على كتف راسكولنيكوف بيده :

— انتظر ، انتظر . لقد نطقت بحماقة منذ قليل . نعم لقد فكرت . إنك نطقت بحماقة ! أين تجد تلك الخطة الغادرة ؟ لقد قلت أن السؤال المختص

بالعاملين كان خطة غادرة ففكر قليلا وقل لنفسك أنك لو كنت ارتكبت « هذا » بالفعل فهل كان يعقل أن تسمح لنفسك بالاسترسال لدرجة الاعتراف بمشاهدة أولئك الذين كانوا يشتغلون في المسكن ويدهنونه ؟ على العكس . كنت لا تعترف برؤية شيء حتى ولو كنت قد رأيت إذ من الذي يشهد ضد نفسه ؟

فقال راسكولنيكوف الذي كان يتابع تلك الحادثة باشمئزاز واضح :

ـــ لو أنني قد عملت « هذا » لكنت قلت حتماً بانني شاهدت العمال والمسكن .

ـــ ولكن لمَ التحدث عن أشياء تعتبر ضد المتحدث ؟

ـــ ذلك لأن أبناء الشعب وحدهم أو على الاصح المبتدئين تماماً المحرومين من كل تجربة هم أولاء الذين ينكرون دراكاً عندما يُسألون. أما الرجل الذكي المتدبر فانه لا يتأخر عن الاعتراف ـ ضمن حدود الممكن ـ بكل الوقائع المادية التي لا يمكن إزاحتها غير أنه يفسر تلك الوقائع بشكل ما ويرتبها حسب هواه ثم يعطيها معنى غير منتظر ويقدمها تحت ضوء جديد . وقد كان بورفير ينتظر تماماً أن أسقط في الشرك وأن أجيب بأنني شاهدت العاملين بقصد إعطاء أقوالي لوناً من الحقيقة وأن أرضي عن نفسي بالتفسير الذي أكون قد أعطيته .

ـــ لكنه كان سيجيبك فوراً بان العاملين لم يكونا موجودين في اليوم الاسبق وإنك على هذا الاساس قد ذهبت الى هناك في يوم الجريمة تماماً ولكان سيوقفك فوراً .

ـــ إنه كان يعتمد على أنني لن أجد فسحة من الوقت للتفكير وإذاً على أن

أتهافت على إعطاء جواب يبدو قريباً الى الحقيقة . كذلك كان ينتظر أن أكون قد نسيت بأن العمال ما كانوا هناك في اليوم الاسبق .

ــ لكن كيف يمكن على النسيان ؟

ــ على أسهل وجه .. في الواقع إن الاشخاص الاذكياء يسقطون رغم ذكائهم بسبب تفاصيل تافهة كهذه إذ أن المرء كلما ازداد مكراً زاد اعتقاده بأنه لا يمكن لسؤال تافه بسيط أن يسبب سقوطه . إن بورفير ليس غبياً كما تظن .

ــ لعمري ! إذا كان قد تعمد ذلك فانه يكون خبيثاً .

لم يتمالك راسكولنيكوف نفسه من الابتسام ، وبدا سروره من تقديم ذلك التفسير واقباله عليه غريبين في تلك اللحظة وهو الذي كان منذ قليل يشعر باشمئزاز شديد من تلك المحادثة فعزا ذلك الشعور الى الغاية التي كان يهدف اليها في تلك اللحظة . وراح يسائل نفسه : « هل تذوقت فعلاً بعضاً من هذه الاسئلة؟» ولم يلبث أن شعر فجأة بقلق وكأن فكرة غير منتظرة . فكرة مقلقة بدأت تراوده فراح قلقه يتزايد .

كان في تلك اللحظة قد بلغ منزل باكلييف فقال فجأة لصديقه :

ــ أدخل أنت وسأعود أنا بعد قليل .

ــ إلى أين تمضي ؟ ها قد وصلنا !

ــ لدي ما أعمله وإنه لواجب . واسوف أعود في غضون نصف ساعة . أخبرهم بذلك .

ــ افعل ما تشاء ! لكنني سأصحبك .

فهتف راسكو لنيكوف بصوت منفعل مفعم بالمرارة :

ــ ماذا ؟ أتريد أنت أيضاً أن تعذبني ؟

وأشفع قوله هذا بنظرة يائسة جمت ذراعي رازوميخين الذين كان قد رفعها للامساك به يسقطان الى جانبه ولبث لحظات واقفاً أمام مدخل الباب ينظر الى راسكولنيكوف الذي كان يمشي بخطى حثيثة باتجاه الشارع الذي يقطن فيه .

راح رازوميخين يصرف على أسنانه ويقبض يديه بعنف وقوة ويقسم فيسره ليعتصرن بورفير كما يعصر الليمون ثم صعد الى حيث بولشيري الكسندروفنا ـ التي كانت قد بدأت تقلق لغيابها ـ ليطمئنها .

بلغ راسكو لنيكوف منزله وقد غمر العرق صدغيه وهو يتنفس بصعوبة فصعد السلم مسرعاً ودخل غرفته ثم أغلق بابها من الداخل بالمزلاج . وهرع بحركات مروعة الى الزاوية التي كانت سجادة الجدار تخفي الثغرة الكامنة وراءها والتي كان أودع فيها « الاشياء » من قبل فدفع يده فيها وراح خلال عدة دقائق يبحث فيها بعناية فائقة وينظر بين الشقوق وخلال كل الثنيات . فلما لم يجد شيئاً ، نهض مطمئناً . تصور منذ حين حينما بلغ منزل باكالييف ، أن أي شيء كقطعة سلسلة أو زر أو الورقة التي كانت تلك الاشياء ملفوفة فيها والتي كانت تحمل تأشيرات مكتوبة بخط يد العجوز ، أي شيء من هذا القبيل يمكن أن يكون قد سقط منه أو تخلف في الثغرة كان يشكل ـ اذا وجد خلال التفتيش المرتقب ـ دليلا جرمياً يدينه بما لا سبيل الى التملص منه ، فلما اطمأن الى خلو المكان منها ، استغرق في لون من الشرود وارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة مذعورة وغير ارادية ... وأخيراً حمل قبعته وغادر الغرفة .

كانت الافكار تتزاحم في رأسه وتصطخب وهكذا راح يهبط السلم ساهما حتى بلغ الباب العمومي . فسمع صوتاً خشناً يقول :

ـ خذ ! هاهو ذا !

فرفع رأسه مستطلعاً : كان البواب واقفاً أمام كوخه يشير الى رجل قصير القامة يبدو عليه أنه صانع متواضع . كان يلبس ثوبــاً يشبه « الرودنكوت » وصدارة فيخيل للناظر اليه عن بعد أنه قروي . وكان يضع على رأسه قبعة قذرة ويمشي محني الظهر قليلا حتى لـكأنه كان أحدبــاً . ومن النظر الى وجهـه المجعد النحيل ، يبدو أنه قد تجاوز الخمسين . كانت عيناه غائرتين في محجريها فيها شيء من القسوة والشراسة والاستياء .

اقترب راسكولنيكوف من البواب وسأل :

ــ ماذا هناك ؟

فألقى عليه الرجل القصير نظرة من الاسفل وراح يتــأمله بعنــاية وتمهل ثم أدار له ظهره ببطء وابتعد دون أن ينطق بحرف واحد وبلغ الشارع .

هتف راسكوانيكوف :

ــ ماهذا ؟ ماذا هناك ؟

فاجاب الحارس :

ــ هذا شخص جاء يسألني عما اذا كان طالب ما يقطن في هذا البناء . ولقد نطق باسمك وسأل عن اسم صاحبةمسكنك وعندئذ هبطتأنت، فذهب هو،وأنت ترى كيف كان ذهابه !

دهش البواب قليلاً لتصرف الرجل ولبث برهة يفكر ثماستدار هو الآخر ودخل كوخه . أما راسكولنيكوف فقد انــدفع في أثر الرجل فاذا به يمشي في الجانب الآخر من الشارع بخطى متزنة بطيئة بادي التفكير وقد تعلقت نظراتــه بالارض . فتبعه وراح خلال بعض الوقت يتأثر خطــاه وأخــيراً حاذاه ونظر الى وجهه نظرة جانبية ولحظه الآخر فوراً فألقى عليه نظرة سريعة ثم عادإلىإطراقه.

مشيا هكذا جنباً الى جنب طيلة دقيقة كاملة دون أن ينطقا بكلمة واحدة وأخيرا غمغم راسكولنيكوف بصوت مكتوم :

— لقد سألت عني لدى البواب .

فلم يجب الرجل حتى ولم ينظر اليه وعاد الصمت من جديد فاختنق صوت راسكولنيكوف ووجد صعوبة في إخراج الكلمات وهو يقول :

— غريب ! لقد جئت تسأل عني ثم اذا بك تصمت فما معنى هذا ؟

رفع الرجل رأسه هذه المرة وحدج راسكولنيكوف بنظرة عدائية متوحشة وتمتم بصوت منخفض واضح بيّن المخارج :

— قاتل !...

كان راسكولنيكوف يمشي الى جانب الرجل القصير فشعر فجأة بساقيه تتخاذلان تخاذلاً مريعاً وأحس ببرودة تسري في ظهره وقد توقف قلبه عن الخفقان لحظة وكأنه انتزع دفعة واحدة . غير أنه استمر في سيره جنباً الى جنب مع ذلك الرجل يخيم عليهما الصمت . قطعا كذلك حوالي مائة خطوة لم ينظر الرجل خلالها اليه وأخيراً غمغم راسكولنيكوف بصوت لا يكاد يسمع :

— لكن ! ماذا تقول ؟ ماذا ؟ من هو القاتل ؟

فاجاب الآخر بصوت واضح وبلهجة أعنف من الاولى :

— أنت القاتل !

وومضت على وجهه ابتسامة تفيض بحقد منتصر ثم نظر الى وجهه الشاحب وعينيه المتبلورتين نظرة ثابتة . كانا قد بلغا ملتقى طرق فسار الرجل في واحد منها دون أن ينظر حوله بينما لبث راسكولنيكوف مسمراً في مكانه يتابعه بعينيه فترة طويلة . فرآه يلتفت وراءه بعد قطعه خمسين خطوة لينظر اليه بينما ظل هو في مكانه جامداً لا يتحرك .

لم يكن راسكولنيكوف في وضع يسمح له بتمييز الأشياء بوضوح لكنه خيل اليه للمرة الثانية أن ذلك الغريب قد التفت من جديد ونظر اليه وابتسم ابتسامته الباردة الحاقدة المنتصرة .

عاد راسكولنيكوف أدراجه بخطى بطيئة متعثرة متخاذل الساقين مرتعداً من الرعب ولما بلغ مسكنه ألقى بقبعته على المائدة ولبث واقفاً بجانبها زهاء عشر دقائق وأخيراً مضى إلى السرير خائر القوى واستلقى عليه وهو يرسل زمجرة أليمة فأغمض عينيه ولبث مستغرقاً في خواطره نصف ساعة كاملة .

لم يكن يفكر في شي باستثناء بعض الخواطر أو على الأصح نتف الخواطر التي كانت تعرض له دون ترتيب ولا تسلسل . وجوه أشخاص كان قد رآهم في طفولته أو لقيهم في مكان ما مرة واحدة فلم تعد تخطر له بعدها على بال ، قبة جرس كنيسة « ب » ... منضدة « بليار » في مشرب وبالقرب منها ضابط ما... رائحة سيكار في دكان تبغ في قبو ... سلم حانة ، سلم مظلم جداً تجري المياه الآسنة عليه وقد انتثرت في أرجائه قشور البيض بينما ارتفع من هناك قرع أجراس ربانية ...

كانت هذه الأشياء تتعاقب في مخيلته كالاعصار العنيف فكان بعضها محبباً إلى نفسه يتمسك به لكنه كان سرعان مايتبخر وعلى العموم كان في دخيلته شيء يثقل عليه ثقلاً غير شديد وكان يحس أحياناً بشيء من الراحة ولم تكن القشعريرة التي اكتسحت جسمه قد غادرته بعد . لكنها لم تعد بالنسبة اليه شيئاً مزعجاً .

سمع خطوات رازوميخين المتلاحقة فأغمض عينيه وتصنع الاغفاء وفتح رازوميخين الباب وظل واقفاً لحظة على العتبة ثم دخل بهدوء إلى الغرفة واقترب بحذر من « الديوان » وتناهى إلى سمعه همس ناستاسيا وهي تقول :

ــ لاتزعجه . دعه ينم ملء عينيه ولسوف يأكل فيما بعد .

وصوت رازوميخين يجيب :

صحيح !

ثم خرجا بهدوء وأغلقا الباب ومرت على ذلك لنصف ساعة أخرى فتح راسكولنيكوف عينيه بعدها وعاد يستلقي على ظهره من جديد عاقداً يديه تحت رأسه :

« من يكون ؟ من هو ذلك الرجل الذي انبعث من تحت الارض ؟ أين كان وماذا رأى ؟ لقد رأى كل شيء مافي ذلك شك! أين كان إذاً آنئذ ومن أين كان يراقب ؟ لمَ لم يظهر على مسرح الحوادث إلا الآن ؟ همْ ! وتلك الحلية التي وجدها « نيكولاي » وراء الباب ! هل كان ذلك ممكناً أيضاً ؟ أدلة جرمية ؟ إن نقطة تدرس بعناية يمكن أن تتحول إلى دليل يبلغ في حجمه مبلغ أهرامات مصر. هل يعقل أن تكون ذبابة كانت طائرة هناك فرأت كل شيء ؟ »

كان راسكولنيكوف يفكر في كل هذا والرعشة الباردة المتجمدة كامنة في جسمه وفجأة أحس بالاشمئزاز العميق من الضعف الجسدي البالغ الذي كان عليه . وتابع تفكيره بابتسامة ويأس مريرين :

« كان ينبغي أن أفكر في ذلك ! ثم كيف جرؤت - أنا الذي كنت أشعر شعوراً مسبقاً بما سيحل بي - كيف جرؤت على أخذ فأس وتلطيخ نفسي بالدم ؟ لقد أردت معرفة ذلك مسبقاً ! إيه ! لكنني كنت أعرفه من قبل ».

كان أحياناً يتوقف طويلاً أمام فكرة طارئة ويقول :

إن هؤلاء الناس لم يُصنعوا هكذا . إن « السيد » الحقيقي الذي يسمح له بكل شيء يضرب (طولون) بالمدافع وينظم مذبحة في باريس «وينسى» جيشاً كاملاً في مصر و « ينفق » نصف مليون رجل في معركة موسكو ثم ينسحب من الميدان بلغز في « فيلنا » إن « هذا » عند موته تقام له التماثيل وكل شيء إذاً

مسموح له . كلا إن هؤلاء الرجال ليسوا من لحم ودم بل إنهم من « البرونز ».

وجاءت فكرة أخرى على هامش هذه المسألة كادت أن تضحكه :

« نابليون ، الاهرامات ، واترلو ، وعجوز قذرة فانية أرملةمسجل كلية مرابية كريهة ، صندوقها مغلف بالجلد الأحمر وموضوع تحت السرير ! كيف يمكن أن يبتلع المرء هذا ؟ حتى ولو كان بورفير بيتروفيتش ؟ كيف سيهضمه؟ إن الذوق السليم ليعترض عليه . فهل كان نابليون ليزحف تحت سرير امرأة عجوز ؟ هيا اصمت أيها القذر ! »

كان يشعر تارة أنه فريسة هذيان فأصبح تحت تأثير رعب محموم :

« لنفرض أن العجوز كانت ضحية خطيئة فان المسألة ليست هنا إذ أنهـا لم تكن إلا لوناً من التشويش ، ولقد أردت أن أجتاز «العائق» بسرعة إنه ليس مخلوقاً بشرياً ذلك الذي قتلته . بل هو المبدأ ، المبدأ ، ولقد قتلته كما يجب أماعن المرور فوقه فانني لم أستطيع . نعم لقد لبثت عاجزاً عن المرور وكل ما استطعت عمله هو القتل وحتى هذا فانني لم أحسن عمله كما يبدو !

المبـدأ ؟ لمَ أهان رازوميخين السخيف الاشتراكيين منذ برهة ؟ إنهم رجال أعمال نشيطون . إنهم يهدفون إلى « السعادة العالمية » ... كلا . كلا . لقد أعطيت لي الحياة مرة واحدة ولا أريد أن أنظر تلك « السعادة العالمية » أريد أن أعيش بنفسي وإلا فان من الأفضـل ألا أعيش . ماذا بعد ؟ كل مافي الأمر أنى لم أرغب في أن أمر أمام أمٍ متلهفة مشوقة قابضاً على روبلي في جيبي بانتظار « السعادة العالمية » إنهم يقولون إنني أحمل حجري للمساهمة في بنـاء تلك السعادة وذلك كاف لأحصل على هدوء القلب » .

ها ها ! لم إذاً نسيتوني ؟ ليس لي الا حياة واحـدة أريد أن أعيشها أنا الآخر ؟ ... ثم انفجر ضاحكاً وقال : لست إلا هواماً في دنيا الجمـال الخلقي .

نعم هواماً ! وعاد يضحك ضحكته المخبولة وبدت له الفكرة جميلة . متمسك بها بسرور حتى يمحصها ويتسلى باستعراضها على مختلف زواياها ويخاطب نفسه قائلاً :

لو أنني ناقشت الموضوع أولاً على اعتباري مثالة فقط او هوام ، ثم لأنني ثانياً: أزعجت « القدرة » خـــلال شهر كامل وأنا أشهدها بأنه لن يكون ما قررت الأخذ به من أجل الجسد أو اللذة والسرور بل إنه في سبيل هدف جميل فتان..

ها ها ! وفي المرحلة الثالثة على اعتبار أنني وضعت لنفسي مبـــدأ التنفيذ بأدق ما يمكن من العدالة ملاحظاً في تنفيذ عملي الوزن والمقياس والرياضيات: فانني انتقيت من كل موبقات العالم اكثرها ضرراً ولما قتلته كنت مقرراً في نفسي أن آخذ منه ما يلزمني للقيام بخطواتي الاولى لا اكثر ولا أقل . (والباقي كان سيذهب الى الدير طبقاً لمـــا ورد في وصيتها ! ها ها !) نعم نعم . . . إنني لست اكثر من هوام !

وصرف على أسنانه واضاف :

ــ ذلك لأنني قد أكون شيئاً أحقر وابشع من ذلك ولأنني من قبل كنت اشعر بأنني سأقول ذلك لنفسي عندما أقتلها . فهل هناك شيء يمكن أن يقارن بهذا الرعب ؟ آه يا للدناءة ويا للنذالة ! آه ... آه ... كم أفهم « النبي » المتطي حصاناً الذي يهز بيده سيفاً ! الله يريد فاستسلم وأطع أيها المخلوق « الرعديد » ! إنه على حق ! إنه على حق هو ــ النبي ــ عندما يكون تحت امرته في مكان ما من الشارع « بطارية » مدفعيه ممتازة تضرب الشرير والطيب دون أن يتنازل بابداء تفسير ! أطع أيها المخلوق الرعديد واحترس من أن « تريد » لأن الارادة ليست من عملك! آه لن أغفر ابداً أبداً لتلك العجوز اللعينة ! » .

أخضل شعره بالعرق وارتجفت شفتاه وفارقها رواؤهما ! وشخص ببصره الى الجامد الى السقف ! واردف :

« كم كنت أحب امي وأختي فكيف حدث أن رحت أكرهها الآن ؟ نعم ! إنني اكرهها حسياً ولا أستطيع احتمالها قريبتين مني ! منذ حين اقتربت من امي وعانقتها ... إنني أذكر ذلك . كنت أعانقها وافكر في موقفها لو كانت تعلم ... ! هل أستطيع أن أروي لها الأمر ؛ ؟ سيكون عملاً طيباً مني ... هم ! ينبغي أن تكون مثلي تماماً ... »

ثم استجمع أفكاره بمجهود جبار كما لو كان يناضل للتخلص من الهذيان الذي كان يدهمه واضاف :

« العجوز ! اعتقد أنني سأقتلها مرة اخرى إذا عادت ! مسكينة اليزابيت ! لم وجدت هناك ؟ غريب ! اني لا اكاد أذكرها كما لو أنني لم اقتلها ! اليزابيت ! سونيا ! ايتها الفتيات المسكينات المتواضعات الوداعات ذوات العيون الطافحة بالطيبة والنبل . ايتها المخلوقات الغريزة ! لماذا لايبكين ؟ لم لايشتكين ؟ انهن يجردن أنفسهن من كل شيء وينظرن بهدوء وعذوبة ! سونيا . . . سونيا . . . سونيا الهادئة ! » وفقد الذاكرة !

وبدا له غريباً ان لايذكر كيف وجد نفسه في الشارع . كان المساء قد حل وتقدم شوطاً ... وتكاثف الظلام والقمر يلتمع بنور يزداد قوة ! لكن الجو كان خانقاً بشكل ملحوظ وكانت جماعة من الناس تسير في الشارع والعمال المتعبون المكدودون عائدين الى دورهم أماالآخرون فكانوا يتنزهون ! وكانت هناك رائحة كلس وغبار وماء آسن . وكان راسكولنيكوف يسير حزيناً مشغول الفكر وهو يتذكر أنه خرج من البيت لغاية ما وان عليه أن يقوم بعمل عاجل لكنه نسي طبيعة ذلك العمل .

وفجأة توقف عن السير اذ رآى في الجانب الآخر من الشارع رجلاً على الرصيف يشير اليه بيده ! فاجتاز الطريق ليبلغ اليه لكن الرجل استدار فجأة

وعاد يمشي كما لو أنه لم يكن مشغولاً بشيء . كان مطرق الرأس لاينظر وراءه ، ولايبدو عليه أنه نادى راسكولنيكوف. وتساءل راسكولنيكوف قائلاً : « لكن ماذا ؟ لقد ناداني ! » وراح يتعقبه ! فلم يقطع عشر خطوات حتى عرفه ! كان وهو الرجل القصير الذي تحدث معه منذ حين وكان يرتدي ثيابه تلك ويبدو محدودباً كما رآه اول مرة !

تبعه راسكولنيكوف عن بعد وقد ازدادت ضربات قلبه وسلكا شارعاً جانبياً دون ان يلتفت الرجل نحوه ! فتساءل راسكولنيكوف قائلاً : « ترى هل يعرف إنني على آثاره ؟ » وفجأة اجتاز الرجل مدخلاً عمومياً يؤدي الى بناء كبير . فاتجه راسكولنيكوف بسرعة نحو المدخل وراح يمعن النظر . فهل كان ذلك الرجل ينظر اليه وهل كان يناديه لاشك لأنه عندما تقدمه في الدخول التفت نحوه واشار له بيده . فتبعه راسكو لنيكوف على الفور لكنه لم يجده حيث كان ! كان قد اختفى ! قدر راسكو لنيكوف انه لاشك ولج اقرب مدخل الى حيث كان يقف . وكان هناك سلم قريب يقع الى اليمين فاندفع راسكولنيكوف صاعداً وما ان ارتقى طبقتين حتى كان صوت الخطوات البطيئة المتزنة يصل الى اذنيه بوضوح .والغريب في الأمر ان ذلك السلم لم يبد غريباً في عينيه . هذه نافذة الطبقة الاولى . كان ضوء القمر يتسلل خلالها حزيناً غامضاً... وهذه الطبقة الثانية من البناء ... هه ! هذا هو المسكن الذي كان العاملان يشتغلان فيه ! كيف لم يتعرف على المنزل قبل أن يدخله ؟

كانت خطوات الرجل قد خفتت في تلك اللحظة فقدر راسكولنيكوف أنه توقف واختبأ في مكان ما وسرعان ما ارتقي السلم وثباً الى الطبقة الثانية . وراح يسأل نفسه عما اذا كان يجب أن يتابع الصعود ! ... يا للسكون المخيف ! وعاد الى السلم يرتقيه !

اصبح وقع خطواته الشخصية يخيفه ويرهبه ! فهتف :

ــ رباه ما أشد الظلام ! ان الغريب ولاشك مختبيء في مكان ما ... في احدى الزوايا ! آه ان المسكن الذي يطل على السلم مفتوح الباب !

فكر قليلاً ثم دخل ! كان المدخل معتماً جداً وخالياً لااحد فيه حتى وكأن المسكن كان خالياً . فسار على أطراف قدميه متجنباً اصدار أي صوت ودخل « الصالون » فاذا بضوء القمر يغمره وينيره بشدة . كان كل شيء كما عهده من قبل ، المقاعد والمرآة والديوان اصغر والصور في اطاراتها ! وكان القمر كبيراً ذا لون احمر كالنحاس يطل بنوره القوي من النافذة ! فكر راسكولنيكوف « بان هذا السكون مبعثه القمر لأنه ـ أي القمر ـ كان يحاول حل بعض المعميات » !

توقف برهة وانتظر طويلاً وكان قلبه يزداد اضطراباً كلما ازداد القمر هدوء حتي انه شعر بالم جسماني من تأثير وجيب قلبه المرتفع . وكان السكون يخيم ابداً . . وفجأة تناهت الى سمعه قرقعة جافة كما لو ان بعضهم قد وطأ غصناً جافاً ثم عاد السكون من جديد ! بينما دندنت ذبابة مذعورة وراحت تحوم حتي اصطدمت بزجاج النافذة وهي تطن طنيناً اليماً ،وفي تلك اللحظة ، شاهد في الزاوية بين الخزانة الصغيرة والنافذة ، شيئاً يشبه معطفاً نسائياً كان معلقاً الى الجدار . فراح يفكر قائلاً :

ــ لماذا بقي هذا المعطف هنا ؟ انه لم يكن في هذا المكان من قبل !

واقترب بهدوء وقد خمن ان بعضهم مختبأ وراءه . وفي حذر بالغ ، ازاح بيده المعطف فرأى وراءه مقعداً وعلى ذلك المقعد في الزاوية تماماً جلست العجوز منطوية على نفسها منخفضة الرأس لدرجة لم يتمكن معها من تمييز وجهها . مع فقد تأكد بأنها هي هي ! وهتف يناجي نفسه قائلاً :

ـــ انها خائفة !

وبهدوء زائد خلص فأسه من الانشوطه التي ربطها بهـا ثم ضرب العجوز بالفأس على جمجمتها ضربة وكررها ثانية ! لكنها ـ ولشديد استغرابه ـ لم تترنح تحت قوة الضربتين . فانحنى عليها يفحصها عن قرب لكنها أحنت رأسهـا أكثر فأكثر وبعد ذلك انطوت حتى وصل رأسها الى الأرض ونظرت اليه من قدميه الى رأسه ونظر هو بدوره اليها ثم تسمر في مكانه !

كانت العجوز جالسة على كرسيها تضحك ! كانت تتلوى بضحكة مكتومة تسعى بكل جهدها الى أخفائها حتى لا يسمعها . وفجأة خيل اليه أن باب غرفـة النوم قد فتح وان هناك وراءه من يضحك ساخراً منه ويهمس ! فامتلكه غضب جامح وراح ينهال على العجوز ضربـاً بكل قوته ولكن الضحكات والهمسـات كانت تزداد كلما انهال ضرباً بالفأس حتى غدت مسموعة واضحة . وكانت العجوز خلال ذلك تضحك ملء فمهـا ! فاراد أن يفر لكن مدخل المسكن كان قـــد أصبح مزدحماً بالناس بينما كان الباب المؤدي الى السلم مفتوحـــاً على مصراعيه وكان الممشى ودرجات السلم كلها مزدحمة بالاشخاص أيضاً فلم يكن يرى منهم إلا رؤوساً متقاربة ! وكانوا جميعاً ينظرون ولكنهم كانوا يحـــاولون الاحتجـاب وينتظرون صامتين !.. فانقبض قلبه ورفضت ساقاه الحركة وكأنها قـد اتخذتـا جذوراً في الارض فاراد الصراخ و ... استيقظ !

استرد انفـــاسه بصعوبة وبدا له ـــ لشديد استغرابه ـــ إن الحلم لا يزال مستمراً فقد كان باب غرفته مفتوحاً وعلى العتبة وقف رجل لم يكن قـــد رآه أو عرفه من قبل وكان الرجل ينظر اليه نظرة ثانية . فلم يكد راسكولنيكوف يفتح عينيه قليلاً حتى عاد واغمضها . كان مستلقياً على قفـاه دون حراك . فراح يتساءل ! « أهو الحلم الذي لا زال مستمراً أم ماذا ؟ » وعاد من جـديد يختلس

نظرة خلال أهدابه .

كان الغريب لا يزال واقفاً في مكانه يرقبه . وفجأة اجتاز عتبة الحجرة باحتراس وأغلق الباب وراءه بعناية ثم اقترب من المائدة وانتظر دقيقة دون أن يفارقه بنظره وأخيراً جلس بهدوء على مقعد بالقرب من « السرير » ووضع قبعته الى جانبه واتكأ بيديه الاثنتين على مقبض عصاه وترك ذقنه ترتكز على يديه. كان يبدو عليه استعداده للانتظار الطويل فراح راسكولنيكوف يرقبه خلسة بقدر ما سمحت له الظروف بالمراقبة . كان الرجل مسناً قوي البنيان ذا لحية كثيفة شقراء أقرب الى البياض .

انقضت عشر دقائق وكان ضوء النهار لا يزال يضيء الحجرة غير أن المساء كان يقترب مسرعاً . وكان السكوت المطبق يخيم على الغرفة فلا حركة على السلم ولا في أي مكان اللهم الا طنين ذبابة كبيرة كانت ترتطم بزجاج النافذة أثناء طيرانها . فلم يستطع راسكولنيكوف احتمال هذا الموقف أكثر مما احتمل. لذلك فقد نهض فجأة وجلس في مكانه على الديوان وقال :

— حسناً ! تكلم ! ماذا تريد ؟

فاجاب الغريب بلهجة مضحكة وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة وديعة وقال :

— لعمري لقد كنت متأكداً من أنك غير نائم واثقاً من انك تخاتلني فحسب اسمح لي أن أقدم نفسي اليك : اركاد إيفانوفيتش سفيدريكايلوف !

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

تقدم في :

المؤلفات الكاملة

للكاتب العالمي الكبير

مكسيم جوركي

قصته الخالدة

في طلب قوتي



حلقة من ذكريات الاديب العالمي الكبير عن حياته

- قصة صراع بين الخير والشر في نفس خيرة تطمح الى السعادة .
- مرآة صادقة لمخلوقات حية من لحم ودم .
- حياة ولد يطمح الي المعرفة ، فيقيم الناس في وجهه العراقيل .

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

تنقل الى اللغة العربية

أثراً عظيما من روائع الاديب الانساني الفرنسي الكبير

هنري باربوس

الكاتب الذي يسيل نثره شعراً رقيقاً وموسيقى عذبة وصوراً فاتنة

في

يســـــوع

- مؤلف يرمي الى المعلم الأكبر من وجهة نظر جديدة .
- كتاب سيجد فيه كل انسان ، مهما تكن عقائده ، مادة للتفكير ، وناراً تلهب عواطفه .
- أثر سيحتل مكانة رفيعة في المكتبة العربية ويكون لها ثروة كبيرة .



نيقولاس جوجول

النفوس الميتة

- قصة الانسان الروسي في العهد القيصري .
- قصة المجتمع الروسي المتفسخ قبل الثورة البروليتاريه
- شخصيات نموذجية عن الاقطاع المتوحش .
- صورة صادقة عن الشعب الذي تمرد وحطم الاغلال .

مع دراسة كافية للقصة عند جوجول وتحليل طريقته في نقده الساخر للمجتمع الاقطاعي في عهد القيصرية

تقدمه :

دار اليقظة العربية بدمشق

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

تقدم :

من روائع الانتاج الفكري الالماني المعاصر :

جندي الرايخ

للكاتب الالماني المعاصر :

اودون دي هورفاث

ليس بهذا الكتاب حاجة إلى تقريظ ، إنه يعرف كيف يذود عن نفسه بنفسه »
الناقد بيرهال — في مقدمة الكتاب

— « جندي الرايخ » خير كتاب يُهدى الى الامم العربية المناضلة ،النازعة الى قمة تتسنمها تحت الشمس !

— فهو نبراس تستنير به كل أمة تواقة إلى المجد نزاعة الى الغلبة والسؤدد .

— صفحات رائعات تصور رسالة الجندية المثلى ومفاهيم الوطنية الخالصة .

— « جندي الرايخ » مثل أعلى للتفاني والتضحية في سبيل الوطن .

— كتاب يمثل روح العصر الحديث ، في شكوكه واضطرابه وتخبطه بين الواقع والاوهام .

— « جندي الرايخ » سجل خالد للوطنية الالمانية المثالية .

دار اليقظة العربية
للتأليف والترجمة والنشر

تقدم كتاب آخر من تأليف

جي ده موبسان

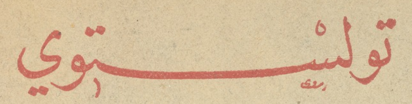
في قطعته العالمية الخالدة



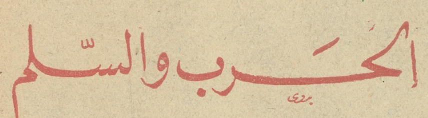
نفسية الشباب في اعقد مشاكلها واعنف ثورات غرائزها
ونزوات عواطفها
صورة الحب المثالية التي حملها قلب شاب فعصفت به
زعازع الحياة فصوحت واحة آماله وانهارت صروح
أمانيه وتبعثرت رغائبه في مهب كل ريح
مع مقدمة وافية عن المؤلف وادبه

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

تفخر بأن تقدم قريباً الى قراء العالم العربي أكبر الروائيين قاطبة



في أعظم مؤلف عرفه الأدب العالمي في مختلف العصور

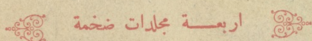


ألياذة العصور الحديثة ، كتبتها عبقرية ملحمية جبارة
تسمو لعبقرية هوميروس الخالدة

قصة الصراع بين الحق والقوة . . .

قصة الفاتح بونابرت الذي خرج من جزيرته الصغيرة
كي يجتاح العالم ويسيطر عليه . . . . .

قصة الشعب الذي أنزل به الهزيمة الأولى ،
وردّه على أعقابه خاسراً مدحوراً . . . .



من الورق الابيض الصقيل تقع كل منها زهاء سبعمائة صفحة من القطع الكب
مزينة بمجموعة كبيرة من الصور التي رسمت خصيصاً لهذه الطبعة العربية

— ترجمة كاملة غير منقوصة —

---

* كتاب قيم يجب ألاّ تخلو منه مكتبة *